

اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي

إعداد
كفاح وليد إبراهيم محمد

المشرف
الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

أيار، 2007

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة / الأطروحة (اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي)
وأجيزت بتاريخ 23 / 4 / 2007.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

- الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، مشرفاً
أستاذ الأدب الفاطمي والأيوبي والمملوكي
- الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار ، عضواً
أستاذ – الأدب الأندلسي والمغربي
- الدكتور ياسين يوسف عايش ، عضواً
أستاذ مشارك – الأدب العباسي
- الدكتور محمود أبو الخير ، عضواً
أستاذ – الأدب العباسي (الجامعة الهاشمية)

الإهداء

اعترافاً مني بالجميل، وإعطاء كل ذي حق حقه، يسعدني أن أهدي جهدي كله في أطروحتي للدكتوراه الموسومة بـ "اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي"، إلى روح والدي الحبيب الجليل الذي كتب علي أن أفقده في لحظاتي الحرجة "وليد إبراهيم محمد"، الذي كان له الفضل الأوفى في وضع قدمي على درب حياتي الجادة المكافحة، لتلتقط الراية - من بعد - هذه الأم المجاهدة الصابرة الوفية التي لم تأل جهداً في توفير أقصى الرعاية والدعم والتشجيع، آخذة بيدي إلى الأمام.

وإني لا أنسى تضامناً شقيقتي جميعاً في مؤازرتي، وبذلهن الطاقة كلها في تذليل عقبات الطريق، وإتاحة الظروف الملائمة لي مادياً ومعنوياً، مستأذنة أن أخص بالذكر - من غير إيثار - الشقيقتين: "عبير" في سفحها العرق الغالي في غربتها الصعبة، ليكون لي نصيب غير قليل منه، و"مروة" في سعيها الدائب المضني لتيسير مهام الحياة، التي ألفتني أخوض غمارها بأدواتي القاصرة.

وإني لأجد لزاماً علي أن أسدي الشكر للسيد صديق الوالد "أحمد رشاد العتيلي"، الذي ما انفكّ يؤثّرني، في مسيرتي العلمية الجاهدة، بالتقويم والتوجيه اللذين أفدت منهما ما استطعت. ثم إن اعتذاري واجب علي لكل من كان له فضل كريم عليّ، ولم تسعفني الكلمات على الإشادة بما فعلوا من خير لي بالتسمية والتخصيص.. غير أن لهم عليّ - شاكراً ومقدراً - أن لن أنسى ما لهم عليّ من حق.

والله - أولاً وأخيراً - الفضل والمنة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا بنوره المبين ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴿. وصلى الله وسلم على النبي الأمي المصطفى لهداية الناس أجمعين، الذي أنصف العلماء رعاة العلم وأهله، بتوجيهه الكريم "العلماء ورثة الأنبياء" ..وفي الأثر: "اطلبوا العلم ...". أما بعد:

فلقد أسعدني أني مثلت بين يدي أساتذتي الأجلاء في لجنة مناقشة أطروحتي هذه للدكتوراه، وهم السادة الفضلاء:

1- الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي. رئيساً ومشرفاً.

2- الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار. عضواً.

3- الدكتور ياسين يوسف عايش. عضواً.

4- الدكتور محمود أبو الخير. عضواً.

مقدرة لهم جميعاً ما عانوا من أجلي، وأجل العلم، في الدرس والتمحيص والتوجيه، في المناقشة شكلاً ومضموناً، وما بذلوا من بالغ الجهد في إنارة دربي، ووضع يدي على عثراتي وهناتي، وإرشادي إلى كل ما فيه خيري وخير العلم، واعدة أن أضع ملاحظاتهم القيمة نصب عيني، وأن أستبدل بالخطأ الصواب، وموضحة بالامثال للتوجيهات ما عُمي عليّ وغمّ، لئلّضي الأطروحة أقرب إلى السواء والحق والرضا.

وإن من حق أساذي المشرف على الأطروحة الأستاذ الدكتور "عبد الجليل عبد المهدي" عليّ، أن أنوه -ممتنة- بما أبداه من غيرّة غير منكورة على العلم، الذي جهدت في إثباته بين الدفتين، مجتهدة -كطالبة علم- أن يكون أدنى إلى الواقع، شاكراً لسيادته عناه وصبره عليّ في استيضاحاتي واستفساراتي، على مدى عمر الإعداد والدرس. خاتمة بالوعد الصادق -بعون الله تعالى- بالالتزام بما يُملّي الحق عليّ من الصدق والجد والوفاء ونشدان الحقيقة.

﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم

أجراً﴾

هـ
فهرس المحتويات

ب	1. قرار لجنة المناقشة	
ج	2. الإهداء	
د	3. شكر وتقدير	
هـ-ز	4. فهرس المحتويات	
ح	5. الملخص بالعربية	
ط	6. التفويض	
5-1	7. المقدمة	
27-6	7. الفصل الأول: ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي	
7	- محتويات الفصل الأول	
9-8	- ديوان الإنشاء: تطوره وأهميته	
12-9	- ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي	
14-12	- مكانة صاحب ديوان الإنشاء	
18-15	- وظائف ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي	
21-18	- ثقافة كاتب ديوان الإنشاء	
27-21	- كتب في صناعة الإنشاء وما يتصل بها	
82-28	8. الفصل الثاني: الاتجاه السياسي	
29	- محتويات الفصل الثاني	
67-30	أولا رسائل الجهاد	
33-30	- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والجهاد	
38-33	- الاستتجاد	
39-38	- التهديد	
46-39	- البشارات	
51-46	- صورة المعركة	
48-46	أ المعركة البرية	
51-48	ب المعركة البحرية	
56-51	- صورة البطل المسلم	
58-56	- صورة الفرنج	
62-59	- وصف الحصون والقلاع	
64-62	- وصف الأسلحة وأساليب القتال	
67-64	- العلاقات السلمية	
65-64	أ المجاملات	
67-65	ب المهادنات	
82-67	ثانياً المخاطبات الإعلامية	
72-68	- المنشورات	
73-72	- التقاليدات	
76-73	- التوقيعات	
78-77	- التذاكر	
81-78	- الإخباريات	
82-81	- كتب الأمان	

113-83	الفصل الثالث: الاتجاه الاجتماعي	9.
84	محتويات الفصل الثالث	-
89-85	عناصر السكان	-
91-89	صورة المرأة	-
95-91	ظروف المعيشة والتكافل الاجتماعي	-
99-95	عادات وتقاليد	-
101-99	وسائل التسلية والترفيه	-
103-101	النقد الاجتماعي	-
106-104	تيارات مذهبية	-
109-106	الثقافة والتعليم	-
111-109	القضاء	-
113-111	الجانب الاقتصادي	-
152-114	الفصل الرابع: الاتجاه الوجداني	10.
115	محتويات الفصل الرابع	-
121-117	التهاني	-
127-122	التعازي	-
129-127	الشوق والحنين	-
130-129	العتاب	-
134-130	الشكوى	-
136-134	الاستعطاف	-
138-136	الاعتذار	-
142-138	الشكر	-
145-142	التهادي	-
150-145	الشفاعات	-
152-150	العيادات	-
194-153	الفصل الخامس: الاتجاه الأدبي والنقدي	11.
154	محتويات الفصل الخامس	-
175-157	أغراض تقليدية	أولاً
159-157	المدح	-
165-159	الهجاء	-
166-165	الرثاء	-
168-167	الفخر	-
175-168	الوصف	-
184-175	أغراض محدثة	ثانياً
178-175	الطرديات	-
179-178	الخمريات	-
181-179	المفاضلات	-
184-181	المفاخرات	-
194-184	رسائل نقديه	ثالثاً
274-195	الفصل السادس: البناء الفني للرسائل	12.
196	محتويات الفصل السادس	-

208-197	بناء الرسالة	-	
ز			
237-208	الأسلوب واللغة	-	
247-237	الصنعة الفنية	-	
258-247	الصورة الفنية	-	
268-258	الموسيقى في الرسائل	-	
274-268	نماذج تحليلية	-	
277-275	الخاتمة	-	
286-278	الفهارس العامة	-	
280-279	فهرس الآيات القرآنية	-	
280	فهرس الأحاديث النبوية	-	
282-281	فهرس الأبيات الشعرية	-	
282	فهرس الأمثال	-	
284-283	فهرس الأعلام	-	
285-284	فهرس المصطلحات	-	
285	فهرس الألفاظ المعربة والعامية	-	
286	فهرس الأماكن	-	
299-287	ثبت المصادر والمراجع	-	
300	ملخص باللغة الإنجليزية	-	

اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي

إعداد

كفاح وليد إبراهيم محمد

المشرف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي

الملخص

هذه دراسة أدبية، تتناول اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي، في الفترة الممتدة ما بين (567-648) هـ. وقد عبر فن الرسالة في هذا العصر عن التطور الذي طرأ عليه. وسعت الدراسة سعيًا جادًا إلى بناء صورة واضحة عن أهم ملامحه، واتجاهاته، كما أظهرت قدرة الرسائل على التعبير عن المواقف المختلفة، ففي الجانب السياسي، صورت الصراع الدائر بين المسلمين والفرنج في حالتي السلم والحرب؛ كما أبانت الدراسة بعض المخاطبات الإعلامية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء إلى سائر أصقاع الدولة. وفي الجانب الاجتماعي، عبرت الرسائل عن حياة الناس، وظروفهم، والآثار التي تركتها الأحداث الكبرى في نفوسهم. وفي الجانب الوجداني كشفت الدراسة عن أبرز وجوه العلاقات الذاتية، والصلات الإنسانية في حياة الأفراد.

وقد سلطت الضوء على أغراض الاتجاه الأدبي بجوانبه الثلاثة: التقليدية، والمتطورة، والرسائل النقدية.

وكان علي أن أركز على البنية الفنية للرسائل من بناء وسمات أسلوبية، وصور فنية. لإبراز طاقات اللغة الإيقاعية، مما أكسب الرسائل نغمات موسيقية رائعة، نابضة بالإحساس، معبرة عن مشاعرهم، وخواطرهم، مصورة عواطفهم أصدق تصوير. تحاول هذه الدراسة الإحاطة بهذه الظاهرة الفنية من جميع جوانبها، ورصد أسبابها وأغراضها، بحيث تظهر في إطار الظروف الخاصة بهذا العصر، معتمدة على مناهج التحليل المختلفة حسبما تقتضيه طبيعة الموضوع.

الجامعة الأردنية

نموذج التفويض

أنا كفاح وليد إبراهيم محمد ، أفوض الجامعة الأردنية بتزويد نسخ من رسالتي /
أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

التوقيع :

التاريخ :

**The University of Jordan
Authorization Form**

I, **Kefah Waleed Ibraheem Mohammad**, authorize the University of Jordan to supply copies of my Thesis / Dissertation to libraries or establishments or individuals on request.

Signature:

Date:

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا مباركا، والصلاة والسلام على أصفى خلقه، وسيد رسله، وخاتم أنبيائه محمد بن عبد الله أشرف العرب والعجم، وخير من يمشي على قدم، أزكى صلاة معبودة بعيق المسك، من طيبها أرج الرضوان ينتشر.

وبعد، فقد شهدت الرسائل الفنية في العصر الأيوبي تطورا نسبيا، كما أصابت حظا لافتا من الاهتمام، وقد تبدى هذا بوضوح في تعدد اتجاهات هذا الفن، وتنوع مضامينه.

ولا شك في أن عوامل متعددة غدت هذا التطور حتى وصل إلى مرتبة من الرقي البادي على ملامح الصورة التي يراها الدارسون لهذا العصر، في رسائل مشاهير الكتاب من أمثال الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير، والوهراني، وابن سناء الملك، وغيرهم.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية اتجاهات الرسائل الفنية في هذا العصر، إذ تُعد الرسائل من أهم فنون النثر في العصر الأيوبي منزلة، وتنوعا، لا سيما في المدة الممتدة ما بين (567-648هـ) فهي ترصد أحداث العصر، ومدى التطور الذي أصابها، ومدى التأثير الذي توافر لهذا الفن، آنذاك.

وأما الفضل في فكرة بحثي هذا، فيعود لأستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، إذ كان أثناء إعدادي لنيل درجة الدكتوراه، ومن خلال مبحث "القدس في الأدب العربي"، يكلفنا كتابة تقارير متنوعة عن أدب هذا العصر، وتحديدًا فن الرسالة، ويغرينا بالبحث عن أعلام الكتاب في هذا العصر من أمثال الفاضل، والعماد الأصفهاني، والوهراني، وابن الأثير، وغيرهم.

ولما فكرت في إعداد رسالة أقدم بها لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، كان فن الرسائل في هذا العصر أول ما تبادر إلى ذهني، نظرا لغزارة الإنتاج الأدبي، ممثلا بهذا الفن، فشرعت في استقصائها من مظانها المختلفة: المطبوعة، والمخطوطة، وجمعت ما تثار منها في كتب التاريخ، والأدب، والتراجم، وإذا بي أمام إنتاج أدبي غزير متنوع، ومتعدد المضامين، والاتجاهات، لم يطلع الكثيرون إلا على جزء منه.

ولعل اللافت حقا ألا يحظى هذا العصر -على أهميته- بدراسة تحليلية وافية، تتناول فن الرسائل في هذا العصر في تلك الفترة، تتاولا يلتزم أصول البحث العلمي إلا ما كان من بعض ذوي الاختصاص.

وتكاد معظم الدراسات السابقة لهذا الموضوع تنحصر في مجموعة من الاتجاهات، أهمها:

1- اتجاه اعتنى بدراسة رسائل معينة؛ نظرا لأهميتها شكلا، ومضمونا، ومن تلك الدراسات: دراسة الدكتور عبد الجليل عبد المهدي في كتابه "بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية"، حيث أفرد فصلا عن فن الرسالة، وتحديدًا الرسالة القدسية ثم أتبعه بتحليل مفصل لبنية الرسالة القدسية عند الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير. ودراسة الدكتور عمر الساريسي في كتابه "نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية" حيث أفرد تحليلا لرسالة الفاضل القدسية إلى الديوان العزيز ببغداد.

2- اتجاه وجه عنايته إلى تناول رسائل كاتب من كتاب هذا العصر، دون النظرة العامة لهذا الجنس الأدبي، وما أصابه من تطور، ومن أبرز الدراسات التي سارت في هذا الاتجاه: دراسة الدكتور عبد

2

الرحيم بخيت ماضي الشهاب، في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه "العماد الأصفهاني الأديب" فقد أفرد فصلين، تحدث في الأول عن رسائل العماد الجهادية، والإخوانية، والآخر عن البناء الفني لرسائل العماد، ودراسة الدكتور محمد عبد الرحمن عطا الله في كتابه "رسائل القاضي الفاضل - دراسة تحليلية"، فقد تناول الباحث في دراسته رسائل الفاضل الديوانية، والإخوانية، والأدبية، والنقدية، وأتبعها بتحليل مفصل لبنية الرسالة الفاضلية. ومنها دراسة راسم خليل عرفة "ابن الأثير كاتباً" في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، حيث أفرد فصلاً تحدث فيه عن النثر الديواني، ومنها: كتب التقليدات، والتوقيعات، والمنشورات، وكتب البشري والفتوح، وتحدث عن النثر الوجداني، والأدبي بشكل موجز.

3- قدم بعض الباحثين صورة موجزة عن الموضوع ضمن دراسة هؤلاء الدارسين لأدب هذا العصر في سياق البحث العام في ألوان النثر الأيوبي، ومن أبرز الدراسات التي سارت في هذا الاتجاه: دراسة الدكتور شوقي ضيف في كتابيه "عصر الدول والإمارات: مصر" و "عصر الدول والإمارات - الشام"، ودراسة الدكتور أحمد بدوي في كتابه "الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام" عن النثر الديواني، والإخواني، ودراسة الدكتور مصطفى محمود زايد عن الرسائل الديوانية والأدبية في كتابه "النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية".

وبعد هذا كله، تبين للباحثة أن هذه الدراسات تناولت الموضوع هنا وهناك، ولم يكن تناولها شاملاً لفن الرسالة دون غيره، مما يسوغ للباحثة أن تقيم دراسة علمية حول هذا الموضوع تتناول مضامينه، وآفاقه، وتبين أهم ملامحه، وخصائصه الفنية، مستفيدة من المناهج المختلفة حسبما تقتضيه طبيعة الدراسة، فهي تأخذ بالمنهج الاجتماعي في محاولة ربط هذا الفن بواقع الأحداث التي مر بها العصر، وبالمناهج التحليلية درست النص دراسة عميقة محاولة تبين الخصائص الفنية والأسلوبية، وهي تستند إلى المنهج النفسي عند الوقوف على آراء الكتاب، ومواقفهم المختلفة من قضايا العصر، وتبدو أهمية المنهج الوصفي في توصيف الظاهرة الفنية، وتنوع مضامينها واتجاهاتها، وتفيد الدراسة أخيراً من المنهج التاريخي للوقوف على مدى التطور الذي أصاب هذا الفن من ناحية، ومن ناحية أخرى للتأكد من حقيقة ما ورد في الرسائل عن أحداث العصر. وتتألف هذه المناهج جميعاً لتقديم صورة واضحة عن هذه الظاهرة في هذا العصر.

وقد انتظمت مادة هذه الدراسة في ستة فصول:

- تصدى أول هذه الفصول لدراسة ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي من حيث تطوره، وأهميته، ووظائفه، وتوقفت عند ثقافة كاتب ديوان الإنشاء، ثم تحدثت عن أهم المؤلفات التي ألقت في هذا العصر، عن صناعة الإنشاء: نظمها من كتابة، وإنشاء، وإدارة، ومراسيم، ومصطلحات، إلى العناية بالألقاب، والتتبع التاريخي لنشأتها.

وبسطت الحديث في الفصل الثاني عن الاتجاه السياسي، وقد انشعب الحديث في هذا الفصل إلى محورين أساسيين: أولهما: الرسائل الجهادية التي واكبت المعارك، والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج، وحاولت أن أبين دور الكتاب في التعبير عن آلام الأمة، وأفراحها من خلال وقوفي على الموضوعات التي تمثل

الرسائل الجهادية مثل: رسائل الدعوة إلى الجهاد، والوحدة، ورسائل الاستجداء، ورسائل التهديد، ورسائل البشارات، ورسم صورة المعركة بشقيها البري والبحري، وصورة البطل المسلم، وصورة الفرنج، ووصف

3

الحصون، ووصف الأسلحة، وأساليب القتال، ورسم صور العلاقات السلمية بين المسلمين والفرنج، مثل: المجاملات، والمعاهدات، والهدن.

وثانيهما: أشهر صور **المخاطبات الإعلامية** التي عبرت عنها الرسائل مثل: المنشورات، والنقلات، والتوقيعات، والتذاكر، والإخباريات، وكتب الأمان.

وتحررت في الفصل الثالث الحديث عن أهم **مظاهر المجتمع الأيوبي**، مثل: عناصر السكان، وظروف معيشته، وأنماط السلوك المختلفة، وما مارسه فئات من ذلك المجتمع من طرائق زهد أو تصرف، أو لهو ومجون، وعن عاداتهم، وتقاليدهم، وعن مظاهر الحياة الثقافية، والإدارية كالتعليم، والقضاء، ومظاهر الحياة الاقتصادية كتحويل السنين، وإطلاق المكوس، وحرية التجارة لرسم صورة واضحة لواقع العصر.

وجاء الفصل الرابع مفصلاً القول عن **الاتجاه الوجداني**، فقد تناولت المظاهر الاجتماعية التي عبرت عن عواطف الأفراد، وعلاقاتهم الوجدانية، وهذه المظاهر تمثلت في التهاني، التعازي، الشوق والحنين، والعتاب، والشكوى، والاستعطاف، والاعتذار، والشكر، والتهادي، والشفاعات، والعيادات.

وعقدت الفصل الخامس عن **الاتجاه الأدبي** وانشعب الحديث في هذا الفصل إلى ثلاثة محاور:

الأول: يتناول أغراضاً تقليدية، كانت حكرًا على الشعر العربي: كالمح، والثناء، والهجاء، والفخر.

أما المحور الثاني: فيتناول أغراضاً محدثة عبرت عنها الرسائل الأدبية كالطرديات، والخمريات، والمفاضلات والمفاخرات، والمحاورات.

والمحور الثالث: تناول "رسائل نقدية" كتبها القاضي الفاضل إلى ابن سناء الملك، وهي نظرات نقدية، وملاحظات جمعت رأي الفاضل في نتاج ابن سناء الملك الأدبي في الشعر، والنثر، والموشح.

وأما الفصل السادس، والأخير من هذه الدراسة، فقد خصصته لدراسة **الخصائص الفنية** للرسائل. وقد وقفت الباحثة في هذا الفصل على عدد من المحاور:

أولها: البناء الفني.

وثانيها: الأسلوب واللغة.

وثالثها: بروز الأسلوب المصنوع بروزاً واضحاً في رسائل هذا العصر، وقد وقفت عند المحسنات البديعية الأكثر وضوحاً في الرسالة كالسجع، والجناس، والطباق، والمقابلة، والتورية.

ورابعها: الصورة الفنية في الرسائل.

وخامسها: الموسيقى في الرسائل.

وسادسها: تحليل نموذجين من رسائل الكتاب؛ للوقوف على أهم الملامح الفنية للرسالة.

وأما الخاتمة، فقد أوجزت الحديث عن النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ولا بد لكي يعيش القارئ في رحاب هذه الدراسة - كما عشت - من أن أشير إلى ما أرفقت من فهراس عامة، تيسر عليه البحث، وتهديه إلى العناوين، وربتها كما يلي: الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، والأمثال، والأعلام، والمصطلحات، والأماكن الجغرافية، وثبت المصادر، والمراجع.

وقد استقيت مادة الدراسة من مصادر متنوعة، وفي مقدمتها:

المخطوطات، وقد بذلت جهداً مادياً، ومعنوياً للحصول على المخطوطات التي لم تتوفر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، وقد ساعدني في ذلك أحد الأقرباء، لدى سفره إلى مصر؛ كون ظروفه

4

الصحية الصعبة لا تسمح لي بحرية الحركة، وتمكن من جلب ثلاث مخطوطات للفاضل، وهي:

1- رسائل القاضي الفاضل الأدبية- غير معروف من قام بجمعها، وهي مرقمة بنظام الصفحات، وعددها خمس وثمانون صفحة، تخلو من المقدمات، ويلاحظ أن هذه المجموعة لم تكن خالصة لرسائل الفاضل، بل نرى من الصفحة الأولى حتى الصفحة الرابعة والستين، رسائل الفاضل قد اختلطت بغيرها من رسائل ابن المعتز، والصابي، والوهراني، وابن عبد الظاهر، وغيرهم.

2- المختار من إنشاء الفاضل، ومكتوب في أسفلها هذا الجزء المسمى "بالفاضل من إنشاء الفاضل" وهو المختار لجامعه الشيخ ابن نباته المصري. وترى ابن نباته يختار جزءاً من الرسالة قد يبلغ بضعة أسطر، وهو في اختياره يجمع بين الرسائل الديوانية، والرسائل الإخوانية.

3- الفاضل من كلام الفاضل لابن نباته المصري. وهي عبارة عن اختيارات لا تتعدى بضعة أسطر، ونادراً ما يصل الاختيار إلى ورقة أو نصف ورقة، وقد يكتفي من الرسالة بسجعة أو سجتين أو أكثر.

أما **المصادر المطبوعة**، فهي كثيرة، ومتنوعة، وتتمحور في عدة محاور منها: ما يتناول رسائل الكتاب في ذلك العصر، مثل "رسائل عن الحرب والسلام من ترسل الفاضل"، و "إنشاءات الفاضل"، و "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم"، و "منامات الوهراني ومقاماته ورسائله"، و "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية"، و "رسائل ابن الأثير" و "قصص الفصول وعقود العقول" وهي مجموعة من رسائل الفاضل كتبها إلى ابن سناء الملك، واهتم بجمعها ابن سناء الملك. وهي رسائل نقدية، وقد تم نشرها ضمن كتاب "البدیع لغة الموسيقى والزخرف" لمحمد الصاوي الجويني.

ومنها أيضاً مؤلفات العماد الأصفهاني، لا سيما كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" قسم شعراء مصر، وقسم شعراء الشام، ومنها كتاب "الفيح القسي في الفتح القدسي" ومنها "رسالة العتبى والعقبى" ضمن كتاب الروضتين.

ومن المصادر المطبوعة: رحلة ابن جبير، وهو من المصادر الأساسية التي اتكأت عليها في حديثي عن الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية التي كانت قائمة في هذا العصر.

وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق إبراهيم الزبيق، وأهمية هذا المصدر أنه حفظ الكثير من رسائل كتاب هذا العصر من أمثال الفاضل، والعماد الأصفهاني، ومنها "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندي، فقد حفظ هذا المصدر الكثير من رسائل الكتاب في هذا العصر، كما أنه تحدث عن صناعة الإنشاء، ووظائف ديوان الإنشاء، وأهميته في هذا العصر.

كما اشتملت مصادر الدراسة على مصادر تاريخية، وجغرافية، وتراجم طبقات، منها: "النوادر السلطانية" لابن شداد، و"مفرج الكروب" لابن واصل الحموي، و"زبدة الحلب من تاريخ حلب" لابن العديم، و"الأعلاق الخطيرة" لابن شداد، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي، و"شذرات الذهب" لابن العماد الحنبلي. واشتملت مصادر الدراسة على بعض كتب النقد الأدبي مثل: "البدیع في نقد الشعر" لأسامة ابن منقذ، و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير، و"العمدة" لابن رشيق القيرواني، بالإضافة إلى المراجع الحديثة، والمترجمة، والدوريات، ووقائع المؤتمرات.

إذا كنت قد أفردت فهارس ثبت المصادر والمراجع، فإني أجدني راغبة في التنويه بما كان لكتاب الله العزيز "القرآن الكريم" خاصة من دور حاسم في تعديل الكفة نحو الحق، كلما كان علي أن أرجح معنى ما للفظ ما

5

مما هو ذو صلة بالسياق القرآني الموحى، أو الأثر القابع في بطون التراث، والمتقل باللفظ الوعر، مشيدةً بحق لمعجم محمد فؤاد عبد الباقي "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، الذي طالما أثار طريقي إلى الآية المنشودة. ثم إنني أعترف بالفضل الوافر لكل من موسوعة العلامة ابن منظور الإفريقي المصري "لسان العرب"، و"كتاب سيبويه" الأشهر في النحو من تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ورديفه "النحو الوافي" للأستاذ السابق في كلية دار العلوم/ جامعة القاهرة عباس حسن، دون أن أغفل عن مؤلفات قيمة في مختلف علوم اللغة والنحو والأدب، صحبتني في مسيرتي، حتى وضعت يدي القلم لتعرج على جيبني تكفكف عنه بعضاً من نصب الفكر والجسم، قبل استئناف الخطى إلى حيث أرنو بأمل وإيمان بعون الله تعالى.

وقد واجهتني بعض الصعوبات التي كانت ناتجة عما يلي:

- صعوبة الحصول على بعض المصادر المخطوطة، الأمر الذي جعلني أبذل ما في وسعي من جهد للحصول على بعضها.

- تداخل أغراض الرسائل، وموضوعاتها، تداخلاً يربك الباحثة، ويعقد عملها.

- الظروف الصحية المزمنة التي أعاني منها، وعدم قدرتي على التنقل، والحركة من مكان لآخر، بالإضافة إلى الآلام المبرحة التي تلازمني مما يضطرني إلى أخذ المسكنات بشكل مستمر، ودوري، حتى أتمكن من مواصلة الكتابة والبحث.

- طول الفترة الزمنية التي استدعتها كتابة هذه الدراسة، والممتدة طيلة ثلاث سنوات ونيف، وذلك في بحث وتمحيص لكل ما وقع تحت يدي الباحثة من مخطوطات، ومراجع، ودراسات، وأبحاث، وكتب، كان بعضها في متناول اليد والآخر استلزم الجهد في إيجاده، واستحضاره من مصر، وسوريا، ولبنان.

وبعد: فهذا هو موضوع بحثي، وهذه هي الدوافع إليها. وإني لست أزعج الوصول إلى مرحلة الكمال في هذه الدراسة، فالكمال لله وحده، وحسبي أنني حاولت، واجتهدت، وتوكلت على الله، وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في إظهار اتجاهات الرسائل في هذا العصر، وأن يكون في هذه الدراسة ما يساعد الباحثين في الوقوف على ظواهر فنية أخرى لم تدرس بعد.

وإن كنا نعترف بالجميل، ونرد الفضل والعرفان إلى أهله، فإن الفضل لله أولاً ثم لأستاذي الكبير، ووالدي الحنون، الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، فقد تعلمت منه كيف أبحث، وكيف أتعامل مع التراث وكتبه أثناء تدريسه لي في سنوات الدكتوراه التحضيرية في الجامعة الأردنية. كما كان لمتابعته الحثيثة، ونصائحه الرشيدة، ومكتبته العامرة، وكتبه، وأبحاثه التي بحثت أدب هذه الفترة أكبر أثر في الباحثة والبحث، فقد فتحت أمامي أفقا علمية واسعة، ولفنت نظري إلى محاور كثيرة، كانت شاردة عن ذهني، فجزاه الله عني وعن العلم كل الخير، إنه سميع مجيب الدعاء.

﴿ربنا عليك توكلنا* وإليك أنبنا* وإليك المصير﴾^{المتحة-4}

كفاح وليد إبراهيم محمد

الجامعة الأردنية - عمان

2006-2007م

الفصل الأول

ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي

محتويات الفصل الأول

- * ديوان الإنشاء: تطوره، وأهميته.....8-9
- * ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي.....9-12
- * مكانة صاحب ديوان الإنشاء.....12-14
- * وظائف ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي.....15-18
- * ثقافة كاتب ديوان الإنشاء.....18-21
- * كتب في صناعة الإنشاء وما يتصل بها.....21-27

* ديوان الإنشاء - تطوره وأهميته

ديوان الإنشاء هو أول ديوان وضع في الإسلام⁽¹⁾، وهو اسم للموضع الذي يجلس فيه الكاتب⁽²⁾. وقد كان هذا الديوان يُعبر عنه بديوان الرسائل؛ تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه؛ لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمها، وربما قيل ديوان المكاتبات، ثم غلب عليه هذا الاسم وشُهر به، واستمر عليه⁽³⁾.

وقد تطور هذا الديوان تطورا ملحوظا، حيث اهتم المسلمون منذ ظهور الإسلام بالرسائل الديوانية، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم - يكتتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة - رضوان الله عليهم - ويكتتبونه⁽⁴⁾. وتطور هذا الديوان في عصر الخلفاء الراشدين، وفي عصر بني أمية، نتيجة لاتساع الدولة، وكثرة أعباء الخلافة، وتعدد المراسلات والمكاتبات⁽⁵⁾.

أما في العصر العباسي، فقد تطور بشكل أسرع، فأضيفت إليه الوزارة، فكان الوزير هو الذي ينفذ أموره بقلمه، ويتولى أحواله بنفسه، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة، ويمشي على ما يُلقي إليه من توقيعه⁽⁶⁾.

ازدهر ديوان الإنشاء ازدهارا ملحوظا في الأقاليم التي تدين للخلافة العباسية، ومنها الديار المصرية، فقد ازدهر في عهد الدولة الطولونية، وانتظم أمر المكاتبات والولايات⁽⁷⁾.

ولما ولي الفاطميون الديار المصرية، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتّابه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره، وولي ديوان الإنشاء جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي⁽⁸⁾. وقد أصبح عمل الديوان متعدد الوظائف في عهدهم، فتتوعد اختصاصاته، ووجد فيه كُتاب رئيسيون يقومون بالكتابة والإنشاء، وآخرون مساعدون يقومون بالكتابة والتبويض⁽⁹⁾.

ومن أشهر كتّابهم ابن الصيرفي⁽¹⁰⁾، صاحب كتاب "القانون في ديوان الرسائل" وقد اهتم في هذا الكتاب بذكر الشروط التي يجب أن تتوافر في موظفي هذا الديوان، وتوضيح تنظيمه الداخلي، وأراد

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 91/1.

(2) المصدر نفسه: 89/1.

(3) المصدر نفسه: 90/1.

(4) المصدر نفسه: 91/1.

(5) إنشاءات الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 28.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 93/1.

(7) المصدر نفسه: 95/1.

(8) المصدر نفسه: 96/1.

(9) الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى - عبد المنعم ماجد: 35.

(10) هو علي بن منجب الصيرفي، اشتغل بكتابة الخراج والجيش في العصر الفاطمي، ثم استخدمه الأفضل بن بدر الجمالي في ديوان المكاتبات، له عدة مصنفات منها "القانون في ديوان الرسائل"، "الإشارة إلى من نال الوزارة"، توفي بعد سنة خمس وخمسمائة. ينظر: كتاب "القانون في ديوان الرسائل"، "الإشارة إلى من نال الوزارة"، الخطط: 2/214، وابن الصيرفي كتابا-رسالة ماجستير-الجامعة الأردنية- محمد النعيمات.

بكتابه أن يكون قانونا يسترشد به العاملون في هذا الديوان⁽¹⁾. ومنهم ابن قادوس⁽²⁾، وابن الخلال⁽³⁾، وبه تخرج القاضي الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قُرب وفاته سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات في أيام الدولة العبيدية⁽⁴⁾. ثم جاءت الدولة الأيوبية، فكان مجيئها بداية ازدهار ملحوظ؛ حيث زادت أهمية هذا الديوان في عصر الأيوبيين بزيادة أهمية الفاضل ومكانته، وكان قد كتب بين يدي الموفق بن الخلال في وزارة السلطان صلاح الدين، فلما استقل السلطان صلاح الدين بالملك وخطب لبني العباس، فوَضَّ إلى الفاضل ديوان الإنشاء والوزارة في مصر⁽⁵⁾.

* ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي

انتعش ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي انتعاشا ملحوظا، لمجموعة من الأسباب، يعود بعضٌ منها إلى تقاليد الديوان الفاطمي، وكفاءة موظفيه، وقد بقي معمولاً به في عصر الأيوبيين، وكان من سياسة صلاح الدين عدم المساس بنظم الفاطميين الإدارية، فأبقى على ديوان الإنشاء بتقاليده وأنظمته⁽⁶⁾. ومما مكن لديوان الإنشاء في العصر الأيوبي في عهد صلاح الدين، انصراف عدد من العلماء، والأدباء إلى التأليف، والتفنن في وضع المؤلفات التي تتحدث عن ديوان الإنشاء ونظمه وقواعده من أمثال الأسعد بن مَمَّاتِي⁽⁷⁾ في كتاب "قوانين الدواوين"، وابن شيث القرشي⁽⁸⁾ في كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة"، وابن الأثير⁽⁹⁾ في كتابيه "المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب"، و"الوشى المرقوم في حل المنظوم".

(1) القانون في ديوان الرسائل — تحقيق أمين فواد سيد: 4-6.

(2) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، كان القاضي الفاضل يعظمه ويسميه ذا البلاغتين، وكان يجاريه في فنون الكتابة، الأدب والشعر. توفي سنة 551. ينظر: النكت العصرية: 34-35، خريدة القصر (قسم شعراء مصر): 1/226، حسن المحاضرة: 1/563.

(3) هو أبو الحجاج يوسف بن محمد، صاحب ديوان الإنشاء بمصر، تتلمذ على يديه القاضي الفاضل، توفي بعد ملك صلاح الدين مصر سنة 566 هـ. ينظر: النكت العصرية: 34، خريدة القصر (قسم شعراء مصر): 1/235، وفيات الأعيان: 129/7، الخطط: 2/248.

(4) صبح الأعشى — القلقشندي: 1/96.

(5) المصدر نفسه: 1/96-97.

(6) الألقاب الإسلامية — حسن باشا: 22.

(7) هو أسعد بن الخطير بن مَمَّاتِي المصري، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، احتص بديوان المال في الأيام الصلاحية، له مصنفات عديدة منها "الفاشوش في أحكام قراقوش"، و"قوانين الدواوين"، نظم سيرة السلطان صلاح الدين، ونظم كليلة ودمنة، له ديوان شعر. توفي في حلب سنة 606 هـ. ينظر: خريدة القصر (قسم شعراء مصر): 1/100، وفيات الأعيان: 1/210، معجم الأدباء: 2/635.

(8) هو عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي، ولد سنة 547 هـ، كان الفاضل يحتاج إليه في علم الرسائل، تولى ديوان الإنشاء بمدينة قوص، ثم تولى الوزارة وديوان الإنشاء للملك المعظم عيسى، توفي بدمشق سنة 625 هـ. ينظر: كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة": 15-16، الذيل على الروضتين: 153، النجوم الزاهرة: 6/270.

(9) هو أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزائري، الكاتب الملقب ضياء الدين، وزر بدمشق للملك الأفضل بن صلاح الدين، خدم الظاهر، فلم يقل عليه، فتحول إلى الموصل، وكتب الإنشاء لصاحبها محمود بن عز الدين مسعود، وذهب رسولا في آخر أيامه إلى الخليفة، فمات ببغداد سنة 637 هـ، وله مصنفات عديدة منها "المثل السائر"، و"الوشى المرقوم في حل المنظوم"، و"ديوان رسائل ابن الأثير"، وغيرها. ينظر: الذيل على الروضتين: 169، وفيات لأعيان: 5/389، شذرات الذهب: 5/187-188.

وقد قيض الله لهذا العصر مجموعة من الكتّاب، لعبوا دورا كبيرا، وتركوا بصمات واضحة في تاريخ الحركة الأدبية والإدارية في ذلك العصر، وعلى رأسهم عبد الرحيم البيساني العسقلاني المعروف بالقاضي الفاضل، الذي تدرب على يد القاضي ابن الخلال، كاتب ديوان الإنشاء في أيام دولة بني عبيد، عندما أرسله والده إلى الديار المصرية، يقول: "وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأسه في تلك الأيام، رجلاً يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا، وما طلبتي، رحب بي وسهّل، ثم قال لي: "ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء، سوى أنني أحفظ القرآن الكريم، وكتاب الحماسة، فقال: "في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه، وتدرّبت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحلّه مرة ثانية فحللته"⁽¹⁾. وقد درّب ابن الخلال الفاضل على فنون النثر، والكتابة الديوانية، كما تلقى علوم البلاغة في عصره على يد القاضي ابن قادوس، الذي احتضنه، ودربه في فن البلاغة⁽²⁾. وكان الطالب في ديوان الإنشاء، يتعلم هذه الأمور بالدراسة، والتدريب في الديوان، وكان الفاضل بحكم تدريبه في ديوان الإنشاء، يتصفح ما يقع بين يديه من الوثائق، وربما حفظه نموذجا جيدا للكتابة الحسنة⁽³⁾.

وقد عمل الفاضل في مستهل حياته بالإسكندرية، والقاهرة، خلال الفترة الواقعة ما بين سنة 549هـ، وسنة 565هـ. وما لبث أن تدرّج في مناصب عدة، إلى أن أصبح وزيرا مرموقا في دولة صلاح الدين في سنة 567هـ⁽⁴⁾. استطاع القاضي الفاضل بقدرته الأدبية، وبراعته الإدارية، ومكانته الرفيعة التي احتلها عند صلاح الدين، أن يبلغ بعمل ديوان الإنشاء شأواً عالياً، حيث عمل على تنظيمه، وتأصيل فن الكتابة فيه؛ يقول ابن الأثير: "حدثني الفاضل وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية، فقال: "كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غصاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأسه مكانا، وبياناً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً"⁽⁵⁾.

وشرع القاضي الفاضل من خلال عمله في الديوان في تثبيت قواعد الدولة الأيوبية فقد تخلص من عدد كبير من الكتّاب؛ خوفاً من مؤامراتهم⁽⁶⁾. ولقد بلغ إعجاب صلاح الدين بالقاضي الفاضل أنه قال مخاطباً جنده ورجال دولته مؤكداً لهم دور الفاضل وأهميته فيما حققه من انتصارات على الفرنج: "لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل"⁽⁷⁾.

(1) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 54-55، وفيات الأعيان - ابن خلكان: 219/7-221.

(2) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 219/7-220.

(3) القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين - هادية دجاني: 57.

(4) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 221/7، الخطط - المقرئ: 366/2.

(5) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 54-55، وفيات الأعيان - ابن خلكان: 219/7-221.

(6) القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين - هادية دجاني: 134.

(7) النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي: 157/6، شذرات الذهب - ابن العماد: 227/4.

استفاد القاضي الفاضل من نظم الإنشاء الفاطمية، والعباسية التي دخلت مصر بحكم الظروف الجديدة، وعمل على التوفيق بين أنظمة الديوانين وتقاليدهما، من خلال استعانتها بالعماد الأصفهاني، الذي يُعدّ أحد الأقطاب الأساسية في ترسيخ دعائم ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي، مستعيناً به، ومستفيداً من خبرته في ديوان الإنشاء ببغداد، وسعى إلى التوسط له عند صلاح الدين حتى عينه رئيساً لديوان الإنشاء في الشام سنة 570هـ. كان لاستخدام الفاضل العماد الأصفهاني أهمية خاصة؛ ذلك أن معرفته، وإتقانه الفارسية، كانا يساعدان القاضي الفاضل في ترجمة الكتب الواردة على الديوان، وإعداد الردود المناسبة لها. يقول العماد: "فدخل الفاضل على السلطان صلاح الدين، وعرفه أنه في راجب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغدا يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملققات⁽¹⁾، وحلّ التراجم، والعماد يفى بذلك، ولك أختره، وقد عُرف في الدولة النورية مقداره"⁽²⁾. فقال صلاح الدين: "مالي عنك مندوحة، أنت كاتب ووزير، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا استكتبْتَ غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا، ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد الكاتب مقامي، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية، فاستكتبته"⁽³⁾ وهكذا، يمكن القول بأن نظم ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي تُعد مزيجاً موفقاً من كلتا الحضارتين الفاطمية والعباسية، كوّنته الظروف المختلفة التي نشأت فيها السيادة الأيوبية⁽⁴⁾.

ومن الكتاب الذين عملوا في ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي، وتركوا أثراً واضحاً، ابن الأثير، حيث قصد صلاح الدين سنة 587 هـ، فألحقه القاضي الفاضل بخدمته، ثم طلبه ولده "الملك الأفضل"⁽⁵⁾ من والده، فخيرَه صلاح الدين بين الإقامة في خدمته، والانتقال إلى ولده، فاختر ولده، فمضى إليه، وكان يومئذ شاباً، ولما توفي السلطان صلاح الدين الأيوبي، واستقل ولده الأفضل بمملكته بدمشق، استقل ضياء الدين بالوزارة، ورُدّت أمور الناس إليه، وصار الاعتماد في أحوال الناس عليه⁽⁶⁾.

وقد كان بين الفاضل وابن الأثير ضرب من المنافسات الأدبية، وتأثر ابن الأثير بطريقة الفاضل في إنشائه، وحاول تقليده، ومعارضته، فقد "كان يعارض الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ رسالة، أنشأ مثلاً، وكان بينهما مكاتبات ومجاولات"⁽⁷⁾.

(1) هي الرسائل القصيرة في الأمور العاجلة، وكان يوصلها من يعتاد على شدة العدو، وإذا تعذر إيصاله عن طريق البريد، أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية، لمهم طارئ، فإن كاتب السر يتدب من يُعرف بسرعة المشي، وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك المُلطف إلى المكتوب إليه، والإتيان بجوابه. ينظر: صبح الأعشى: 388/1.

(2) سنا البرق الشامى - تحقيق فتحية النبراوي: 90، كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 388/2.

(3) النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي: 73/6-74.

(4) الألقاب الإسلامية - حسن باشا: 23.

(5) هو الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد سنة 565 هـ، تسلطن بدمشق، حارب أخاه العزيز عثمان صاحب مصر على الملك، تملك سُميساط، وصرخد، وأقام بها مدة. توفي فجأة سنة 622 هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 145، وفيات الأعيان: 419/3، النجوم الزاهرة: 262/6.

(6) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 390/5.

(7) المصدر نفسه: 333/2.

لدرجة أنه لم يدع للفاضل كتاباً ذكر فيه بالثناء إلا عارضه فيه؛ ليظهر تفوقه عليه. وقد وصل إلينا من هذه المعارضات شيء غير قليل⁽¹⁾. وبعد وفاة صلاح الدين، تحولت الشام إلى إقطاعات حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل⁽²⁾، منهم ابن النبيه⁽³⁾ كاتب "الأشرف موسى"⁽⁴⁾، وابن شيث القرشي، كاتب "المعظم عيسى"⁽⁵⁾.

توالى كُتاب الإنشاء في هذه الدولة، ولما ولي "الملك الصالح" نجم الدين أيوب⁽⁶⁾، ولي ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهير⁽⁷⁾، ثم صرفه وولي بعده صاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان⁽⁸⁾، الذي ظل في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية⁽⁹⁾.

* مكانة صاحب ديوان الإنشاء

بلغ صاحب ديوان الإنشاء⁽¹⁰⁾ مكانة عظيمة؛ نظراً لأهمية هذا المنصب وخطورته، ووصل من الرتبة ما ليس لغيره من الموظفين؛ قال صاحب مواد البيان: "ليس في متولي خدم السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من الكُتاب به؛ لأنهم دون جميع الناظرين في أمور الدولة خاصة الملك وبطانته، والمنفردون بالاطلاع على سرائره، والعلم بأخباره، وأخصهم كاتب الرسائل، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهماته، وهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه"⁽¹¹⁾.

⁽¹⁾ منها على سبيل المثال ينظر: ديوان رسائل ابن الأثير، تحقيق هلال ناجي - الرسائل 3-4-5-6 ص: 82-83-89، وصبح الأعشى - القلقشندي: 135/10.

⁽²⁾ عصر الدول والإمارات - الشام - شوقي ضيف: 298.

⁽³⁾ هو علي بن محمد بن يوسف النبيه الكاتب، والشاعر، صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف موسى بن العادل، له ديوان شعر مطبوع - تحقيق أبو الفضل إبراهيم. توفي سنة 619 هـ. ينظر: حسن محاضرة: 342/1.

⁽⁴⁾ هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل، ولد هو وأخوه الكامل في سنة واحدة، وهي سنة 576 هـ، تملك حرّان، وخلاط مدة، ثم تملك دمشق تسع سنين، توفي سنة 635 هـ ينظر: الذيل على الروضتين: 16، وفيات الأعيان: 330/5-336، النجوم الزاهرة: 300/6.

⁽⁵⁾ هو عيسى بن الملك العادل الفقيه الأديب، صاحب دمشق، كان حازماً شجاعاً، يتعد عن أمة الملوك. توفي سنة 624 هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 152، وفيات الأعيان: 494/3-496، النجوم الزاهرة: 267/6.

⁽⁶⁾ هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد، ملك حرّان وسنجار وحصن كيفا ودمشق ثم مصر. توفي سنة 647 هـ ينظر: الذيل على الروضتين: 183، البداية والنهاية: 179/13، شذرات الذهب: 421/5.

⁽⁷⁾ هو بهاء الدين زهير أبو الفضل المكي القوصي، ولد سنة 581 هـ، برع في النظم والنثر، اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم بالناصر داود صاحب الشام، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة 656 هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 201، وفيات الأعيان: 194/1، النجوم الزاهرة: 62/7، شذرات الذهب: 276/5.

⁽⁸⁾ هو إبراهيم بن لقمان الشيباني، رئيس الموقعين بمصر، ثم الوزير بها، ولي الوزارة مرتين، توفي سنة 693 هـ. ينظر: البداية والنهاية: 337/13، صبح الأعشى: 111/10، الخطط: 358/1، النجوم الزاهرة: 50/8.

⁽⁹⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 97-96/1.

⁽¹⁰⁾ لم يكن أمر هذا اللقب مستقراً في العصر الأيوبي، إذ عُرف صاحب الديوان بصاحب الدست، ومتولي كتابة الإنشاء، وصاحب ديوان المكاتبات، ورئيس الديوان، ومتولي ديوان الرسائل. ينظر: الإشارة إلى من نال الوزارة: 30-33، معالم الكتابة: 44-45، صبح الأعشى: 103/1، الألقاب الإسلامية: 21-22.

⁽¹¹⁾ مواد البيان - علي بن خلف: 47 - 48.

وفي الدولة الفاطمية، كان هذا المنصب لا يتولاها إلا أجلّ كتاب البلاغة، ويخاطب بالأجل، وإليه تُسلم المكاتبة واردة مختومة، فيعرضها على الخليفة من يده، وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها⁽¹⁾. وكان يكتب على الشهادات التي ترفع إليه بغير لام الأمر، فيقال تأدبا مع صاحب ديوان الإنشاء "يُكتب"، و"يُنجز"⁽²⁾.

وليس أدل على مكانة صاحب ديوان الإنشاء، ما وصل إليه الفاضل في دولة صلاح الدين حيث أصبح كاتبه، ووزيره، ومستشاره في الحل والترحال، وركن إليه ركونا تاما⁽³⁾. وكان الفاضل يتحمل عن سلطانه أعباء الدولة، وتدبير أمورها في حالة انشغاله بمحاربة الفرنج في بلاد الشام، إذ كان ينوب عنه، ويجهز له الجيوش، والأساطيل، ويمدّه بنصح ومشورته، يقول أبو شامة المقدسي: "كان الفاضل -رحمه الله- في هذه الأوقات بالديار المصرية، يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيرا، وناصحا، ومسليا، وباحثا عن مصالح الإسلام، متقصيا"⁽⁴⁾. وكان له دور كبير في توحيد الأمة، ولم شتاتها، "وتساعدا حتى فتحت الأقاليم والبلاد، هذا بحسامه وسانانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه"⁽⁵⁾.

ومما يؤكد المنزلة العظيمة التي بلغها صاحب ديوان الإنشاء، إصغاء صلاح الدين لنصح الفاضل ومشورته، حينما عطل حجة بناءً على رأي الفاضل؛ لأن الفرنجيين كانوا ما يزالون في ديار الإسلام⁽⁶⁾. وكان صلاح الدين لا يصدر أمرا إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئا إلا عن رأيه، ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره⁽⁷⁾. وقد قال فيه عمارة اليميني⁽⁸⁾: "ومن محاسن أيامه، وما يؤرخ عنها، بل هي الحسنة التي لا توازي، واليد البيضاء التي لا تُجازى، خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب، واستخدامه بحضرته بين يديه في ديوان الجيش، فإنه غرس منه للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها"⁽⁹⁾. ويقول القلقشندي: "إن الكتابة هي التي رفعت الفاضل، وكان

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 102/1.

(2) معالم الكتابة - ابن شيث: 52.

(3) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 158/3.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 173/4.

(5) البداية والنهاية - ابن كثير: 24/13.

(6) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 333/4، مفرج الكروب - ابن واصل: 152/2.

(7) الخطط - المقرئ: 366/2.

(8) هو عمارة بن زيدان اليميني، الملقب بنجم الدين، مدح خلفاء مصر من العبيدين، وكان عندهم بمحلة الوزير، ولما زالت دولة بني عبيد، رثاهم بقصيدة، تأمر على الدولة الصلاحية مع مجموعة من المتعصبين لبني عبيد، فأمر السلطان بشنقهم سنة 569هـ له سيرة ذاتية سماها "النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية"، وديوان شعر مطبوع. ينظر: مقدمة النكت العصرية، وفيات الأعيان: 89/3، النجوم الزاهرة: 70/6.

(9) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية - عمارة اليميني: 53-54.

من غير بيت الوزارة حتى وزر للسلطان صلاح الدين، وعلت رتبته حتى بلغ من رتبته لديه، أنه كان يكتب في كتب السلطان عن نفسه⁽¹⁾. لقد كان ديوان الإنشاء يومئذ رأس الدولة المفكر، ووسيلة اتصال الحكومة بفروعها في داخل البلاد، وبغيرها من الحكومات في خارج حدودها⁽²⁾. وكان أحد معاهد العلم العديدة في القاهرة، ومهمته تدريب الطلبة على الكتابة والإدارة، ثم دفعهم إلى العمل فيها في دواوين مصر المركزية أو الإقليمية العديدة⁽³⁾.

لقد بلغ ديوان الإنشاء في هذا العصر مرحلة كبيرة من التطور، لدرجة أن سلاطين هذا العصر كانوا يكتبون بأنفسهم أحداث العصر وظروفه، ومن هؤلاء "الملك الناصر" داود⁽⁴⁾ فقد كان كاتباً مقتدراً، له رسائل ديوانية، وإخوانية متنوعة؛ منها رسالة البشري في الفتح القدسي الثاني سنة 637هـ — إلى الديوان العزيز ببغداد، وقد جمع ابنه الملك "الأمجد" حسن⁽⁵⁾ شعره، ورسائله في كتاب "سماء الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية".

يقول ابن الأثير في أهمية ديوان الإنشاء: "إن أشرف صناعات الممالك وأسناها، وأفضل درجات المملكة وأعلاها، وأميز رتبها وأبهاها، منازل الإنشاء الجامعة للأشياء التي لها قوام الملك، وضبط قواعده، وهو على كل حال أس النظام، وحفظ الأنام"⁽⁶⁾، ويقول القلقشندي: "وهو جزء عظيم من أس الملك، وعماد المملكة، وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره، وإليه رجوع تدبيره، واختيار رجاله وتصريفهم"⁽⁷⁾. ويقول صاحب كتاب "البرد الموشى في صناعة الإنشاء"⁽⁸⁾، منوها بأهمية ديوان الإنشاء: "كانت كتابة الإنشاء أجلّ مراتب النباهة، وأعلى مناصب الوجاهة، وكان قلمها ترجمان لسان الملوك، وناظم دُرّ المآثر المسلوك، والخاطب على منبر القلم بالمأخوذ من القول، والمتروك، وكان مما لا تستغني عنه الدول لتخفيف مآثرها، وتتميق مفاخرها، ووصف فتوحها، وذكر ممنونها، وممنوحها"⁽⁹⁾. وهكذا استطاع النثر أن يفي بحاجة الأمة، وأن يُعبر عن مشاعرها وإحساساتها، وقد أدرك القلقشندي قيمة ما يسجله ديوان الإنشاء، فقال: "إنه لو جُمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل"⁽¹⁰⁾.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 41/1.

(2) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية - أحمد أحمد بدوي: 334.

(3) القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين - هادية دجاني: 58.

(4) هو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى، ولد سنة 603 هـ ملك دمشق بعد أبيه ثم أخذها منه عمه الأشرف، فتحول إلى الكرك، فملكها إحدى عشرة سنة، ثم زالت مملكته، جمع ابنه شعره ونثره في كتاب اسماء "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية" وهو مطبوع توفي سنة 656 هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 200، الفوائد الجلية: 7-23، وفيات الأعيان: 496/3، النجوم الزاهرة: 61/7.

(5) هو الحسن بن داود، له اليد الطولى في الترسل. توفي بدمشق سنة 670 هـ. ينظر ذيل مرآة الزمان: 472/2، النجوم الزاهرة: 239/7.

(6) المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء - ابن الأثير: 51.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 123/1.

(8) هو موسى بن الحسن الموصلي، كان أبوه من كتاب ديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس، قدم إلى اليمن سنة 660 هـ، فولاه المظفر صاحب اليمن ديوان الإنشاء فيها، وصنف كتاب "البرد الموشى في صناعة الإنشاء" توفي تقريباً سنة 700. ينظر: الدرر الكامنة: 25/5.

(9) البرد الموشى في صناعة الإنشاء - موسى بن الحسن الموصلي: 45.

(10) صبح الأعشى - القلقشندي: 135/1.

* وظائف ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي

نظرا لاتساع ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي وتطوره، فقد وُجد طَبَقَتَانِ من الكتاب:

- 1- "كُتَابُ الدِّسْت": "وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان، وسُمُّوا كُتَابُ الدِّسْت إضافة إلى دِست السلطان، وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه. وهؤلاء هم أحق كُتَابِ ديوان الإنشاء باسم الموقعين؛ لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم، وهم المعول عليهم في إنشاء الرسائل إلى الملوك، والسلاطين، والأمراء، ويتميز عملهم بالدقة في كتابة الرسائل"⁽¹⁾.
- 2- "كتاب الدَّرَج": "وهم الذين يكتبون ما يُوقع به كاتب السر، أو كُتَابُ الدِّسْت، ونحو ذلك من المكاتبات، والتقاليد، والمراسيم، والأيمان، وغيرها. وسُمُّوا كتاب الدَّرَج لكتابتهم هذه المكاتبات، ونحوها في دروج من الورق، والدَّرَج هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال متلاصقة"⁽²⁾. وقد تميز عمل كُتَابِ ديوان الإنشاء بالدقة؛ لذلك خصصوا كتابا يتصفحون ما يُكتب في الديوان من إنشاءات، ومكاتبات، وتصحيح ما قد يقع فيه الكتاب من أخطاء لغوية⁽³⁾. وقد كان عبد الله بن أبي الوحش بن بري⁽⁴⁾، أحد علماء النحو واللغة والرواية، الذين أسندت إليهم مراجعة الرسائل وتصفحها في ديوان الإنشاء، حيث لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي، إلا بعد أن يتصفحه، ويصلح ما فيه من خلل خفي⁽⁵⁾.

ولصاحب ديوان الإنشاء أن يتصرف بتدبيره، وبقلمه في أمور منها:

- 1- التوقيع والتعيين: وهو الكتابة على الرقاع والقصص، بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات، والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدث في المظالم، وغير ذلك⁽⁶⁾.
- 2- نظره في الكتب الواردة عليه: وكان صاحب الديوان في بداية أمره، هو الذي يقرؤها بنفسه على الملك، ولكن نظرا لاتساع الدولة وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدم، فقد فُوِّضَ أمرُ ذلك إلى متولي ديوان رسائله⁽⁷⁾.
- 3- نظره فيما يتعلق بالأجوبة عن الكتب الواردة على لسانه؛ وهو أن يُشعر الملك فيما يراه من الآراء الصائبة، ويعلمه أن من أعظمها خطرا، أن يُصدر جواب كل كتاب يصل إليه في يومه، ولا يؤخره إلى غده، ويؤرخ في آخره بتاريخ ذلك اليوم⁽⁸⁾.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 137/1.

(2) المصدر نفسه: 138/1.

(3) المصدر نفسه: 133/1.

(4) هو عبد الله بن أبي الوحش بن بري بن عبد الجبار المعروف بابن بري النحوي المصري، له شعر جيد، توفي سنة 582 هـ وكانت ولادته سنة

499 هـ. ينظر: وفيات الأعيان: 108/3، النجوم الزاهرة: 103/6، شذرات الذهب: 273/4.

(5) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 108/3، الخطط - المقرئ: 73/3، النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي: 103/6.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 138/1.

(7) المصدر نفسه: 110/1.

(8) المصدر نفسه: 111/1.

- 4- نظره فيما تتفاوت به المراتب في المكاتبات، من الافتتاح، والدعاء، والألقاب، وهو أن يُنزل أرباب الولايات منازلهم على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو، وهبوط⁽¹⁾.
- 5- نظره فيما يكتب من ديوانه، وتصفحه قبل إخراجها من الديوان، وهو أن يتصفح ما يكتب من المناشير، والمكاتبات، فإذا أبصر لحنا، أو خطا نبّه كاتبه عليه⁽²⁾.
- 6- نظره في مجموع من الأمور: أمر البريد ومتعلقاته، وأمر العيون والجواسيس، وأمر أبراج الحمام ومتعلقاته⁽³⁾، ونظره في أمور الفداوية⁽⁴⁾ وفي أمور القصاص الذين يسافرون بالملطفات من الكتب، ونظره في أمر المناور⁽⁵⁾، والمحركات⁽⁶⁾ ثم نظره في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطنة والمملكة⁽⁷⁾.
- وكان يساعد رئيس الديوان المعروف بصاحب الدست سبعة كُتاب، يقوم كل منهم بكتابة نوع معين من المراسلات والوثائق، كما يلي:

- 1- "كاتبٌ ينشئ ما يكتب من المكاتبات، ويجب أن يكون لاحقا بصفات متولي الديوان، بحيث يكون كاملا في الصفات، مستوفيا لشروط الكتابة، وهو أجل الكُتاب، وهو الذي ينشئ العهود، والتقاليد في الولايات، والكتب في الحوادث، والمهمات العظيمة التي تتلى فيه الكتب على المنابر"⁽⁸⁾.
- 2- "كاتب يكتب المراسلات بين ملوك مصر وغيرهم، وينبغي أن تتوافر فيه شروط كأن يكون على دين الملك؛ لما يحتاج إليه من الاحتجاج والمجادلة عن العقيدة أمام غيره من الملوك"⁽⁹⁾.
- 3- "كاتب متخصص بالكتابات المتعلقة بشؤون الدولة الداخلية، حيث توجه المكاتبات إلى أمرائها، وموظفيها، كما أنه ينشئ تقاليد الموظفين الصغار والأمانات، وكتب الأيمان"⁽¹⁰⁾.
- 4- "كاتب يكتب المنشورات، والكتب اللطاف، ويجب أن يكون مأمونا كتوما للسر"⁽¹¹⁾.
- 5- "كاتب يبيض ما ينشئه المنشئ، مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود، والبيعات؛ لتصدر

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 112/1.

(2) المصدر نفسه: 113/1.

(3) أبراج للحمام الرسائي، يحمل البطاقات في أجنحته من مكان إلى مكان، منها برج بقلعة الجبل، وهي التي يقال لها المناسيب، وهي تورخ بالساعة واليوم، موجزة، وجرت العادة أن يكتب في آخرها حسينا الله ونعم الوكيل. ينظر: صبح الأعشى: 118/1، حسن المحاضرة: 268/2.

(4) هم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وسُموا الفداوية؛ لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه، ويسمون في بلاد العجم بالباطنية؛ لأنهم يطنون مذهبهم ويخفونه، وتارة بالملاحدة؛ لأن مذهبهم كله إلحاد. ينظر: صبح الأعشى: 115/1.

(5) هم قوم ينتمون إلى المملكة، يقيمون بالقرب من بلاد التتار، مهمتهم التنبيه والتحذير إذا أغار عدو على بلاد المسلمين. ينظر: صبح الأعشى: 128/1.

(6) هي أمكنة مرتبة في رؤوس الجبال، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها، مهمتهم الإعلام والتحذير عن تحركات العدو، وذلك عن طريق إشعال النيران فيعلم أنه قد تحرك عدو لمهاجمة ديار المسلمين. ينظر: صبح الأعشى: 128/1.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 114-129.

(8) المصدر نفسه: 130-131.

(9) المصدر نفسه: 131/1.

(10) المصدر نفسه: 131-132.

(11) المصدر نفسه: 132/1.

الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة، والخط الرائع، فإن ذلك أكمل للمملكة، وأكثر تفخيماً عند من يكتبه، وتعظيماً لها في صدره⁽¹⁾.

6- "كاتب يتصفح ما يكتب في الديوان، وينبغي أن يكون المتصفح عالي المنزلة في اللغة، والنحو، وحفظ كتاب الله، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً. وعليه أن يلزم الكتاب بعرض جميع ما يكتبونه، وينشئونه عليه قبل عرضه على متولي الديوان"⁽²⁾.

7- "كاتب يكتب التذاكر، والدفاتر المضمنة لمتعلقات الديوان. وقد تميّز عمل هذا الكاتب بالتنظيم، والإدارة، ومن أبرز مظاهر هذا التنظيم: عمل الفهارس الخاصة بالكتب الصادرة، والواردة على الديوان بحسب السنة، والشهر، واليوم، وإعداد فهارس للإنشاءات، والأمانات، والمنشورات، بحسب شهور السنة، بالإضافة إلى إعداد الفهارس لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي"⁽³⁾.

وحفاظاً على أسرار الدولة، فقد كانوا يعهدون بوثائق ديوان الإنشاء، ورسائله إلى خازن يحافظ عليها، وقد أسندت إليه مهمة الاحتفاظ بالكتب الواردة، ونسخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم، وغير ذلك مما يحتاج إلى عناية واهتمام⁽⁴⁾.

كانت هذه الكتب تمرّ بمراحل عديدة إلى أن يتسلمها الخازن، وهذه الخطوات: نسخ الكتاب، والإشارة إلى تاريخ وصوله، أو صدوره باليوم، والشهر، والسنة، والتوقيع على ذلك الكتاب، ووضع بطاقة على مجموعة رسائل الشهر، وتسلمها للخازن⁽⁵⁾.

وقد جُعِلَ لصاحب ديوان الإنشاء حاجباً، لا يُمكن أحداً من سائر الناس أن يدخُلَ إليه؛ بسبب ما عنده من أسرار السلطان الواجب كتمها. ومتى أهمل ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون بإظهار سبب سقوط مرتبته⁽⁶⁾.

اشترط القلقشندي على كاتب الملك، أو السلطان، معرفة لغة الكتب التي ترد على ملكه ليفهمها، ويجب عنها من غير إطلاع ترجمان عليها؛ لأن ذلك أصون لسر ملكه، وأبلغ في بلوغ مقاصده⁽⁷⁾.

وكانت رسائل الفرنج التي ترد على ديوان الإنشاء منوطة بموظفين مختصين يعملون فيه، وكانوا يتسلمون هذه الرسائل حال وصولها للديوان، فيفحصون ختمها ثم يفكونها، ويترجمها بعد ذلك

المترجم. وكان هذا المترجم يكتب الترجمة في ورقة مفردة، ويلصقها بالكتاب الوارد، ثم يكتب الرد من واقع النص المعرب⁽⁷⁾. وكان الكتاب يعرفون ألقاب ملوك الفرنج؛ ليستخدموها عند مخاطبتهم. وكان في ديوان الإنشاء دفاتر خاصة بهذه الألقاب؛ لأنه ربما تعذر حفظ ذلك عليهم⁽⁸⁾.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 1/132.

(2) المصدر نفسه: 1/133.

(3) المصدر نفسه: 1/134-135.

(4) المصدر نفسه: 1/136.

(5) المصدر نفسه: 1/136.

(6) المصدر نفسه: 1/136-137.

(7) المصدر نفسه: 1/165.

(8) المصدر نفسه: 8/123.

أكد القلقشندي ضرورة تمسك الكتاب بأصول الكتابة وقواعدها المشتملة على الألقاب، والأدعية، والصدور، والخواتم، وغير ذلك. وعدّ التمسك بهذه القواعد، والأصول الطريق الأمثل في الكتابة، وأكد أن إهمال هذه القواعد، والأصول خروج عن الطريق الصحيح في الكتابة، والإنشاء يقول: "إذا اعتمدها الكاتب ومشى على نهجها، ونسج على منوالها، أصاب سواء الثغرة من الصناعة، وطبق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمقصد، ومتى أهملها وفرط في مراعاتها ضلّ سواء السبيل، وخرج عن جادة الصواب"⁽¹⁾.

وبقي ديوان الإنشاء في مصر أكبر دواوين الدولة الأيوبية، نظراً لتشعبه، وكثرة أعماله، وكان يطلق على صاحبه لقب متولي ديوان الإنشاء في مصر، أما ديوان الإنشاء في الشام، فيطلق على صاحبه لقب صاحب ديوان الشام، وكذا في الباقيات"⁽²⁾.

* ثقافة كاتب ديوان الإنشاء

دفعت أهمية ديوان الإنشاء، والمكانة السياسية التي بلغها رجاله من يريد الوصول إلى هذا المنصب، أن يأخذ بحظ وافر من الثقافة تؤهله لهذا المنصب الرفيع، تفسح أمامه المجال لصياغة المعاني، وتفصيلها. وقد تحدث أصحاب كتب صناعة الإنشاء من أمثال ابن الصيرفي (ت 505هـ)، وابن شيث القرشي (ت 625هـ)، وابن الأثير (ت 637هـ)، وموسى الموصلي (ت 700هـ)، وشهاب الدين محمود الحلبي (ت 725هـ)⁽³⁾، وابن فضل الله العمري (ت 749هـ)⁽⁴⁾، والقلقشندي (ت 821هـ)، بإسهاب عما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من مواد. وقد أورد القلقشندي آراء هؤلاء الكتاب في كتابه صبح الأعشى، حيث ارتأى ما يحتاج إليه الكاتب في بابين الأول ثقافة الكاتب. والثاني ما يحتاج إليه من الأمور العملية كالخط وتوابعه ولواحقه. وما يعيننا هنا هو الباب الأول، فهو الركيزة الأساسية لثقافة الكاتب، ومن ذلك معرفته بالعلوم اللغوية، وعلوم البلاغة، وكاتب الإنشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم، ولا يسعه الوقوف عند فن، يقول ابن الأثير "إن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن

(8) المصدر نفسه: 1/134.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 6/181.

(2) المصدر نفسه: 1/134.

(3) هو شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، الدمشقي أبو النشاء، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق، تعلم الخط، واشتغل بالفقه، ولي كتابة السر بدمشق، له تصانيف في الإنشاء منها "حسن التوسل إلى صناعة التوسل"، توفي بدمشق سنة 725 هـ. ينظر: النجوم الزاهرة: 9/264-265، شذرات الذهب: 6/69-70.

(4) هو شهاب الدين أحمد بن فضل الله العدوي العمري، أبو العباس، الشافعي الدمشقي، ولي كتابة سر دمشق ثم كتابة سر مصر في عهد الملك الناصر قلاوون، ثم تغير عليه السلطان، وصرفه، فتوجه إلى دمشق حتى توفي سنة 749 هـ. له تصانيف عديدة منها "التعريف بالمصطلح الشريف" و"مسالك الأبصار في مسالك الأمصار". وقد طبعت أجزاء منه. ينظر: النجوم الزاهرة: 10/235، شذرات الذهب: 6/160.

من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة⁽⁵⁾؛ لأن معرفة العربية، وعلوم البلاغة، يتوصل بها إلى فهم الخطاب، وإنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء، والبلغاء، بالإضافة إلى ما في هذه العلوم من

19

فهم كتاب الله تعالى، وكلام رسوله⁽¹⁾. ويجب أن يكون من البلاغة، والفصاحة في أعلى رتبة، وأسنى منزلة، بحيث لا يوجد في عصره أحد يفوقه في هذا الفن. فإذا كان جيد الفطرة، صائب الرأي، حسن الألفاظ، تتأتى له المعاني الجزلة، فيجملوها في الألفاظ السهلة، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً، ويطول حين لا يجد بُداً من الإطالة، ولا بدّ من حفظ كتاب الله تعالى، وإدانة قراءته، وملازمة درسه، وحفظ الأحاديث النبوية، والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصاً في السير والمغازي⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأثير طلب حفظ الأحاديث الصحيحة، والاستكثار من حفظ الأشعار⁽³⁾. وما توافرت دواعي العلماء بها على اختياره كالحماسة والمفضليات، وفهم معانيها واستكشاف غوامضها، وربما حلّ منه ما يحتاج إليه فأتى به منثوراً في أثناء رسالته، وطي إنشاءاته⁽⁴⁾. يقول ابن شيث: "إن الكتابة هي حل المنظوم من الشعر، إذ معاني الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلها لعناية الناس بها، فإذا كان الكاتب ماهراً نظر إلى المعنى الذي يقصده من الأشعار فحلّ نظامه وحلّى به كلامه"⁽⁵⁾. ويلي ذلك الإكثار من حفظ خطب البلغاء، والتقنن في معرفة أساليبهم. ودعا ابن الأثير إلى الاكتفاء بالنظر إليها⁽⁶⁾. والاطلاع على رسائل الكتاب المتقدمين؛ غايته تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، والاختصار على النظر فيها دون حفظها⁽⁷⁾؛ إذ قد يعلق بذهن الكاتب منها شيء، فيورده بالألفاظ، وأخذ كلام منثور، ونقله إلى كلام آخر منثور يُعدّ سرقة⁽⁸⁾.

بالإضافة إلى ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية، فهناك الجانب التاريخي والجغرافي. فأما التاريخي: يشمل معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم، وحروبهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأسواقهم، وأعيادهم،

(5) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 48-49، صبح الأعشى - القلقشندي: 145/1.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 181/1.

(2) القانون في ديوان الرسائل - ابن الصيرفي: 10-11، معالم الكتابة - ابن شيث: 89، صبح الأعشى - القلقشندي: 181/1.

(3) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 53، حسن التوسل إلى صناعة الترس - شهاب الدين محمود الحلبي: 78، صبح الأعشى - القلقشندي: 202/1-203.

(4) القانون في ديوان الرسائل - ابن الصيرفي: 11، صبح الأعشى - القلقشندي: 281/1.

(5) معالم الكتابة - ابن شيث: 96، الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 51-52.

(6) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 50.

(7) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 50-51، صبح الأعشى - القلقشندي: 227/1.

(8) الوشي المرقوم في حل المنظوم - ابن الأثير: 51، حسن التوسل إلى صناعة الترس - شهاب الدين محمود الحلبي: 94، صبح الأعشى في صناعة الإنشا - القلقشندي: 227/1.

وملوكلهم ودولهم، ورجالهم. وأما الجغرافي: فيشمل معرفة المسالك، والممالك، ومعرفة الأزمنة، والأوقات من الأيام، والشهور، والسنين على اختلاف الأمم وأعيادها⁽¹⁾. وتشتمل ثقافة الكاتب كذلك على معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه، ويدخل في ذلك أوصاف الإنسان الجسمية والنفسية، وأوصاف دواب الركوب، والوحوش والطيور، والأحجار الكريمة، ونفيس

20

الطيب، ووصف الأفلاك والكواكب، والنجوم، ووصف الظواهر الطبيعية كالريح، والمطر، والسحاب، وتضاريس الأرض من جبال، وسهول، وأنهار⁽²⁾.

وأما الأمور العملية التي لا غنى للكاتب عنها، فتتمثل في معرفته بفن الخط، وأنواعه، وتوابعه، وطريقة بري القلم، وصنع المداد، وهي أمور تتعلق بصناعة الخط لا صناعة الإنشاء⁽³⁾.

ونظرا لأهمية كاتب الإنشاء وخطورته؛ فقد تعين عليه لزوم مجموعة من الآداب، والصفات منها: أن يجعل التقوى دليلا الذي يقدمه، وأن يسلس النصيحة لمن يخدمه، مؤثرا الجدة على الهزل، كثير الأناة، والرفق، سريع الرضا، بطيء الغضب، وأن يتجنب الرشى، ولا يتنصت إلى من يصحبه إذا ناجى سواه، ولا يلتفت إلى ما لا يعنيه، ولا يخلل أسنانه في مجلس صاحبه، ولا يتنخم⁽⁴⁾، ولا يتمطى، ولا يتنأب، ولا يأكل أشياء تكره رائحة الفم في مظان⁽⁵⁾ المناجاة لصاحبه، فربما أحدثت هذه الأشياء في النفوس أفة، ولا سيما مع المداومة، والمداولة⁽⁶⁾.

وعلى كاتب ديوان الإنشاء أن يكون ذا دين وورع وأمانة، فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يتحكم بها في أرواح الناس، وأموالهم، لأنه لو زاد أدنى كلمة، أو حذف أيسر حرف، أو كتّم شيئا قد علمه، أو تأول لفظا بغير معناه، أو حرّفه عن جهته، أدى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر، ونفع من لا يستوجب النفع⁽⁷⁾. ويجب أن يكون دينه الإسلام، لأنه من الملك بمنزلة الوزير، والوزير مشتق من المؤازرة، والمؤازرة هي المساعدة والمعانة⁽⁸⁾، وليؤمن فيما يكتبه، ويمليه، ويثق فيما يذره ويأنيه، فلا يجوز أن يولى أحد من أهل الكفر؛ إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، ومطلعا لهم على خفاياهم، فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه⁽⁹⁾. كما أن كاتب الرسائل إذا كان مسلما أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته، وفصول مكاتباته، والتمثل بنواحيه، وأوامره، وهو حليّة

⁽⁹⁾ التعريف بالمصطلح الشريف- ابن فضل الله العمري: 316-331، صبح الأعشى- القلقشندي: 339/2.

⁽¹⁾ صبح الأعشى- القلقشندي: 340/2.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 135/3.

⁽³⁾ تنخم: رمى بنخامته، والنخامة: ما يلفظه الإنسان من البلغم، ينظر: لسان العرب مادة نخم.

⁽⁴⁾ مظان جمع مظنة، ومظان الشيء أماكنه المألوفة التي يظن كونه فيها. والمظان اصطلاحا: المراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته. ينظر: لسان العرب مادة ظن.

⁽⁵⁾ معالم الكتابة- ابن شيث: 30، المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء- ابن الأثير: 111.

⁽⁶⁾ القانون في ديوان الرسائل- ابن الصيرفي: 7، معالم الكتابة- ابن شيث: 31.

⁽⁷⁾ القانون في ديوان الرسائل- ابن الصيرفي: 8.

⁽⁸⁾ صبح الأعشى- القلقشندي: 61/1.

الرسائل، وزينة الإنشاءات، وهو الذي يَشُدُّ قُوَى الكلام، ويثبت صحته في الأفهام⁽¹⁾. وأن يكون كتوما للسر، وهو من أفضل الآداب في صحبة السلطان وغيره، وأعوذها بالفلاح على صاحبها⁽²⁾، فلا يُطلع والدًا ولا ولدًا، ولا أخًا شقيقًا، ولا صديقًا صدوقًا على ما دقّ، ولا ما جلّ، ولا يُعلمه بما كثر منه، ولا ما قل، ويتوهم بل يتحقق أن في إذاخته مما يُعلم، وضع منزلته، وخط رتبته، ويجتهد في أن يصير له

21

ذلك طبعًا مركبًا، وأمرًا ضروريًا⁽³⁾.

وينبغي أن تتوافر فيه الصفات النفسية، كأن يكون وقورًا حليماً، حاضر الحسّ، جيد الحدس، وفور العقل؛ فإن العقل أسّ الفضائل، وأصل المناقب. فإذا كان تام العقل، كامل الرأي، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها⁽⁴⁾. إن هذه الصفات وغيرها، تقضي بنا إلى التأكيد أن الكاتب، ينبغي أن يمتلك "كل العلوم المتداولة على السنة أرباب الفضائل، مع تجنب ما ينحو إليه أرباب الرذائل؛ لكي يتجنب معائب الشعر، كما يتجنب معائب النثر"⁽⁵⁾. وقد توسع القلقشندي في ذكر هذه الجوانب؛ نظراً إلى طبيعة المرحلة التي عاشتها الأمة في تلك الحقبة، والتركيز على الجوانب اللغوية والدينية والأدبية، فقد شهدت الأمة صراعاً دموياً مع الغزاة، فكانت هناك حاجة ماسة إلى المحافظة على الهوية العربية الإسلامية "خشية أن تضعف أو تضمحل، أو يصيبها وهن"⁽⁴⁾.

* كتب في صناعة الإنشاء، وما يتصل بها

كان من أبرز مظاهر تطور ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي، ظهور تصانيف عديدة، تتحدث عن صناعة الإنشاء: نظمها من كتابة وإنشاء وإدارة ومراسيم ومصطلحات، ومن حديث عن الورق وأنواعه، والقلم وأشكاله المختلفة، إلى العناية بالألقاب والتتبع التاريخي لنشأتها. وستتناول الباحثة هذه المؤلفات من حيث أهميتها وليس من حيث تواردتها الزمني.

ومن أشهر الكتب التي صنفت في هذا العصر، كتاب "معالم الكتابة ومغانم الإصابة" لعبد الرحيم بن شيث القرشي. ويُعدّ هذا الكتاب من أفضل الكتب التي ألّفت في كيفية صناعة الإنشاء في العصر الأيوبي⁽⁵⁾. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس أول مؤلف في الكتابة زمن الأيوبيين، بل سبقه تصانيف عدة منها: "قوانين الدواوين" لابن مماتي، إلا أن هذا الكتاب وغيره من الكتب كان يعنى بجمع المكاتبات، بالإضافة إلى العناية بديوان الإنشاء دون الالتفات إلى العناية بالكتابة الإنشائية، مما جعل كتاب "معالم الكتابة" يمتاز في محتواه، وتبين لنا قيمته، حين نجد القلقشندي يعده المصدر الوحيد الذي يوضح حال الكتابة الإنشائية زمن الأيوبيين.

⁽⁹⁾ القانون في ديوان الرسائل — ابن الصيرفي: 8.

⁽¹⁰⁾ صبح الأعشى — القلقشندي: 75/1.

⁽¹⁾ القانون في ديوان الرسائل — ابن الصيرفي: 13.

⁽²⁾ صبح الأعشى — القلقشندي: 66/1-67.

⁽³⁾ المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء — الأثير: 52.

⁽⁴⁾ البحث الأدبي — شوقي ضيف: 54.

⁽⁵⁾ أشار إلى ذلك د. عبد الجليل عبد المهدي في كتابه "الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي": 166-169.

وينفرد هذا الكتاب، بأنه لم ينقل عن غيره من المؤلفات، بل اعتمد فيه المؤلف على نفسه، وأن كل ما كتبه هو من وحي الخاطر بديهة، وارتجالاً⁽⁶⁾. يقول حسن باشا: "ولعل هذه الظاهرة نادرة في العصور الوسطى، إذ درج الكتاب على نقل كثير من مؤلفات السلف، والمعاصرين؛ ربما لقناعة المؤلف بأنه يشق طريقاً جديداً في موضوع تصنيف المؤلفات المتعلقة بديوان الإنشاء، وليس أدل على قيمة ما

22

كتبه ابن شيث في هذا الباب، من أن القلقشندي بعد قرنين من الزمان قد نقل معالم الكتابة بأكمله في كتابة "صبح الأعشى"، وزاد عليه أمثلة من عنده تتعلق بمصطلح الكتابة في عصره⁽¹⁾.

ويذكر ابن شيث أن السبب في تأليفه الكتاب، هو طلب بعض الأصدقاء منه كتاباً كان قد ألفه لهم في أصول الكتابة، فاعتذر لهم لعدم وضوح الكتاب، وغموض الخط، فلم يقبلوا عذره، فوضع لهم هذا الكتاب عوضاً عنه.

والكتاب يقع في مقدمة وثمانية أبواب، أما المقدمة: فقد ذكر ابن شيث فيها ضعف حال الكتابة في عصره، مما دعاه إلى تأليف كتاب في إصلاح حالها. يقول: "وبعد، فقد كنت ألفت كتاباً في رسوم الكتابة التي سقطت في هذا الوقت تأوها، وطمست أنباؤها، فالدارج عن سبيلها دارج، والداخل فيها عن طريقها خارج، والحاسب فيها راجم بطنه وحاصب، وحاطب ليل لا يأمن من المعاطب"⁽²⁾.

ويتحدث ابن شيث عن منهجه، فيقول: "ولم أرسّم فيه شيئاً مما تقدم من مكاتبتني؛ لأنني لاسترجاع ما يصنّر مني غير معوّدٍ وأكثره لم يكن له عندي أصل؛ لأثّه غير مسوّد"⁽³⁾. وجاءت أقسام الكتاب في ثمانية أبواب، هي:

الباب الأول: وفيه مطلبان، المطلب الأول: فيما يجب تقديمه، ويتعين على الكاتب لزومه: ويبين ابن شيث بداية فضل كتابة الإنشاء؛ ليسوغ بعد ذلك سرد ما يتعين على مزاولها من أمور⁽⁴⁾.

"ولفن الكتابة والإنشاء آداب، لا بُدّ للكاتب أن يجعلها دأبه، وأوتاد لا غنى له أن يشدّ عليها أسبابه، منها التقوى، وتجنب الرُشَى، والتزام الأدب مع المولى واحترامه، وغير ذلك من الصفات، بالإضافة إلى العناية بأدوات الكتابة، والاستعداد، والتهيؤ لها مثل بري الأقلام، ومداد الدواة. ويرى ابن شيث ضرورة مطالعة الكاتب كتب التواريخ والأخبار؛ لأنها توقعه على مفاصل الأمور، ليتمكن من ربط الماضي بالحاضر، وينبغي أن يكون لكل كاتب تعليق خاص يشتمل على نعوت الناس"⁽⁵⁾.

(6) معالم الكتابة ومغامم الإصابة - ابن شيث: 25.

(1) الألقاب الإسلامية - حسن باشا: 43-44.

(2) معالم الكتابة - ابن شيث: 23-24.

(3) المصدر نفسه: 24-25.

(4) ابن شيث القرشي حياته وآثاره - نخلة الحرثاني: 69.

(5) معالم الكتابة - ابن شيث: 27-42.

وأما المطلب الثاني في آداب كُتّاب الملوك، وأركان الدولة، فقد تحدث فيه ابن شيث عن كُتّاب الملوك، إضافة إلى تعريف بالدواوين المختلفة في عصره من صاحب ديوان الإنشاء، وصاحب ديوان الجيش، وصاحب ديوان الإقطاع⁽¹⁾، وصاحب ديوان المال⁽⁷⁾.

23

ونلاحظ أن ابن شيث رغم عنوانه لهذا الباب "آداب كتاب الملوك وأركان الدولة"، ما فتئ يتحدث عن العاملين في الدواوين المختلفة، وبذلك أعطى صورة واضحة عن التكوين العام للدواوين في عصره وهو باب في غاية الأهمية، يبين حال الدواوين في عصره من حيث التنوع والارتباط⁽¹⁾.
الباب الثاني: في طبقات التراجم، وأوائل الكتب، وما يكون به التخاطب بين المتكاتبين على مقدارهما. وهذا الباب من أهم ما يُميّز كتابه، إذ يحدد فيه قواعد الكتابة الإنشائية في عصره.
الباب الثالث: "في ذكر وضع الخط وحروفه، وبري القلم وإمساكه"، ويذكر في هذا الباب أنه نقله من كلام بعض الكُتّاب مع الاختصار فيه⁽²⁾.

الباب الرابع: تحدث فيه عن العلوم البلاغية، وما يتصل بها من إيجاز وإطناب وسجع، وقد بدأ ابن شيث بذكر فضل هذا العلم، فقال: "أعلم أن هذا الباب هو الذي عليه المعول في الكتابة، وفيه تتفاوت أقدار الكُتّاب، وهو الذي فضل الله به من آتاه من عباده فصل الخطاب"⁽³⁾. وقد عني ابن شيث بالبلاغة، وأشاد بمحاسنها عن طريق إظهار فضلها⁽⁴⁾.

الباب الخامس: "في ألفاظ يقوم بعضها مقام بعض، لا يستغني عنها الكاتب"، ويقصد ابن شيث في هذا الباب الترادف، وهو يهدف من خلال بيانه إلى التوسع في الألفاظ، وإعطاء مادة وفيرة منها، يمكن للكاتب من خلالها أن يتجنب التعسر في انتقاء ما يريد⁽⁵⁾.

الباب السادس: "في الأمثال التي يدمجها الكاتب في كلامه"، ويستشهد بها نظماً عند توغله في القول واقتحامه، فهو يرى أن إيراد البيت الشعري في مكانه، والتمثل بالمثل السائر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة، وفنونها⁽⁶⁾.

⁽⁶⁾ هو نظام وضع منذ عهد السلاجقة في العراق على أساس الاستعاضة به عن المرتبات، وفي مصر بدأ هذا النظام مع الإخشيديين، وقد طبقه صلاح الدين في عصره، واستمر بعده. ينظر: نظم دولة سلاطين المماليك: 140/1-141.

⁽⁷⁾ ابن شيث القرشي حياته وآثاره - نخلة عبد الكريم الحرتاني: 74.

⁽¹⁾ ابن شيث القرشي حياته وآثاره - نخلة عبد الكريم الحرتاني: 74.

⁽²⁾ الكلام الذي نقله: يقول محقق الكتاب، من المرجح أن ما نقله، قد أخذه من رسالة ابن مُقْلَة في "علم الخط والقلم"، فالذي ينقله ابن شيث، يكاد يطابق ما نقله القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" عن ابن مُقْلَة في الأمور التي تتعلق بالخط، وابن مقلة، هو محمد بن علي بن الحسين، توفي سنة

328 هـ. ينظر: صبح الأعشى: 3/23 - 36.

⁽³⁾ معالم الكتابة - ابن شيث: 89.

⁽⁴⁾ ابن شيث حياته وآثاره - نخلة الحرتاني: 83.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 110.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 138.

ولعل الباب السابع: لم يصل إلينا كاملاً، فقد أشار القلقشندي على لسان ابن شيث إلى الجزء الذي لم يتضمَّه الكتاب، مما يدل على أنه في الجزء الذي فُقد⁽⁷⁾. وهذه الإشارة هي "وأما الشعر فيورده حيث يحسن إيراده، ويمنعه حيث يحسن منعه، فليس كل مكاتبة يحسن فيها إيراد الشعر"⁽⁸⁾. وهذا يبين أن الموضوع الساقط من الباب السابع يتعلق بالكتابة الإنشائية من حيث الاستشهاد بالشعر، ويعزز هذا القول، أن هذا الباب يأتي بعد الباب السادس الذي أورد فيه الأمثال منظومة.

24

الباب الثامن: "فيما لا بد للكاتب من النظر فيه والتحرز منه"، وكثيراً ما يسقط فيه كثير من الكتاب، وخاصة فيما يكتب بالياء والألف من الأفعال، وفي ألفاظ يغلط فيها كثير منهم⁽¹⁾.
لقد كان الغرض من هذا الكتاب، هو إعداد كاتب الإنشاء، وإمداده بكل ما يحتاجه في هذه الصناعة، ثم العمل على توحيد المصطلح، والألقاب في ديوان الإنشاء. يقول محمد حسين شمس الدين محقق الكتاب: "إنه كتاب ريادي في بعض أبوابه، ففيما يتعلق بالقسم الخاص بالمراسيم والألقاب، فقد عمل المؤلف على توحيد مصطلح لديوان الإنشاء، مسترشداً بما توافق عليه معظم الكتاب في عصره من ناحية، وبما يتماشى مع حكم الشرع، وكرامة الأفراد عامة، والكتاب خاصة من ناحية أخرى"⁽²⁾.
كان ابن شيث قد ولي ديوان الإنشاء في كل من مصر، والقدس ودمشق، وبالتالي فإن كل ما كتبه من ألقاب، ومصطلحات، تدلل على أن المصطلح في مصر والشام، كان قد توحّد في العقدين الأخيرين من العصر الأيوبي، وأخذ يتشكل بصورته إلى أن انتهى في عصر المماليك.
يأتي كتاب "المفتاح المنشأ لحديقة الإنشا" لابن الأثير من حيث الأهمية في المرتبة الثانية بعد كتاب "معالم الكتابة"، وهو يسير على نهجه، وطريقته، فهو كتاب تعليمي حاول فيه صاحبه أن يُقدّم خلاصة تجربته التي استوت على سوقها إلى ناشئة الكتاب بشكل نظري وعملي، ويقع الكتاب في مقدمة وبابين، أما المقدمة: فقد تناول فيها أهمية الكتابة، ومكانتها بين الصناعات الأخرى، ثم تحدث عن الصفات الواجب توافرها في كاتب ديوان الإنشاء، وهو يدقق كثيراً في اختيار الكاتب، إذا لم تتوافر فيه الشروط فيجب أن يترك مكانه لغيره⁽³⁾. وقد اشترط بعض الصّفات التي لا بُد من توافرها في الكاتب، منها ما يتصل بالناحية النفسية، وبعضها بالناحية الذهنية، وثالثة بالناحية الثقافية.

(7) صبح الأعشى — القلقشندي : 307/6. ينظر: ابن شيث القرشي حياته وآثاره — نخلة الحرتاني: 8.

(8) صبح الأعشى — القلقشندي : 307/6.

(1) معالم الكتابة — ابن شيث: 175-180.

(2) المصدر نفسه: 19.

(3) المفتاح المنشأ — ابن الأثير: 111.

يتحدث ابن الأثير في الباب الأول عن مراتب المكاتبات والمخاطبات، وكيفية وضع الأسماء، وأين يكون محلها، وصور العنونات. ويقع هذا الباب في اثني عشر فصلاً، وهي فصول صغيرة، تُعطي لمحات وإشارات لمتعلمي هذه الصناعة. ومن هذه الفصول:

- فصل يتناول فيه الكتب الصادرة من الأدنى إلى الأعلى، فيوجب على من يكتبها أن يخليها من البسمة، أما إذا كانت هذه الكتب صادرة من ذوي الرتبة أو المنزلة الواحدة، فلم الخيار في افتتاحها بما شاءوا من أسماء الله تعالى⁽¹⁾، ثم يتحدث عن كيفية كتابة الخطاب، فأعلى المنازل أن يبدأ كتابه بتقبيل الأرض إلى من وجه إليه الخطاب، ويخاطبه حسب منزلته، وله أن يتدرج في الألقاب، أما إذا نقصت مرتبة المخاطب، فإن الكاتب أيضاً يقلل من صفاته، إلى أن يصل إلى أدنى المراتب⁽²⁾.

25

- فصل في رد الأجوبة مع مراعاة منزلة المرسل إليهم⁽³⁾.

- فصل في توقيع الخطاب، كأن يقول: "يعتمد ذلك، أو يفند، أو ما شاكل ذلك من ألفاظ، ثم يوقع في النهاية بين السطرين بابين فلان، أو فلان، أو ما شاء من ألفاظ، أو عبارات ذات معنى⁽⁴⁾.

- فصل في صور العنونات في كيفية كتابتها إلى ملوك المسلمين، وإلى أهل الملل المخالفة لدين الله، حيث ينبه أنه لا يجوز أن نخاطبهم بالظفر، أو بعلو المكانة، أو بالدعاء لهم في الآخرة⁽⁵⁾. وينتهي ابن الأثير كلامه في هذا الباب بقوله: "وقد أتينا في هذا الحجم الصغير على جزئيات يُستدل بها على كليات هذه الصناعة"⁽⁶⁾. أي صناعة الكتابة، فهو لم يقصد إلا وضع بعض المثل، فمن شاء سار عليها، أو اقتبس منها، ومن شاء قاس عليها، حتى يصل إلى ما يريده من فن الكتابة⁽⁷⁾.

وأما الباب الثاني: فقد تكلم عن الأدعية التي تصدر بها الكتب، وينقسم إلى ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: في الأدعية الإسلامية، ويرى أنها تدور حول رفع علو المنازل، ونصر الله للعزائم، وإسباغ النعم عليها، وإهلاك الأعداء بسيوفها، وغير ذلك من أدعية تتفق والمنهج الإسلامي، وكلها في أسلوب قائم على السجع، والازدواج، ونثر بعض آيات القرآن، أو الشعر العربي⁽⁸⁾.

(4) المصدر نفسه: 57.

(5) المصدر نفسه: 57-58.

(1) المفتاح المنشأ لحديقة الإنشا- ابن الأثير: 58-59.

(2) المصدر نفسه: 59-60.

(3) المصدر نفسه: 60-61.

(4) المصدر نفسه: 61.

(5) المصدر نفسه: 120.

(6) المصدر نفسه: 57-58.

- الفصل الثاني: عقده في الأدعية لأرباب الملل من غير الإسلام، وهي أدعية كلها تدور حول نعم الله الجارية على المخاطب، وأن يعطيه الله من الدنيا ما يتمناه، وأن يديم عليه نعمه، وغير ذلك من الأدعية، وهي أدعية تدور حول الدنيا وما فيها، والمنزلة التي يحظى بها المدعو له بين أبناء دينه⁽¹⁾، أما النصر والرضوان فهذه أدعية إسلامية.

- الفصل الثالث: عقده ابن الأثير لتوابع الأدعية التي تقع بعدها، وهذه التوابع ليست مختصة فقط بالأدعية الإسلامية، بل بالأدعية مطلقاً، يقول: "وهي أن يقول: ينهي، يوضح، يشعر"⁽²⁾.

26

- وعقد فصلين، يتحدث في أحدهما عن علوم البلاغة التي يحتاجها الكاتب، وركز بصفة خاصة على الألوان البديعة، ولم يدرس من علم البيان إلا الاستعارة، والكناية، أما علم المعاني فلم يتطرق إليه⁽³⁾. ويتحدث في الآخر عن عيوب القافية كالإقواء، والتضمين، وغيرها. وختمه بأبيات شعرية في أغراض مختلفة، تصلح للتمثل بها أثناء الكتابة⁽⁴⁾. ونلاحظ أن الكتاب جمع فيه صاحبه بين التنظير، والتطبيق. فقد قعد القواعد، ثم جاء بأمثلة تطبيقية، حتى لا يكلف ناشئة الكتاب عناء البحث،

والمشقة عما يريدون⁽⁵⁾. وعلى الرغم من صغر الكتاب، فهو يُمثل حلقة ناضجة في سلسلة النشوء، والارتقاء البلاغي، والكتابي، بأسلوب سهل، ولذا فإن من جاءوا بعده استفادوا كثيراً منه سواء من عمل في الديوان، أو من ألف في هذا المضمار⁽⁶⁾.

ويأتي في المرتبة الثالثة كتاب "قوانين الدواوين" للأسعد بن مماتي من حيث الأهمية، وقد وصف ياقوت الحموي الأسعد بن مماتي: "بأنه أحد الرؤساء الأعيان الجلّة، والكتاب الكبراء المنزل"⁽⁷⁾. والكتاب في مجموعه يتناول أموراً تتعلق بديوان الإنشاء وبغيره مثل الحديث عن البيئة الجغرافية، والزراعية في مصر، والحديث عن ديوان المال، والحسابات. وقد جعل المؤلف الكتاب في خمسة عشر باباً، أهمها الأبواب التي تحدثت عن الكتابة وديوان الإنشاء، وهي:

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 83-84-85.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه: 86-87-88.

⁽¹⁾ المفتاح المشأ لحديقة الإنشاء- ابن الأثير: 91-102.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 103-109.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 171.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 171-172.

⁽⁵⁾ معجم الأدباء- ياقوت الحموي: 635/2.

- الباب الأول: "تناول فيه فضل الكتابة والكتاب، وما جاء في ذلك من الآيات المحكمات، والأخبار المرويات"⁽¹⁾، ثم تحدث عن الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الكتاب، يقول: "وإشارة إلى ما يكمل به في الخدم تأديبهم، يجب أن يكون الكاتب حرًا مسلمًا، عاقلًا، فقيهاً، أمينًا، حاد الذهن"⁽²⁾.
- ويتحدث في الباب الثامن: عن "أسماء المستخدمين من حملة الأقلام، وما يلزم كلا منهم، وهم لا يتجاوزون سبعة عشر رجلاً، بمن فيهم من يلزمه رفع الحسابات، وإن لم يدخل في عداد الكتاب.
- ويتحدث في الباب التاسع: "عن المعاملات السلطانية، والجهات الديوانية كالزكاة، والجوالي"⁽³⁾، والمواريث، والثغور المحروسة"⁽⁴⁾.

27

- ويتحدث في الباب الثالث عشر: عن أقسام الكلام المنثور، ويبدو أن هذا الباب هو عنوان فقط دون شرح لأقسام الكلام، ولم يصل إلينا"⁽⁵⁾.
- في الباب الرابع عشر: يتحدث عن أنواع الوراقاة المضطر إليها الكتاب، فيقبّح الخروج فيها على ما اصطلاح عليه من أوضاعها"⁽⁶⁾. وهذا الباب لم يصل إلينا، فهو عنوان، دون شرح لأقسامه.
- أما بقية أبواب الكتاب: فقد تحدث فيها الكاتب عن أمور لا علاقة لها بالكتابة وصناعتها. والقارئ لهذا الكتاب يلمس صعوبة في فهم بعض العبارات الواردة؛ نتيجة ميل الكاتب إلى الاختصار؛ مما يجعل بعض أجزاء الكتاب غير واضحة"⁽⁷⁾.

⁽⁶⁾ قوانين الدواوين - الأسعد بن مماتي: 61-69.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 64-65-66-67.

⁽⁸⁾ هي الجزية الواجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان. ينظر: قوانين الدواوين: 317.

⁽⁹⁾ قوانين الدواوين - أسعد بن مماتي: 317.

⁽¹⁾ قوانين الدواوين - أسعد بن مماتي: 58.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 58.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 70.

الفصل الثاني

الاتجاه السياسي

محتويات الفصل الثاني

67-30.....	أولاً: رسائل الجهاد
33-30.....	* الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والجهاد
38-33.....	* الاستنجد
39-38.....	* التهديد
46-39.....	* البشارات
51-46.....	* صورة المعركة
48-46.....	أ- المعركة البرية
51-48.....	ب- المعركة البحرية
56-51.....	* صورة البطل المسلم
58-56.....	* صورة الفرنج
62-59.....	* وصف الحصون والقلاع
64-62.....	* وصف الأسلحة وأساليب القتال
67-64.....	* العلاقات السلمية
65-64.....	أ- المجاملات
67-65.....	ب- المهادنات
82-67.....	ثانياً: المخاطبات الإعلامية
72-68.....	* المنشورات
73-72.....	* التقليدات
76-73.....	* التوقيعات
78-77.....	* التذاكر
81-78.....	* الإخباريات
82-81.....	* كتب الأمان

أولاً: رسائل الجهاد

تعرضت البلاد الإسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجريين لهجمات متعاقبة، فقد اندفعت جحافل الفرنج التي جُمعت من شتى أنحاء أوروبا مدعومة بطاقتها المادية والعسكرية، قاصدة ديار الإسلام، معتمدة على أوضاع المسلمين المتردية الضعيفة وخلافاتهم الداخلية، فقد كانت بلاد الشام مسرحاً لتلك الخلافات السياسية والمذهبية بين الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر⁽¹⁾. وكان الأمراء في بلاد الشام متفرقين، ويُغزون في عقر دارهم، وكل منهم يعتمد على جهوده الخاصة، وبعضهم كان تابعاً لبغداد، والآخر للقاهرة، ولم يهتم أحدٌ منهم بمصير الآخر. وكانت مصر تعاني من فوضى متفشية في النظام السياسي، وانقسامات داخلية⁽²⁾. وقد عانى المسلمون من وجود الغزاة على أرضهم أيماً معاناة، حتى قبض الله - سبحانه وتعالى - لهم القيادات الواعدة التي تصدت للغزاة ممثلة في عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، ثم في صلاح الدين الذي استطاع أن يوحد مصر والشام تحت قيادة واحدة، وتمكن من استعادة الأراضي الإسلامية المغتصبة من أيدي الغزاة بعد أن خاض معهم معارك عدة، وتوج ذلك بفتح القدس سنة 583هـ، فأعاد للإسلام العزة والكرامة. وظهرت أصداء ذلك كله في أدب هذا العصر، ممثلاً بالنثر الفني الذي واكب الحروب الدائرة بين المسلمين والغزاة.

وتدل رسائل الجهاد على أنها شاركت في ذلك العصر في حمل رسالة الجهاد إذ تصدى الأدباء لمواجهة الأعداء بالكلمة الموحية المؤثرة؛ ليبعثوا في المسلمين روح الجهاد، ويستحثوهم على مواجهة الغزاة والتصدي لهم.

وقد تنوعت رسائل الجهاد تنوعاً ملحوظاً؛ لتنوع المضامين التي كانت تعبر عنها، فقد كتب الكتاب رسائل تتضمن محاور عديدة منها: الدعوة للوحدة الإسلامية، ورسائل الاستتجاد على ألسنة السلاطين إلى الخلفاء والملوك والأمراء المسلمين، ورسائل التهديد، وتصوير المعارك البرية والبحرية، ووصف الحصون والقلاع، والأسلحة، بين الطرفين وغيرها. وأول محور من محاور رسائل الجهاد:

* الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والجهاد

عانى المسلمون في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري من تمزق سياسي واجتماعي واقتصادي، فقد واجه المسلمون في هذا العصر خطرين عظيمين في وقت واحد لا يقل أحدهما عن الآخر في خطورته. الخطر الفرنجي القادم من أوروبا والمدعوم بكل الإمكانيات المادية والبشرية، أما الخطر الآخر فيتمثل في حكام الدويلات الإسلامية الممزقة في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر فقد كانوا منشغلين بأنفسهم، ودفعهم هذا التفرق إلى مراسلة الفرنج ومهادنتهم بالمال. وقد ظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية مع تزايد هذين الخطرين.

(1) صلاح الدين - حب: 45-60.

(2) القاضي الفاضل ودوره التخطيطي - هادية دحان: 231.

وحين أدركت الأمة الإسلامية أسباب هزيمتها أمام الفرنج، عمل عماد الدين ثم ابنه نور الدين على إصلاح البلاد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا، ومن ثم وضع أساس للوحدة الإسلامية، عندما ضم نور الدين مصر والشام تحت قيادة واحدة. وجاء صلاح الدين الأيوبي فأتم ما قام به نور الدين، حيث قضى سنوات طوالا في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية. وكان الفرنج يحرضون على إذكاء نار الفتنة والخصومة بين أمراء الشام الخارجين على صلاح الدين، حينما حاول توحيد بلاد الشام، حتى تستمر حالة الضعف والتمزق، وهذا ما يؤكد أحد مؤرخيهم "وليم الصوري"، إذ يقول: "ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل إسماعيل لا مراعاة لصالحه، بل لتشجيعه باعتباره عدوا لصلاح الدين"⁽¹⁾. وشارك الكتاب الأمة وحكامها النطلع إلى الوحدة، إذ تردد صدى العمل لتحقيق الوحدة الإسلامية في أدب هذا العصر، وخاصة في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير. وقد كتب الكتاب العديد من الرسائل عن صلاح الدين، مصورين فيها الأحداث التي مرت بها بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، حيث تفرقت كلمة الأمراء الزنكيين وتشعبت آرائهم، ومالوا إلى مراسلة الفرنج ومهادنتهم، مما دفع صلاح الدين إلى توحيد البلاد وإخضاع الأمراء المنشقين، حتى يتفرغ لهدفه الأعظم، وهو القضاء على الفرنج وفتح بيت المقدس.

وكان الفاضل بصفته وزيرا لصلاح الدين قد كتب العديد من الرسائل عنه، تعبّر عن هذه الأحداث، وتصور صراع صلاح الدين مع أمراء الموصل من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى. وتتبدى نظرة الفاضل إلى الدعوة إلى الوحدة والجهاد في الرسالة التي كتبها عن صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل بعد وفاة نور الدين، وهي رسالة امتزجت بالتهنئة فيها بالتعزية، وبعد أن أطال الكاتب في التفجع على الفقيه، وتهنئة ولده القائم بالأمر من بعده، يختم رسالته بالهدف الحقيقي الذي يسعى إليه صلاح الدين وهو وحدة البلاد، فهو يدعو الأمراء إلى الطاعة والحفاظ على الوحدة حتى لا يطمع العدو فيها، فإن تخاذلوا فهو الناصر لبيت نور الدين، يقول: "فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، فكونوا يدا واحدة وأعضادا متساعدا"⁽²⁾.

ويتوكأ الكاتب في حديثه عن الوحدة على الاستلham من القرآن الكريم؛ لأن الكاتب يؤمن إيمانا راسخا بأن التركيز على المعاني الدينية في هذا المجال يؤدي إلى الاستثارة المتوقعة، يقول: "ولا تختلفوا فتتكلموا ولا تنزعوا فتفشلوا"⁽³⁾⁽⁴⁾.

ويبين الفاضل بأن صلاح الدين لم يكن راغبا في محاربة بعض الأمراء المسلمين، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية. يقول مسوغا قتاله المواصل: "وما كنا بشهادة

(1) الشرق الأدنى في العصور الوسطى - السيد الباز العريني: 53.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 320/2.

(3) سورة الأنفال آية 46.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 320/2.

الله في قتال المذكورين إلا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكرابك حدّ السنان، مضطرا في حكمه⁽¹⁾. وقد حمل الفاضل بشدة على الحكام والأمراء المسلمين الخارجين على الوحدة الإسلامية، وحملهم المسؤولية في تمكين الغزاة من ديار المسلمين، وذلك أن هؤلاء الخارجين هدرُوا طاقات الأمة وعطلوها، وعملوا على استنزاف القوى والموارد البشرية لمدة تزيد على إحدى عشرة سنة، كان من الممكن خلالها تحويل الطاقات العسكرية إلى فتح البيت المقدس الذي طال انتظاره. يقول: "والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد"⁽²⁾.

وفي إطار الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والجهاد اتخذ الكتاب من الدين والعقيدة رمزا للوحدة، لا سيما أن الطرف الآخر قد اتخذ من عقيدته وسيلة للتجميع والاستثارة. فقد كان الكتاب يسعون إلى نقل صورة واضحة عندما يستعرضون المواقف المتناقضة لبعض الحكام المسلمين، وما يقوم به صلاح الدين، ويبدو هذا من رسالة الفاضل التي وجهها إلى بغداد يقول فيها: "والعجب أننا نحامي عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم - مشغولين بهم، والمذكور ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه"⁽³⁾. ولكي يستثير الكتاب نفوس هؤلاء المتفاعسين عن نصرته الإسلام، أخذوا يقارنون بين موقف الأمراء المتخاذلين، وبين موقف الفرنج الذين جاءوا لحرب الإسلام من شتى بقاع الأرض بدافع الدين مع أنهم أصحاب باطل. يقول العماد: "فانظروا إلى الفرنج أيّ موردٍ وردوا، وأيّ حشدٍ حشدوا، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا"⁽⁴⁾. وفي سبيل توحيد مصر والشام وافق صلاح الدين على مهادنة الفرنج سنة 571 هـ، ليتفرغ لتوحيد بلاد المسلمين، ويصور الفاضل كيف أن المسلمين لم يكونوا راغبين في الهدنة. يقول: "وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون"⁽⁵⁾. ومن مظاهر حرص الكتاب على الوحدة أنهم كانوا يرجعون كل ما حققه صلاح الدين من انتصارات على الفرنج في بلاد الشام إلى الخليفة في بغداد، على الرغم من ضعفه، وعدم مشاركته في الحرب على الغزاة، اللهم إلا بالدعاء. ومن أجل ذلك تأثر الفاضل كثيرا حينما كتب صلاح الدين إلى ملك المغرب⁽⁶⁾ بلفظة أمير المؤمنين، واعتبر الكتابة خروجاً على خليفة المسلمين، وشرخا في وحدتهم. يقول: "ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب، جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله، ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه شاقين عصا المسلمين، مفرقين كلمة المؤمنين"⁽⁷⁾.

ومن أجل الحز على الوحدة والجهاد كان الكتاب يربطون دائما بين المدن الإسلامية، وبيتهجون أيما ابتهاج لانضمام الواحدة تلو الأخرى تحت قيادة صلاح الدين لمواجهة الفرنج. فعندما أخذ نجم الخلافة

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 229/3.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 107، وانظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 89/13.

(3) مفرج الكروب - ابن واصل: 110/2-112.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 316-317.

(5) سنا البرق الشامى - تحقيق فتحية النبراوي: 195، وانظر: كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 85/3، مفرج الكروب - ابن واصل: 35/2-36.

(6) هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، تصدى لهجمات الفرنج غربي الأندلس. توفي سنة 595. ينظر: وفيات الأعيان: 3/7-19.

(7) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 207/4.

الفاطمية بالأفول، شرع صلاح الدين في الإجهاز عليها، والقضاء نهائياً على شعائرها، ونادى بالخطبة لبني العباس، عبر الكتاب عن فرحتهم، حيث "أضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا"⁽¹⁾.

ورأى الفاضل في فتح حلب طريقاً ممهداً لفتح الفتوح، وهو تخليص بيت المقدس من الفرنج، وقد عبّر الفاضل في غير رسالة على لسان صلاح الدين عن ارتياحه لفتح حلب؛ لأنها مدخل الفرنج إلى بلاد الشام، ولأن في فتحها "انتظم الشمل الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وأصبحت الألفة واقعة والمصلحة جامعة"⁽²⁾.

وكان العماد يرى في اتفاق المواصلات مع السلطان بركة وخيراً، فكان أول بركاته أن "فُتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وأنجبت الملائكة والروح"⁽³⁾.

وكان الكتاب يرون أن وحدة المسلمين كانت تثير الهلع والفرع في نفوس الفرنج. يقول العماد في حوادث سنة 583هـ: "ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسير تلك العساكر إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله. وأن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله"⁽⁴⁾. ومن الجدير قوله: إن صلاح الدين لم يقتصر دوره على توحيد البلاد سياسياً، فقد سعى إلى توحيدها فكرياً، وعمل على نشر المذهب السني من خلال إنشاء المدارس ودور العلم وغيرها من المراكز الفكرية للوقوف في وجه المذهب الفاطمي وأثاره. فالصراع بين المسلمين والفرنج لم يكن صراعاً عقدياً فحسب، بل هو صراع بين حضارتين وثقافتين.

ولا شك في أنه إذا لم يكن تأصيل للأمة المسلمة في عقيدتها" فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية، معرضة للمد والجزر، ومن هنا تبدو ضرورة الوحدة الفكرية بل حتميتها، وهي حتمية" بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي، وتحفظ شخصيتها الحضارية"⁽⁵⁾.

* الاستجداد

سجل الأدب في هذا العصر الشدائد والمحن التي مرّ بها المسلمون، وصور نبضات القلوب عندها، وارتجاف الأفتدة من شدتها، ومن ثم وقف هذا الأدب يقوي عزائمها، ويداوي جراحها، ولعل من أشد الأوقات الحرجة التي عانى منها المسلمون حصار عكا عام 585 هـ. وكما كانت رسائل البشري والتهنئة بالفتوحات نتاج ساعات الجهاد والنزال، فإن رسائل الاستجداد أفرزتها أوقات الشدة وساعات المحن، وليس هناك محنة أشد ولا أصعب على صلاح الدين والأمة الإسلامية من مذبحة عكا. ففي سنة 585 هـ نزل الفرنج على عكا وحاصروها، وتوالت على الناس المصائب والمحن أثناء الحصار.

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 195/2-196.

(2) البرق الشامى - العماد الأصفهاني: 129/5، كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 161/3.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 241/3.

(4) المصدر نفسه: 278/3.

(5) نور الدين محمود - الرجل والتجربة - عماد الدين خليل: 129.

ورغم صبر المسلمين فإن الضعف سرى إلى نفوسهم، بسبب موت عدد من قادة صلاح الدين، بالإضافة إلى ضخامة الجيوش المعادية، وقوة الأسلحة وتنوعها، وطول مدة الحصار والقتال، وقلة النجدة؛ عندئذ أخذ الكتاب يوجهون نداءاتهم للحكام؛ ليضمنوا وصول المساعدات إلى عكا.

وفي ضوء الدراسة الفاحصة للنصوص التي وصلت إلينا من رسائل الاستتجاد ينجلي أن مجالات هذا اللون من الرسائل كانت منمازة بنوع من الثراء، وهذا الثراء متأث من تعدد النكبات التي تعرض لها المسلمون، مما حفز الكتاب على الكتابة في مثل هذا اللون من الرسائل.

وامتاز هذا اللون من المكاتبات بملامح فنية مميزة. ومن هذه الملامح كما أشار صاحب مواد البيان: "أن تشتمل هذه المكاتبات على حمد الله تعالى على جميل صنعه في إعزاز الكلمة، وإسباغ النعمة بإظهار الملة، وما وعد الله به من نصر لأوليائه، وخذلان أعدائه"، وعلى المنشئ فيها أن يذكر المسلمين بدينهم، وبفرض الله الجهاد على عباده المؤمنين، وينبغي على الكاتب أن يقدم لهذه الكتب "بمقدمات يرتبها ترتيباً يهز الأريحيات، ويشد العزائم"⁽¹⁾.

وتقوم رسائل الاستتجاد على محورين أساسيين: الأول يصور حجم الخطر المحدق بالأمّة، والثاني، يشتمل على دعوة الأمّة إلى النفير للدفاع عن الإسلام.

وأول ما تقف الباحثة عنده في هذا السياق رسالة الفاضل على لسان صلاح الدين إلى "سيف الإسلام" طغتكين⁽²⁾ في اليمن، يطلب منه العون والمشاركة في محاربة الفرنج المحاصرين لعكا. وقد أخلّى الرسالة من الرسم المتبع في مثل هذا اللون من المكاتبات، مكتفياً بنعت المخاطب بالمجلس السامي، ومن ثمّ الدخول في لبّ الموضوع مباشرة، وهو الحديث عن كثرة الإمدادات الواصلة إلى الفرنج وهم على حصار عكا، وهي إمدادات متنوعة برا وبحرا، يقول: "فإنهم، خذلهم الله، أمم لا تحصي، وجيوش لا تستعصى، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ويطمع في كل مدينة كسبا"⁽³⁾. والكاتب هنا يسرد ويفصل في تنوع الإمدادات حتى يشرك المخاطب في النتيجة المترتبة على المسلمين إن هو لم ينجدهم.

ويستلهم الكاتب الكثير من المعاني الإسلامية حتى يستثير المسلمين ويحثهم على مواجهة الغزاة، ونصرة الدين، ويبدو هذا في قوله "قاللبدار إلى النجدة البدار، والمسارة إلى الجنة، فإنها لا تُنال إلا بابقاد نار الحرب على أهل النار"⁽⁴⁾.

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 516. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 250/8.

(2) هو طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين، صاحب اليمن، مدحه الشاعر ابن عُتَيْن الدمشقي، توفي سنة 593هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 11، وفيات الأعيان: 523/2، مفرج الكروب: 105/2.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4، مفرج الكروب - ابن واصل: 351/3.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4، صبح الأعشى - القلقشندي: 25/7.

ويتعجب الكاتب من تكاتف الفرنج، ومن تخاذل المسلمين: "وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وفي ضلالهم الفاضح أبصر منا لهدانا الواضح"⁽⁵⁾.

35

وإذا كان الكاتب قد وصف الفرنج بالقوة فإنه في المقابل كان يلجأ إلى التقليل من شأنهم، ويؤكد قدرة المسلمين على دحرهم، فما هم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تعاوت⁽¹⁾. ويشدد الفاضل على ضرورة قيام سيف الإسلام بواجبه في الدفاع عن أراضي المسلمين، وتلبية نداء أخيه؛ لأن الجهاد فرض عين على كل مسلم. ويعبر الكاتب عن ثقة صلاح الدين بأخيه "العادل"، الذي سيجيش الجيوش الجرارة لنصرته، ونصرة الدين، فهو "لا يقعد عن أخيه إذا قامت الحرب بنفسه وماله، فلا نكنّ به ظنا أحسن منه فعلا"⁽²⁾.

ويلجأ الكاتب في ختام رسالته إلى إثارة الملك العادل بتصوير مبلغ الحاجة إلى العون، بألفاظ تثير العاطفة والوجدان، وتصور الشكوى. يقول: "وليحضر حتى يشاهد أولادا لأخيه يستشعرون لفرقتهم غمًا، وقد عاشوا ما عاشوا لا يعرفون أن لهم مع عمهم عمًا"⁽³⁾.

ويحدثنا العماد الأصفهاني في رسالة يخبر فيها عن وصول ملك الألمان⁽⁴⁾ إلى ديار المسلمين، وفيها يطلب العون لمواجهة الخطر الداهم. وتقوم الرسالة على محورين رئيسيين: الأول: تصوير حجم الخطر الذي دهم بلاد المسلمين، واصفا ملك الألمان بصفات ونعوت قد تستثير المسلمين، من مثل قوله: "وصل الخبر بالداهية الدهياء، والغمة الغماء، والنكبة النكباء، والشدة الدهماء"⁽⁵⁾. والعماد في رسالته هذه يسعى إلى تعبئة المسلمين نفسيا وماديا لمواجهة العدو، ومتخذا من الفرنج الذين اتخذوا من عقيدتهم وسيلة للتجميع والاستثارة، مضحين بكل ما يمتلكون لنصرة كنيسة القيامة أهم رموز الديانة النصرانية من مثل قوله: "وأنه في عصائب صلبان" و "فإن حسرتهم على قيامة دائمة، وقيامتهم قائمة"⁽⁶⁾. ويشير الكاتب إلى الحرب النفسية التي لجأ إليها العدو من إشاعة للأكاذيب على السنة المرجفين؛ للنيل من عزيمة المسلمين، ومن ثم يجعل الكاتب الدعوة إلى الجهاد عامة، يقول: "فقد تعين الجهاد على كل مسلم، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام، وأهم الفروض"⁽⁷⁾.

ومن رسائل الاستنجد في هذا العصر رسالة الفاضل إلى الديوان العزيز ببغداد، يصف فيها أحوال المسلمين في عكا بعد وصول ملك الألمان، ويطلب فيه العون والمدد. ولعل هذه الرسالة ترسم

⁽⁵⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4، صبح الأعشى - القلقشندي: 25/7.

⁽¹⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4، صبح الأعشى - القلقشندي: 26/7.

⁽²⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 26/7.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 27/7.

⁽⁴⁾ هو فردريك بربروس، هو أول من تحرك للحرب بعد حطين، تقدم بجيشه إلى آسيا الصغرى، تحرك عليه مرض شديد فهلك به، فخلفه ابنه حتى

وصل عكا حيث مات سنة 586هـ. ينظر: النوار السُلطانية: 370-371.

⁽⁵⁾ الفتوح القدسي - العماد الأصفهاني: 397.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 397.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 397.

ملاح أوضح لرسائل الاستتجاد في هذا العصر. وقد بدأ الفاضل رسالته بالدعاء للديوان العزيز، منتقياً ألفاظاً تناسب المرسل إليه وهو الخليفة. يقول: "أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي"⁽⁸⁾.

36

والفاضل لا يطيل في الدعاء للخليفة أو مدحه؛ لأن الوضع الأمني للمسلمين لا يحتمل هذه الإطالة، كما أن كتاب الفاضل هذا جاء جواباً عن كتاب ورد من الديوان العزيز، يستفسر فيه عن أحوال المسلمين في عكا. يقول: "ورد على الخادم ما كوتب به من الديوان العزيز"⁽¹⁾. والرسالة تجري من فاتحتها إلى خاتمتها على وتيرة واحدة، فهي تتخذ الاستتجاد سمة لها، ولا تفسح فرصة للمسلمين القاعدين عن هذه الفريضة بالتوصل، فقد جنح الكاتب من بدء الرسالة إلى التذكير بأحوال المسلمين، وتصوير مبلغ ذلهم وهوانهم، ويبدو أنه أراد أن ينقل صورة صادقة للمعاناة التي يجدها المجاهدون، وإبعاد أي اتهام لهم بالتقصير في جهاد أعدائهم، فهم يقومون بواجب الجهاد نيابة عن المسلمين، ومضى يلح على هذه الفريضة من خلال نثره لآيات من القرآن تؤكد هذا الواجب، فهم "مع كونهم أنضاء زحوف، وأشلاء حتوف، صابرين مكاثرين، قد قاموا بما قعد عنه سائرهم، كل ذلك طاعة لله ولرسوله ولخليفتهما"⁽²⁾.

ويصوب الكاتب سهام النقد للمسلمين نتيجة سياساتهم غير المسؤولة، متخذاً من الفرنجيين وتجمعهم وغيرتهم على دينهم، وسرعتهم لنجدة قومهم وأبناء جنسهم وسيلة لاستثارتهم. ويشيد الكاتب بجلد الفرنج على القتال، وصبرهم على مرّ النّصال، فقد هجروا الأهل والأوطان في سبيل عقيدتهم واستعادة قياضهم⁽³⁾. ويبدو أن الكاتب اجتلب هذا الأسلوب ليظهر للخليفة مدى حاجة المسلمين الماسة للعون. ويميل الفاضل بعد ذلك إلى ركوب أسلوب آخر من الاستتجاد، فقد استخدم ألفاظاً تثير العاطفة في نفس المرسل إليه، من مثل قوله: "ولولا أن في التصريح ما يعود على عدائه بالتجريح، لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب"⁽⁴⁾.

ويتسلل كاتب الرسالة في خاتمتها إلى استخدام لغة الشدة من خلال تنويهه بواجب الخليفة المسلم إذا ما دهم بلاد الإسلام خطر عظيم، مذكراً إياه بأن الجهاد واجب عليه وعلى كل المسلمين، معتمداً في لغته هذه على ثقافته الدينية المستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف. فقد تجلت مهارة الكاتب من خلال إشارته لبعض القصص القرآني المعبر الموحى؛ لكي يعبر عن ذلك بأقل الكلمات؛ فمن ذلك إشارته إلى قصة موسى -عليه السلام- وأخيه هارون مع بني إسرائيل الذين قعدوا عن القتال، وتخلوا عنهما، ليشبه بها حال صلاح الدين مع الأمراء المسلمين الذين لم يقفوا إلى جانبه في حربه مع

⁽⁸⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 127/7.

⁽¹⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 127/7.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 127/7.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 128/7.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 129/7.

الفرنج، من مثل قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أُمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾⁽⁵⁾. واستقى من الحديث النبوي ما يمس وجدان كل مسلم وأدخله في كتاباته بطريقة محكمة، من مثل قوله: "وكل من يعرفهم من أهل المعرفة،

ويراهم بالعين، يناشد الله المناشدة النبوية، "اللهم إن تهلك هذه العصابة⁽¹⁾"⁽²⁾. ويختم رسالته بالدعاء للخليفة متمنيا من أمير المؤمنين الإجابة⁽³⁾. وكتب الفاضل إلى بغداد رسالتين أخريين بعد هذه الرسالة، ولكن هذه الرسائل وجدت في بغداد أذانا صما وقلوبا غلغا. وقد أورد أبو شامة تعليقا للفاضل على أحد الكتب التي وصلت جوابا من بغداد، بقوله: "كتاب بغداد كتاب باردٌ غث جامد، ما فيه مقصود لقاصد، ولا صلة لعائد، ونحن نطلب الذهب الحار فنضرب في حديد بارد"⁽⁴⁾.

ويسلك صلاح الدين مسلكا آخر، فهو يستنجد بملك المغرب يعقوب بن عبد المؤمن على غزاة بلاد الشام. وقد كتب الفاضل ثلاث رسائل إليه، بيد أن هذه الرسائل لم تلق صدًى عند ملك المغرب.

ومن بين الرسائل التي أراها جديرة بالتناول رسالة الفاضل التي كتبها سنة 586هـ؛ لأنها أقرب ما تكون إلى صورة التقرير الذي يقيم الوضع في بلاد الشام، وتعبّر بوضوح عن نقطة مهمة، وهي أن الجهاد لتحرير الأراضي المقدسة والحفاظ عليها ليست مسؤولية المسلمين في مشرق العالم الإسلامي، بل هي مسؤولية جماعية تضم المسلمين شرقا وغربا؛ لأن الحرب حرب دينية واقتصادية وسياسية، وبالتالي تشبه رسالة الفاضل هذه أن تكون بلاغا سياسيا عاما لاستنفار المسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي، للانضواء تحت لواء الوحدة السياسية العقديّة، وتوحيد الصفوف لمواجهة العدو.

وتقوم رسالة الفاضل على عدد من المحاور المهمة. يدور المحور الأول حول الحديث عن جهاد صلاح الدين الطويل، وما من الله به من فتوحات، وخصّ بالذكر كسرة حطين وفتح بيت المقدس. ويشبه هذا المحور أن يكون توطئة تتيح للكاتب الانتقال إلى المحور الآخر.

ويلتف هذا المحور الجديد حول وصف الفرنج، والإمدادات الواسلة إليهم برا وبحرا، وهجرهم لبلادهم في سبيل عقيدتهم، فلم تمنعهم طول المسافات ولا كثرة المشاق من القدوم لحرب المسلمين، والاستيلاء على أراضيهم ومقدساتهم، فقد قدموا الشام غازين بجندهم وآلاتهم وأسلحتهم ما بين أقوات وأطعمة، إلى أن "شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة"⁽⁵⁾. والكاتب إذ يتحدث عن الفرنج وإمداداتهم، يعتمد إلى بعث الحمية في نفس المرسل إليه، وتدارك ما فات من المحن

(5) سورة المائدة آية: 25.

(1) اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم في بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد". ينظر: السيرة النبوية: 198/2.

(2) صبح الأعشى - الفلقشندي: 128/7.

(3) المصدر نفسه: 128/7.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 212/4.

(5) المصدر نفسه: 199/4.

التي تعرض لها المسلمون في عكا، ويخاطب ملك المغرب بألفاظ تنثير العاطفة. يقول: "فهو أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه"⁽⁶⁾.

ويقابل المحورين السابقين محوران آخران يدور حولهما الجزء الأخير من الرسالة. يتناول أول هذين المحورين حث سلطان المغرب على إرسال الأساطيل، وهو حث ممزوج بالعتاب، يمنع وصول الإمدادات للفرنج في عكا، أو إرسال الرجال والأموال لمساعدة المسلمين. وأما المحور الأخير فيتمثل

38

في الحديث عن بيان فضيلة الجهاد في الإسلام، وما ينتظر المجاهدين من أجر وثواب. ويتوكأ الكاتب في بناء هذين المحورين على المعاني الدينية، إذ تبدو الملامح الإسلامية شديدة الوضوح، وبخاصة أن موضوع الرسالة يتعلق بالجهاد من مثل قوله: "كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة"⁽¹⁾. إن الاستعانة بالمعاني الدينية أدعى إلى كسب تعاطف المخاطبين والتأثير فيهم. ويبدو أثر الثقافة الجهادية في لغة الكاتب وهي ثقافة استمدتها من أجواء المعارك. ومن الحديث النبوي، وذلك من مثل قوله: "تمدّها ملائكة مسومة معلمة تقدم حيازيمها إقدام حيزوم"⁽²⁾.

وخلاصة القول إن هذه الرسائل تقف شاهدا على طبيعة الصّراع بين المسلمين والفرنج إلى درجة دعوة الناس إلى النفير لصدّ الجيوش الغازية، والحفاظ على الأرض والمقدسات.

* التهديد

تعدّ رسائل التهديد والوعيد من أهم أشكال العلاقة المضطربة التي سادت في أكثر الأحيان بين الأيوبيين والفرنج. وقد تبادل الطرفان هذا اللون من الرسائل ضمن حرب نفسية هدفها تحطيم الروح المعنوية لدى الطرف الآخر، وكان الطرف المرسل يزهو بكثرة جيوشه، ويحاول أن يدخل في نفس المرسل إليه الفزع والرعبة، ويدعوه إلى الدخول في طاعته والانقياد لما يطلبه.

وقد دار هذا اللون من الرسائل في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد بلغ الصّراع أوجه إبان حكمه. وقد أثبت المسلمون براعة نادرة في التعامل مع الغزاة، واعتمدوا المفاجأة والحيلة والحذر، والقدرة على التخطيط والسرعة في التنفيذ.

وقد لوحظ أن الفرنج كانوا يبدؤون بكتابة الرسائل إلى السلاطين مباشرة، وكانت هذه الرسائل تمتلئ بالترهيب والوعيد على نحو ما هو معروف في مثل هذا اللون من المكاتبات، ويمثل هذا المنحى من الرسائل رسالة "لويس التاسع" إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب يتهدده ويتوعده، وينذره بأن يسلم دميّاط له. ويدأب لويس التاسع تقوم على تذكير الملك الصالح بطبيعة الصّراع القائم بين المسلمين والفرنج، وهو صراع بين عقيدتين، ملقبا نفسه بأنه أمين الأمة العيسوية، والملك الصالح بأمين الأمة المحمدية، وتقوم الرسالة كلها على العنف والتهديد، ولا تدع مجالا للتفاهم، ومما زاد من لغة التهديد تذكيره ببطش الفرنج للمسلمين في الأندلس، وما حلّ بأهلها.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 201/4.

⁽¹⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 201/4.

⁽²⁾ اسم فرس جبريل عليه السلام. وفي حديث بدر أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع صوته يقول أقدم حيزوم. ينظر: اللسان: مادة "حزم".

وقد استهل "لويس التاسع" رسالته بذكر نفسه، وأخّر ذكر الملك الصالح. وفي هذا الأسلوب من التقديم والتأخير من الإهانة ما فيه. وظهرت الإهانة مرة أخرى عندما أطلق نعتاً مشينة وصف بها المسلمين من مثل قوله: "ونسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء"⁽³⁾. ويعود لويس التاسع إلى لغة التهديد المباشر، وإصراره على غزو بقاع المسلمين، وإن خضعوا لشروطه من إظهار دينه، يقول: "فلو حلفت لي بكل الأيمان، وأدخلت علي الأقساء والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة

39

لصلبان، لكنتُ واصلاً إليك، وقاتلك في أعز البقاع إليك"⁽¹⁾. ويختم رسالته بنبرة الاستعلاء والغرور الواضحين، محاولاً من خلالها إدخال الرهبة في نفس الملك الصالح، واستعراضه لقوته وقدرته، وبما يملكه جيشه من عدة للحرب، ومن كثرة تملأ السهل والجبل⁽²⁾.

وقد سببت هذه الرسالة توتراً وإرباكاً في نفوس المسلمين، لا سيما أن الملك الصالح قد اشتد به المرض، واختلاف المسلمين حول الخروج للقاء الفرنج، ثم اتفقوا في النهاية على الخروج⁽³⁾. وقد كتب البهاء زهير رسالة على لسان الملك الصالح ردّ فيها على لويس التاسع بدأها بالبسملة، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم الدخول مباشرة في موضوع الرسالة، حيث خاطب لويس التاسع بضمير الخطاب تقيلاً لشأنه، فقد قصد الكاتب ردّ الإهانة مضاعفة، واصفاً المسلمين بأنهم أرباب السيوف، ومذكراً إياه بالانتصارات التي حققها المسلمون على الفرنج في عهد الناصر صلاح الدين، وأنه سوف يندم أشد الندم على كل الإهانات التي وجهها للمسلمين، يقول: "ولا بدُّ أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك"⁽⁴⁾.

ويتوكأ الكاتب في ختام رسالته على طائفة من غرر الآيات الكريمة الواردة في موضوع الجهاد من أجل تقرير الفكرة في نفس المتلقي، وهي تتمحور حول تأكيد فرضية الجهاد ضد الغزاة، وعن ثقة المسلمين بنصر الله، من مثل قوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾⁽⁵⁾. والكاتب يورد الآيات الكريمة دون تحوير؛ لبث الرعب في نفس المتلقي. إن هذا اللون من الرسائل يقف شاهداً على توتر العلاقات السياسية بين المسلمين والفرنج، وتكشف عن طبيعة الصراع بينهما.

وتشير الباحثة إلى أنها لم تقف إلا على هذه الرسالة، لتكون شاهداً على هذا المحور.

* البشارات

⁽³⁾ الخطط - المقرري: 611/1.

⁽¹⁾ الخطط - المقرري: 611/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 611/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 611/1.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 13-12/1.

⁽⁵⁾ سورة البقرة - آية: 249.

لون من ألوان النثر الديواني الذي اختُص بالتعبير عن مظهر من مظاهر الفرح التي كانت تعيشها الأمة بين فترة وأخرى. وقد دَبَّج الكُتَّاب في هذه الرسائل الأخبار السارة التي تحمل إلى سائر أنحاء الدولة بما تحقق من فتوح المدن، والانتصار على الأعداء.

وقد وصفها الفلقشندي بأنها "من أعظم المكاتبات خطراً، وأجلها قدراً؛ لاشتمالها على إنجاز وعد الله تعالى، الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين"⁽⁶⁾.

ويبدو أن السلاطين كانوا إذا بشروا بالنصر، فإن البشارة بالنصر تقرأ على الأسماع؛ لإشهار

40

الخبر وإشاعة البهجة والسرور⁽¹⁾. ولم يقتصر في إرسال هذه البشارات على داخل الدولة، بل كانت تُسير إلى الخليفة في بغداد، وإلى ملوك المسلمين في سائر الأقطار.

وكان الحديث عن الانتصارات التي كان يحققها المسلمون على أعدائهم حديث يدخل المسرة والفرح إلى نفوس العامة، فهو حديث يُشعر بالعزة ويجدد الثقة بنصر الله. ويمكنني أن أقسم هذا اللون من الرسائل إلى قسمين: قسم يتعلق بالفتوحات الداخلية التي استطاع من خلالها الأيوبيون توحيد مصر والشام تحت جبهة وقيادة واحدة. ومن بين رسائل البشرى التي تعرض هذا الجانب رسالة وجهها الفاضل على لسان السلطان صلاح الدين إلى الآفاق عند تمكنه من فتح حلب سلماً، ولعل من أهم ما يلفت الانتباه في الرسالة أن الكاتب دخل في صلب الموضوع مباشرة، وهو الحديث عن فتح حلب سلماً بعد أن استعصت على صلاح الدين، ولا شك في أن الدخول مباشرة في لبّ الموضوع على الصورة الواردة في الرسالة له ما يسوغه؛ لأن أمراً مبهجاً وساراً كالأمر الذي تعالجه الرسالة لا يحتمل الانتظار. ويُعنى الكاتب عناية شديدة بالحديث عن دور السلطان صلاح الدين في استعادة حلب، ويتخذ من الإجراءات التي قام بها محورا أساسياً في الرسالة، فيبدأ بعرض صورة تسليم حلب من صاحبها، وتعويضه عنها ببلاد الجزيرة، شريطة بقاءه في الخدمة العسكرية بنفسه وعسكره. يقول: "وعوّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدّة الموفورة"⁽²⁾.

ويتحول الكاتب بعد ذلك إلى استجلاء صورة وافية عن غرض صلاح الدين من فتح حلب، وهو تحقيق الوحدة الإسلامية، وتحويل الطاقات العسكرية لمقارعة الأعداء المتربصين، يقول: "لأن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نُضرئها، وأن تعظم في العدو الكافر نكايتها"⁽³⁾.

ونظراً لما لهذا الحدث من أثر كبير في نفوس المسلمين، سير صلاح الدين البشارات إلى سائر الأرجاء لنقرأ على مسامع الرعية حتى تعم الفرحة، مختتماً هذه البشارة بما منّ الله على المسلمين من فتح

⁽⁶⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 277/8.

⁽¹⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 277/8.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 161/3.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 161/3.

لهذه المدينة، متحدثا عن الآثار الإيجابية التي تركها الفتح في نفوس المسلمين؛ يقول: "ونشعر الأمير بما من الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وصدرت هذه البشرى والموارد قد أفضت إلى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديتها وحاضرها"⁽⁴⁾.

وأما القسم الآخر فيتعلق بالانتصارات على الأعداء. ومن الانتصارات المهمة التي أشاعت البهجة والفرح في نفوس المسلمين استعادة بيت المقدس إلى ديار الإسلام، فله مكانة خاصة في نفوس المسلمين، فهو مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم - وأولى القبلتين، وفيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وكانت عودة بيت المقدس إلى بلاد المسلمين من أهم الأهداف التي سعى إليها صلاح الدين،

41

فقد كان هذا الفتح حلما يراود المسلمين، وهو فتح تمناه الملوك، ولكنهم عجزوا عن تحقيقه في ظل ظروف صعبة عاشها المسلمون، لكن الآمال تحققت على يد صلاح الدين. وقد تحدث كثير من الأدباء المسلمين عن الفتح القدسي، وخصوه بعنايتهم، وعبروا إزاءه عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم⁽¹⁾، فقد كان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، فقد ارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتلهيل والتكبير، وخطب فيه، وخطب الصليب الذي كان على قبة الصخرة، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر⁽²⁾.

ويكفي أن نعلم أن العماد الأصفهاني عدّ هذا الفتح هجرة ثانية للتأريخ بها، فقد بدأ العماد كتابه الموسوم "الفتح القدسي" بسنة الفتح، ويعلل العماد ذلك بقوله: "وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس، وقائمتها السلطان صلاح الدين، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ ويُنسق، وهي وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية، فقد كان انتنى عن وطنه لما تنته يدُ الكفر ثانية"⁽³⁾.

ولقد عبّر صلاح الدين عن أهمية هذا الفتح عندما قال لابن أخيه "تقي الدين عمر"⁽⁴⁾. عندما أراد فتح المغرب: "لعمري إن فتح المغرب مهم، لكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل"⁽⁵⁾.

ومن الطبيعي أن يكون هذا الفتح باعثا كبيرا على إنشاء العديد من رسائل البشرى، ومن ذلك ما أنشأه كبار الأدباء في العصر الأيوبي من أمثال القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني وضياء الدين بن الأثير. وقد حملت رسائل البشرى خبر هذا الفتح العظيم إلى جميع الأمصار. يقول العماد: "لما تم

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 162/3.

⁽¹⁾ بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية - عبد الجليل عبد المهدي: 71.

⁽²⁾ النواد السلطانية - ابن شداد: 81-82.

⁽³⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 49.

⁽⁴⁾ هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملقب بالملك المظفر، أعطاه عمه صلاح الدين حماة وعدة بلاد من ديار بكر، قامت بينه وبين صاحب خلاط عدة وقائع وحروب، مات ببلاد الشرق سنة 587هـ. ينظر: وفيات الأعيان: 458/3، النجوم الزاهرة: 113/6-114، شذرات الذهب: 289/6.

⁽⁵⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 256/3-257.

الفتح الأكبر وخص وعمّ النجح الأظهر، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشري به إلى العراق، فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة⁽⁶⁾.
وستقف الباحثة على رسالتي بشرى كتبها كبار كتاب العصر الأيوبي وهما للفاضل وابن الأثير، أما رسالة العماد الأصفهاني فستعتمدها الباحثة نموذجًا لتحليل بناء الرسالة القدسية في هذا العصر في الفصل السادس من هذه الدراسة.
أما رسالة الفاضل القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز ببغداد⁽⁷⁾. فقد افتتحها بالبسملة والدعاء

42

للخليفة العباسي بالبقاء يقول: "أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري"⁽¹⁾. وهي مقدمة دعائية طويلة تحدث فيها عن الخليفة العباسي، وعن صفاته ومآثره، وفي هذا الافتتاح الفاضل القدسي براعة استهلال، وفيه تعظيم للمكتوب إليه. ويبدو حرص الكاتب على أن تكون مقدمة رسالته ملائمة للغرض الذي يريد، فهو يمدح الخليفة بصفات تتفق وموضوع رسالته، حتى جاءت مقدمته أشبه بمقدمات الشعراء في المديح.

وينتقل بعد هذه المقدمة إلى زف البشري إلى الخليفة بما أحرزه الناصر صلاح الدين من استعادة بيت المقدس من أيدي الفرنج، ومن أجل أن يبرز الفاضل عظمة النصر يقابل بين حال المسلمين قبل الفتح وبعده، ويركز على إظهار قوة الجيش الفرنجي، ومناعة تحصيناته⁽²⁾.

ومن ثم يدخل الكاتب في لبّ الموضوع، وهو وصف فتح بيت المقدس وآثاره، والحديث عن العدو الغازي، والمعركة، والأسلحة، وهي مواضيع تبدو في ظاهرها متعددة، إلا أنها مرتبطة بموضوع واحد. فقد ظل الفاضل في هذه الرسالة محافظاً على وحدة الموضوع، فالرسالة من بدايتها إلى خاتمتها تدور حول موضوع واحد وهو فتح بيت المقدس.

والكاتب يركز على فكرة مفادها أن النصر من عند الله، فهو وحده واهبه. يقول: "وقد كان الخادم لقيهم اللقية الأولى فأمدّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته"⁽³⁾.

لقد أطلق هذا الفتح فرحة المسلمين بهذا النصر، بعد أن يؤسوا من فتح بيت المقدس. ونظروا إليه على أنه حلم لن يتحقق، ولما تحقق كاد المسلمون لا يصدقون ما يحدث، "فاسترد المسلمون تراثنا

⁽⁶⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 181.

⁽⁷⁾ وردت الرسالة في مصادر عدة منها: أجزاء في كتاب الروضتين: 351-352، الدر النظيم: 15-34، صبح الأعشى: 496/6-504، وغيرها

⁽¹⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 496/6.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 499/6.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 499/6.

كان عنهم أبقا⁽⁴⁾ ولا يفتأ كاتب الرسالة أن ينتقد العدو في عقيدته "فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة"⁽⁵⁾.

وقد ركز الكاتب على المعاني العميقة لمفهوم الجهاد الذي كانت تقوم عليه معارك صلاح الدين، وهو سعيه إلى توحيد القوى الإسلامية تحت راية واحدة، وقد تردد صدى الوحدة الإسلامية في أدب تلك الفترة، يقول: "وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لتكون الكلمة مجموعة، والدعوة إلى سامعها مدفوعة فتكون كلمة الله هي العليا"⁽⁶⁾.

وإذا كانت الأهداف عظيمة فإن الوصول إليها ليس بالأمر اليسير -كما يقول الكاتب- فالتخاذل عن فريضة الجهاد يضعف قوة المسلمين في عيون الأعداء.

وقد درج الكتاب على الربط بين الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز، فالحجر الأسود يتلقى التهاني بخلص الصخرة المشرفة، فلقد ردّ صلاح الدين لهذا المسجد عهده، وأقام له من يخطب فيه

43

ويعظ. وأقيمت الخطبة الأولى بعد التحرير، حيث كادت السموات يتقطرن للسجوم⁽¹⁾ لا للوجوم، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم، كل ذلك من أجل أن ترتفع كلمة التوحيد التي كانت طرائقها مسدودة، وتجهر الألسن بالأذان للصلاة، وقد كان زمن الاحتلال معطلا⁽²⁾.

وفصل الفاضل الحديث عن أحوال الفرنج، ويصور ما لحق بهم معتمداً في صوره على مصادر متعددة منها الموروث الديني والشعري، والطبيعة، وأجواء الحرب التي كانت سمة بارزة من سمات عصر الكاتب، ومن صور الفاضل الحسية قوله: "وأجلبت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار وعن أنصاف نخيل، فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيّلوا بثأر من السلاح، ونالوه أيضاً بثأر"⁽³⁾.

ويسبغ الفاضل بعض الصفات التي لحقت بالعدو المهزوم على أسلحته، كما أنه يعمد إلى الموازنة بين ما كان عليه العدو قبل الهزيمة، وما أصبح عليه بعدها، ويبدو هذا في تصويره السيوف، فهي تبعث الكرى في العيون، وتصوير الرماح مجدوعة الأنوف، ويصور المعركة وقد كشفت عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وذلك بالسيوف القاطعة، والرماح التي تكسرت من كثرة الضرب والنزال. ويصور الرماح وهي تتبادل الطعان وتنتشر الموت، والقسي تخترم الأجال، فهي فاغرة أفواهها كأنها الأسود التي تفترس فرائسها.

(4) المصدر نفسه: 497/6.

(5) المصدر نفسه: 499/6.

(6) المصدر نفسه: 498/6.

(1) السجوم: مفردا "سجم" وهي المياه والأمطار والدموع - محيط المحيط - مادة سجم.

(2) صبح الأعشى - القلقشندي: 499/6.

(3) المصدر نفسه: 499/6.

ولكي يستكمل الكاتب ملامح الصورة، يستعين بألفاظ من القرآن الكريم عندما يصور السيوف بالأهلة، يقول: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾⁽⁴⁾. ويصور الفاضل المنجنقات بصورة جديدة، فهي التي تتولى عقاب الحصون بعصيتها وحبالها، وتمضغ حجارة الأسوار مضغاً، وتردها إلى سيرتها الأولى من التراب، وتسدّ على الهاربين سبيل النجاة، ولو أنهم كانوا الأكثر عدداً وإحصاءً. وأفاض الكاتب في رسم صورة للقائد ودهائه العسكري في المعركة، ومن هذا أننا نراه يعدل إلى جهة من جهات سور القدس، إلى جهة مناسبة موقعاً واستراتيجية، وحينما يطلب الأعداء الهدنة يرفض كيدهم، فما هو منهم إلا من لحن القول، وما هم في الحقيقة إلا منتظرو المعونات والإمدادات من أتباعهم⁽⁵⁾.

44

ويختتم الكاتب رسالته القدسية اختتاماً مناسباً مع هدف الرسالة المبشرة بالفتح العظيم مبيناً أن السلطان صلاح الدين جاد في فتح سائر الثغور. يقول: "وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك انفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً"⁽¹⁾. ومن الجدير قوله: إن هذه الرسالة تحمل خصائص الرسالة في ذلك العصر، منها اهتمام الكاتب بمفرداته متناسقة محكمة البناء، واستخدام المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق وغيرها من صور البديع التي شاعت في ذلك العصر. ويبدو افتتان الكاتب بالمادة القرآنية، فقد اتكأ عليها في كتاباته، فالقرآن الكريم من الضروريات التي ينبغي على الكاتب في ذلك العصر أن يلم بها. وهذه الرسالة تكشف عن براعة الفاضل في التصرف بالمادة القرآنية بصورة مباشرة وغير مباشرة، فتارة يوردها بلفظها ومعناها، وثانية يدخلها في تضاعيف رسالته حسبما تقتضيه ضرورة النص. ومن ذلك على سبيل المثال: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾⁽²⁾، وبدل الله "مكان السيئة الحسنة"⁽³⁾، ونقل بيت عبادته من أيدي "أصحاب المشأمة" إلى أيدي "أصحاب اليمين"⁽⁴⁾. وهو يعمد إلى الإطالة والتكرار لا سيما عندما يرسم صوراً متعددة لهزيمة الفرنج، وقد أسهم في هذا الإطناب ثقافته الواسعة، وغازاة معجمه اللغوي، وهذا الإطناب يتناسب مع هذا اللون من المكاتبات.

⁽⁴⁾ سورة ياسين آية: 39.

⁽⁵⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 105/6.

⁽¹⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 504/6.

⁽²⁾ سورة البقرة آية: 61.

⁽³⁾ إشارة إلى قوله تعالى "ثم بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ" سورة الأعراف آية: 59.

⁽⁴⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 499/6.

فالإطناب يصلح "للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يقرأ في المحافل والعهود السلطانية"⁽⁵⁾. وشاعت في الرسالة مصطلحات متعلقة بالنصارى من مثل الحديث عن صوامعهم وكنائسهم، وقساوستهم. واستخدم بعض المصطلحات اللغوية كاستخدامه الجار والمجرور ومتعلقهما في حديثه عن الفاتح وتعلق النصر به، فكما أن الجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، فإن النصر لا بد له من مثل ذلك، يقول: "ويقر عيونه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور"⁽⁶⁾.

ومن الجدير قوله: إن الفاضل لم يحضر معركة حطين، فقد كان مريضاً في دمشق. وكتب ابن الأثير رسالة عارض فيها رسالة الفاضل التي أرسلها إلى بغداد. وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأثير شغل نفسه وقدرته في معارضة الفاضل، وهو يشير إلى هذا في كتابه "المثل السائر"، حتى إنه لم يدع للفاضل كتاباً ذكر فيه بالثناء إلا عارضه فيه"⁽⁷⁾.

ويخبر الصفدي أن "ابن الأثير لما أنشأ هذا الكتاب قعد في بيته وتأنى، وتأنق ونقى ونقح، والفاضل

45

أصدر هذا الكتاب وهو ابن يومه بل ابن ساعته، وجهزه، وخرج عن يده على ما فتح به ذلك الوقت عليه"⁽¹⁾.

افتتح ابن الأثير رسالته بالدعاء للديوان العزيز "خَلَّدَ اللهُ سلطان الديوان العزيز النبوي"⁽²⁾، وفي هذا الافتتاح براعة استهلال، ويستمر ابن الأثير في الدعاء للخليفة، والإشادة بمآثره وأخلاقه، يقول: "جعل أيام دولته أتراباً، ومناقب مجدها هضاباً، وزادها مرور الأيام شباباً"⁽³⁾.

ويأخذ الصفدي على ابن الأثير أنه في هذا الدعاء كان عليه "أن يحترز للأيام، فإنه إذا دعا بأن تكون متشابهة، شمل ذلك الخير والشر، وفضل أن يقول: وجعل أيام دولته في النصر أتراباً"⁽⁴⁾.

وينتقل الكاتب بعد ذلك انتقالاً مناسباً إلى الغرض الذي كتبت من أجله البشارة، وهو الحديث عن فتح القدس، فيصفه بأنه الذي "تفتحت له أبواب السماء، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء"⁽⁵⁾. ويصور الفاتح بقوله: "وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة، وأخرج من السواد الأعظم

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 503/6.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 504-105/6.

⁽⁷⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 374-375/2.

⁽¹⁾ نصرة الناصر - الصفدي: 303.

⁽²⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 149.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 149.

⁽⁴⁾ نصرة الناصر - الصفدي: 304-305-306.

⁽⁵⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 149-150.

ما خدع العيون والحرب خُدعة⁽⁶⁾. وعلق الصّفي على ذلك بقوله: "أكذا يكتب عن مثل ملك عانى من الأهوال ما عانى، وكابد ما كابد، وبذل نفسه وأهله وولده، وعسكره حتى استنقذ القدس من الفرنج"⁽⁷⁾. ويصور الكاتب أجواء المعركة، فيرى بأن السيوف هي الطريق الوحيد لتحقيق الآمال والانتصارات، ويبين أثرها في المعركة، فهي التي تحسم الأمر، وتنتشر الغيظ في كل بلد تحل به، كما أنه يستخدم ألفاظاً ذات طابع غزلي في تصوير أثر السيوف، فهي تتغذى على رقاب الأعداء، ويصورها عاشقة مداومة على وصلها⁽⁸⁾. ويستلهم ابن الأثير التاريخ فيصور فتح بيت المقدس وعظمة الفتح بيوم بدر، وهي معركة فاصلة فصلت بين الكفر والإيمان. كما يستلهم الموروث الشعري مقتبساً شعر أبي تمام في فتح عمورية، فهو فتح تفتحت له أبواب السماء، فهو ينظر إلى قوله:

"فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب"⁽⁹⁾.

ويختتم ابن الأثير رسالته اختتاماً ملائماً للبشرى بالفتح، إذ يشير إلى أن هذه الأخبار الصادقة سنتلوها أخبار أخرى صادقة، يقول: "ما دامت السيوف ناطقة في يد الخادم، فالألسنة عنها ناطقة، ولآراء العالية مزيد العلو إن شاء الله تعالى"⁽¹⁰⁾.

46

ويستخدم ابن الأثير في رسالته مصطلحات مختلفة لغوية وفلكية ورياضية، وغيرها من مثل قوله: "وكان مركزاً لدائرتها فغادرها"⁽¹⁾، أو "ولم يكن لأهل النّجامة فيه قول يرّد كذابه"⁽²⁾. واستخدم الكاتب مصطلحات شاع استخدامها في النصرانية، فالصراع كان صراعاً عقائدياً عسكرياً. ومن تلك المصطلحات الصلبان والتثليث والناقوس والبيع وغيرها⁽³⁾. ويبدو التأثير بالقرآن الكريم عند ابن الأثير في مواضع متعددة من رسالته القدسية، ففي مقدمتها يدعو للخليفة بقوله: "ومنها في الدنيا والآخرة عطاءً وفاقاً لا عطاءً حساباً"⁽⁴⁾. وهو في هذا يقتبس من قوله تعالى: ﴿جزاء وفاقاً﴾ و"جزاء من ربك عطاء حساباً"⁽⁵⁾.

واتسمت لغة الرسالة بالقوة والجزالة، فالحديث عن الجهاد يقتضي استخدام لغة تتسم بالرصانة والمتانة. ولعله ظهر للقارئ بعد هذا التطواف كم كانت رسائل البشارات تتنوع، وربما كان هذا التنوع

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 150.

⁽⁷⁾ نصره الناصر - الصفي: 307.

⁽⁸⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 152.

⁽⁹⁾ ديوان أبي تمام - تحقيق محمد عبده عزام: 46/1.

⁽¹⁰⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 156.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 150.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 153-154.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 149-157.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 149.

⁽⁵⁾ سورة النبأ آية: 26، 36.

مدفوعا بكثرة المناسبات التي كان المجتمع يعيشها في ذلك العصر وتتنوع مضامينها، وبالتالي يبدو المنحى الإعلامي الخطابي واضحا فيها، والذي عبرت عنه الرسائل في هذا العصر.

* صورة المعركة

أ- المعركة البرية:

عني الكتاب في رسائلهم بصورة المعركة، فقد اضطلعوا بمسؤولية تصوير المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام، وواكبوا بتلك الرسائل مجريات الأحداث الآخذة بعضها برقاب بعض، وعملوا على تعبئة المسلمين تعبئة معنوية، وتغنوا بانتصارات المسلمين، وصوروا المعارك التي كانت تدور بين الطرفين، ووصفوها، وتتبعوا خطواتها ومراحلها، وأشاروا إلى نهايتها ونتائجها.

وفي ضوء استقراء النصوص التي وصلت إلينا، يتبين أن مجالات هذا اللون من الرسائل تميّزت بالكثرة؛ نظرا لكثرة المعارك التي خاضها المسلمون مع الفرنج. واعتبرت معركة حطين بأنها بداية النهاية للصراع الحقيقي معهم، فقد كانت من أعظم الانتصارات التي حققها المسلمون، ومن الله عليهم بعدها بفتح بيت المقدس سنة 583 هـ.

وتحدث الكتاب عن هذه المعركة بشكل أكثر تفصيلا، فقدموا صورة الجيشين المتحاربين، وساعة اللقاء، وما تمخضت عنه المعركة، ومجموعة من العناصر التفصيلية الأخرى.

وسأقف عند رسالة الفاضل التي كتبها إلى الديوان العزيز بكسرة حطين. وقد اهتم الكاتب في هذه الرسالة بالحديث عن الخطة الحربية، وبيان استعداد القائد قبل المعركة، وما يقوم به من تقسيم

47

الجيش إلى فرق وأطلاب، وبيان المهام الموكلة إلى كل فرقة، يقول: "وكان الناصر قد أركب العسكر بعدته وعُدّته، ورتبه أطلابا، وحزبه أحزابا، وعين رجال القلب ومن يقف بالقلب، والميمنة وحمايتها، والميسرة وكلماتها، والجناحين وقوادمهما من ذوي الإقدام"⁽¹⁾.

ويبدو أن الكاتب لا يركز على وصف أسلحة الجيش الإسلامي، وهو يتحدث عن استعداده لملاقاة الأعداء، وإنما يحرص بصورة واضحة على إبراز ضخامته وكثرته.

أما المرحلة الثانية من مراحل المعركة، فهي مرحلة التحرك والسير لملاقاة العدو، ويحرص الكاتب في هذه المرحلة أن يظهر الجيش المتحرك جيشا عظيما، كثير العدد، فقد "اجتمع له من العساكر ما ضاق به الفضاء الأكبر، وحُقّ له يوم مسيرها أن تكدر عين الشمس بالعجاج الأكر"⁽²⁾.

ويصف حركة الجيش بأوصاف تنثير النخوة والحمية في النفس، وتنثر الرهبة، متكئا في ذلك على ثقافته التاريخية الواسعة، فهو يستمد من الأحداث التاريخية المرتبطة بعصره، ويستدعي

(1) كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 277/3.

(2) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 39.

الشخصيات التي كان لها شأن كبير عبر العصور، فهذا القائد يتوجه بجيشه إلى أرض العدو "بجيش الهرقل وعزمة الإسكندر"⁽³⁾.

وفي المقابل يصف تحرك الجيش الفرنجي، مستخدماً في وصفه ألفاظاً تدل على ضخامته وقوته. والكاتب يرمي من وراء هذا الوصف، إلى إظهار الخطر الحقيقي الذي يمثله على المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى يحرص على بيان أن المسلمين في معاركهم لم ينتصروا على جيوش ضعيفة، وإنما تغلبوا على جيوش قوية لديها كل مقومات القتال، ومتطلبات الحرب من أجل تعظيم دور الجيش الإسلامي، حيث يحقق النصر من مثل قوله: "وجاءت جموع الفرنج حاشدة، وأنت لضالة ضالها ناشدة، وجاء الملك ومن معه من كُفّاره"⁽⁴⁾.

ويشيد الكاتب بمهارة قائد المعركة وذكائه العسكري، فقد استفاد صلاح الدين من عنصر المفاجأة، والمباغطة، وسرعة الحركة، يقول: "وصبح الخادم طبرية، فافتض عذرتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل"⁽⁵⁾. ثم بلغه أن الفرنج اجتمعوا على مرج صفورية⁽⁶⁾ فتوجه صوبهم، والتقى العسكران على سطح جبل طبرية وحدثت وقائع عظيمة، وقدر الله نصر المسلمين، وهرب القومص إلى صور، وانهزمت فلول الفرنج نحو تل حطين⁽⁷⁾، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، فقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى استسلموا وأسر مقدّمهم، وقتل الباقون. أما البرنس أرناط فقد وقى صلاح الدين بنذره وقتله.

48

وينقلنا الكاتب إلى أجواء المعركة متكئاً في ذلك على عنصرَي الحركة والتلوين، فيقدم صوراً متحركة لحظة اللقاء بين الطرفين، مركزاً بصورة خاصة على نكاية المسلمين بالغزاة، وقد لا نرى فيها الأعداء إلا وهم يصرعون وينهزمون، وقد يكون وراء هذا النوع من التصوير أن الفاضل لم يشهد المعركة بنفسه، فقد كان مريضاً في دمشق، وإنما بنى وصفه على التخيل والسماع⁽¹⁾، ولذا فقد جاء وصفه للمعركة مفتقر إلى سمة الواقعية، إذ لا نرى فيه وصفاً تفصيلياً لأحداث المعركة وتسلسلها من مثل قوله في وصف الرماح: "وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم فكأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم، فكأنما أرادت أن تروي فؤادها فشربوا كأس المنون، وغازلتهم عيون الرماح"⁽²⁾. والكاتب يركز على نتيجة المعركة أكثر من تركيزه على أحداثها. ومن الملفت للنظر أن الأدباء كانوا يركزون غالباً على نتائج المعركة أكثر من تركيزهم على وصف دقائقها وتفصيلاتها⁽³⁾. ويصور

⁽³⁾ المصدر نفسه: 39.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 39.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 39.

⁽⁶⁾ سهل واسع ممتد في شمالي دمشق على بُعد 33 كيلومتر منها. ينظر: زبدة الحلب: 2/82.

⁽⁷⁾ قرية بين طبرية وعكا. ويقع بالقرب منها قبر النبي شعيب عليه السلام. ينظر: معجم البلدان: 7/273.

⁽¹⁾ أصداء الحروب الصليبية في أدب الفاضل - حلمي إبراهيم محمد: 134.

⁽²⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 40.

⁽³⁾ صورة الصليبيين في الأدب العربي - عبد القادر أبو شريفة: 125.

الفاضل النتائج، وهي إما نصر أو هزيمة، وما يترتب على الحالتين في كل جانب من أوصاف مادية ومعنوية تناسب حالته، فالكاتب يظهر الفرنج، وقد ولوا الأدبار أمام المسلمين، ولحق بهم الذل والهوان، متكئا في رسم صور للفرنج المنهزمين على موروثه الديني، فهو مصدر للصورة الفنية؛ لأنه يمس أصفى المشاعر وأرقها وأطهرها⁽⁴⁾. ويختلط شعور الشجاعة بمشاعر الفرح، ويبدو هذا واضحا عند حديثه عن ملوك الفرنج وقادتهم الشجعان الذين أسرهم المسلمون إثر معركة حطين من أمثال ملك بيت المقدس، وصاحب الكرك وغيرهم⁽⁵⁾.

ب- المعركة البحرية

كان البحر ميدانا للمعارك التي وقعت بين المسلمين والفرنج، فقد اهتم الفرنج بركوب البحر؛ لأنه وسيلتهم للوصول إلى البلاد الإسلامية، كما أنه وسيلة تنقلهم بين مصر والشام. ولم يقتصر دور صلاح الدين في التصدي للغزاة برا، إنما حاول أن يعترضهم في البحر أيضا، لكي يقطع عنهم الإمدادات الكثيفة التي كانت تصل إليهم عن طريقه، ومن أجل ذلك وجه عنايته إلى تقوية الأسطول الإسلامي المصري، وزيادة عدد سفنه ليقف في وجه الأسطول الفرنجي.

وقد صور الكتاب في رسائلهم المعركة البحرية، والأسلحة المستخدمة في القتال البحري. ومن المعارك التي صورها الكتاب المعركة البحرية التي وقعت بين صاحب الكرك أرناط، وبين الأسطول الإسلامي سنة 578هـ. وذلك أن البرنس أرناط حاول أن يضرب الإسلام في عقر داره، وأن يفرض حصارا اقتصاديا على تجارة مصر في البحر الأحمر، مستغلا انشغال صلاح الدين في حصار الموصل. وكان من أهداف أرناط الدخول إلى المدينة المنورة، وإخراج رفات النبي -صلى الله عليه

وسلم- من ضريحه⁽¹⁾. وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف جهز أسطولا بحريا نقل أخشابه على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال، وسيرها على أرض الحجاز حتى وصلت مشارف المدينة النبوية بعد أن اعترضت قوافل المسلمين، وأغارت وسلبت ونهبت⁽²⁾. ولما علم السلطان الناصر بذلك كتب إلى نائبه في مصر باتخاذ ما يلزم للرد عليه، فأمر الحاجب "حسام الدين لؤلؤ"⁽³⁾ قائد الأسطول الإسلامي بالاستعداد لمواجهة هذه الحملة، حيث جهز أسطولا كبيرا، واستطاع هزيمة الفرنج في البحر الأحمر⁽⁴⁾.

(4) الصورة الفنية في شعر أبي تمام- عبد القادر الرباعي: 156.

(5) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 41.

(1) رحلة ابن جبير- ابن جبير: 34.

(2) كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 134/3، مفرج الكروب- ابن واصل: 127/2.

(3) من كبار رجال الدولة الصلاحية، كان مقدم العسكر ضد الفرنج الذين أرسلهم أرناط صاحب الكرك لحرب مكة والمدينة في البحر. كان شيخا

أرمينيا من خدام القصر، خدم مع صلاح الدين وأخلص له. توفي سنة 598هـ. ينظر: الفتوح المقدسي: 115، كتاب الروضتين: 134/3، مفرج

الكروب: 127/2.

(4) كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 133/3-134.

ويمثل هذا المنحى من الرسائل رسالة الفاضل إلى الديوان العزيز، ومن خلال هذه الرسالة نستطيع أن نتبين الملامح العامة للمعركة البحرية، وهي ملامح لا تختلف في جوهرها عن صورة المعركة البرية من حيث الاهتمام بالنتيجة، والحديث عن آثارها، ونقل بعض التفاصيل الدقيقة مثل الحديث عن الأسطول الإسلامي، ووصف سفنه ورجاله.

وقد أولى الكاتب الأسطول الإسلامي أهمية خاصة، فوصف سفنه ورجاله بأوصاف تبعث في النفس الإعجاب بمستوى تجهيزاته وأسلحته، واستعداده الدائم لخوض المعارك، وسرعته المميزة في الوصول إلى أرض المعركة، فهذه السفن "طالبة شوكة المراكب الحربية المعترضة للمراكب الحجازية واليمينية"⁽⁵⁾.

ورجال هذا الأسطول سهام وسيوف مصوبة إلى نحور الأعداء، وفي المقابل لم يكن الكاتب حريصاً على إعطاء وصف تفصيلي لسفن العدو، وهي تخوض المعركة مكتفياً ببعض التفاصيل من مثل قوله: "وعمرّوا مراكب، وشحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز"⁽⁶⁾. وعند الحديث عن نتيجة المعركة، فإن الهزيمة من نصيب الأعداء، والنصر للمسلمين.

ويوظف الكاتب هزيمة الأعداء توظيفاً ساخراً للحط من الروح المعنوية لهم، معتمداً في هذا التوظيف على النص القرآني لتأكيد المعنى وتوضيحه، يقول: "وركب أصحابنا يشلونهم شلاً"⁽⁷⁾، ويقتنصونهم أسراً وقتلاً حتى لم يتركوا عنهم مخبراً، ولم يبقوا لهم أثراً، ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾

50

زمرًا⁽¹⁾⁽²⁾. أما أسرى هذه المعركة، فقد أمر صلاح الدين بضرب رقابهم، حتى لا يصبحوا عيوناً وجواسيس على بلاد المسلمين.

ويبدو أن الفاضل يتخذ من هذه الحرب الشرسة التي قام بها الغزاة للوصول إلى بلاد الحجاز وسيلة للحض على استئصالهم من أرض الإسلام، وينصح بعدم استبقاء أحد ممن شاركوا في تلك الحملة خشية أن يكونوا أدلاء للفرنج فيما بعد، يقول: "ولا بُدّ من تطهير الأرض من أجناسهم، والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين."⁽³⁾

ولكي تتضح صورة المعركة البحرية أكثر، فإن الباحثة سنقف عند رسالة للعماد الأصفهاني يصف فيها وصول الأسطول الإسلامي الثاني إلى عكا سنة 586هـ. ويبدو أن طرفي الصراع الإسلامي

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 138/3.

⁽⁶⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 139/3.

⁽⁷⁾ الشل: الطرد. شله يشله شلاً، وكذلك شل العير أته، والسائق إبله، ومَرَّ فلان يشلهم بالسيف: أي يطردهم. ينظر: اللسان مادة "شل".

⁽¹⁾ سورة الزمر آية: 71.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 140/3.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 137/6.

والفرنجي قد اعتمد في معاركه البحرية على مهاجمة المدن الساحلية، وكانت هذه المدن تحتفظ ببعض القطع البحرية للدفاع عن نفسها.

وقد أولى العماد الأسطول الإسلامي أهمية خاصة، فوصفه بأوصاف تثير في النفس الإعجاب، فهذا الأسطول يأتي من "كل جبل يمرّ مرّ السحاب، وضامر يشدّ شدّ العراب، وعقاب محلق على الشراك في مطار العقاب"⁽⁴⁾.

ويقدم الكاتب في بعض المواقف صورة مفصلة لمجريات المعركة البحرية، فهو ينقلنا إلى ساحة المعركة متكئا في وصفه على عنصري الحركة واللون، فيقدم لنا صورا متحركة لساعة اللقاء بين الطرفين، مستخدما الجمل القصيرة المسجوعة، ومستعينا بالصور البيانية، مما يجعل القارئ يشعر، وكأنه ينظر إلى الرجال، وقد اشتجر الطعن والضرب فيما بينهم، "وزحف الرجال إلى الرجال، والتقى الأبطال بالأبطال" و"احمرت البيض الظامئات"⁽⁵⁾.

وتتميز السفن الإسلامية بضخامتها، وقدرتها على الحركة والمناورة، كما يمتاز رجالها بالخفة، وسرعة الحركة، وشدة الفتك بالأعداء، يقول: "وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس، وخلا وجه البحر من سفن الضلال، وتقلص ما لها من الضلال"⁽⁶⁾.

ويبين أن هذه السفن اعتمدت أسلوب المباغته، وقد حقق هذا النوع من القتال نتائج إيجابية. ويجد القارئ في هذه الرسالة أنواعا من السفن الحربية التي كان المسلمون يستخدمونها، ووظيفة كل

⁽⁴⁾ الفتوح القدسي - العماد الأصفهان: 388.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 388.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 388.

منها "فالشواني⁽¹⁾ لشن الغارات على الشناة، والشلنديات⁽²⁾ لشل أندية العداة، والحراريق⁽³⁾ لإحراق أهل النار في الماء"⁽⁴⁾.

ويختتم العماد رسالته بالحديث عن نتيجة المعركة، فهي نتائج أدخلت البهجة والفرح في نفوس المسلمين، وفي المقابل أدخلت الأسى والحسرة في نفوس الفرنج، فقد "فكهم القتل والجراح، وأقوى الأقوى من الثبات، وبطل بطلهم بما أئخنه من الجراحات"⁽⁵⁾.

* صورة البطل المسلم

ظل المسلمون في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر يتطلعون إلى قيادة تسد الفراغ الذي تركته وفاة نور الدين إلى أن تولى مقاليد الحكم في مصر صلاح الدين الأيوبي، وعمل على توحيد مصر والشام تحت جبهة واحدة، وتحويل الطاقات وتوجيهها لمقاومة الغزاة وحرهم، مما جعل هذا القائد موضع تقدير واحترام كبيرين من أدياء عصره ومؤرخيه، فمضوا يسجلون معاركه، ويصورون بطولاته، وأشادوا بجهاده، وخلدوا انتصاراته، ومجدوا أخلاقه ومآثره. فكان في نظرهم "صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الإيمان، وهو السلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين"⁽⁶⁾. ويُعدّ القاضي الفاضل في مقدمة هؤلاء الأدياء، فقد رأى في صلاح الدين الحاكم الذي تجسدت فيه مزايا القائد الإسلامي من تقوى وعدل وحكمة وشجاعة وحسن قيادة، وغير هذه الفضائل والصفات التي أثبتتها الذين تحدثوا عنه "كابن شداد"⁽⁷⁾، والعماد الأصفهاني، وغيرهما من المؤرخين اللاحقين. فلا عجب أن تصبح شخصية صلاح الدين هي الشخصية المحورية فيما كتبه الأدياء في مواكبة الحروب الفرنجية في تمجيد البطل والبطولة. وتبدو صورة البطل المسلم ممثلة في صلاح الدين كما يصورها العماد في رسائله، محافظا على السنن، ملتزما بالشرع، مقيما للعدل، ناشرا للإحسان بين الناس، زاهدا مقربا له أهل العلم، فقد كان يبذل كل ما يملك في سبيل الله، ولا يلتفت إلى شيء من المال ومتع الدنيا، فكل همه أن يخلص الله عمله، ويبدو هذا في أنه: "ما ملك ملكا، ولا تمول

(1) هي نوع من السفن الكبيرة، تقام فيه الأبراج والقلاع، كانت تتلقى على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدافا، وفيه المقاتلة والجدافون والحراقة. ينظر: قوانين الدواوين: 340، النوادر السلطانية: 80، السلوك: 56/1.

(2) مفردا شلندي، وهي مركب حربي كبير، مهمته نقل المقاتلة والأسلحة، تتكون من طبقتين، حيث يقاتل على ظهرها الحاربون، ودخله يجدف الجدافون. ينظر: قوانين الدواوين: 340. الفتح القدسي: 387.

(3) مفردا حراقة وهي نبط خاص بإحراق المراكب، يُجهز من مواد شديدة الالتهاب، ويُطلق النبط من آلة تُعرف بالنفاطة. وكثيرا ما يقذف النفاطون بالسهم والنشاب، والمنجنيق. ينظر: تاريخ البحرية الإسلامية: 142/1.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 388.

(5) المصدر نفسه: 388.

(6) الاعتبار - أسامة بن منقذ: 164.

(7) هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف الأسدي، اتصل بالسلطان صلاح الدين، وحظى عنده، وولاه قضاء العسكر، وقضاء بيت المقدس، وصنف له كتابا في فضل الجهاد، وله كتابه الموسوم "النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية" في سيرة صلاح الدين، توفي سنة 632 هـ. ينظر: مقدمة محقق كتاب "النوادر السلطانية": 1-13، الذيل على الروضتين: 163، وفيات الأعيان: 7/84-100، شذرات الذهب: 5/158.

مالا إلا في سبيل الله أنفقه وبذله⁽¹⁾. ومن المعروف أن صلاح الدين ضحى براحته، مؤثرا حياة الجهاد على الراحة والدعة، حتى إنه حينما انتقل إلى جوار ربه مع سعة ملكه لم يخلف مالا ولا عقارا⁽²⁾. ويصور الفاضل شدة حبه للجهاد، واندفاعه لملاقاة الأعداء، فقد خاض الكثير من المعارك ضد الفرنج، يقول في معرض حديثه عن جهاد صلاح الدين في رسالة أرسلها إلى بغداد: "وقد علم الخادم أن بيوت أمواله بيوت رجاله، وأن مواطن نزوله مواقف نزاله"⁽³⁾. وكان جهاده خالصا لوجه الله تعالى، بعيدا عن الرغبة في كسب مادي أو دنيوي.

ويعصف ابن الأثير صلاح الدين في حطين عندما أراد أهله أن "ينهبوا طيش القتال بثقل الأموال، ولكن نفسه الأبية أبت إلا أن يكون جهادها احتسابا لا اكتسابا"⁽⁴⁾.

وفي معرض حديث الكتاب عن أهداف صلاح الدين في تحقيق الوحدة الإسلامية، يرى الفاضل أن المكاسب الدنيوية، ليست هدفا يسعى إليه من وراء جهاده، فهو "لا يؤثر للإسلام وأهله إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير" و "أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها"⁽⁵⁾. ويصفه العماد بأنه "الذي ملك ملوك الشرق، وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر، وشد خناقها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها"⁽⁶⁾.

ويمضي الفاضل إلى ما هو أبعد مما قاله العماد، حين يرى أن الله هو الذي اختار صلاح الدين من بين ملوك الأرض لنصرة دينه، وخصه بهذه الفضيلة دون غيره من الحكام، لما عُرف عنه من حب للجهاد في سبيل الله⁽⁷⁾.

ويصور الكتاب السلطان صلاح الدين قائدا للمعركة، مخططا للعمليات العسكرية، مشرفا على تنفيذها بنفسه، يتقدم الجيوش حتى أصبح يدب الرعب في قلوب الأعداء قبل لقائه بهم، وبالتالي كانت المدن تسلم قيادها إليه الواحدة تلو الأخرى، تخوفا وتهيبا. يقول الفاضل: "ورغبه يلحد نفوس من يلحد في قبور أجسادها، والبلاد ترمي إليه بمقاليدها، وأفلاذ أكبادها"⁽⁸⁾. ويصفه العماد بأنه القائد الذي استطاع أن يترجم أحلام المسلمين باستعادة بيت المقدس، يقول: "وقد انقرض من الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه"⁽⁹⁾. وهو ينتقل بالمسلمين من نصر إلى نصر، بعزمه وإرادته القوية، حتى استنفذت المقدسات الإسلامية من أيدي الفرنج، فأقيمت شعائر الإسلام،

(1) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 646.

(2) النوادر السلطانية - ابن شداد : 247.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 67.

(4) المصدر نفسه: 67.

(5) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 178/3.

(6) رسالة العتي والعقي - العماد الأصفهاني، نصها في كتاب الروضتين: 409/3.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 508-509.

(8) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 109.

(9) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 178/3-179.

وعاد الدين قوياً عزيزاً⁽¹⁾. ويشيد الفاضل ببطولة صلاح الدين، فيقدمه لنا قوي النفس، شديد البأس، ماضي العزم، قوي الإرادة؛ وذلك لأنه جمع إلى التقوى والاعتماد على الله، الشجاعة والإقدام في معاركه وجهاده. وحين تجتمع هذه العناصر معا فلا بد من تحقيق النصر. يقول الفاضل: "وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور"⁽²⁾. ويصف العماد حرصه على الجهاد، فقد وقف حياته كلها لهذه الفريضة، فهو "المببر للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته، مستقيماً على جَدِّ الجِدِّ، مستقيماً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد"⁽³⁾.

وصلاح الدين بطل مقdam اجتمعت فيه صفات القيادة والدهاء العسكري، وخصوصاً في علاقته بالفرنج، فهو رجل حكم وسياسة. ويتضح هذا من خلال إقامته علاقات طيبة مع المدن الإيطالية؛ بغية توقف هذه المدن عن دعم الفرنج في بلاد الشام قبيل معركة حطين⁽⁴⁾. ومن مظاهر حنكة صلاح الدين السياسية وبعد نظره، أنه استغل سوء العلاقات التي كانت تبرز بين قادة الفرنج، فحسن علاقاته مع بعضهم حتى صاروا عيوناً له عليهم يطلعونه على تحركاتهم وخططهم قبل تنفيذها⁽⁵⁾.

وقد أشاد الفاضل بهذه الحنكة وحسن التدبير للأمور. يقول: "ولقد سخر الله سبحانه في صدره بحر الحكمة، وسنح على لسانه جوهره، فهو إن سلك سلكاً جَدّاً⁽⁶⁾، وإن أشار أشار سداً، وإن قال قال رشداً"⁽⁷⁾.

ولقد كان صلاح الدين يحرص في سياسته العسكرية على تهيئة أفضل الظروف العسكرية لإحراز النصر، فقد استطاع أن يحرك الوعي الجهادي في المسلمين، وتمكن بإيمانه بالنصر، وبالتفاف المسلمين حوله من إيجاد جو مثالي لمعركة فاصلة بين المسلمين والفرنج، وتبدو هذه السياسة العسكرية جلية في الخطة التي رسمها لتحرير بيت المقدس إثر معركة حطين، إذ استولى على معظم مدن الفرنج وقلاعهم الساحلية بفلسطين؛ لكي يقطع عنهم أية إمدادات خارجية، ويتمكن من محاصرتهم في بيت المقدس، فقد "اعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم"⁽⁸⁾.

وبصور الكُتاب صبر صلاح الدين وقدرته على مواصلة القتال على الرغم من تكالب الأعداء، وقلة موارده المادية والعسكرية، وضجر الجند. فقد صور الفاضل ما كان يمر به من أوقات يكاد يصاب فيها باليأس، فيتمنى أن يعتزل الحكم أو يبتعد عن الحرب، ولكن الفاضل كان يحثه على الصبر وعدم

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 109.

(2) المصدر نفسه: 174.

(3) الفتح القدسي - العماد الأصفياني: 652.

(4) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 104-105، مفرج الكروب - ابن واصل: 490/2-491.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 102-103، مفرج الكروب - ابن واصل: 490/2-491.

(6) الجدد: الأرض المستوية. اللسان مادة "جدد".

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 67-68.

(8) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 276/3.

الاستسلام. يقول في رسالة كتبها إلى بغداد أثناء حصار عكا: "ولولا أن في التصريح ما يعود على عداته بالتجريح لقال ما يبكي العيون، وينكي القلوب، لكثته صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب"⁽¹⁾.

ويُعَلِّي الكتاب من شأن صلاح الدين، فقد كانوا يقارنون بينه وبين الحكام المسلمين الذين تخاذلوا عن مواجهة الغزاة ونصرة الدين، فقد تحمل وحده عبء الجهاد دون غيره، حيث وقف بعض الحكام المسلمين منه موقف المتفرج، في وقت كانت البلاد بحاجة إلى وقفهم، فقد تخلوا عن فريضة الجهاد، فليس لصلاح الدين "من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوة، ولا مجاهد معه إلا بلسانه، ولا خارج معه إلا بالأجرة، والزيادة"⁽²⁾.

ولم تكن المصائب تتال من عزمه وقوة إرادته، إذ كان يحتملها برحابة صدر، وثقة مطلقة بنصر الله. لجأ الكتاب في تمجيد بطولة صلاح الدين إلى الربط بينه وبين الشخصيات التي كان لها شأن خاص في تاريخ الإسلام، كالربط بين صلاح الدين وعمر بن الخطاب، فعندما فتح صلاح الدين عسقلان، قال الفاضل: "وأشبهه حاضر فتح يوسفها ماضي فتح عمرها"⁽³⁾. وصلاح الدين إنسان متواضع على الرغم من الإنجازات العظيمة التي تحققت في عصره، فهو ينتهج سياسة اللين في غير ضعف، والشدّة في غير عنف، مقتدياً بالسلف الصالح، فقد كان شبيهاً بالخلفاء الراشدين في العدل، والحرص على سلامة المسلمين، وجمع كلمتهم"⁽⁴⁾.

وتتجلى صورة البطولة في عناية صلاح الدين بالمجتمع الإسلامي عناية كبيرة، ويبدو هذا الاهتمام من خلال إنشائه المؤسسات الاجتماعية التي ترعى المسلمين في حياتهم ومسكنهم، ومأكلهم وملبسهم وفكرهم، فقد أنشأ البيمارستانات، والمدارس، والخوانق، والأسواق، والقناطر، والحمامات، والخانات، وغيرها⁽⁵⁾. ورعى أمور المسلمين اقتصادياً، فأسقط المكوس في مصر وحلب والرقّة، كما أبطل المكس الذي كان مفروضاً في مكة على الحجاج⁽⁶⁾.

وكان صلاح الدين صاحب عناية كبيرة بالعلم وأهله، فقد كان يصحب العلماء ويقربهم، ويحسن إليهم، "وكانوا يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية"⁽⁷⁾.

وأخيراً: فإن الباحثة بينت صورة البطل المسلم كما تتجلى في رسائل الفاضل والعماد الأصفهاني وابن الأثير، وإذا ما استشهدت بما ورد في المصادر التاريخية، فليس ذلك إلا للتحقق مما ورد في الرسائل حول صورة البطولة والبطل.

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 141/4.

(2) المصدر نفسه: 183/4.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 148.

(4) النوادر السلطانية - ابن شداد: 246.

(5) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية - عبد الجليل عبد المهدي: 129.

(6) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 106/3، كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 10/3-11.

(7) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 90/3.

وتحدث الكتاب في رسائلهم عن المجاهدين، ورسوموا صوراً مشرقة لهم، ويبدو أن ما حققه المسلمون من انتصارات على الأعداء مهّد السبيل أمام الكتاب ليبعدوا فيما يكتبون. ومن الصفات التي أبرزها الكتاب في رسائلهم الاستعداد للجهاد والتأهب له مادياً ومعنوياً؛ أما المادي فيشتمل على تجهيز أنفسهم بالسلاح. وأما المعنوي فيتمثل في حب الجهاد، والاستعداد والتضحية.

وقد وصف ابن الأثير الجيوش المتجهة إلى حطين بأنها "مجدّة في تشمير ذيلها، مُعدّة ما استطاعت من قوتها، ومن رباط خيلها تحمل الأعمار القصار تحت الأرماع الطوال، وترغب في اشتراء الجنة بالأنفس والأموال"⁽¹⁾.

وتحدّث الكتاب في رسائلهم عن المجاهدين حديث المعجب، ووصفهم بأعظم الصفات، فمن صفاتهم النظام، والتأهب للتغلب على كل مشاق القتال فالعساكر "بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصعب مزدحمة"⁽²⁾، وهم "كالبنيان المرصوص انتظاماً، وكالغاب المشجر أعلاماً"⁽³⁾ ويتصف جنود الإسلام باليقظة حفاظاً على مصلحة الدين والأمة، فهم "يببتون يحرسون العدو بإحدى العينين اللتين لا تمسهما النار، وفازوا بأجر القائم الصائم"⁽⁴⁾.

ومن صفات جنود الإسلام الشجاعة والإقدام، كما تتجلى في الرسائل الجهادية هذه فهم "ينقضون على أعدائهم انقضاض البراة على طرائدها، وأسرعوا إليها إسراع العطاش إلى مواردها"⁽⁵⁾. ومن صفاتهم أن الأعداء يخافونهم، ويستشعرون الرعب منهم قبل وصولهم، يقول العماد: "وتقدمت إلى العدو قبل رعب جيوشنا جيوش الرعب"⁽⁶⁾. وصور الكتاب ضخامة جيش المسلمين وكثرة عدده، فهو في كثرته "يذكر بيوم العرض"⁽⁷⁾. كما يرى العماد، ويصوره في موضع آخر، وقد "ضاق به الفضاء، واكتسى برياشه العراء، وكثرت الجنود"⁽⁸⁾.

ويعرفهم الكتاب بالصبر على المشاق والأهوال، وعدم التضجر، والسرعة في إنجاز المهمات "فالمجاهدون هانت عليهم المهج، وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين التلم، ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران الطبّا والظلم"⁽⁹⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 67.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 183/3.

(3) صبح الأعشى - القلقشندي: 513/6.

(4) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 208.

(5) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 67.

(6) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 153/5، وفيه إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر" ينظر: فتح الباري في شرح البخاري: 436/1.

(7) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 194.

(8) المصدر نفسه: 363.

(9) المصدر نفسه: 498.

ويصورونهم يقاتلون في أفسى الظروف الجوية حيث الأنواء العاتية، والثلوج المترامية، والأودية الفائضة، وقد صور الفاضل نزول المسلمين على حصن كوكب⁽¹⁾، وما لاقوه من عنت ومشقة بسبب الثلوج، والسيول الجارفة فهذه الثلوج "انتشرت على الجبال، وعجت الأودية بمائها، وفاضت عند امتلائها"⁽²⁾. ولأن هؤلاء المجاهدين يقاتلون في سبيل الله، فقد أعزهم الله بالنصر على أعدائهم، وجعل ملائكته المسمومين من أعوانهم⁽³⁾.

ومن صفات المجاهدين التسامح مع الخصم، وهذا أقصى غايات الشجاعة، فقد كانوا يجيبون أهل المدن المفتوحة بالعفو والأمان. كما أشاد الكتاب بأخلاق المجاهدين ومآثرهم مثل الكرم والغيرة على الدين، فقد مدح العماد أمير الموصل⁽⁴⁾، لإرساله بعض المساعدات والأسلحة إلى صلاح الدين، وهو على حصار عكا من مثل قوله: "وأكرم الأجويد، وأجود الأكارم من جاد بما أجدى، لا أظلى الله المجلس من يد يتخذها، وأيد يسيرها وينقذها، وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك ويقذها"⁽⁵⁾.

لقد مدح الكتاب المجاهدين وأثنوا على جهادهم، ولا شك في أن هؤلاء الكتاب كانوا صادقين في أوصافهم يصدرون عن إعجاب بهؤلاء المجاهدين.

* صورة الفرنج

رسم الكتاب في رسائلهم صوراً متنوعة للفرنج، وذلك بسبب طبيعة الصراع القائم بينهم وبين المسلمين، حيث جعل منهم على اختلاف أنماطهم جنوداً مقاتلين، وكانت ضخامة جيوش الفرنج مما ركز عليه الكتاب في رسائلهم من أجل تصوير خطرهم، ومن أجل تعظيم دور المسلمين في محاربتهم، فهم كما وصفهم الفاضل في حصار عكا أم لا تحصي من كثرة رجالهم⁽⁶⁾، وهم حين لقيهم صلاح الدين ببيت المقدس يذكرون بيوم الحشر؛ لكثرة عددهم⁽⁷⁾.

وتعددت الأجناس التي تكون نواة الجيش الفرنجي من "الجيش الغربية، والألسنة الأعجمية، من لا يحصر معدوده ولا يُصور في الدنيا وجوده"⁽⁸⁾.

صور الكتاب فرسانهم فأنثوا على شجاعتهم، وصبرهم، وبذلهم الأرواح، في سبيل الحفاظ على مقدساتهم، فـ "يدهم في الحرب يدان، وظهورها لا يدحرها إلا اللعنة، وصدورهم لا يملؤها إلا الطعنة، وكانوا قد اجتهدوا في القتال، وصبروا على مرّ النّضال ومرّ النّصال"⁽⁹⁾.

(1) اسم لقلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية، مشرفة على الأردن. ينظر: معجم البلدان: 294/16.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 164.

(4) هو عز الدين زنكي، صاحب الموصل، ابن أخي السلطان نور الدين زنكي، صبر على حصار السلطان صلاح الدين له بالموصل ثلاث مرات، وحفظ البلاد، خرج لقتال الملك العادل أبو بكر في حران، فعاد مريضاً. توفي سنة 589هـ. ينظر: النجوم الزاهرة: 133/6.

(5) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 351.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 25/7.

(7) المصدر نفسه: 501/7.

(8) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 252/4.

وقد وصفهم أسامة بن منقذ بقوله: "والإفرنج - خذلهم الله - ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة".⁽¹⁾ وأشاد الكتاب بغيرتهم على عقيدتهم، فقد: "هجروا الأهل والديار، ووهبوا المهج، كل ذلك غيراً لمتعبدهم، وحمية لمعتقدهم"⁽²⁾.

وإذا كان الكتاب أشادوا بغيرتهم على دينهم، فإنهم في المقابل وصفوهم بصفات ذميمة، فقد وصفوهم بالغرور والوحشية، وركزوا على صفة الغدر عندهم، فالعهود والمواثيق لا قيمة لها، فهم يتعاملون معها بما يتفق ومصالحهم الخاصة، فالغدر صفة متأصلة ثابتة في طباعهم. يقول: "إن الغدر في طباعهم مركوز، والسوء في غرائزهم مغروز"⁽³⁾.

وقد وصل الإزراء بقيادة الفرنج - أحياناً - إلى حدّ السباب والشتم والتحقير، مما ينم عن كره متأصل في النفس عند بعض الكتاب، فالعماد يصف الماركيس صاحب صور بصفات ذميمة من مثل قوله: "أكبر طواغيت الكفر، وأغوى شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذنابه، وأنجس كلابه، وأروغ ثعالبه، وألسب عقاربه"⁽⁴⁾.

ووصف الكتاب براعتهم في القتال، ومهارتهم في الفنون الحربية، فهم لا يعتمدون على أسلوب واحد، بل لهم أساليب متنوعة في المعركة، وقد وصفهم الفاضل بقوله: "فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة"⁽⁵⁾، وأخرى بالمنجنيقات، وثالثة بالدبابات⁽⁶⁾⁽⁷⁾.

وإذا كان الكتاب قد أشادوا بجلد الفرنج وشجاعتهم، فإنهم في المقابل صوروا مظاهر ضعفهم، فهم يتجنبون المواجهة وهم في عقر دارهم، والمسلمون يعيشون بأرضهم يحرقون ويقتلون، ومن طبائعهم أنهم كانوا في المعتاد لا يقدمون على القتال إلا إذا كانوا متحوتين، فهم "لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدار"⁽⁸⁾. ووصف الكتاب سرعة إنجاز أوروبا للغزاة، وكثرة إمداداتهم، فإنه "لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة، إلا جهزت مراكبها، ونفصت خزائنها، وحملت ذخائرها، ونثلت كنائنها كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها"⁽⁹⁾.

ووصف الكتاب أسلحتهم وخصوصاً الثقيلة منها وما أثارته من فزع في نفوس المسلمين، فقد استخدم الفرنج أثناء حصارهم عكا الآلات الثقيلة لاقتحام المدينة، ودك سورها المنيع، وقد وصفها

⁽⁹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 49.

⁽¹⁾ كتاب العصا - أسامة بن منقذ: 64.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 157/4.

⁽³⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 654.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 109.

⁽⁵⁾ مفردا برج، من آلات الحصار تُصَفح بالجلود المسقاة بالخل كي لا تشتعل فيه النار، تسير على عجلات، استعملها الفرنج في الحروب. ينظر: النوادر السلطانية: 12.

⁽⁶⁾ آلة من الخشب الصلب، تصفح بالجلود، يدخل فيها الجند، تقرب من الحصن لقبه. ينظر: النوادر السلطانية: 42.

⁽⁷⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 252/4.

⁽⁸⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 139.

⁽⁹⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 337-338.

العماد بقوله: "وأحكموا أبراجا شامخات، ومجانيق شادخات، وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء"⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه أبرز قدرة المسلمين على إحراقها.

وما أثار ذلك في نفوسهم من فرحة وابتهاج. يقول: "ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدر النفط، وأنزلوها من سماء الرافعة إلى أرض الحط"⁽²⁾. وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين، وساعت عاقبة الكافرين. وصور الكتاب الفرنج بأنهم أهل رجس وآثام، وقد اقترن هذا مع الدعوة إلى تطهير بيت المقدس وأهله، ومقدساته من الشرك والآثام، فالفاضل يصور الأرض طامثة في ظل الاحتلال⁽³⁾. ويصور العماد بيت المقدس، وقد تقدس من رجس الفرنج⁽⁴⁾.

ويركز الكتاب على تصوير ما آلت إليه الفرنج في معاركها، وما حلّ بملوكها وقادتها، وقد نقل الفاضل كيف خرج "باليان بن بارزان" طالبا تسليم بيت المقدس بالأمان، وقد بدا ذليلا، ويقابل بين ما كان عليه هذا القائد، وما آل إليه من سوء المصير حيث "ألقي بيده إلى التهلكة بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب، وكان لا يتعاطاه طارح"⁽⁵⁾.

كما صور الكتاب أسراهم في حطين أذلاء واهنين، وقد بلغ مقدار ذلهم "أن رأس أحدهم كان يتمنى أن ينكر عنقه، وأن عظيمهم كان يود لو كان حقيرهم لشدة ما أصابهم من ذل"⁽⁶⁾.

ورسم الكتاب صورا مفزعة لقتلى الفرنج، فقد امتلأ الفضاء بهم لكثرتهم. يقول الفاضل في وصفهم: "وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم، فإن الفضاء الفضى تعصف من دمائم"⁽⁷⁾.

وركز الكتاب في رسائلهم الحديث على أهم فرقتين عسكريتين هما الداوية والاستبارية. وقد دعا العماد السلطان صلاح الدين إلى القضاء على هاتين الفرقتين لما ألحقته بالمسلمين من أذى كبير، ولذا كان صلاح الدين يأمر بقتل أسرى الاستبارية والداوية. يقول العماد في معرض حديثه عن قتل البرنس أرناط: "وقدمنا الأبرنس، وضربنا رقبته وفاءً بالندى، وألحقنا به الداوية والاستبارية وأدرنا عليهم كؤوس المنية"⁽⁸⁾. ولما كانت طبيعة الصراع بين المسلمين والفرنج قائمة على العقيدة في أساسه، فقد ركز الكتاب في رسائلهم على تخير مصطلحات ذات دلالات دينية نصرانية مثل صليب الصليبوت، والتثليث، وأهل الأحد، والناقوس، والبطرك وغيرها.

(1) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 337. أسواء: مفردا سوى أو أسواء، وهو الوسط أو الذروة. لسان العرب - مادة سوي.

(2) المصدر نفسه: 374.

(3) صبح الأعشى - الفلقشندي: 498/6.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 147.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 29-30.

(6) رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي ونوري القيسي: 75.

(7) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 187/2.

(8) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 197.

* وصف الحصون والقلاع

اهتم الفرنج اهتماما كبيرا ببناء الحصون والقلاع لحماية لأنفسهم، فقد كانوا يشعرون بأنهم غرباء، وأن المجتمع الذي يحيط بهم ليس مجتمعا آمنا، وبالتالي كان لا بد أن يهتموا بالتحصينات والأسوار في معظم المناطق الإسلامية المغتصبة، حتى يحبطوا أي هجوم مفاجئ قد يشنه المسلمون عليهم، ويحافظوا على ما احتلوه من أراضي المسلمين. ولما كانت هذه التحصينات من مقومات قوة الفرنج، ووجودهم في ديار الإسلام، فقد توقف الكتّاب طويلا عند وصفها، وتصوير عظمة بنائها ومنعتها، من أجل تعظيم قدرة المسلمين على استباحتها وهدمها.

وكان الفرنج مهرة بارعين في تخير مواقعها، إذ كانوا يقيمونها على قمم الجبال العالية المحاطة بالأودية السحيقة، والأسوار المنيعية، والخنادق الواسعة حتى يتعذر الوصول إليها.

وبعد تفحص النصوص تبين للباحثة أن المعارك التي دارت حول الحصون والقلاع لم تختلف عن المعارك البرية إلا في مرحلة واحدة، وهي مرحلة الحصار، وفي بعض الأسلحة المستخدمة لمهاجمة الأسوار. ومن الأمثلة على ذلك، حصار صلاح الدين لحصن بيت الأحزان⁽¹⁾. وكان الفرنج قد عمّروه سنة 574 هـ أثناء انشغال السلطان صلاح الدين بالاستيلاء على بعلبك، وكان حصنا منيعا بيد الداوية، وكتب الفاضل رسالة إلى الديوان العزيز يصف فيه فتح هذا الحصن، حيث بدأها بالحديث عن تعبئة الجيش الإسلامي، واستدعاء العساكر من مصر والشام، وهي خطوات حرص الناصر صلاح الدين على إنجازها قبل دخول المعركة، وهذه الخطوات تتمثل في إخراج "عُد الحصر، وآلات القهر، ومستنزلات البلاء لأهل الكفر، ما بين منجنيقات وعددها، وسلاليم لمرقى القلاع ومصعدها"⁽²⁾.

وعند وصول الجيش إلى الحصن يبدأ الكاتب في تصوير حصانته وقوته، فقد شحنه الفرنج بالمقاتلين المدربين، والسلاح، والمؤن، حتى يحتمل أطول فترة من الحصار، وبالغوا في تحصينه وتقويته، فأنفقوا عليه أموالا طائلة، فقد "عُرّض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع، وقُطعت له عظام الحجارة، كل فصٍّ منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها"⁽³⁾.

ويبدو تركيز الكاتب على تصوير مناعة الحصن، وقوة المتحصنين فيه، فهو "موضوع على أشرف التلال الوعرة وأقهرها لا تثبت القدم فيه إلا بفأس يحفر لموضع أخمصها"⁽⁴⁾. وينتقل الكاتب إلى مرحلة نزول الجيش على الحصن في اليوم الثاني من وصوله، إذ "ركب يوم الأحد إلى صفد، وأمر بقطع كرومها، وحمل زرجونها"⁽⁵⁾ وأخشابها لنصب المنجنيق"⁽⁶⁾.

(1) بلد بين دمشق والساحل، عمّره الفرنج، وبنوا به حصنًا، فتحه الملك الناصر، وحرّبه. ينظر: معجم البلدان: 519/1.

(2) رسائل عن الحرب والسلام—تحقيق محمد نغش: 125.

(3) المصدر نفسه: 125.

(4) المصدر نفسه: 125.

(5) الزرجون: كلمة فارسية معناها شجر العنب، كل شجرة زرجونة. ينظر: المعرب: 165.

(6) رسائل عن الحرب والسلام—تحقيق محمد نغش: 130.

ومن الخطوات المهمة التي اتخذها صلاح الدين في الحصار عملية نقب الأسوار، وفتح فجوات فيها ليتسنى الدخول إليها، ونقب الأسوار هو أحد الوسائل القتالية المستخدمة في دك الحصون أثناء الحصار، وكان النقبون عادةً ينقبون حفرة ثم يحشونها بالحطب ويوقدونها.

وقد شبه الكاتب هذه النقب بالمرض الذي يعتري سقامه الأسوار، فهي تسري فيها سريان السقام من عضو لآخر، حتى يخسر السور مثل العليل الذي تنهار قواه، ومثل سريان الخمر في مفاصلشاربها، فلا يقوى على الثبات. يقول: "وأخذ الرجال في توسيع النقب، إلى أن سرى الداء إلى المقاتل، ودبّ السكر في المفاصل، ورثيت الجدران متجلدة، والموت تحت ثيابها قائمة"⁽¹⁾.

ويصف الفاضل الجيش الإسلامي وهو محيط بالحصن من كل جانب، والسلطان بين رجاله يطوف حول الحصن من أجل معاينته، واكتشاف ثغراته، وبعد أن يضع خطة الهجوم، تبدأ مرحلة الهجوم، ولكن النيران المشتعلة لم تنجح في إحداث الفجوة المطلوبة، فكان لا بد من معاودة النقب ثانية وتطلب ذلك تبريد الحصن بالماء، وعاد النقبون إلى عملهم، وتمكنوا من تحقيق هدفهم، فانهدم جانب السور، ودخل المسلمون الحصن، وتحقق لهم النصر. ويلاحظ هنا مدى الجهد الذي بذله المقاتلون المسلمون الذين استباحوا هذه التحصينات المنيعه، وكان المسلمون قد عانوا من وجودها أيما معاناة في حروبهم، إذ اتخذوا منها أداة لمضايقة المسلمين، وإضعاف اقتصادهم.

وبعد الانتهاء من فتح الحصن، ينقل الكاتب صوراً متنوعة لهزيمة الفرنج، ومن هذه الصور حديثهم عن سور الحصن وقد تهدم نتيجة ضربه بالمنجنقات، ومنها صورة النيران المشتعلة في الحصن بعد استباحته، وهي صور تكشف لنا عن سخرية الفاضل من الغزاة، وشماتته بهم، فـ "النيران به مطيفة وعليه مشتعلة، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدله، ومن خلفه مسبله"⁽²⁾.

ومنها حديثه عن القواد، فالكاتب يعتمد التركيز على انهيار عزائم العدو، وفقدانه لإرادة القتال، ورسم صور مهينة لهم، فمنهم "من قبل الأمان على دمه أن يُراق، لا على رقبته أن تُسرق"⁽³⁾.

ومنها حديثه عن صورة النصر الذي أحرزه جيش المسلمين، وقد غنم الغنائم الوفيرة من "سلاح وملبوس، وآلات قتال كبار مروعات"⁽⁴⁾.

واتسمت رسالة الفاضل هذه بالإطناب، والتركيز على كثير من التفاصيل والدقائق التي تتعلق بسير المعركة، رغبة منه في إبراز العوائق والصعوبات التي واجهها المسلمون في فتح الحصون والقلاع، فالمسلمون لم يكونوا يقاتلون عدوا عاديا، بل هو عدو متمرس على القتال، ولديه المهارات التي تؤهله لاختيار آلات الحرب والحصار.

واعتمد الكاتب في تصوير الحصن على صور متنوعة مستقاة من روافد متعددة، منها:

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 130.

(2) المصدر نفسه: 132-133.

(3) المصدر نفسه: 131.

(4) المصدر نفسه: 132.

الموروث الديني، فقد استخدم تعابير يغلب عليها التأثر بالقرآن الكريم في وصفه النيران المشتعلة في الحصن من مثل قوله: "والنار به مُطيفة، وعليه مشتملة، ونفحاتها حميمة، وقودها الناس والحجارة، وقذفت بشرر كالجملات الصُّفر"⁽¹⁾ (2). وقد تكون الصورة عنده مستمدة من الطبيعة كالظلماء والليل والآصال، والأسحار وغيرها⁽³⁾. ومن روافد الصورة الفنية عند الكاتب ما هو مستمد من ثقافته الأدبية، ونستطيع أن نتلمس أثر هذه الثقافة عند توعده الفرنج إثر هدم حصن بيت الأحرار. يقول: "والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها "إياك أعني واسمعي يا جارة"⁽⁴⁾ (5) وفي رسالة للعماد في فتح حصن بُرزيّة⁽⁶⁾، إلى الديوان العزيز، وبعد الدعاء على نحو ما هو متعارف في مثل هذا اللون من المكاتبات، يلجأ الكاتب إلى التهويل في أمر هذا الحصن؛ حتى يجعل من أمر فتحه معجزة أنعم الله بها على عصر صلاح الدين، فهو حصن تحامت قصده الأمم لمنعته، ولم يخطر في بال أحدهم أنه يمكن فتحه، ومن حاول فتحه خاب ظنه، فهو حصن "لم يكن عليه قتال، ولا للوهم فيه مجال"⁽⁷⁾.

ويقع الحصن على قمة جبل شامخ، وحوله خنادق، وأودية سحيقة، فهو "حصن تضرب بحصانته الأمثال، ولا مسلك لسالك طريق، ولا منصب عليه لمنجنيق"⁽⁸⁾.

وينتقل الكاتب إلى وصف عملية الحصار للحصن، والأساليب القتالية المستخدمة لفتحه، وأولها نصب المنجنيقات، وهو السلاح الفعال في معالجة الأسوار والأبراج، وقد فرق صلاح الدين عسكره ثلاث فرق تتناوب على قتاله، وتبادل الجيشان التناؤف بالحجارة، ولكن العدو ثبت أمام قذف المنجنيقات المتواتر، ومن ثم رأى السلطان أن يميل إلى الزحف مع الثقات من الرجال، واستمر الطعن والقتل حتى تعلق المسلمون بالسور، واستطاعوا الدخول للحصن وتحقق النصر⁽⁹⁾.

ولما رأى الأعداء أن لا قبل لهم بمقارعة عدوهم أعلنوا الخضوع، وبذلوا الطاعة طلباً للأمان. يقول: "فتعلقوا الجبل وتسلقوا إلى القل، وسعوا إلى الأجل في طلب تسني الأمل"⁽¹⁰⁾.

ويختتم الكاتب رسالته معبراً عن بهجته بهذا النصر، مرجعاً تحقيقه إلى ثقة المسلمين بنصر الله

(1) مقتبس من الآية القرآنية "إنها ترمي بشرر كالفقر كأنه جمالات صفر" سورة المرسلات آية: 32-33.

(2) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 132-133.

(3) المصدر نفسه: 132.

(4) الكاتب يستمد فكرته من قول سهل بن مالك الفزاري :

"يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتي فزارة.

أصبح يهوى حرّة معارة إياك أعني واسمعي يا جارة". ينظر: مجمع الأمثال: 49/1.

(5) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش : 133

(6) هو حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، ويُضرب به المثل في الحصانة، تحيط به أودية من جميع الجهات، كان بيد الفرنج، حتى فتحه صلاح الدين سنة 584هـ. ينظر: زبدة الحلب: 120/1، كتاب الروضتين: 36/4.

(7) الفتح القدسي- العماد الأصفهاني: 253.

(8) المصدر نفسه: 253.

(9) المصدر نفسه: 248.

(10) المصدر نفسه: 253.

متوكلنا في تصوير النصر على ثقافته الدينية والأدبية، يقول: ﴿وما أمرنا إلا كلمح البصر﴾⁽¹⁾ حتى من الله بالظفر، وأصفى الورد والصدر من الكدر⁽²⁾.

ونراه يأخذ من معاني الأدباء السابقين في تصوير فتح الحصن، ولعل الكاتب يبدو متأثراً بأبي تمام⁽³⁾ في فتح عمورية فهو "فتح برزت له الأرض في قشب أثوابها، وتفتحت له السماء"⁽⁴⁾. ومما تقدم يتبين للقارئ مدى الجهد الذي بذله المقاتلون المسلمون في استباحة حصون العدو والقلاع، وما عاناه المسلمون من وجودها إذ اتخذوا منها أداة لرصد تحركات المسلمين، وشل حركتهم واقتصادهم، ومغارا على قوافلهم التجارية.

* وصف الأسلحة وأساليب القتال

اهتم الكتاب في رسائلهم بوصف الأسلحة كالمنجنيقات، والسيوف، والرماح، والقسي وغيرها، كما اهتموا بوصف الأساليب القتالية، والحيل العسكرية في ساحة المعركة، مثل نقب الأسوار، والأدوات المستخدمة في الحصار، ووصف السفن الحربية، وأدوات القتال المستخدمة فيها. والمنجنيق أهم الأسلحة المستخدمة في المعارك، لا سيما في فتح الحصون، ولا تكاد رسالة بشارة بفتح حصن تخلو من وصفه، وبيان أثره الفعال في الأسوار، فلا تلبث الحجارة وكرات النفط المشتعلة، تتوالى على الحصن حتى تتصدع الأسوار، وتتداعى الأبراج. واستخدم الكتاب لوصف المنجنيقات، وبيان أثارها المدمرة، كل الوسائل الممكنة، من تشبيه، واستعارة، وكناية، وتشخيص. وعمدوا إلى الإطناب والاستقصاء في تصويرها. فالفاضل يرسم لنا صورة فنية جميلة للمنجنيقات التي دك بها صلاح الدين أسوار القدس، "فقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا نفارقها سهامها، ولا يفارق سهامها نصالها، فصافحت السور بأكنافه فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ويصورها: "بالنسر الذي يخلد إلى الأرض مرة، ثم يعلو ليصل إلى الأبراج، ويحدث ثقباً بها ويفتتها حتى تنتثر حجارتها وتثير الغبار من حولها"⁽⁵⁾.

ويصورها العماد تنزل الأسواء بالأسوار، وقد جدّت في إنقاذ الصخرة من الإسار، وتطايرت لنصرتها، وهتمت ثنايا الأبراج. ويصورها في موضع آخر بأنها "أمهات الدّواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حجر عليها في حجر، ولا أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر"⁽⁶⁾.

(1) مقتبسة من قوله تعالى: "وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر". سورة القمر آية: 50.

(2) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 253.

(3) إشارة إلى قول أبي تمام: "فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب".

ينظر: ديوان أبي تمام: 45/1.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 252.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 169-170، وانظر: الدر النظيم - تحقيق أحمد بدوي: 27.

(6) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 125.

ونرى في الرسائل وصفا للسيوف، والرماح، والقسي، والسهام، فقد أنزلها الكتاب منزلة الكائن الحي، وعمدوا إلى تشخيصها ليعبروا عن مدى فاعليتها في المعركة، فقد جعل العماد الرماح ترقص على أشجاع الشجعان، والصّوارم تخطب على منابر الطلى، وتشناق لذات اللذات إلى الأعناق، وتتوق شفاه الشفار إلى لثم الأعناق، وتطول رقاب السيوف إلى غلاظ الرقاب من الفرنجة⁽¹⁾، والسيوف والرماح في نظر الفاضل لها عيون، وأنوف وأيدٍ، وتدلج إلى اخترام الآجال وهي نائمة⁽²⁾.

ووصف ابن الأثير السيوف بأنها محققة للأمال، فهي التي تحسم الأمر، وتنتشر الغيظ في كل بلد تسرع في خطوها إليه، تهاجمه وهي مشتاقة لنفوس الأعداء الطائشة لاخترام آجالها، يقول: "ولم يكن قتاله بالسهم التي غايتها أن تصف أجنتها بالمطار، بل بالسيوف التي إذا جالدت بلدا أخذت بكظمه، وتوغلت في هجمه"⁽³⁾.

ويجد الدارس في رسائل الكتاب وصفا للأسلحة البحرية التي استخدمها المسلمون في معاركهم البحرية، ومنها الكلاب⁽⁴⁾ التي استخدمها المسلمون عندما حاصر العدو برج الذبان⁽⁵⁾، حيث عمل الفرنج برجا عاليًا، وركبوه على بطسة⁽⁶⁾ كبيرة، وحشوه بالحطب، وقدموه إلى برج الذبان، وقصدهم بذلك إحراقه، ولكن البطسة انقلبت عليهم، فأحرقهم الله بالنيران المشتعلة فيها، وكسب المسلمون ما في البطس من أقوات وذخيرة عن طريق الكلاب، يقول العماد: "وَجُذِبَتْ بَطَسُ أُولَئِكَ الْكَلَابِ بِالْكَالِيبِ"⁽⁷⁾.

ويصف العماد سفن العدو بالعقارب والأفاعي في سرعتها، وبالأموح في كثرتها "وكان العدو قد أبرز أباطيله، وجهاز أساطيله، وأدب عقاربه وأفاعيه"⁽⁸⁾. ويصف سفن الأسطول الإسلامي بالعرائس والأوانس، وهي صور انتزعها العماد من بيئته الاجتماعية. يقول: "وما أحسنها وقد زُفَّت عرائس وجُلِبَت أوانس، وطلعت بأهل الإيمان بواشر، وعلى أهل الكفر عوايس"⁽⁹⁾.

واستخدم المسلمون أساليب متنوعة في القتال، منها ما عرف بنظام الكمائن، وقد أشار العماد إلى هذا الأسلوب في إحدى رسائله في استدراج المسلمين للغزاة. يقول: "وما زالوا ينهزمون وراءهم حتى أبعدوهم عن المأمن، وعبروا بهم عن المكن، فخرج عليهم الكمين، وفتح عليهم أبواب فتحهم"⁽¹⁰⁾.

ومن الأساليب التي استخدمها المسلمون لتتبع أخبار العدو الحمام الهواذي. وكان نور الدين زنكي قد اتخذ سنة 567هـ، بسبب اتساع بلاده، وخوفه من إغارة الفرنج على أطراف مملكته، فلا

(1) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 314.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 163.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 150.

(4) هي نوع من الخطاطيف الحديدية مربوطة في نهاية سلاسل قوية، تُلقى على مراكب العدو فتوقفها، ثم يشدونها إليهم، وينصبون عليها ألواحاً خشبية، يمرون فوقها ليقاتلوا جند العدو. ينظر: ذيل تاريخ دمشق: 179.

(5) برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكا. ينظر: كتاب الروضتين: 161/4.

(6) هي سفن كبيرة للأزواد والمير، جمعها بَطَس. ينظر: الفتح القدسي: 340، النوادر السلطانية: 80.

(7) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 429.

(8) المصدر نفسه: 387.

(9) المصدر نفسه: 388.

(10) المصدر نفسه: 451.

يصل الخبر إليه إلا بعد فوات الأوان⁽¹⁾. وقد استفاد الجيش الأيوبي من الحمام الهوادي، ولاسيما أثناء حصار الفرنج عكا، وقد أشاد العماد بدورها في خدمة المرابطين، فهي تهدي للمجاهدين "أخبار الكفرة، وتدل على مكائدهم ومكامنهم"⁽²⁾.

ووصفها الفاضل بأنها تجهز الجيوش، وبأنها ملائكة الملوك؛ لأنها تنزل على المسلمين من الهواء كنزول الملائكة على الأنبياء صلوات الله عليهم⁽³⁾.

* العلاقات السلمية

لم تكن العلاقات بين المسلمين والفرنج تجري جميعها في نسق واحد بل كانت تتخذ طابع المواجهة المؤدي إلى الصراع العسكري في أكثر الأحيان. وفي المقابل، وجدت العلاقات التي تترسم سبيل السلم، وكان هذا النوع من العلاقات ينمو في حالات كثيرة حتى يصبح معبراً عن وجه من وجوه المبادلات القائمة على تمتين صلات الصداقة، وحسن التعاون⁽⁴⁾.

وقد عبّرت الرسائل في هذا العصر عن أشكال العلاقات بين المسلمين والفرنج، وعلى الرغم من شيوع هذا النوع من الرسائل ووفرته آنذاك، كما أشارت المصادر التاريخية، فإن ما وصل إلينا منها يُعدّ ضئيلاً.

والحقيقة، أن المصادر لم تمدنا بوثائق كافية عن معالم العلاقات السلمية بين الطرفين المتحاربين. وقد تجلت بعض معالم هذه العلاقات في نصوص الرسائل السياسية في بضع رسائل متبادلة بين الطرفين، إذ ليس ثمة نصوص أخرى تتعلق بسياسة الدولة مع الفرنج.

ومن المحقق أن رسائل عديدة كتبت في تنظيم العلاقات بين الطرفين وما كان يجري بينهما من فترات سلم أو مهادنات أو معاهدات، إلا أن ما بين أيدينا منها لا يدعو بضع رسائل تدور حول فكرة السلم بين الطرفين وما يتصل بها من تعزية أو تهنئة أو معاهدات أو مهادنات.

وأول معلم من معالم العلاقات السلمية بين الطرفين:

1- المجاملات

من الرسائل التي عبّرت عن المجاملات بين الطرفين المتحاربين، رسالة الفاضل التي كتبها عن صلاح الدين إلى "بلدوين" ملك القدس معزياً له في أبيه، ومهنئاً له بالملك بعده. وقد بدأ الفاضل رسالته بالدعاء للملك الفرنجي، وهو دعاء يناسب أهل الملل الأخرى فيدعو له أن يعطيه الله من الدنيا ما يتمناه، وأن يديم عليه نعمه، وأن يعلو بين ذويه من أهل ملته، وغير ذلك من الأدعية التي تتناسب أهل الملل الأخرى. ويعبّر الكاتب عن مدى الألم والحزن الذي شعر به السلطان

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 229/2.

(2) المصدر نفسه: 231/2.

(3) المصدر نفسه: 232/2.

(4) الرسائل الفنية في العصر العباسي - محمد محمود الدروبي: 183.

لدى سماعه خبر وفاة أبيه، وتمنى لو أن الخبر كان مجرد إشاعة. يقول: "فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصدقاء، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق"⁽¹⁾.

ويحدثنا الكاتب عن العلاقة الطيبة والمودة الصافية التي كانت تربط الملك الأب بصلاح الدين، ويبدو هذا واضحاً من خلال الرسول الذي أوفده السلطان صلاح الدين لتعزيته في وفاة أبيه، ويطلب من الملك أن يثق فيه كما يثق الابن في أبيه.

ويختم الرسالة بالدعاء له بإطالة عمره، وأن يحرس إمارته، وأن يبقى على العهد الذي كان أبوه عليه من قبل.

وواضح في هذه الرسالة أن عنصر المجاملة قد طغى على الرسالة من أولها إلى آخرها. وتظهر براعة الفاضل في توظيف الألفاظ توظيفا يخدم الموضوع الذي يتحدث فيه. والحق أن صلاح الدين والفاضل لم يكونا محبين لبلدوين، ولا لأبيه، ولكن الرسالة فيها نوع من المجاملة من أجل مصلحة البلاد.

2- المهادنات

أما المعلم الثاني من معالم العلاقات السلمية مع الفرنج فيتمثل في المهادنات، فقد كان الفرنج إذا شعروا بعجزهم وضعفهم أمام الجيوش الإسلامية هرعوا إلى طلب الهدنة، والنزول على الشروط التي يفرضها المسلمون.

وكانت سياسة الأيوبيين في الهدن تتمثل في جانبين: يقوم أحدهما على رفض حالة السلم، والإصرار على بقاء المواجهة العسكرية مفتوحة بين الطرفين، ويقوم الجانب الآخر على القبول بعقد هدنة تفرض الهدوء المؤقت، وفرض المنازعات بين الطرفين. وكان الفرنج أول من يبدأ بنقض هذا النوع من المعاهدات غير مبالين بالعهود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم.

ومن المهادنات التي عقدت بين الأيوبيين والفرنج الهدنة التي تمت بين صلاح الدين وملك أنطاكية، وهذه الهدنة تعود إلى سنة 584هـ، حيث أرسل ملك أنطاكية رسولا إلى السلطان متذللاً، يطلب الهدنة لمدة ثمانية أشهر، بعد أن أشرف على الهلاك. ويتحدث العماد عن تفاصيل الهدنة في رسالة له. وهي رسالة تقوم على ثنائية السلم والمهادنة حيناً، والحرب حيناً آخر. فهو يشير إلى لغة المجاملة التي طلب بها ملك أنطاكية الأمان على روحه وبلده. يقول: "وكان البرنس صاحبها قد عجل بإرسال أخي زوجته، يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته، وسلامة مهجته، وعقد الهدنة على بلده، وأمن ما في يده"⁽²⁾. ويبدو أن الناصر صلاح الدين كان متنبهاً للأسباب الحقيقية التي دفعت صاحب أنطاكية إلى

⁽¹⁾ صبح الأعشى - الفلقشندي: 115/7-116.

⁽²⁾ الفتوح القدسي - العماد الأصفهاني: 260.

طلب الهدنة. يقول مبينا الغاية التي قصدتها صاحب أنطاكية: "فإنها كانت مريضة"⁽¹⁾ على شفاء، ورسم قوتها قد عفا، فلو صدقها وقصدتها لحص دعائمها وحصدتها"⁽²⁾. ويظهر أن السلطان لم يجب ملك أنطاكية إلى طلبه، إلا وهو ينظر إلى غاية بعيدة، فهو لم يرض بعقد الهدنة إلا وهو يرمي حصول الراحة والأمان لعسكره، ثم يعود بعدها إلى فرض الجهاد. وفي هذه المدة الوجيزة لا يستطيع صاحب أنطاكية استرداد قوته؛ كون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وحصادها، واشترط لعقد الهدنة إطلاق أسرى المسلمين، وإلا فالحرب قائمة⁽³⁾.

ويتحدث الفاضل في إشارة سريعة إلى الهدنة في كتاب كتبه إلى تقي الدين عمر ويذكر فيه أن القمص أرسل رسله يسأله الهدنة. يقول: "وابن لاون إلى الآن يرسل سائلا في الهدنة، وتوقف الأمر فيها على أسارى، وإن لم يجب، فإن العساكر تقطع عقبتة، وتطأ رقبته"⁽⁴⁾.

وبعد هذه الوقفة عند رسائل المهادنات -كما تقدم- يأتي الجانب الراض للمهادنات. ولعل من أبرز الرسائل التي تلقي ضوءا على هذا الجانب رسالة "ريتشارد" إلى صلاح الدين ورده عليها، والطريف في موضوع الرسالتين: أنهما أقيمتا على ثنائية الحرب والسلم. يقول ريتشارد مستهلا رسالته: "إن الفرنج والمسلمين هلكوا، وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد. وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم فيمن السلطان به علينا، ونستريح من هذا العناء الدائم"⁽⁵⁾.

ويظهر من الرسالة أن الملك الفرنجي ميال إلى المسالمة والمودعة، فهو يعرض على صلاح الدين إنهاء حالة الحرب بين المسلمين والفرنج، زاعماً أن في ذلك الخير والنفع للجميع. ولا يلبث القارئ أن يكتشف أن الملك الفرنجي لم يكن يعرض صلحه ومهادنته على صلاح الدين من موقف هزيمة وذل، ويبدو هذا الأمر جلياً من لغة الكلام إذ يتحول من أسلوب اللين إلى أسلوب الشدة، يقول: "والقدس متعبدا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو عندنا عظيم"⁽⁶⁾.

ويبدو الملك الفرنجي في هذا الجزء صريحا جداً، فهو يكشف بما يدور في خله من غير أن يحاول خداع الملك الناصر، بل نراه يعلن إصراره على تمسكه بمطالبه بكل ما يقع تحت يديه من قوة. ويبدو أن الملك قد استخدم أسلوب اللين والوعيد لعله ينتزع موافقة صلاح الدين على شروطه. ولكن رد صلاح الدين جاء مخيباً لآماله، متوعدا إياه بأشد مما توعد به صلاح الدين، وقد استهل صلاح الدين

(1) أي يقصد أنطاكية.

(2) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 260.

(3) المصدر نفسه: 260-261.

(4) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 98.

(5) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 286/4.

(6) المصدر نفسه: 286/4.

رسالته بالتهديد. يقول: "القدس لنا كما هو لكم، وهو أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم، ومجتمع الملائكة"⁽¹⁾.

ومن الواضح أن موضوع الرسالة يتعلق بحرمان المسلمين ومقدساتهم، وقد استطاع الكاتب على لسان السلطان أن يصور صلابة المسلمين في الحفاظ على المقدسات الإسلامية تصويراً دقيقاً. يقول في حديثه عن القدس: "فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر أن نتلفظ بذلك بين المسلمين"⁽²⁾.

ومن الجدير قوله: إن هذه المعاهدات كانت تستخدم الأساليب السهلة تجنباً للتأنق؛ كون هذه الرسائل تتطلب الدقة والوضوح في كتابتها حتى لا ينشكّل أي خلاف على تفسير نصوصها. يقول صاحب مواد البيان: "وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يخلي فكره، ويعمل فيه نظره، ويتوفر عليه توفراً يحكم مبادئه، ويهذب معانيه"⁽³⁾.

وكانت المعاهدات تكتب بالألفاظ مبتذلة غير راقية الترتيب لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة، وكانت تكتب بهذه الألفاظ طلباً للسرعة⁽⁴⁾. ويرى صاحب صبح الأعشى أن هذا عيب لا يغتفر في عصر كانت الحلي اللفظية هي المثل المحتذى⁽⁵⁾.

وهكذا كان أدب الجهاد في هذا العصر، أدبا مسئولاً ملتزماً بالتعبير عن مشاعر المسلمين، وجهادهم ضد الفرنج، حيث سجل هذا الأدب انتصارات المسلمين ومعاركهم الكبرى، ووصف حصون العدو وقلاعهم، وصور المجاهدين، وصور الغزاة، ووصف الأسلحة وآلات القتال وغير ذلك.

ثانياً: المخاطبات الإعلامية

ويُقصد بها ما كان يصدر عن ديوان الإنشاء من رسائل ابتداءً أو رداً، وهي وسيلة الاتصال بين السلطان من جهة، ونوابه، والموظفين، والرعية في السلطنة، والملوك خارجها من جهة أخرى⁽⁶⁾. واضطلعت الرسائل في هذا العصر بدور مهم، فقد كانت لغة الإعلام التي تلجأ الدولة إليها لتبقى على اتصال مع الرعية. واستطاعت الرسائل أن تثبت قدرتها على التعبير عن المواقف السياسية التي كان الأيوبيون يرون ضرورة إعلام الرعية على حيثياتها وملابساتها. وقد أفضى هذا الأمر إلى أن يتلبس هذا النوع من المخاطبات ثوبا رسمياً⁽⁷⁾، فقد كان الأيوبيون يملكون زمام الحكم والسياسة الإعلامية التي تعبّر عن وجهات نظرهم الرسمية بما تنطوي عليه وجهة النظر هذه من محاربة للخصوم، وتصوير للخلافات السياسية، وتسيير شؤون الرعية. وتجدر الإشارة إلى أن المخاطبات السياسية أصبح لها في

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 286/4.

(2) المصدر نفسه: 286/4.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 529، وينظر صبح الأعشى - القلقشندي: 70/14.

(4) صبح الأعشى - القلقشندي: 70/14.

(5) المصدر نفسه: 70/14.

(6) عصر سلاطين المماليك - محمود رزق سليم: 112/5-113.

(7) الرسائل الفنية في العصر العباسي - محمد محمود الدروبي: 13.

عهد الأيوبيين أنماط كثيرة مثل المنشورات، والتقليدات، والتوقيعات، والرسائل الإخبارية التي تنقل أخبار الولايات، والصراع مع الأعداء، وغيرها. وأول ضرب من ضروب المخاطبات الإعلامية:

* المنشورات

هي نوع من أنواع النثر الديواني، وهي عبارة عن بلاغ إخباري عام يصدر عن ديوان الإنشاء، ويوجه إلى الرعية في شأن من الشؤون العامة. وقد عرّفها القلقشندي بقوله: "قد اصطلح كتاب الزمان على تسمية ما يكتب في الإقطاعات من عاليها ودانيها للأمراء والجند والعربان، وغيرهم، أما في الزمن المتقدم، فقد كانوا يطلقون اسم المنشورات على ما هو أعم من ذلك، مما لا يحتاج إلى ختم كالمكتوب بالولاية، والمكتوب بالحماية، وما يجري مجرى ذلك"⁽¹⁾.

وقد تنوعت المنشورات تنوعاً ملحوظاً، فهي تجمع المنشورات التي تعنى ببيان موقف الدولة من خصومها، والمنشورات التي تصور مظاهر النزاع الداخلي بين صلاح الدين والأمراء الزنكيين، ومنشورات الحماية، ومنشورات التفويض بالحكم والإدارة، والمنشورات التي كتبت في استخدام أشخاص في وظائف معينة.

وتميّزت المنشورات بسمات فنية لافتة منها تراوحها بين ظاهرتي الإطناب والإيجاز، ففي المنشورات التي تصور موقف الدولة من خصومها، أو تلك التي تصور مظاهر الخلافات الداخلية، تغلب عليها ظاهرة الإطالة، وقد يكون السبب حاجة الكتاب إلى بسط القول فيها، والإحاطة بملابساتها؛ وذلك لأن هذا النوع من المنشورات يوجه إلى فئات ثقافية مختلفة، بالإضافة إلى أن المواضيع التي يُكتب فيها هذا الضرب من المنشورات يتصف بالخطورة والأهمية مما يجعل تناول المنشورات بهذه الصورة أمراً ضرورياً.

أما المنشورات التي كتبت في الحماية، أو الاستخدام وغيرهما، فقد اتسمت بالإيجاز، فالكتاب لا يطيلون فيها بالثناء على السلطان، ولا على الشخص الصادر المنشور بحقه. ومن أبرز المنشورات:

1- تلك التي تعنى ببيان موقف الدولة من خصومها، ومنها المنشور الذي كتبه الفاضل إلى السلطان نور الدين زنكي على لسان صلاح الدين يشرح فيه قضية صلب "عمارة اليميني". وكان عمارة قد استقر رأيه مع جماعة من دعاة الدولة الفاطمية على تنظيم مؤامرة ضد دولة صلاح الدين، بيد أن خلافاً في هذه المؤامرة أفضى خطتها، وأدى إلى افتضاح أمرها. وتولى صلاح الدين إقرارهم بما فعلوا، فأقرروا واعترفوا، وحاولوا أن يقدموا المسوغات التي دفعتهم إلى ذلك، فلم يقبل صلاح الدين مسوغاتهم، واستفتى العلماء في أمرهم فأفتوه بقتلهم وصلبهم. وينشر منشور الفاضل إلى شطرين، حاول الكاتب أن يربط بينهما ربطاً مقنعاً.

⁽¹⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 157/13.

فالشطر الأول يُقدم فيه الكاتب مقدمة ممهدة يتلمس من خلالها الدخول إلى الغرض الذي أنشئ من أجله المنشور. ويظهر منذ البداية أن الكاتب وفق في مقدمته، فقد كان السلطان يروم من إصدار هذا المنشور إعلام الأمراء بتفاصيل المؤامرة من جهة، ومن جهة أخرى إدخال الروح في نفوس الخارجين على الدولة لكل من تسول له نفسه الإقدام على مثل هذا الفعل الخطير.

ومن هنا يبتدئ الكاتب بتعظيم أمر الإسلام، وبيان مدى تساميه على الأديان كافة، وأن الله ناصر دينه ولو كره الكافرون، يقول: "قصر هذه الخدمة على متجدد سارٍ للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله"⁽¹⁾.

وفي الشطر الثاني من المنشور يتحول الكاتب إلى الجزء الرئيسي الذي يعالجه المنشور، فيعرض في هذا الجزء تفاصيل المؤامرة التي خطط لها عمارة وأتباعه من أجل القضاء على دولة صلاح الدين. ويتابع الكاتب إيراد المسوغات في قتلهم، فيوضح أنهم كانوا يرسلون الفرنج، ويطمعونهم في ديار الإسلام، ويظهرون غير ما يظنون، ثم يلج في تضاعيف المنشور إلحاحاً شديداً على أخلاق صلاح الدين ومآثره، وأنه مقتدرٌ بسيرة السلف في التعامل معهم، فقد لجأ إلى سياسة العفو واللين، فلم يزداهم ذلك إلا ضراوة وقساوة. يقول: "والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا ييسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجح السؤال، أطلق سراحهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة"⁽²⁾.

وتتحو الرسالة في نهايتها منحي التهديد والتقريع والوعيد الذي اتخذته الناصر بحقهم، فقد شنقوا وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، وشردوا ونُفوا عن ديارهم، وعُزل رجالهم عن نسائهم، وحقت كلمة الله عليهم⁽³⁾.

والكاتب -في هذا الشطر- يلج على رغبة صلاح الدين في أن تكون هذه الإجراءات الصارمة سارية على أصحاب هذا المذهب لا يستثنى أحداً منهم. ويبدو التشديد جلياً على ضرورة إنزال العقوبة بكل من تسول له نفسه الخروج على شيء مما تضمنه المنشور. ويندرج المنشور السابق في سلك المنشورات التي تُعنى ببيان موقف الدولة من خصومها، وهذا الضرب من أهم الضروب التي عالجتها المنشورات في هذا العصر.

2- يلي الضرب السابق في أهميته ضرب آخر كانت تحفل به المنشورات، ويتمثل هذا الضرب في تصوير مظاهر الخلاف الداخلي بين صلاح الدين والأمراء الزنكيين، وكانت قضية النزاع تدور حول أحقية أحد الطرفين في ملك بلاد الشام. فالأيوبيون تولوا مقاليد الحكم في مصر، وصلاح الدين أول من قطع الخطبة للفاطميين فيها، في حين دافع الزنكيون عن حقهم؛ لكون الملك الصالح

(1) كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 286/2.

(2) المصدر نفسه: 287/2.

(3) المصدر نفسه: 287/2.

الوريث الوحيد لنور الدين بعد وفاته. وأخذت مظاهر هذا النزاع تأخذ بُعداً أعمق، وذلك عندما استجدوا بالفرنج، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، مما أدى إلى تفرق الكلمة وطمع الفرنج في بلاد الشام. والكاتب في هذا المنشور يدخل مباشرة إلى لب الموضوع الذي حرر من أجله، فيعرض موقف الزنكيين من صلاح الدين، ويحملهم المسؤولية في تمكين الغزاة، واستقرارهم في ديار الإسلام. يقول: "واشتهرت للمسلمين عورات، وضاعت ثغور، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين"⁽¹⁾. ويمضي لاثماً على دور بعض الأمراء المناصرين للفرنج معددا التسهيلات التي قدموها لهم.

ويأخذ الكاتب بعد هذا الجزء بتذكير الزنكيين بضرورة الوحدة، وأنه لا شيء يوحدتهم ويجمعهم على قتال الفرنج غير العقيدة، لا سيما أن الطرف الآخر قد اتخذ من عقيدته وسيلة للتجميع والاستئثار. يقول: "واستجدوا علينا بأنصار النصرانية في الأقطار، وسيروا الصليب من كسى مذابحهم بقيامة"⁽²⁾. وفي نهاية المنشور لا ينسى الفاضل أن ينوه بواجب الخليفة المسلم لحسم الخلافات الداخلية القائمة باعتباره الحاكم الأول فيها، حتى يعيد للإسلام هيئته، وللبلاد عزّها وقوتها أمام الأعداء الذين يهددون المسلمين في عقر دارهم⁽³⁾.

3- تتدرج بعض المنشورات في باب تنظيم المهن، وتسيير أمور الرعية فقد وضعت في تحديد مهنة من المهن، وبيان شروطها، وشروط العاملين فيها مع توجيهات عملية لممارستها. ومن الأمثلة على هذه المنشورات، المنشور الذي كتبه العماد إلى طبيب حلب. والكاتب في هذا المنشور يبين الأسباب التي أدت إلى اختيار الطبيب لهذه المهنة، وتتمثل هذه الأسباب بتفرده في صناعة الطب، فهو مجربٌ في مداواة الأمراض، عارف بأمورها وغاياتها، ماهر في تشريح الأعضاء. وبعد هذه المقدمات، يأتي قرار التكليف واضحاً صريحاً. يقول: "وأمرناه بأن يواظب على الخدمة بقلعة حلب المحروسة لمداواة أهلها، وحيازة مرضاة مرضاها، ومعالجة كل حالة بمقتضاها، ومداواة أهل البلد"⁽⁴⁾. وتبدو عناصر المنشور واضحة محددة، ويغلب على لغته السجع والجناس، ومال إلى الإطناب، كما أنه يخلو من استخدام الجمل الدعائية والتحميدات. ويصور هذا المنشور بعض ملامح الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، وهي حياة مزدهرة، يتضح ذلك من خلال الاهتمام بالبيمارستانات وبالقائمين عليها، وتنظيم شؤونها.

4- ومن ضروب المنشورات ما كان يُكتب للحماية. ومن الأمثلة على هذا المنشور ما كتبه الفاضل إلى أحد الفقهاء بإعفاء أرضه من الكلف والمغارم، وقبول نصف الخراج منه، وحماية أملاكه، واستخلاص حقوقه وديونه ومعاملاته، ورد ما اغتصب منه له ولأهله، وإعادة كل ما أخذه الوالي

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 367/2.

(2) المصدر نفسه: 367/2.

(3) المصدر نفسه: 68/2.

(4) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 139/5.

بأسوان منه. وقد بدأ الكاتب منشوره بقوله: "هذا منشور أمر بإنشائه المولى الملك الناصر"⁽¹⁾. وتطالعنا منذ بداية المنشور نزعة ذاتية غالبة مستمدة من سلطة الكاتب، ثم يثني الكاتب على أخلاق الفقيه ومآثره، ومكانته السامية عند صلاح الدين. ثم ينتقل الكاتب انتقالا مناسباً إلى الحديث عن الغرض الذي أنشئ من أجله المنشور، وقد أحسن التسلسل إلى مقصده، وهو إعفاء الفقيه من الكلف والمغارم المفروضة على أرضه⁽²⁾. ويختتم الكاتب منشوره بخاتمة تناسب الموضوع، حيث يجنح إلى تخصيص الولاية، والثواب، والمشارفين، والمتصرفين على اختلاف طبقاتهم، بتنفيذ هذه الأوامر؛ لأنهم المسؤولون عن التصرف بمثل هذه الأمور، بالإضافة إلى تخويف زمرة من الولاية والنواب الخارجين على تنفيذ هذه الأوامر⁽³⁾.

5- ومن المنشورات التي تدرج في باب تفويض الأمر بالحكم والإدارة، ما كتبه العماد عن السلطان صلاح الدين لرئيس سنجار⁽⁴⁾ من بني يعقوب⁽⁵⁾. والكاتب في هذا المنشور ينقل إلينا الخطوط العريضة التي يرسمها السلطان لولائه في إدارة الولايات، فهو يرشده إلى الاستعانة بأهل الثقة عند طلب المشورة، وأن يعامل الرعية معاملة حسنة، وأن يشدد على أهل الضلالة والفساد، كما يطلب منه إشاعة العدل وإنصاف المظلوم، ورد المظالم لأهلها. وتبدو عناصر المنشور واضحة، يقل فيه السجع والجناس والتلاعب بالألفاظ، كما يغلب على ألفاظه السهولة، فقد جاء قرار التفويض صريحا واضحا، يقول: "ونفوض إليه تدبير مدينة سنجار وقلعتها، والزعامة على أهلها ورعيتهما"⁽⁶⁾، "مستشعرا تقوى الله التي تقوى بها العزائم، وتبنى على دعائهما المكارم"، "مقتديا بعباداتنا العادلة، وسيرتنا الفاضلة في خفض الجناح للرعية بالرعاية، وإثابة المحسن بإحسانه، وردع المسيء عن عدوانه"⁽⁷⁾.

6- ويتصل بهذا الضرب من المنشورات لون آخر يُعنى باستخدام أشخاص في وظائف معينة. ومن الأمثلة على هذا اللون ما كتبه الفاضل في استخدام أحد الأشخاص، وقد أوجز الفاضل في هذا المنشور غاية الإيجاز، فقد افتتحه بقوله: "يُعلم الأمير أن فلانا قد استخدم في كذا"⁽⁸⁾. ويبدو أن هذا اللون من المنشورات لم يشر إلى نوع الوظائف التي كان يُستخدم فيها المستخدمون، فقد اكتفى الكاتب

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 199.

(2) المصدر نفسه: 199.

(3) المصدر نفسه: 200.

(4) هي مدينة في شمالي العراق، مركز قضاء سنجار في لواء الموصل، وهي مشهورة من نواحي الجزيرة في لحف جبل. ينظر: الأعلام الخطيرة: 782.

(5) هو الأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر، كان صلاح الدين قد زوجه اخته، وهو من الأمراء المقدمين، توفي سنة 581 هـ. ينظر: الروضتين: 245/3، وفيات الأعيان: 115/4، مفرج الكروب: 124/2.

(6) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 51/5.

(7) المصدر نفسه: 51/5.

(8) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 232.

في هذا المنشور بتعداد صفات الشخص المستخدم، وأخلاقه. ويغلب على أعطاف المنشور لغة الأمر، وهذا يعود إلى المكانة المرموقة التي بلغها الفاضل في ظل صلاح الدين، يقول: "والمأمور به احترام

72

جانبه، وتسهيل مطالبه، والمعاذلة له في مقاصده ومآربه"⁽¹⁾. ويختم المنشور بلغة الأمر أيضا بقوله: "فليعلم هذا، وليعمل به، إن شاء الله"⁽²⁾. وخلاصة القول: إن هذه المنشورات تمثل صورة واضحة بوصفها لونا من ألوان المخاطبات الإعلامية الشائعة في ذلك العصر، فقد اتسعت لتشمل موضوعات متعددة ترى الدولة أهمية إعلام الرعية بها. وفي هذا إشارة إلى حرص الأيوبيين على إطلاع الرعية على ما يجري من أحداث لها علاقة بحياتهم، وبالتالي فإنها أدت وظيفتها على أتم وجه.

* التقاليدات

"نوع من أنواع الرسائل مما يُكتب من ديوان الخلافة لمن دون أرباب العهود في الرتبة من أرباب السيوف، وأصحاب الأقلام، وأرباب الوظائف الديوانية وغيرها من الرتب"⁽³⁾. والتقاليدات لون من ألوان النثر المتعلق برأس الدولة، وهي رسائل رسمية تُعبر عن وجهة نظر الدولة في مسألة إدارية تخص الدولة نفسها.

وبناء هذا النوع من الرسائل يكاد يدور في فلك واحد، فهي تتضمن توجيهات متنوعة، ويمكن أن تكون بمنزلة دستور عام يرسم لصاحب التقليد خطوطا عريضة تمكّنه من إدارة شؤون المنصب المقبل عليه. ويبدو هذا في التقليد الذي كتبه الخليفة في بغداد إلى السلطان صلاح الدين، ويُضفي هذا التقليد على صاحبه ثوبا من التقدير والإجلال.

وهو يقسم إلى ثلاثة أجزاء يتصل بعضها ببعض؛ فأما الجزء الأول فهو مخصص للخطبة، التي تحتوي -في العادة- على حمد الله على إنعامه والصلاة على رسوله، والثناء على صاحب التقليد. ويحرص الكاتب في هذا الجزء على التصريح بنوع الولاية التي كتب التقليد من أجلها، واسم البلاد المخصصة بهذا التقليد. يقول: "اقتضت الآراء الشريفة إمضاء تصرفه، وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى، والإسكندرية، وما يفتح من بلاد الغرب والساحل، وبلاد اليمن وما افتتحه منها"⁽⁴⁾. وقد بُدئ هذا التقليد بطريقة غريبة كما أورده الفلقشندي حيث افتتح بقوله: "إن أولى" وغالبا ما يكون المقلّد هو الخليفة أو من ينوب منابه ثم يذكر اسم المقلّد.

وأما الجزء الثاني فيمثل جوهر التقليد، وهو يتسع ليشمل طائفة من التوجيهات التي يقصد المقلّد إلى وضعها بين يدي المقلّد، ويبني هذا الجزء على عدة فقرات تتباين في طولها، لكنها تتوحد في المطلع، إذ تبدأ كل واحدة منها بكلمة: "وأمره". وتعقب هذه الكلمة سلسلة من التوجيهات التي يرغب

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 232.

(2) المصدر نفسه: 232.

(3) صبح الأعشى - الفلقشندي: 262/10-263-343.

(4) المصدر نفسه: 146/10.

المقلد من المُقلد العمل بها. وأول ما يأمر به السلطان تقوى الله -عز وجل- وطاعته، وأن يتخذ القرآن والسنة قدوة له في كل أمره، ويأمره أن يُعنى عناية شديدة بإقامة الصلّاة والحرص على أدائها لوقتها،

وعدم تضییع شيء منها، "وأن يكون على صلاته محافظاً، ولنفسه عن الإخلال والتقصير في أداء فرضها واعطاء، فيغتنم الاستعداد أمام أوقاتها للأداء، ويحترز من فواتها والحاجة إلى القضاء." (1)

واستكمالاً للجانب الخلقي التهذيبي، فإن المقلد يضع بين يدي المقلد سلسلة من الجوانب الخلقية التي ينبغي له الأخذ بها، من إدامة ذكر الله في كل حال من أحواله، ثم يوجه له مجموعة من النصائح والتوجيهات المتصلة بسياسة الرعاية، وإدارة شؤون البلاد التي تخضع له، فيطلب إليه أن يحسن معاملة الرعية، فيقضي بينهم بالعدل، ويسوي بينهم في الأحكام، وأن يجتهد في اختيار بطانته من أهل التّصح والمشورة والعفة، وأن يأخذ برأيهم (2).

وأما في الجانب المتعلق بالأحكام، فيطلب إليه أن يأخذ بأحكام الشرع فيما يعرض له من المسائل، وأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يشدد قبضته على أهل الفساد، وينزل بهم ما يستحقونه من الجزاء الرادع (3).

وأما الجانب المتصل بالأمن، فيأمره بضرورة العناية بحفظ الثغور، والأماكن القريبة من الأعداء، والعمل على تحصينها وحمايتها من هجمات الأعداء، وأن من طلب الأمان منهم فليجبه إليه، ويوجهه إلى ضرورة اختيار المحتسب (4) المناسب؛ نظراً لما لهذه الوظيفة من أهمية كبيرة من الناحيتين الإدارية والاقتصادية، وبالتالي شدد على أن يكون من أهل الأمانة والنزاهة والعفة، وهي صفات مهمة لمن كانت وظيفته مراقبة السوق، والأسعار، وكشف المدلسين، واعتبار الموازين والمكاييل، وإنزال العقوبة بحق المخالفين. ويبدو للقارئ -تنوع التوجيهات والأوامر، ولا شك في أن هذا التنوع يدل على مدى عناية الدولة بالجوانب الإدارية المتصلة بأمور الرعية. أما الجانب الثالث فيمثل خاتمة التقليد، وقد جاءت متضمنة تأكيد ما جاء في الجزء الثاني من وجوب الأخذ بالتوجيهات والأوامر المتصلة بأمور الرعية، يقول: "فلينهج محاج الولاء الذي عهده من أمثاله الأولياء، ويعلم أنه مسئول عن كل ما تلفظ به لسانه ناطقاً، ونظر طرفه إليه رامقاً" (5). ولعله يتضح للقارئ من هذا التّطواف كم كانت التوجيهات والأوامر التي كانت تشتمل عليها التقاليد متنوعة، حسب مضامينها وغاياتها، وكم عني ديوان الخليفة في بغداد بالنواحي الإدارية في سائر البلاد الإسلامية.

* التوقيعات

لون من الرسائل الديوانية تصدر عن ديوان الإنشاء، وهي ضربٌ من المخاطبات الإعلامية التي عبر عنها فن الرسائل، وهي في جملتها مخاطبات تهتم بالقضايا العامة والخاصة. وقد انقسمت التوقيعات في هذا العصر إلى قسمين: الأول: يطلق على ما يكتبه الرؤساء على اختلاف مراتبهم تعليقاً

(1) صبح الأعشى - الفلقشندي: 146/10.

(2) المصدر نفسه: 148/10.

(3) المصدر نفسه: 149/10.

(4) هي وظيفة من الوظائف المتصلة بالأحكام الشرعية، وهي جلية رفيعة الشأن، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي والمعاش والصنائع، وقد بلغت درجة كبيرة في الديار المصرية. ينظر: صبح الأعشى: 483/3.

(5) صبح الأعشى - الفلقشندي: 152/10.

على الرسائل المرفوعة إليهم، كأن تكتب عبارة موجزة إنشاءً أو اقتباساً متضمنة رداً مناسباً على مضمون كل واحدة من هذه الرسائل⁽¹⁾.

وأما النوع الثاني من التوقيعات: فهو مما يكتب في الولايات، وهو شبيه بما يكتب في التقليدات، فالتوقيع من هذا النوع ينقسم عند الفلقشندي إلى عدة أقسام منها الافتتاح بالخطبة والتحميد والتسليم، ووصف المتولي بما يناسب مقامه ومقام الولاية، والألقاب المختصة بصاحب الولاية، والوصايا التي تقدم لصاحب الولاية ثم الخاتمة⁽²⁾.

ولا يهم كثيراً كل من هو في سبيل بحث التوقيعات الأيوبية، الوقوف طويلاً عند اختلاف الدارسين في أصل التوقيعات ونشأتها، فذلك مما يجده الباحث مقتضياً في عدد وافر من الدراسات الحديثة. وقد كان التوقيع منصبا خطيراً من مناصب ديوان الإنشاء، وقد أشار صاحب مواد البيان إلى خطر منصب صاحب التوقيع حين عدّه "يد السلطان ولسانه"⁽³⁾. واختير لهذا المنصب أكثر الكُتاب براعة وكفاية، واشترطوا إلى جانب براعته جودة خطه، وسرعة بديهته، ونزاهة نفسه، ورسوخ دينه وأمانته⁽⁴⁾.

وفي ضوء استقرار النصوص في المظان العربية القديمة، فإن الباحثة وقفت على خمسة توقيعات. ومن أجل الوقوف على مضامينها ينبغي تتبع أبرز الأغراض التي كانت تكتب فيها التوقيعات في هذا العصر. فمن الأغراض البارزة للتوقيع على القصص:

1- ما كان يُكتب تلبيةً لنداء المتضررين وأصحاب الحاجات المعوزين. ومنه التوقيع الذي كتبه السلطان الناصر صلاح الدين في إغاثة أحد الفقهاء، وكان قد أنهكه طول السفر، والتقدم في العمر بالألّا يقطع رزقه الذي تجريه عليه الدولة؛ لأن قطع رزقه يعني التتكيل بهذا الفقيه. يقول: "وما نقطع لأحدٍ رزقاً إن شاء الله تعالى بل هي علالات، نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، وعلى الجملة ما تقدمتُ بقطع رزق أحد، وقد علمت⁽⁵⁾ فيها: اكتب فيها، الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى"⁽⁶⁾. ويتبين من التوقيع السابق أن الدولة الأيوبية كانت تتحمل قدراً من المسؤولية تجاه الرعية، وأنها لم تكن بمعزل عن حاجات الناس وتقديم العون لهم. والناظر في هذا التوقيع يرى أنه يطول عما ألفناه من التوقيعات الموجزة في مثل هذا النوع من التوقيعات، وهذا يدل على أهم مظاهر التطور الذي أصاب هذا اللون من الرسائل، فقد توسع الموقعون في بسط المعاني بسطاً يخرج بها عن حدّ الإيجاز

(1) ينظر حول نشأة التوقيعات على سبيل المثال بلاغة الكتاب في العصر العباسي - محمد نبيه حجاب: 96، أدب الرسائل في الأندلس - فايز عبد النبي القيسي: 116.

(2) صبح الأعشى - الفلقشندي: 355/10.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 74.

(4) المصدر نفسه: 75.

(5) العلامة: هي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع. ينظر: كتاب الروضتين: 63/4.

(6) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 63/4.

إلى الإطناب. وهذا التطور بدأ منذ العصر العباسي، حيث أخذ الكُتّاب يعدلون عن الإيجاز الذي عَدّه القدامى أهم سمات التوقيع⁽¹⁾.

2- ومن التوقيعات التي وقفت عليها الباحثة الدعوة إلى تأنيب الخارجين على أمر السلطان، كما في التوقيع الذي كتبه صلاح الدين على ظهر كتاب طلب فيه أحد الأمراء أن يعود إلى بلاده مع جيشه، والسلطان غير راضٍ عن هذه العودة، ويريد أن ينتظر ليشركه في الجهاد، وإبداء الرأي والمشورة، وكانت الرسل متواترة بين المسلمين والعدو في الصلح، فلما ورد هذا الكتاب كتب عليه "من ضيع مثلي من يده، فليت شعري ما استفاد"⁽²⁾. وهذا التوقيع يشبه توقيعات المتقدمين في الإيجاز وتكثيف الفكرة.

3- وإلى جانب الغرضين المتقدمين كانت التوقيعات تكتب في تنظيم علاقة السلطان بكتّاب ديوان الإنشاء، فمن ذلك ما كان يُكتب في إمضاء الإذن والموافقة عليه، أو رده وعدم الترخيص به، ومن التوقيعات التي تضمنت الموافقة على إذن توقيع الناصر صلاح الدين في رسالة الفاضل يستأذنه في الحج والزيارة يقول: "على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً"⁽³⁾.

والناظر في هذا التوقيع يجد أنه يتلبس ثوب الحكمة، ويبدو هذا واضحاً من خلال اقتباس الناصر معانيه من القرآن الكريم⁽⁴⁾، فالحكمة والتوقيع يلتقيان في إطار واحد وهو القصر والإيجاز.

4- ومن التوقيعات التي أوضحت علاقة كاتب ديوان الإنشاء بالسلطان أو أحد نوابه، ما كتبه "الملك العادل"⁽⁵⁾ إلى الفاضل يستشيريه في التعوض عن مصر بحلب. فكتب إليه الفاضل توقيعاً يقول: "أدام الله دولة حامي الحمى، وثبت الدولة الناصرية التي يقوم بها ملكان همامان هما، هذا صلاح يمنح فساداً، وهذا سيف يحقق دماً"⁽⁶⁾. وهذا التوقيع يتشج بثوب الإطراء الجميل، فهو يقتصر على إبراز عدد من الصفات التي يتمتع بها كلا السلطانين، وهو بذلك يؤول إلى ضرورة انتقال العادل من ولاية مصر إلى حلب، لما للملك العادل من صفات وشمائل خلقية. وبذلك يكون التوقيع قد حقق غايته.

5- وجاءت بعض التوقيعات متضمنة الأمر باستخدام شخص في إحدى الوظائف الدينية، ومن التوقيعات التي تتضمن هذا المنحى ما كتبه الفاضل عندما عرض عليه "أبو الخير سلامه الضرير" يوماً ورقة باسم مؤذنين يستخدمان اسم أحدهما مرتضى، والآخر زيادة، فكتب على رأس الورقة "أما

(1) إحكام صناعة الكلام - الكلاعي: 160.

(2) الفتح القدسي - العماد الأصفياني: 439.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 24/3.

(4) يشير إلى قوله تعالى "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً". سورة النساء آية: 73.

(5) هو أبو بكر محمد بن أيوب أخو صلاح الدين، نشأ في خدمة نور الدين، وحضر مع صلاح الدين فتوحاته، وكان يعتمد عليه، توفي سنة 615 هـ.

ينظر: وفيات الأعيان: 74/5-79، النجوم الزاهرة: 221/6.

(6) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 191/3.

مرتضى فزيادة وأما زيادة فمرتضى⁽¹⁾. والناظر في هذا التوقيع يلحظ فيه كثافة الفكرة، والاقتصاد في اللفظ، وهو يحمل قيمة دينية مهمة، فهو يعبر عن حرص الدولة في اختيار أصحاب المناصب الدينية؛ لنشر العقيدة الإسلامية وإفشاء سياسة العدل والصلاح في الرعية.

ومن الأمثلة على النوع الثاني من التوقيعات، وقفت الباحثة على توقيعين للفاضل من هذا النوع وردا في مجموعة رسائل عن الحرب والسلام⁽²⁾. وإذا كان الفلقشندي ذكر أن التوقيعات تفتتح بالخطبة، فإنه ذكر في موضع آخر: "أنها يمكن أن تفتتح بلفظ "إن أحق" و "إن أولى"⁽³⁾.

ورأى "شهاب الدين الحلبي": أن مثل هذا النوع من التوقيعات مثل التقلييدات والمنشورات، والأحسن فيها بسط الكلام⁽⁴⁾.

ومن الأغراض البارزة لهذا النوع من التوقيعات:

1- إجابة المستمحين وطلاب الحاجات، ورفع الظلم عنهم. وهذا ما نجده في توقيع الفاضل للأمير "مبارز الدين خطلخ الحلبي"⁽⁵⁾، وقد بدأ التوقيع بلفظ "أولى"، ولم يحفل فيه بوصف المتولي، وهذا التوقيع يُعدّ أكثر إيجازا إذا ما قورن بما أورده الفلقشندي لمثل هذا النوع من التوقيعات. وينتقل الكاتب في خلع بعض الصفات على المتولي، التي دعت إلى إصدار هذا التوقيع. ولعل من أهم هذه الصفات الشجاعة والفروسية والإخلاص، والتوقيع يقع في جزأين: يعتمد في الأول إلى مدح المتولي والثناء عليه، وفي الثاني يأخذ الكاتب في تقديم المسوغات لتكريم الأمير وقبول حاجته، وبالتالي خرج الأمر العالي بقبول طلبه. يقول: "ولما كان فلان قد ملك هذه الفضائل وحازها، خرج الأمر العالي بأمر الناحية من الموضع الفلاني بخاصة وتوفير مغلها⁽⁶⁾ على مصالحه، والاستعانة بمتحصلها على صلاح آلات الجهاد، واستجلاب مراحه"⁽⁷⁾. ويطلب الكاتب من الأمير أن يباشر عمله واضعا الله تعالى نُصب عينيه في السر والعلن، مستخيرا له في كل أحواله، معبرا عن ذلك بإيجاز شديد وبألفاظ مناسبة للموضوع الذي يتحدث فيه.

ولعل القارئ بعد هذه الوقفة قد تبين ملامح هذا اللون من الرسائل، فالتوقيعات لون من ألوان المخاطبات الإعلامية العامة التي تهتم بقضايا ذات علاقة بالناس؛ وهذه التوقيعات -على ندرتها في هذا العصر- قد أبرزت رسالتها الهامة التي حملتها التوقيعات الأيوبية.

(1) الوافي بالوفيات - الصفدي: 347/18.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 229-230.

(3) صبح الأعشى - الفلقشندي: 49/8.

(4) حسن التوسل - شهاب الدين الحلبي: 368.

(5) هو مبارز الدين ختلخ الحلبي، وقد ورد ذكره في حوادث 615هـ في النجوم الزاهرة، عندما بعث السلطان الأشرف بالأمير سيف الدين والمبارز بمجموعة من العساكر لنجدة أخيه بدمياط. ينظر: النجوم الزاهرة: 222/6.

(6) مغلها: نتاجها ودخلها. لسان العرب - مادة: مغل.

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 231.

لون من ألوان الرسائل الديوانية، قال عنها صاحب مواد البيان: "وقد جرت العادة أن يُضمن حمل الأموال التي يسافر بها الرسول ليعود إليها، إن أغفل شيئاً منها، أو نسيه، أو تكون حجة فيما يورده ويصدره"⁽¹⁾. والرسم في التذكرة أن تبدأ بعد البسملة بقول الكاتب تذكرة منجحة أو مباركة أو غير ذلك، ثم يذكر اسم حاملها؛ ليتوجه إلى الجهة المرسل إليها التذكرة بعد الاستخارة⁽²⁾. وهذه التذاكر أحكامها أحكام الكتب في النفوذ من الأعلى إلى الأدنى، وعن الأدنى إلى الأعلى، فينبغي أن تُبنى على ما يحفظ رتب الكاتب، والمكتوب إليه⁽³⁾.

ومن الملفت للنظر أن هذا النوع من الرسائل نادرٌ جداً، فلم أقف إلا على تذكرة واحدة كتبها الفاضل على لسان السلطان صلاح الدين، وسيّرهما بصحبة القاضي "شمس الدين بن الفراش"⁽⁴⁾ إلى بغداد، وكان صلاح الدين يروم من هذه التذكرة "الحصول على تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما اشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا"⁽⁵⁾. وقد بدأ الكاتب هذه التذكرة بما تعارف عليه الكتاب في مثل هذا اللون من المكاتبات من مثل قوله: "تذكرة مباركة لم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ولعوارض الشك دافعة"⁽⁶⁾. ويذكر الكاتب اسم حاملها بعد الاستخارة، وينتقل الكاتب بعد هذه المقدمة إلى الثناء على الخليفة والدعاء له، مُحسِّناً التخلص إلى مقصده حيث يشير ما تتضمنه التذكرة من أغراض أو حوادث وجواري أمور، وتبين فيها دور صلاح الدين في القضاء على الفتن التي ثارت، وماله من أيادٍ في محاربة الفرنج، والقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، وهذه الأمور والحوادث فرضت على الكاتب أن يطنب في هذه التذكرة إطناباً شديداً يفوق كل رسائل الفاضل، وهذا الإطناب متأثراً من حاجة الكاتب إلى إبراز المسوغات للديوان العزيز في طلب تقليد جامع للسلطان الناصر. ويبدأ الكاتب هذه الحوادث بالحديث عن الأسيرة الأيوبية، ودورها الكبير في بلاد الشام، والمحافظة عليها من أطماع الفرنج، يقول: "كان أول أمرنا أننا كنا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن والدنا وعمنا، فأَي مدينة فتحت أو معقل ملك فما يجهل أحد صنعنا"⁽⁷⁾. ويحدثنا الفاضل عن مصر، ويطيل في الحديث عما فعله صلاح الدين في سبيل القضاء على الخلافة الفاطمية، وما واجه من ثورات مثل ثورة السودان،

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 632، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 79/13.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 632، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 80-89.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 633، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 80/13.

(4) هو محمد بن محمد بن موسى، شمس الدين المعروف بابن الفراش، شاعر من القضاة من أعيان الدولتين النورية والصّلاحية، كان يوجه في السفارات إلى الملوك، ولاء صلاح الدين أمانة خزانته، وقضاء عسكره، وخاصته، توفي وهو عائد من ملطية سنة 588 هـ. ينظر: خريدة القصر - قسم شعراء مصر: 289، كتاب الروضتين: 347/4-348.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 89، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 81/13.

(6) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 90، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 81/13.

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 93.

ومن خيانة للكُتّاب، فقد كانت أفلامهم تفعل فعل الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل⁽¹⁾. ولكن صلاح الدين واجه هذه القوى مجتمعة، ففعلت فيها سيوفه الأفاعيل على حدّ قول الفاضل⁽²⁾. وينتقل الكاتب بالحديث عن الفتوحات والانتصارات التي حققها صلاح الدين في بلاد الإفرنج، وينتقل بعد ذلك إلى اليمن، فقد ظهر فيه رجل ضال قد عاث في ذلك البلد فسادا، فاستباح الحرائر الشريقات، واستولى على مكنوزات اليمن وذخائرها، فأرسل إليه صلاح الدين أخاه فقبض عليه وأسرّه. ولم يفت الفاضل أن يذكر ما فعله صلاح الدين بالمغرب، وما حققه من انتصارات في تلك البلاد، وعن أطماع الأعداء فيها، وخصّ منهم الكاتب صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية، وكيف خذلها الله تعالى. وأنهى حديثه عن أجناس أخرى من الأعداء. ويصور الأحداث التي جرت سنة 569هـ، وهي دفعت صلاح الدين لتوحيد مصر والشام تحت جبهة واحدة؛ ليتمكن من فتح بيت المقدس الذي لا تتم أسبابه إلا بمجاورته، وإصلاح ما فسد في بلاد الشام⁽³⁾. وبعد أن ينتهي الكاتب من تقديم الحجج والبراهين للدور الريادي الذي قام به صلاح الدين في مصر والشام، يدخل إلى غرضه مباشرة، وهو الحصول على تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه صلاح الدين بسيفه من أجل تحقيق الوحدة، وتوحيد القوى الإسلامية استعدادا للجهاد ضد الفرنج وفتح بيت المقدس⁽⁴⁾.

ويختتم الفاضل تذكّره بخاتمة مناسبة للموضوع الذي يتحدث فيه، فهو يختمها بالدعاء والمشئّة، وهذا هو ديدن الفاضل في خواتم رسائله، فقد كان يذهبها بالدعاء والمشئّة. يقول: "والله تعالى ينجد إرادتنا في الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار إن شاء الله"⁽⁵⁾.

ومن الجدير قوله: إن هذه التذكّرة تُعدّ من أهم الوثائق التاريخية، فبجانب أهميتها التاريخية استطاعت هذه الرسالة أن تحقق الهدف المنشود من خلال بلاغتها وقدرتها على الإقناع، وتمّ لصلاح الدين ما أراد. ففي أثناء إقامة صلاح الدين في حلب وصلت رسل الخلافة، ومعهم الخلع، فلبسها صلاح الدين، وألبس أخاه العادل، وآخرين خلعا جاءت لهم.

* الإخباريات

هي رسائل تصدر عن ديوان الإنشاء إلى الخليفة في بغداد أو إلى الأمراء في سائر الولايات حاملة أخبار الدولة، وهي رسائل كثيرة الدوران في الاستعمال كما وصفها صاحب مواد البيان، وهي ليست مما يمكن تمثيله، ولا حصر المعاني الواقعة فيه، برسوم تشتمل عليها⁽⁶⁾. واتسم هذا اللون من

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 97.

(2) المصدر نفسه: 97.

(3) المصدر نفسه: 107.

(4) المصدر نفسه: 109.

(5) المصدر نفسه: 109.

(6) مواد البيان - علي بن خلف: 625، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 219/9.

الرسائل بتحرره من القيود الفنية، فهذا اللون" لا تقدم له مقدمة تكون توطئة لما بعدها، كما يجري الأمر في سائر فنون المكاتبات الأخرى التي لا تخلو من مقدمات تحل منها محلّ الأساس من البنين⁽¹⁾. وقد تنوعت رسائل الأخبار تنوعاً ملحوظاً؛ نظراً لكثرة الأحداث وتشابكها، وفي ضوء استقرار النصوص التي بين يدي الباحثة، وجدت أن هذا اللون اتم بالكتابة، وبالتالي فإن الباحثة ستختار أمثلة لبعض الضروب التي عبّر عنها هذا اللون.

1- وأول ضرب من ضروب رسائل الأخبار ما كان يكتبه الكُتاب على شكل بيانات شاملة تنقل أخبار سنة كاملة، ومن هذه الرسائل ما كتبه العماد الأصفهاني على لسان السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين، واشتملت على أخباره، وتحركاته وحروبته وانتصاراته في سنة 583هـ. وقد بدأ الكاتب رسالته بقوله: "صدرت هذه المكاتبة"⁽²⁾ على نحو ما هو متعارف في مثل هذا اللون من المكاتبات. وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى الدعاء للخليفة، وهو لا يطيل الدعاء ولا يطنب في الثناء، ثم ينتقل الكاتب مباشرة إلى غرضه وهو وصف فتح بيت المقدس، فقد نعت بأجمل الأوصاف، فهو فتح "تلوح تبأشيره في لوح الدهر لكل مؤمن، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية"⁽³⁾. ويصف حال القدس، وهي رهينة في يد الفرنج، مستخدماً بعض المصطلحات ذات الدلالات الدينية، التي تعكس طبيعة الصراع القائم بين أتباع عقيدتين من مثل قوله: "وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه"⁽⁴⁾.

ونقل الكاتب أمنيات الحكام الذين سبقوا صلاح الدين في تحرير بيت المقدس، ولكن -الله تعالى- ادخر هذا الفتح لعهد صلاح الدين، فهو الوحيد الذي حوّل أحلام المسلمين إلى حقيقة، عندما تم تحرير بيت المقدس على يده، ثم وصف خروج السلطان من دمشق، واستعداده لمنازلة الفرنج، واجتماع الجيوش الإسلامية من جميع الأمصار، وحدث بعض المناوشات مع الأعداء.

وتغلب على الرسالة النزعة الدينية، فالكاتب يجاري روح العصر ويوافقها، إذ كان عصر صراع بين الإسلام والشرك ولذا فإن الخطاب الموجه للأمة ينبغي أن يراعي تلك الروح، فيصف جيش المسلمين بكثرتهم وقوته "بيوم العرض، وبتلو مشاهده لنزول الملائكة، ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾"⁽⁵⁾ في رايات خافقة"⁽⁶⁾. وفي المقابل يصف العماد الجيش الفرنجي، والكاتب يحرص على تبيان أن المسلمين في معاركهم التي خاضوها مع الغزاة لم ينتصروا على أعداء ضعاف يجهلون أساليب الحرب والقتال، وإنما تغلبوا على جيوش قوية كثيرة العدد، لديها كل مقومات القتال ومتطلبات

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 625، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 219/9.

(2) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 190.

(3) المصدر نفسه: 190.

(4) المصدر نفسه: 191.

(5) سورة الفتح آية: 7.

(6) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 193.

الحرب. كما أنه يعمد إلى استثارة المسلمين من خلال الإشادة بجلد الفرنج، وغيرتهم القوية على عقيدتهم، مستخدماً في ذلك كله

80

مصطلحات تتعلق بالنصرانية من مثل قوله: "وأخرجوا صليب الصليبوت، وقائد أهل الجبروت فتهافت إلى شعلة ناره فراشهم"⁽¹⁾.

وينقلنا الكاتب إلى الحديث عن أجواء المعركة، فيصور لحظة اللقاء أدق تصوير، كأن الألفاظ استحالت حيوات ذوات أرواح؛ يقول: "فالمنايا تئن، والحنايا تحن والبيض تصافح البيض"⁽²⁾. ويصور ما أسفر عنه اللقاء من غنائم وأسرى وتحرير مدن وقلاع وحصون إسلامية كانت بيدهم. كما يصف صداها في المجتمعين الإسلامي والفرنجي، ويذكر بعد ذلك ما قام به السلطان من فتح مدن الساحل وحصار صور، ويختم رسالته بالحديث عن فتح عكا وبيت المقدس⁽³⁾.

2- ومن ضروب الإخباريات ما كان يصدر عن ديوان الإنشاء إلى بغداد؛ لتصف حالة الجيوش، وتخبّر عن حاجتها إلى الراحة والعتاد والسلاح، وإلى جانب الدور الإخباري لهذه الرسائل، فإن لها دوراً آخر في استنهاض الهمم، والتماس المعونة من الخلافة في بغداد، فبعد الرحيل عن عكا سنة 587هـ، أرسل السلطان رسالة إلى بغداد بقلم العماد، وصف فيها مطولة الحرب والجراح، وفناء الخيل والسلاح، وحاجة الجيش إلى الراحة والمدد، يقول: "وقد نهك العسكر طول البيكار، وأنخاه قتال الكفار بالليل والنهار، وقد تكررت عليه الزحوف، وتعثرت به الحتوف"⁽⁴⁾.

وكان الفاضل يكتب إلى السلطان عندما يغيب عنه سواء أثناء إقامته بدمشق ما يستجد من أخبار، فكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، فمما كتبه الفاضل إلى صلاح الدين سنة 586هـ في أثناء حصار عكا رسالة يخبره فيها بتسيير الإمدادات إلى عكا، ويخبره بسوء الحالة الاقتصادية في مصر والشام، فقد أنهكت البلاد كثرة الحروب واستنفذت مواردها المالية والاقتصادية، والرسالة تعبّر عن وقوف الفاضل على كل كبيرة وصغيرة في الدولة بحكم منصبه وزيراً للسلطان. يقول: "والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع أسفارها ووقوف معاشها وكساد أسواقها وانكسار تجارها"⁽⁵⁾.

3- إضافة إلى الضروب السابقة ثمة ضرب آخر يهتم بنقل أخبار الحروب الداخلية التي خاضها صلاح الدين مع حكام حلب والموصل، في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، للوقوف أمام الخطر الفرنجي. فقد شن السلطان حملة واسعة على المتخاذلين والمتحالفين مع الفرنج، واستولى على بلاد الجزيرة سنة 578هـ. وقد كتب العماد الأصفهاني رسالة إلى الديوان العزيز ببغداد مبيناً الأسباب التي

⁽¹⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 193.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 193.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 196-197-199.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 606-609.

⁽⁵⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 218/4.

دعت السلطان صلاح الدين للاستيلاء على الجزيرة، فقد تجرأ هؤلاء على الإسلام، واستعانوا بالفرنج،
وكادت بلاد المسلمين أن تخرج من أيديهم، مما دفع السلطان للنزول على بلادهم وتخليصها منهم، وقد

استطاع السلطان فتح هذه البلاد سلماً دون إراقة دماء. يقول: "فلم يصل إلى بلد إلا تسلمه سلماً، وتولاه حلماً وتملكه سهلاً، كذلك دخل الموصل ولم يُشهر سيفاً، ولم يقصد لعدوه من فتح حتفاً"⁽¹⁾.

4- ومن ضروب الإخباريات ما كتبه الفاضل إلى الأمراء من رسائل يُحمّلها ما يجد من أخبار. ومنها الرسالة التي كتبها إلى "تقي الدين عمر" يخبره بشفاء صلاح الدين من مرضه سنة 581هـ. والرسالة من فاتحتها إلى خاتمتها تسير على وتيرة واحدة من الحمد والثناء على الله- سبحانه وتعالى- أن من الله على مولاه بالشفاء وأجلى كربيه وفرج هممه، وأقال عثرته، وأبدله بالصحة بعد المرض، والراحة بعد التعب، وهي نعم تمتد من توفيق الله للسلطان حتى تصل إلى المدافعة عنه وإحاطته بما يحفظه، وهذه العناية هي التي رعت السلطان، وأنهضته من مرضه، ومع أن موضوع الرسالة الإخبار عن شفاء السلطان، إلا أن الكاتب أثر أن يدير محور رسالته حول الحديث عن الواقع المنتظر لسلامة السلطان؛ نظراً لما ينطوي عليه هذا الأمر من النهوض بفريضة الجهاد، وحماية البلاد. يقول: "إن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها وفاضت أنوارها، وولت العلة - الحمد لله - والعزيمة ماضية حديدة، والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسطة البساط"⁽²⁾.

ومما يتصل بهذا الضرب من الرسائل -أخيراً- ما كتبه الفاضل إلى بعض الأمراء يخبر فيها بتخاذل ملك المغرب عن النصر والنجدة أثناء حصار عكا، والرسالة تشي بالشعور بالمرارة والأسى اللذين اعتصرا قلب الكاتب من تخاذل ملك المغرب، وتقاعسه عن نجدة إخوانه، ويأسف لعدم انضمام بعض البلاد إلى صلاح الدين؛ ليحاربوا جميعاً تحت لواء واحد. يقول: "فالله يسعد بلاد الدنيا في الانخراط في سلك ملكه، ويمكن من مؤمنها حكم عدله، ومن كافرها سيف فتكه"⁽³⁾. ومن الجدير قوله: إن رسائل الفاضل الإخبارية اتسمت بالإيجاز، يصل فيها الفاضل إلى هدفه مباشرة دون الدخول في الدعاء والإطناب في الثناء. ومالت رسائل العماد الإخبارية إلى التفصيل والإطناب رغبة منه في الإحاطة بجوانب الموضوع.

* كتب الأمان

الأمانات جمع أمان، وهي ما يكتبه ديوان الحكم أماناً للخارجين على الدولة إذا هم ثابوا إلى رشدهم، ورجعوا إلى الطاعة والانقياد. وقد وجدت بهذه الصورة منذ فجر الإسلام، كما يمكن تبينها من رسائل الأمان التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى بعض القبائل العربية⁽⁴⁾. وكثرت الأمانات في الفتح الإسلامي حيث كتب الخلفاء الراشدون الأمانات لأهل البلاد المفتوحة، ثم انتشرت في عصر بني أمية بشكل موسع نظراً لكثرة الفتن والثورات، وفي العصر العباسي أصابت الأمانات حظاً وافراً من التطور، فقد غلب عليها الإطناب والمبالغة في الشروط.

(1) البرق الشامى - العماد الأصفهانى: 44/5.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسى: 142/3.

(3) المصدر نفسه: 207/4.

(4) صبح الأعشى - القلقشندي: 329-328-323/13.

وأما في هذا العصر فلم تقف الباحثة إلا على نص واحد كتبه الفاضل على لسان السلطان صلاح الدين إلى "حطان بن منقذ"⁽¹⁾ في اليمن، ونص الأمان هذا يختص بتأمين شخص بعينه، أما أنماط الأمانات الأخرى كالأمانات المحررة لأصحاب البلاد المفتوحة، أو الأمانات التي تكتب إلى أهل المدن الثائرة فلم يصل إلينا شيء منها. ونص الأمان الذي سأقف عنده هو أمان السلطان الناصر إلى حطان بن منقذ في اليمن، وكانت قد بدرت منه أمور تسيء إلى الدولة، وكان سيف الإسلام طغتكين قد حط من رتبته، فلم يجد حطان بُدًا من المقاومة وطلب الأمان.

وقد بدأ الكاتب الأمان بعبارات توضح فضل الرجوع إلى الحق، والتوبة عن الذنب، فالعبرة في الأعمال بخواتمها، ثم ذكر ما ورد في كتاب سيف الإسلام إلى صلاح الدين، فقد ذكر أن حطان استدرك هفوته، والتزم بأمره فشفع له عند أخيه، وقد قبل السلطان شفاعته أخيه⁽²⁾.

ويعمد الكاتب إلى توثيق الأمان وتوكيده من خلال حشد أعظم الإيمان ليدلل على صدقه. يقول: "والله الذي لا إله إلا هو، وحق كتابه العظيم، ورسوله الكريم، إنك يا حطان آمِنٌ بأمان الله سبحانه وتعالى، وأمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأماننا على جسمك ونفسك وأطرافك وبشرتك وشعرك ودمك، ومن كان معك ورجع برجوعك، ودخل في أمانك أمانا لا نتعقبه"⁽³⁾.

ويطلب الكاتب من حطان أن يكون على ثقةٍ بنزاهة صلاح الدين وأمانته، وأنه حالما يصل من اليمن إلى الشام، فإنه سيعامل معاملة الأمراء الأكابر في الدولة. يقول: "فتق بهذا الأمان، وأحسن ظنك في الإحسان، وقَدِّمَ الحضور، فإنك بمشيئة الله تختار ما تستأنفه على ما كنت فيه"⁽⁴⁾.

وهذا الأمان لا يعبأ بشيء من الضمانات والقيود المترتبة على معطي الأمان إن نكث بها، بل يختم الكاتب الأمان بعبارة تعبر عن المكانة السامية التي وصل إليها المستأمن نتيجة طلبه الأمان. يقول: "وقد رفعت إلى الدرجات بهذه الحركة فتبوا مكانا عليا والسلام"⁽⁵⁾.

ولكن هذا الأمان لم يمنع سيف الإسلام مما خطط له لقتل حطان، مما يدل على ضعف الوازع الديني والأخلاقي في نفسه، فقد دبر سيف الإسلام أمرَ قتله وسلبه أمواله، متناسيا أشد المواثيق، وأغلظ الإيمان التي قطعها صلاح الدين على نفسه، ضاربا عرض الحائط بكل القيم والمبادئ التي دعا إليها الدين الحنيف. ويبدو أن ضياع رسائل الأمان العائدة لهذا العصر، قد جعلت منه وثيقة سياسية مهمة رسم لنا ملامح هذا اللون من الرسائل في ذلك العصر.

(1) أخو الأمير مبارك بن منقذ، كان واليا على زبيد باليمن، أمره سيف الإسلام طغتكين أن يسير إلى الشام، ثم قبض عليه وقتله سنة 578هـ. ينظر:

كتاب الروضتين: 93-94، النجوم الزاهرة: 91/6.

(2) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 107.

(3) المصدر نفسه: 108.

(4) المصدر نفسه: 108.

(5) المصدر نفسه: 108.

الفصل الثالث

الاتجاه الاجتماعي

محتويات الفصل الثالث

89-85.....	* عناصر السكان
91-89.....	* صورة المرأة
95-91.....	* ظروف المعيشة والتكافل الاجتماعي
99-95.....	* عادات وتقاليد
100-99.....	* وسائل التسلية والترفيه
103-101.....	* النقد الاجتماعي
106-104.....	* تيارات مذهبية
109-106.....	* الثقافة والتعليم
111-109.....	* القضاء
113-111.....	* الجانب الاقتصادي

صورت الرسائل مظاهر حياة المجتمع في العصر الأيوبي، واتخذت هذه المظاهر أبعاداً اجتماعية ودينية واقتصادية، فتحدثت عن عناصر السكان وظروف معيشتهم، وما حل بالبلاد من كوارث وزلازل، وصورت مظاهر الترف، وعادات المجتمع وتقاليده، وتحدثت عن مظاهر العقيدة ومحاربة البدع والمنكرات، وصورت العلاقات بين المسلمين والفرنج، وغير ذلك.

* عناصر السكان

تميز هذا العصر بأنه عصر الوحدة الإسلامية بين مصر والشام، رغم تعدد أصول هذا المجتمع ومشاربه وعقائده واتجاهاته، وحرص كل عنصر على التمسك بعاداته وتقاليده، ومعتقداته. وقد تركت هذه جميعها أثراً واضحة في التركيب الاجتماعي، والتكوين البشري، والبناء الحضاري. وقد شهد هذا العصر تمازجاً بين أجناس مختلفة بين بلاد الشام ومصر، فبالإضافة إلى العرب، برز الأتراك حيث عرف العرب الجموع التركية باسم السلاجقة والغزّ والتركمان. وكان لهم دور خاص في هذا المجتمع، فقد كانت لهم مصادمات وانتصارات على الفرنج، وقد امتدحهم نور الدين زنكي بقوله: "إن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يربعون إلا منهم، ولولاهم لزد طمعهم في الديار المصرية"⁽¹⁾. ويصف الفاضل حسافة رأيهم في القتال عندما هاجم الأسطول الصقلي الإسكندرية سنة 569هـ. يقول: "وأشار جماعة من عقلاء الأتراك بأن يرد الناس من المكان البعيد، ويقفوا من السور بالمكان القريب، فخلا البرّ، وأمكن الأسطول في النزول للأمر"⁽²⁾.

وكثيراً ما كان هؤلاء التركمان يفسدون في أعمال الشام بالسلب والنهب والتخريب، وقد أخذ الصّراع بين الفرنج والأتراك، وبين القوى في بلاد الشام شكل النزاع العربي التركي⁽³⁾.

وكان الأرمن يشكلون الجزء الأوفر من السكان في الرها⁽⁴⁾، وبعض أجزاء من أنطاكية، وكانوا بوصفهم نصارى، وأعداء للأتراك، يؤيدون الحكم اللاتيني، وأولعوا بالحرب، وقد عملوا فرساناً ومشاة في الجيوش الإفريقية في بلاد الشام.

وكان الأكراد قد كثروا في مصر بعد هجرة آل صلاح الدين إليها، فأخذوا يستقرون فيها، وقد عرف عنهم بأسهم في القتال، ووقوفهم جنباً إلى جنب مع سكانها العرب في مواجهة الغزاة. وكانت رابطة العقيدة الإسلامية هي التي تربط بين هذه الفئات، وإن كانت الرسائل في هذا العصر قد أفرزت بشكل نادر - بعض مظاهر التعصب العرقي، ويبدو هذا في عدد من الرسائل التي كتبها ابن الأثير خلال صراع الأيوبيين مع الخوارجية، فقد كان يفتخر بالعرب، وتقوّمهم على الأمم الأخرى. يقول مشيداً بشجاعتهم: "ومن أين له ولرجاله صبرُ العرب في مواقف الجلال، أولهم مثل خيولهم التي من

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 144/2.

(2) المصدر نفسه: 283/2-284.

(3) دخول الترك الغز إلى الشام - شاعر مصطفى، ضمن كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام: 386.

(4) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام: معجم البلدان: 106/3.

صفاتها أنها تسمى الجياد⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ذلك وُجد **الفرنج** الذين كانوا يأتون إلى هذه البلاد على شكل غزاة، وهم يتكونون من أجناس متعددة من أوروبا. وقد وصف الفاضل في إحدى رسائله هذا التنوع والتعدد. يقول: "واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية، والألسنة الأعجمية من لا يُحصر معدوده، ولا يصور في الدنيا وجوده"⁽²⁾.

وضم المجتمع أقليات من الروم، وكان لهؤلاء حياتهم الخاصة وطباعهم. وكان في القدس بعض نساء ملوك الروم، ومنهن واحدة ترهبت وأقامت في المدينة، ومعها الكثير من الحشم والعبيد⁽³⁾. ومن الفئات السكانية التي عُرِفَت في هذا العصر فئة **الفتوة**، وكانت هذه الفئة قد فقدت الكثير من مثُلها العليا ونظمها العسكرية، ونزلت إلى الطبقة الدنيا، فعرفت **فتوة العيارين والشطار**، ثم أخذت هذه الفئة تأخذ طابعا جهاديا، وذلك في عهد "الناصر لدين الله" العباسي⁽⁴⁾، فقد كاتب جميع الملوك والأمراء طالبا منهم أن يشربوا كأس الفتوة، ويلبسوا سراويلها، ومن ثم فقد أصبح للفتوة رسوم لا بد من أدائها لمن أراد الدخول في زمرتها. وقد لعبت الفتوة دورا لا يستهان به في أثناء الحروب الصليبية. كتب ابن الأثير كتابا إلى بغداد يسأل فيه عن إرسال سراويل الفتوة، وقد أضفى على لباس الفتوة ملامح التقوى والورع والحياء، يقول: "ومن صفاته أن تشدّ به معاهد الإحصان، ويكثر فيه وصايا التقوى الذي هو أفضل شعب الإيمان، وقد اختص من بين أصناف اللباس بأن رأى عاقده برهان ربه، وأقدم على الذنب فصرف الله عنه فحشاء ذنبه"⁽⁵⁾.

وضمّ المجتمع في ذلك العصر إلى جانب هذه الفئات **أهل الذمة** الذين كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين في مدنهم وقراهم⁽⁶⁾.

اضطلعت الرسائل في ذلك العصر بدور مهم تجاه أهل الذمة، ويبدو ذلك من خلال التقاليدات والمراسيم التي أصدرها الأيوبيون بشأنهم، ومن ذلك التقليد الذي كتبه ابن الأثير عن الأفضل لوالي دمشق، وجاء في جزء منه الأمر بإحسان معاملة الرهبان المنقطعين في كنائسهم، وإسقاط الضرائب عن الفقراء والشيوخ وغير القادرين على الكسب، يقول: "ومن إحسان السيرة فيهم ألا تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته، ولا من شيخ حال الضعف بينه وبين منفعة"⁽⁷⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 42، ينظر في الرسائل 36-42-45-53.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 252/4.

(3) مفرج الكروب - ابن واصل: 216/2.

(4) هو أبو العباس، أحمد بن الخليفة المستضيء، ولد سنة 553هـ، ظهرت الفتوة في بغداد بأيامه ورمي البندق ولعب الحمام. توفي سنة 622هـ،

وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة. ينظر: النجوم الزاهرة: 262/6.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 236.

(6) رحلة ابن جبير - ابن جبير: 217.

(7) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 161.

ولكن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في المجتمع الأيوبي كانت محكومة بعدة عوامل، منها الصراع الدامي بينهما، ومنها خروج أهل الذمة عمّا حدد لهم من لباس حتى أصبحوا لا يميّزون من المسلمين. وكانت تصدر التقاليدات بشأن تنظيم هذه الفئة، فقد شعر الأيوبيون تنامي شوكة أهل الذمة، واختلاطهم في صفوف المجتمع حتى غدا من العسير تمييزهم من المسلمين، فأرادوا أن يضبطوا أمورهم حتى لا يستفحل أمرهم، ويأتي بما لا تحمد عقباه.

ومن ذلك التقليد الذي كتبه ابن الأثير على لسان "الأفضل" لصاحب الحسبة بوصيه بعدة أمور، منها أمور أهل الذمة، وكان الأفضل يروم من إصدار هذه التوجيهات لتلك الطائفة إيجاد الفوارق الشكلية التي تتيح للناظر تمييز أهل الذمة بلباسهم عن عامة أهل الإسلام؛ حتى تظهر ملامح التمييز الإسلامي، ولا يفقد المجتمع الأيوبي عنصرا من عناصر هذا التمييز، يقول: "وهكذا أهمل أمر الإسلام في تشبه أهل الذمة بأهله، وما كانوا ليشابهوه بزي عزته، ويخالفوه في سلوك سبيله"⁽¹⁾.

ويبين الكاتب في التقليد طائفة من الإجراءات التي يرى "الأفضل" ضرورة تطبيقها على أهل الذمة، وأن تكون هذه التعليمات جارية على سائر أهل الذمة في أصقاع الدولة. ويبدو التشديد واضحا على ضرورة قيام الولاة والمحاسبين بواجبهم، وتقعد امتثال هذه التعليمات من عدم المجاهرة بشرب الخمر، وإبراز شعائهم وغيرها من الأوامر. وعلى الرغم من الحروب المتصلة التي كانت بين المسلمين والفرنج، فقد قامت بينهما في بعض الأحيان علاقات اجتماعية طيبة اتسمت بالمجاملة.

وبصور ابن جبير ملامح تلك العلاقة، كما يبدو في قوله: "ومن العجيب أن النصاري المجاورين لجبل لبنان، إذا رأوا به من المنقطعين المسلمين جلبوا لهم القوت، وأحسنوا إليهم، ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله - عز وجل - فتجب مشاركتهم"⁽²⁾. ويذكر أنه ربما يلتقي الجمعان من المسلمين والفرنج، ويقع المصاف وقوافل المسلمين والنصاري تختلف بينهم دون اعتراض عليهم، ويؤدي النصاري للمسلمين ضريبة في بلادهم على سلمهم، كما يؤدي المسلمون للنصاري ضريبة كذلك في بلادهم⁽³⁾.

على أن هذه العلاقات الاجتماعية كانت مؤقتة بين الطرفين، ولم يكن يحجب طبيعة الصراع فهي في معظمها علاقة عداة ومصادمات. وقد أشارت الرسائل إلى مشاركة أهل الذمة ضد المسلمين. يقول الفاضل مصورا مؤامرات شارك فيها أهل الذمة أبناء القصر الفاطمي، ضد دولة صلاح الدين. يقول: "وتوصل جُرج⁽⁴⁾ إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وجماعة من النصاري واليهود"⁽⁵⁾.

(1) رسائل ابن الأثير تحقيق أنيس المقدسي: 147. ينظر: المثل السائر - ابن الأثير: 134/2.

(2) رحلة ابن جبير - ابن جبير: 259.

(3) المصدر نفسه: 273-274.

(4) هو اسم كاتب ورسول الفرنج المرسل إلى الفاطميين للعمل ضد صلاح الدين. ينظر: كتاب الروضتين: 287/2.

(5) رسائل القاضي الفاضل - تحقيق علي نجم عيسى: 37.

وكان أهل الذمة يشاركون في الحياة الاجتماعية، فكان ثمة حديث عن كنائسهم وعقائدهم ورجال الدين عندهم. وقد تحدثت الرسائل عن اهتمام الكتاب بأماكن العبادة النصرانية التي تجتذب المتعبدین بجمالها، فهم يرسمون معالم الكنائس العمرانية حتى أصبحت مثار إعجاب لكل من رآها، فقد أفرغوا فيها جهدهم من الزخرفة، والتفنن في البناء الذي اتخذوه من الحجارة، فأصبح لنا طيعا.

ويصف ابن الأثير معلما من معالمهم الدينية وهي كنيسة شاهقة البنيان عجيبة، وقد تركت أثرا قويا في نفس الكاتب، مما دفعه إلى وصفها وصفا جميلا، يقول: "ولا ينتهي الوصف إلى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تستلبت العجلان، وتستجلب الأذهان، ومن جملة ذلك ما تنوّه في حسنه من البيع والصوامع، ذوات الأبنية الروائع التي روضت بالزخارف ترويض الأزهار، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحى إليها بالأسرار"⁽¹⁾.

وحشد الكتاب في رسائلهم طائفة من التعابير والألقاب النصرانية، فقد أبرز الكتاب كل ما يتعلق بعقيدتهم كحديثهم عن الصليب، وأهميته لهم، فكانوا يختارون له المكان المشرف ليشاهد فيه، وفي هذا تعظيم له، وقد عبر الفاضل عن ذلك في إحدى رسائله. يقول: "فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا بينون عليه أشدّ عقد وأوثق، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه"⁽²⁾.

وأبرزت الرسائل صورا من تقديس الفرنج كنيستهم في القدس، فهم يعتقدون أنها المكان الذي صلب فيه السيد المسيح، وأن النور ينزل من السماء فيها، وأنها مكان بعثهم. كما يقول العماد متحدا على ألسنتهم: "فهذه قيامتنا فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا"⁽³⁾.

وثمة حديث عن رجال الدين عندهم وطبقاتهم، وقد بينت الرسائل أهمية بعضهم، فالبابا يخطط لغزو البلاد الإسلامية، أما البطرك فله شأن خاص؛ لأنه مرافق للجيش، ومطبق للدين، فهو معلم إياهم عقيدتهم⁽⁴⁾. وكان دور البطارقة يلتقي مع دور القساوسة في التحريض على القتال، وقد أشار الفاضل في إحدى رسائله في حصار عكا مصورا ذلك بقوله: "ركبوا اللجج، ووهبوا المهج كلّ ذلك طاعة لقسيسهم، وامتنالا لأمر مركبهم، وغيره لمتعبدهم، وحمية لمعتقدهم"⁽⁵⁾.

وكانت الحروب الصليبية سببا في كثرة الرقيق والجواري، حيث كثر عدد العبيد في دور الملوك والأمراء، فجعلوهم طبقات وفرقا؛ فمنهم الرومي، والتركي، والأرمني. وقد أثر الرقيق تأثيرا كبيرا في حياة المجتمع الإسلامي، وافتن المسلمون في اقتنائه، وقد بلغ بعضهم درجة كبيرة عند مالكيهم السلاطين حتى وصل إلى رتبة الأمير، ومنهم "قراقوش الطواشي"⁽⁶⁾ وزير صلاح الدين الأيوبي.

(1) رسائل ابن الأثير - أنيس المقدسي: 155.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 360/3. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 50/6.

(3) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 118.

(4) مفرج الكروب - ابن واصل: 231/2.

(5) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 157/4.

(6) هو بماء الدين قراقوش الأسدي، اتصل بخدمة صلاح الدين، بنى قلعة القاهرة والصور، ينظر: الذيل على الروضتين: 19، وفيات الأعيان: 91/4.

وكان للجواري شأن يُذكر لا يقل عن شأن العبيد، فقد ضم المجتمع الإسلامي طائفة كبيرة من الجواري، ولعب بعضهن دورا كبيرا في قصور السلاطين والأمراء، فقد كُنَّ صاحبات حسن وجمال، ولهن الكلمة النافذة، وكان بعض الأمراء يستغل الجواري لا سيما المغنيات في مجالس اللهو. وقد برز فن الغناء في هذا العصر بروزا واضحا، بسبب ما كانت تعانيه مصر والشام من حروب، وما استتبع ذلك من تسرب روح اليأس في نفوس الناس، فوجدوا فيه هروبا ومتنفسا لما عانوه من ويلات الحروب. ورسمت الرسائل الأثر الذي تتركه المغنيات في النفوس. يقول ابن الأثير: "فهن يلعبن بالعقول، ويغنين الشيطان بغنائهن عن بث الجنود، وفتيا النفس الأمانة"⁽¹⁾.

وأدى الإكثار من وجود الرقيق والجواري إلى ظهور ألوان من الانحلال والفسق والفجور، وقد عبر الفاضل عن فساد الحياة الاجتماعية؛ نتيجة لوجود هذا الرقيق في رسالة وجهها إلى صلاح الدين. يقول: "فالمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يُتوقع بعدها إلا ما يُستعاذ منه"⁽²⁾.

واستتبع هذا الفساد شيوع الغزل بالمرء، فقد تميز هذا الرقيق بالجمال المفرط، الملفت للنظر، ومع أن الغزل بالمرء يرجع إلى عصر أبي نواس "إلا أن الشعراء الذين قالوا في هذا الباب كانوا ممن عُرف بالخلاعة والمجون. أما في عصر الحروب الصليبية فقد رأينا رجالا يكترون من الغزل بالمرء، ويفحشون في ذلك إفحاشا كبيرا"⁽³⁾.

وقد راعى الكتاب في غزلهم مقاييس الجمال التي امتازت به المرأة العربية، ومن مظاهر هذا الجمال القوام الممشوق المائس، والثغر النقي، والخصر النحيل، والشعر الفاحم كالليل، وغيرها من الملامح الجمالية، يقول "علي بن ظافر الأزدي"⁽⁴⁾ متغزلا بصبي: "وكان يجلس بالقرب من مكاننا صبيٌ وضئ نهب وجهه وشعره من البدر نوره، ومن الليل ديجوره، واغتصب طرفه من الظبي كحله، ومن الغصن تميله"⁽⁵⁾.

* صورة المرأة

لعبت المرأة دورا لا يستهان به في المجتمع الأيوبي، فقد تمتعت بقسط وافر من الاحترام، فالأيوبيون نظروا إلى نسائهم نظرة تقيض بالإجلال والتقدير، وخصوهن بالألقاب، وأضافوا عليهن في مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل⁽⁶⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 146.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 174/4.

(3) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي - محمد سيد كيلاني: 40.

(4) لم أعثر له على ترجمة، وهو صاحب كتاب "بدائع البدائة" وهو مطبوع.

(5) بدائع البدائة - علي بن ظافر الأزدي: 187.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 166/7.

وكانت المرأة تشارك في الحياة العامة، فكانت هناك نساء لهن دور في الحياتين العلمية والدينية، يقول ابن جبير: "ومن النساء الخواتين⁽¹⁾، ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو مدرسة، وتتفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"⁽²⁾.

وتناولت الرسائل جانباً من مظاهر تكريم المرأة من خلال التعزية بموتها، وذكر خصالها ومناقبها، وأنه لا فرق بين الابن والبنت، فلكل منهما حقوقه وواجباته. ويبدو ذلك واضحاً من خلال الرسالة التي كتبها ابن الأثير إلى أحد القضاة يعزیه ب وفاة ابنته، ويبدأ رسالته ببيان فضل النساء، وأنهن قد يغلبن الرجال، وقد وقع هذا في سلالة هذا القاضي. يقول: "وقد تكون نساء ناس خيراً من رجال ناس، ومن هاهنا تقع المفاضلة في مزية الخطر، ولهذا كان تأنيث الشمس أشرف من تأنيث القمر، ولا يصح هذا المثل إلا في سلبية القاضي الأجل"⁽³⁾.

ويتحول الكاتب بعد هذه المقدمة إلى مواساة القاضي والدعاء له، وأكثر ما ينصب الدعاء هاهنا أن لا يحرمة الله من الأجر والثواب لبره بابنته. يقول: "لا فتن الله له صبرا، ولا أخرج له صدراً"⁽⁴⁾. وتبين بعض الرسائل ظهور المرأة في الأماكن العامة، كالأسواق بالرغم من القيود التي فرضت عليها، فقد كانت تخرج إلى الأسواق، وتباشر معظم أمور الشراء، بل الغالب أن المرأة كانت تشتري لزوجها كل ما يحتاج إليه من لباس لنفسه⁽⁵⁾.

وتتحدث بعض الرسائل عن التجاوزات التي كانت ترتكبها بعض النساء في الأسواق من ابتذال في اللباس، وتشهير بالحركات، مما دفع الملك "الأفضل" إلى إصدار مرسوم كتبه ابن الأثير بمنع مثل هذه التجاوزات؛ منعاً للانحراف والزينة. يقول: "ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاء والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان في حساب، وذلك من لباس الشهوة الذي لا يُستتر منه إسبال مِرط، ولا إنداء جلباب"⁽⁶⁾.

وكان للمرأة حضورٌ في الحمامات، فقد كانت مكان الاجتماع للنساء حيث يتناقض الأخبار، وتقص كل واحدة منهم على النساء كثيراً من أخبارها، وحياتها المنزلية، وكانت تحدث بعض مظاهر الابتذال في الحمامات. يقول ابن الأثير: "ومما هو أشد نكيرا أمر الحمامات، والنساء في هذا المقام أشد تهالكا من الرجال، وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن في فاحشة الابتذال"⁽⁷⁾.

(1) معناه في الأصل الأمير، ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة بصفة عامة مثل السيدة أو الأنسة. ينظر: المجتمع الاسلامي: 276.

(2) رحلة ابن جبير - ابن جبير: 248، المرأة في بلاد الشام في العصورين الأيوبي والمملوكي متعلمة وعالمة - عبد الجليل عبد المهدي - مقالة ضمن مجلة مجمع اللغة العربية الأردني.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 145.

(4) المصدر نفسه: 145.

(5) السلوك - المقرئ: 426/4-823.

(6) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 145.

(7) المصدر نفسه: 145.

وفي المقابل قدمت الرسائل صوراً للمرأة الفرنجية تدل على الانطلاق والانفلات، والاستهانة بالعبادة الزوجية، وقد أشار العماد إلى ذلك في إحدى رسائله، يقول: "فهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان"⁽¹⁾.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنشئت في بعض مدنهم دور خيام خاصة بالنساء الساقطات. ووصف العماد ذلك قائلاً: "وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب"⁽²⁾. ومن الواضح أن سفور المرأة الفرنجية وانفلاتها قد لفتا انتباه بعض ممالك المسلمين، وهو أمر غير مألوف في البيئة الشرقية الإسلامية، حيث تحتجب المرأة المسلمة، فهرب إليهن بعض ممالك المسلمين، فمنهم من رضي اللذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة فتحيل النقلة⁽³⁾.

ووصف الكتاب في رسائلهم جمال النساء الفرنجيات، فتحدثوا عن فتنتهن، وزرقة عيونهن فهي: "فاتنة فاترة، مشتهة مشتهية، متحبة، متعشقة، حمراء مرعاء، هيفاء غناء، زرقاء ورقاء خرقاء"⁽⁴⁾.

كما صورت الرسائل إسهامهن في القتال، فوصفهن العماد متزييات بأزياء الفرسان، لابسات الدروع، حاملات السلاح. وتحدث عن الدور المعنوي الذي لعبته النساء العجائز، فهن يحرضن على القتال. وقلن: "إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وأنه لا بقاء إلا بالفناء"⁽⁵⁾.

وإذا كان ابن القيسراني قد تغنى في تغرياته بالراهبات الجميلات في الكنائس، فإن ابن الأثير قد صور الراهبات في كنيسة القيامة بصورة منفرد، ترتاع العيون من رؤيتها. يقول: "ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها، وفحصت الشعر عن أوساط رؤوسها، وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها"⁽⁶⁾.

* ظروف المعيشة والتكافل الاجتماعي

شهد المجتمع الأيوبي-إبان الحروب الصليبية- ظروفاً اجتماعية متباينة، تبعاً لتغير الأحوال السياسية والاقتصادية التي كانت تخضع لسياسات الحكام، بالإضافة إلى عوامل أخرى كالكوارج الطبيعية وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض رسائل التولية والتعيين، تظهر فيها صورة المجتمع الأيوبي في بعض جوانبه أكثر من غيرها. وأهم هذه الرسائل رسائل تعيين المحتسبين والولاة، وهذه الرسائل ترسم لنا الخطوط العريضة التي كان يضعها الملوك الأيوبيون لولايتهم في إدارة شؤون البلاد، وهي مما تتصل بحياة العامة اتصالاً وثيقاً.

(1) الفتح القدسي - العماد الأصفهانى: 347.

(2) المصدر نفسه: 349.

(3) المصدر نفسه: 348.

(4) المصدر نفسه: 347.

(5) المصدر نفسه: 349.

(6) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 145.

ولعل من أكثر الظواهر بروزاً في رسائل التولية، تلك النصائح والوصايا التي يوصي بها الكتاب على لسان السلاطين، وبخاصة العناية بالرعية، وتحقيق الأمن والعدل لهم. ويبدو ذلك جلياً من خلال الرسالة التي كتبها ابن الأثير إلى والي دمشق. وكانت هذه الرسائل تلزم بناءً واحداً يقوم على ثلاثة محاور رئيسية يتصل بعضها ببعض. المحور الأول: يتضمن التثاء على الله - عز وجل - وتمجيده، ثم الصلاة على نبيه، ويبدأ هذا الجزء عادة بعبارة -أما بعد- وهي عبارة جاهزة يميل الكتاب عادة إلى افتتاح التقليدات بها، ويحرص الكاتب هنا على التصريح بنوع الولاية التي كتبت الرسالة من أجلها، واسم البلد المخصوص بهذه الولاية. يقول: "وقد وليناك دمشق وأعمالها، وما تنتهي إليه من سهلها ومدرها"⁽¹⁾. المحور الثاني: يمثل جوهر المضمون، وهو يتسع ليشمل طائفة من النصائح والتوجيهات التي يقصد الأفضل وضعها بين يدي والي، وتكون تلك التوجيهات مناسبة -في طبيعة الأمر- لنوع الولاية. وأول ما يأمره به تقوى الله - عز وجل - وطاعته وخشيته، وأن يتمثل القرآن والسنة، وأن يتخذهما إماماً على كل حال.

وبعد أن ينتهي الكاتب من تشكيل ملامح أساسية من الأدب التهذيبي التي تلزم الوالي، يوجه أوامره نحو الجوانب المتصلة بأمور الرعية، فالرعية أمانة في عنقه يُسأل عنها أمام الله، ثم يأمره في عبارات وجيزة "تمثل أرقى ما وصلت إليه قواعد العدالة في زماننا هذا، بإقامة العدل بين الخصوم، ودرء الحدود بالشبهات دون إراقة الدماء، ودون التخلي عن معاقبة المذنبين"⁽²⁾.

وفي الجانب المتعلق بالأحكام يطلب إليه أن يأخذ بحكم الشرع فيما يعرض له من المسائل، وأن تكون سياسته نابعة من تقدير المسؤولية، وإحقاق الحق، وعدم رمي الرعية بالثهم. وفي المقابل يطلب إليه أن يشدد قبضته على أهل الفساد. يقول: "ومتى لاحت شبهة فاستمسك بها في درء الحدود، وكن بالناس رؤوفاً رحيماً، وهب أن الجاني أساء في الاجترام، فما الجوز لك أن تُسيء في الانتقام"⁽³⁾.

ويوجه الوالي إلى ضرورة اختيار المحتسب المناسب؛ لما في هذه الوظيفة من أهمية وتأثير واضح في حياة الرعية. ومن الملاحظ -للقارئ- في هذا التقليد تنوع التوجيهات والأوامر التي كانت تشتمل عليها التقليدات، ويدل هذا التنوع على مدى عناية الدولة بأمور الرعية، وتوفير الحياة المناسبة الكريمة لها.

وعلى الرغم من انتعاش مناحي الحياة المختلفة في مصر والشام، فقد تعرضت لكثير من الحوادث التي ولجت أثارها كثيراً من البيوت، وغيرت معالم الحياة فيها، ومن أبرزها الزلازل التي تسببت في خراب المدن والمنشآت، وانتشار الكثير من الأمراض، وكان لهذه الكوارث صدى في نفوس الكتاب، وتركت أثرها في أحاديثهم ورسائلهم، وقد أثرت هذه الحوادث في الكتاب أبلغ تأثير فكتبوا فيها

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 158.

(2) بحوث ندوة أبناء الأثير - هلال ناجي: 478.

(3) ديوان ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 160-161.

رسائل فنية صادرة عن إحساس بالمرارة والأسى، فلم تكن هذه الرسائل من باب الترف الفكري، بل إن مشاعر الخوف والقلق هي التي دفعت الكتاب للتعبير عما يجول بخاطرهم، ويدل على قدرتهم الفكرية وقوة إحساسهم بما يدور حولهم.

ومن الرسائل التي تمثل هذا المنحى رسالة العماد التي كتبها في الزلزلة التي وقعت بمدينة حلب سنة 565هـ وما نجم عنها من هدم للأسوار والقلاع وسقوط الدور على أهلها وهلاك خلق كثير. يقول: "وقد أحاط العلم الشريف -أجله الله- بهذه الحادثة التي ألمت بالشام من الزلزلة التي تداعت له الثغور بالانثلام والمعازل والحصون بالانهدام والانهدام"⁽¹⁾. ويربط العماد بين وقوع الزلازل وهلاك الفرنج، حيث سلطها الله عليهم يوم عيدهم في كنائسهم، فسقطت عليهم، وأهلكتهم. يقول: "وما سكنت النفوس من رعبها، وسلت القلوب عن كربها، إلا بما دهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق"⁽²⁾. ويرى العماد أن هذه الزلازل كانت عقابا للناس على غفلتهم وفسادهم حين تعاملوا عن الحق، وتمادوا في الباطل، وأضاعوا الفروض، وقارفوا المنكرات. ولذا كانت هذه الزلازل -كما يرى- فرصة للناس كي يستفيقوا ويستيقظوا.

ومن الرسائل التي تمثل هذا المنحى رسالة الفاضل إلى "محيي الدين زكي"⁽³⁾ في وصف بروق خاطفة وعواصف، وقد عرض الكاتب فيها هولها وأثرها في النفوس، ومبلغ الدمار الذي ألحقته بالأبنية. بدأ الكاتب رسالته بوصفها مباشرة دون الاستعانة بالله منها، ويبدو أن شدة العواصف والبروق شغلت الكاتب عن ذلك، ومن شدة هولها ظنّ الناس أن القيامة قامت، حيث رجت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها، فهي "ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي ألهبها، واشتد هبوبها، وارتفعت لها صعقات"⁽⁴⁾.

وقد أطنب الكاتب في وصفه، واستطاع أن ينقل أمام أعيننا صورة متحركة تمرّ بتسلسل دقيق لهيجان تلك العواصف، فتارة تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودًا عنيفًا.

والكاتب في تصويره هذا يعتمد على توظيف النص القرآني بصورة ثلاثية معطيات النص الأدبي، وتركه في سياقه. ﴿وَيَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾⁽⁵⁾. ويبدو في هذه الرسالة أنه قد توسع في ابتداع أساليب فنية جديدة يتوصل بها إلى تحقيق الغاية من توظيف النص القرآني، فقد لجأ الكاتب تارة إلى اقتباس الآية القرآنية بنصها، ويبدو هذا جليًا في حديثه عن الريح، وقد أشعنا بدخول النص المقتبس، وتارة يعتمد على إدخال بعض الألفاظ المأخوذة من القرآن كي تزيد النص إشراقا

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 155/2، ينظر: البرق الشامي - تحقيق رمضان ششن: 92.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 155/2، ينظر: البرق الشامي - تحقيق رمضان ششن: 92.

(3) هو محمد بن علي القرشي، قاضي القضاة، هو أول من خطب بالبيت المقدس لما فتحه السلطان الناصر سنة 583هـ. توفي سنة 598هـ. ينظر

الذيل على الروضتين: 32.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 434/4.

(5) سورة البقرة: آية 19.

ووضوحاً من مثل قوله: "ويردّون أيديهم على أعينهم من البوارق لا عاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار"⁽¹⁾.

والرسالة تخلو من البسملّة؛ لأن هذا اللون من الرسائل لا تكون البسملّة مناسبة لها؛ لأنها تحمل في طياتها أخبار الكوارث والدمار، إذ لا يستقيم أن يستفتح الكاتب بمعاني الرحمة، ثم يرد الحديث عقب ذلك عن القسوة في أشد صورها.

والملاحظ على الرسالة أن الكاتب قد أثبت تاريخ إنشائها، وهذا يخالف ما أشار إليه القلقشندي، فهو يرى "أن التاريخ مما يلزم الرسائل الديوانية، بخلاف الرسائل الإخوانية والأدبية، إذ لا يجد كتابها مدعاة إلى كتابة تاريخ إنشاء الرسالة"⁽²⁾. يقول الفاضل: "في الثلث الأول من ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة".

ويلحظ أن الكاتب مال إلى كتابة اليوم وتاريخه بالحرف دون الرقم، وأن تأريخهم لليوم كان مقاساً بالليلة لا بالنهار، والسبب في ذلك يعود إلى اعتماد الكتاب السنة القمرية والحساب القمري. يقول القلقشندي عن هذا النوع من الحساب: "ومداره الليالي دون الأيام، لأن سني العرب قمرية، والقمر أول ما يظهر للأبصار هلالاً في الليل، فتكون الليالي بهذا الاعتبار سابقة للأيام، إذ اليوم عندهم عبارة عن النهار"⁽³⁾.

وينقل لنا الكاتب صورة النساء، والأطفال، والرجال، وهم يهربون من دورهم، لا يعرفون أين يسيرون؟ ولا إلى أي طريق يهتدون؟ يرفعون أصواتهم بالدعاء إلى الله، ويجأرون بالاستغاثة به لفك كربهم، ويبين كيف أصبحت المساجد ملاذاً للناس الذين راحوا يبحثون عن مكان تهدأ نفوسهم فيه وتستقر. وفي هذه الكارثة تجمع الناس حول بعضهم بعضاً، وأخذوا يتذكرون ذنوبهم ومعاصيهم، وهم لا يستغربون هذا العذاب الذي حلّ بهم، وكأن الكاتب هنا يشير من طرف خفي إلى تردي الأوضاع الاجتماعية في البلاد، وانشغال الناس بملذاتهم، ولهوهم، وممارسة بعض الانحرافات الخلقية بسبب ضعف الوازع الديني عندهم. يقول: "إذ يستغيثون ربهم، ويذكرون ذنبهم، لا يستغربون العذاب؛ لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمون بالمساجد الجامعة"⁽⁴⁾.

ويصور الفاضل الدمار الذي خلفته البروق والعواصف العاتية؛ فالمراكب في البحر تكسرت، والأصول العادية من الشجر قصمتها الرياح، والمسافرون النائمون في الطرق دفنتهم وهم أحياء"⁽⁵⁾. ويصف فرحة الناس بنجاتهم واستبشارهم. فقد "أصبح كلّ يسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه"⁽⁶⁾.

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 434/4.

(2) صبح الأعشى - القلقشندي: 243/6.

(3) المصدر نفسه: 243/6.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 435/4.

(5) المصدر نفسه: 436/4.

(6) المصدر نفسه: 436/4.

وفي نهاية الرسالة يرى الكاتب أن قلمه عاجز عن التعبير عن وصف هذه المحنة. ويحمد الله أن أنجاهم منها، ويرجو أن تأخذ الناس العبرة والعظة مما حدث. وتتضمن هذه الرسالة ترغيباً في الزهد وحثاً على الابتعاد عن ملذات الدنيا، ومباهجة الزائلة؛ لأن السعيد من وعظ بغيره، وقد كانت لنا وفيها الموعظة، وللذكرى حدود، ونعوذ بالله من إقامة حدودها الغلظة⁽¹⁾.

وعرف هذا العصر **التكافل الاجتماعي**، فقد تقلد زمام الحكم في المجتمع الأيوبي بعض السلاطين الذين عُرفوا بالعدالة الاجتماعية، والدراية بالسياسات النافعة للرعية، وكانت تضمن لهم التكافل الاجتماعي بعيداً عن عوز الفقر وذل المسألة.

وتناولت الرسائل جانباً من جوانب التكافل الاجتماعي في ذلك العصر، وهو تكافل يعيد إلى الأذهان عهدَ الخليفة الراشد -عمر بن الخطاب- في عنايته بالرعية. وقد جسد ابن الأثير هذه الرعاية من خلال التقليد الذي كتبه لوالي دمشق بمراعاة أحوال الفقراء، وإيصال الصدقات المخصصة لهم في بداية كل شهر دون إبطاء أو تأخير، تخفيفاً لمعاناتهم، "فحال الفقراء أرق من أن يضيق الرزق عليهم، والذي نوصيك أن تُجري هذه المكرمة مألومة بالإعجال"⁽²⁾.

ومن صور هذا التكافل العناية باليتيم، ويبدو هذا من خلال الكتاب الذي كتبه ابن الأثير إلى نقيب الأشراف⁽³⁾، يوصيه بهذه الفئة بحيث "يغدو أبا يطاق له كاهلاً، وأماً فرشت له فأنامت"⁽⁴⁾.

وكان للقواعد من النساء نصيب وافر من الرعاية والاهتمام، فقد حرصت الدولة على تأمين سبل الحياة الكريمة، صيانة لهن من عوادي الزمن المضنية التي لا ترحم. يقول ابن الأثير من خلال التقليد الذي كتبه لنقيب الأشراف العلويين: "بأن يعينهن على صحبة الحياة الضعيفة التي تجعل أمداد الزمن من أعوانه"⁽⁵⁾.

* عادات وتقاليد

أدى تعدد الفئات الاجتماعية في العصر الأيوبي إلى ظهور كثير من العادات والتقاليد، التي تحمل طابعاً خاصاً لهذا المجتمع، وتترجم في سلوك أفراد. وتشكل الأعياد والمناسبات السعيدة جانباً هنيئاً من الحياة الاجتماعية، إذ إنها تخفف من الضيق الذي يعانيه الإنسان، لاسيما في مجتمع كثرت فيه أسباب الألم والمعاناة، فلا عجب إذن أن يتبادل الناس التهاني بالمناسبات الدينية⁽⁶⁾. ولقد ظلت الأعياد والمناسبات الدينية من الموضوعات البارزة في رسائل الكُتاب، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير في التهنئة بعيد الفطر. وأول ما يلاحظ على هذا اللون من الرسائل أن الكاتب لا يذكر

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 437/4.

(2) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي : 162.

(3) هي وظيفة شريفة، موضوعها التحدث عن علي بن أبي طالب من جهة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم الأشراف، والفحص عن أنسابهم، والأخذ على يدي المعتدي منهم. ينظر: صبح الأعشى: 37/4-38.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 36.

(5) المصدر نفسه: 136.

(6) الشعر الاجتماعي في بلاد الشام - آمنه بدوي: 70.

اسم المرسل إليه، ويستفتحه بالدعاء للمرسل إليه، كما جرت العادة بالتهنئة في مثل هذه المناسبات⁽¹⁾. ثم ينقل الكاتب مظاهر احتفال المسلمين بهذا العيد، فهم "يتزاورون بإحفاء المزار، ويفطرون على الهناء به قبل الإفطار"⁽²⁾.

ويتحدث الكاتب عن السنن التي كان الأيوبيون يحرصون على الالتزام بها، ومنها الخروج إلى المساجد لأداء صلاة العيد مهتدين بسنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- والتباهي بالجيش واستعراضه. يقول: "ومن سنة الملوك في هذا اليوم أن يستكثروا من عرض الجيش الذي الأسد ناسه، والحديد لباسه"⁽³⁾.

وكانت الأعياد قد كثرت في الدولة الفاطمية، واستمر الاحتفال بها في مصر والشام، بعد زوال حكمهم دون أن تأخذ المظهر الرسمي الذي كانت تأخذه في أيامهم، ومن هذه الأعياد ما يعرف بـ "ليالي الوقود الأربع"، وهي ليلة مستهل رجب ونصفه، وليلة مستهل شعبان ونصفه، وقد عُرفت بالوقود؛ لأنه كان يزداد فيه الوقيد على حافات الجوامع والمساجد، وحول صحنونها توضع التناوير، والقناديل، والشمع"⁽⁴⁾.

وسعى الكتاب في رسائلهم إلى أن يبعثوا في هذه الأعياد روحاً دينية محضة، ويبدو هذا الأمر جلياً من خلال الرسائل التي كتبها ابن الأثير بالتهنئة بـ "ليالي الوقود"⁽⁵⁾. يقول من كتاب له في التهنئة بشهر رجب وفضله، فهو شهرٌ تكثر فيه الخيرات وتمحى السيئات، فهو: "شهر ميمون المخيلة، مؤذن بالأجور الكثيرة على الأعمال القليلة، ولم ينفرد عن إخوانه من الأشهر الحرم إلا لانفراده بالفضيلة"⁽⁶⁾. ويستنفذ الكاتب طاقته في الدعاء إلى المرسل إليه كما جرت العادة في مثل هذا اللون من المكاتبات، يقول: "والخادم يسأل الله تعالى سعادة المجلس السامي، جعل الله الدنيا عنده قارة، وبه بارّة، وعليه دارّة ولقلبه سارة"⁽⁷⁾. ويوجه الكاتب مجموعة من النصائح إلى المجلس السامي لعله يفوز ببركة هذا الشهر، وتضاعف فيه حسناته.

ولم تقف مجالات التهنئة عند الأعياد الإسلامية حتى تعدتها إلى الأعياد الفارسية، ويُعدُّ عيد النيروز والمهرجان من أشهر الأعياد الفارسية التي حظيت باهتمام الكتاب، وقد حاول بعضهم أن يلبسوا هذا العيد ثوباً إسلامياً، وأن يبعثوا فيه روحاً دينية محضة.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 4/9.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 84.

(3) المصدر نفسه: 77.

(4) الخطط - المقرئ: 290/2-291.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 79-80.

(6) المصدر نفسه: 80.

(7) المصدر نفسه: 79.

ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير في التهنة بهذا العيد، وقد جاءت رسالته هذه على شكل مناظرة بين الربيع والخريف، فالربيع مبشر بنطق الأطيّار، وورده أحسن الأزمان، وأما الخريف فهو الذي يُذهب السّموم، ويعتصر نبات الكروم⁽¹⁾.

وقد حرص الكاتب على التصريح في بداية الرسالة بذكر أشهر عيدين عند الفرس، وهما النوروز، والمهرجان، يقول: "الهنا كما يحسن بنوروز السنة، فكذلك يحسن بمهرجانه"⁽²⁾.

ويتحدث عن مظاهر احتفال الناس بهذا العيد، فهم يتبادلون التهاني، وصنوف الهدايا، ويضربون موعداً للتزاور. وتبدو النزعة الدينية في ثنّايا الرسالة من خلال الدعاء للمجلس السامي بأن يقيه حوادث الخطوب، وأن يبلغ قمة المجد والعلواء، وقد استعان ببعض الألفاظ القرآنية، ومنها قوله: "فليستجل من هذا الكتاب حسناً ليس بحائل، وسحراً لم يأت بمثله الملكان ببابل"⁽³⁾.

وإذا كان ابن الأثير قد حاول أن يصبغ هذا العيد بالصبغة الإسلامية، فقد ذم بعض الكتاب هذا العيد، لأنّه بقيت فيه بقايا فاطمية، من رش للماء في الحارات، ممزوجاً بالقاذورات، وشرب للخمر في الطرقات، يقول الفاضل: "وقد كان بمصر في الأيام الماضية، من مواسم بطالاتهم، ومواقيت ضلالتهم - يعني النوروز - فكانت المنكرات فيه ظاهرة، والفواحش صريحة في يومه"⁽⁴⁾. ويذكر الكاتب أنه: "لم يجر الحال في هذا النوروز على هذا، ولكن قد رُس الماء في الحارات، وأحيا المنكر في الدور أرباب الخمارات، واستُجد التراجم بالبيض، والتصافع بالأنطاع"⁽⁵⁾.

ومن عاداتهم أنهم كانوا يحتفلون بدخول أوان الشمس، فقد كان أهل دمشق يتسابقون للاحتفال به، وقد برع الكاتب في رسائلهم بالتهنة به، فأيام الشمس عندهم كالأعياد يرتقبون أوقاتها، ويقضون أياماً جميلة في المتنزهات. وقد طالعنا ابن الأثير برسالة إلى صديق له بمدينة ملطية⁽⁶⁾، يستهديه مشمشاً دمشقياً، ويقارن لذة طعمه، بلذة طعمه في ملطية. واستفتح الكاتب رسالته بالدعاء لصديقه في الدنيا والآخرة، وأن يجعل أيامه كلها حسناً، ثم يذكر السبب الذي دعاه إلى كتابة رسالته، وهو حلول موسم المشمش في دمشق، مما جعل جوانحه تهتز شوقاً لصديقه في ملطية، والأيام التي قضاه معها في دمشق خلال هذا الموسم، يقول: "وهذا أوان المشمش الذي أذكر الخادم عهد دمشق ومشمشها، وهز نحوها أشواق القلوب، وهاج غلة معطشها، ونقل لها وله ذلك"⁽⁷⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 89-90.

(2) المصدر نفسه: 89.

(3) المصدر نفسه: 90.

(4) الخطط - المقيزي: 357/2-358.

(5) المصدر نفسه: 357/2-358.

(6) بلدة من بلاد الروم متاخمة لبلاد الشام، اتخذها المسلمون ثغراً يغزون منها بلاد الروم، جدد بناءها المنصور وجعلها منطلقاً للصوائف، هدمها الروم سنة 322هـ. تعرف اليوم بملاطية من مدن جنوب تركيا. ينظر معجم البلدان: 192/5-193.

(7) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 324.

وأسبغ الكاتب على هذه الفاكهة بعض الصفات، وهي تشعرنا نحوها بالتقديس "فهى نجوم الشجر، وعسجد الثمر، والذي يشغل أكله بطيب الشم ورونق المنظر"⁽¹⁾.

ويذكر الكاتب في نهاية الرسالة، أن في بلدة صديقه مشمشا يماثل في طعمه وحلاوته مشمش دمشق في الحسن والطعم، ويطلب منه أن يرسل له بعضا منه.

وظل نيل مصر من أبرز الموضوعات التي ترددت في إنتاج الكتاب، فقد دأبوا على وصفه حين وفائه، ولم يزل القائمون بالأمر في الديار المصرية يكتبون بالبشارة إلى سائر الأمصار بشأن النيل؛ إظهارا للسرور بوفائه، وتقبض الرسائل في وصف بركته ويُمْنه، وطيب أيامه وزمانه، وما تفيده البلاد من خصب ويُنع، إذ كان له الأثر الواضح في الحياة في مصر.

وقد كُتبت البشارات بوفاء النيل في جو نفسي مشحون بالقلق والترقب من عدم وفائه: "كُتبت والنفس والعقل والحواس المصرية جميعا مشغولة بالنيل بعد حساب وتقدير وشُرود، بين الخوف والرجاء، قرّ وهذا، وابتهج فاستعلن فرحه فيه"⁽²⁾. فوفاء النيل مظهر من مظاهر الحياة في مصر، وهو مرتبط بظروف معيشة الناس، وبالتالي تولدت علاقة وثيقة بينهم وبينه. يقول الفاضل: "وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الأرض، وإن كانت تنتقب، وأمن يوم يشراه من كان خائفا يترقب، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التي حققت الظنون، ووفت بالرزق المضمون"⁽³⁾. ونكاد نشعر في رسائلهم شيئا من التقديس له. يقول الفاضل: "فهو الذي يبسط الآمال، ويقبضها مَدّه وجزره، ويربي النبات حجره، ويحيي ثمرات الأرض صنوائا وغير صنوان، وينشر مطوي حريرها، وينشر مواتها"⁽⁴⁾.

وقد وصف ابن الأثير النيل وقت زيادته، وصفا جميلا، فقد شبه ماءه بجنى النحل في حلاوته ولذة طعمه، وهو معنى بديع غريب، كما يرى ابن خلكان⁽⁵⁾. يقول ابن الأثير في رسالة له يصف فيها الديار المصرية، ومن جملتها فصل في صفة نيل مصر وقت زيادته: "وعَدْب رُضابُه، فضاهى جنى النحل، واحمر صفيحه فعلمت أنه قد قتل المحل"⁽⁶⁾.

وظلت المكاتبات بوفاء النيل مستمرة طوال العصر الأيوبي، وما بعده. وذكر القلقشندي أنه كان: "يكتب في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل، وتُسِير البريدية بتلك الرسائل"⁽⁷⁾.

وكما صورت الرسائل مظاهر البهجة والفرح في المجتمع الأيوبي، فإنها أبرزت جانباً من مآتهم وأحزانهم، وخصوصا تشييع موتاهم، فقد صور ابن جبير في رحلته عاداتهم في الجنائز، وهي

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 324.

(2) النيل في الأدب المصري - نعمات فؤاد: 195-196.

(3) ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي: 61.

(4) المصدر نفسه: 61.

(5) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 395/5.

(6) المصدر نفسه: 395/5.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 330/8.

عادات مألوفة يجري بعضها في وقتنا الحالي، يقول: "فهم يمشون أمام الميت بقراء يقرأون القرآن، بأصوات شجية، تكاد تتخلع لها النفوس حزناً"⁽¹⁾.

ونقل ابن الأثير جانباً من عاداتهم في مآتهم في تقليد كتبه لصاحب الحسبة، مندداً بها، وداعياً إلى الإقلاع عنها، فقد كانوا يتخذون في لباسهم اللون الأسود والأزرق حدادا على الميت، ويحضرّون النادبات والنائحات كما يفعل أهل الجاهلية، وجعلوا القبور "مواسم لاجتماع الزائر والمزور، فصارت المآتم بينهم ولائم، والمنادب عندهم مآدب"⁽²⁾.

* وسائل التسلية والترفيه

كان أهل مصر والشام في ذلك العصر لا يعدمون وسيلة للترفيه عن أنفسهم، خاصة أن الشام تميزت بجمالها، وكثرة ينابيعها، وأنهارها، وبساتينها. ومن وسائل التسلية والترفيه أنهم كانوا يخرجون للتنزه عند شواطئ الأنهار والمروج، وكان المضحكون يكثرون في هذه الأماكن، وكانوا يعرضون لطائف وعروض خيال الظل التي كانت وسيلة لتقويم الخلق⁽³⁾.

وقد أحسن الفاضل في وصفها للملك الناصر بقوله: "رأيت موعظة عظيمة، ورأيت دولا تمضي ودولا تأتي، ولما طوي الإزار إذا بالمحرك واحد"⁽⁴⁾.

وكانت الطبقة الخاصة من الملوك والأمراء، يمارسون الألعاب الرياضية للترفيه عن أنفسهم مثل سباق الخيل، والرماية، وطعن الحلق، والصيد والقنص، واللعب بالشطرنج.

صورت الرسائل جانباً من مظاهر الترفيه والتسلية التي كانوا يمارسونها. ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى أحد أصدقائه عن رحلة صيد بالفهود والبزاة، فقد وصف الكاتب أوقات اللهو والسمر التي يقضيها ركب الصيد، وتندر الصّحب ببعض القصص والأشعار، يقول: "ثم إنّنا أخذنا في المسيرة والمحاورة، فمن حاك حكاية تستغرب فتستفاد، ومن منشد بيتاً من الشعر فيستجاد"⁽⁵⁾.

ويعدد الكاتب فوائد الصيف الجمّة، فهو رياضة للجسم والنفوس، وتظهر به الفرسان مواهبها، يقول: "فخرجنا في ذلك اليوم نرتاد قنصاً، ونحن في حديقة تشتمل على أطايب الغراس، وخيلنا عدة تزيد على جمع الأفراس، فلو رأنا امرؤ القيس كثر لنا سواداً، ولم يقل كأي لم أركب جواداً"⁽⁶⁾.

ويقف المطالع لهذه الرسالة على جملة آيات من الوصف حسان، مثل وصف سرب الأطباء المدرب على الصيد، ووصف الفهود والبزاة، وطريقة قنصها لفريستها بأسلوب مشوق ممتع. يقول: "فأرسلنا عليه فهذا سلس الضريبة، ميمون النقيبة، منتسباً إلى نجيب من الفهود النجبية، كأنما ينظر من جمرة، ويسمع من صخرة، وهو يبلغ المدى الأقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة، ولا يقنصها إلا

(1) رحلة ابن جبير - ابن جبير: 269.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 324.

(3) خطط الشام - محمد كرد علي: 279/6.

(4) ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي: 53.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 101.

(6) المصدر نفسه: 101.

عند التفاته⁽¹⁾. وهكذا نرى أن صورة الفهد كانت تقوم عندهم مقام الكلب، فقد أسبغ عليه صورة محبة، تصف فرحه بما يصطاد، وسرعته باللاحق بالطريفة. وهذا تصوير جميل لابن الأثير.

وتبدو في بعض الرسائل عنايتهم بآلات الصيد، واهتمامهم بها، ودقتهم في صنعها، وقد وصف ابن الأثير في رسالة طردية له قسي البندق "ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلا حين تُشد، ولا تتطلق في شأنها إلا حين تعطف وترد، ولها نثار أحكم تصويرها، وصح تدويرها، وكأنما صيغت لقوتها من حجر لا من ثراب"⁽²⁾.

وفي الوقت الذي كانت فيه البلاد تمرُّ بالمحن، وتتفاقم الأخطار من حروب وكوارث وفتن، كانت هذه الظروف نفسها تؤدي إلى اتجاه آخر نحو اللهو والمجون، فقد سوغ أصحاب هذا الاتجاه لأنفسهم سلوكهم هذا بأن الدنيا عُمرها قصير، فليأخذوا منها ما استطاعوا، فالأخطار والمحن والمصائب كانت غالبية على زمنهم؛ ولذا صورت الرسائل مجالس لهوهم وما يتخللها من معاقرة للخمرة، والاختلاط بالقيان والمغنيات، والتغزل بالغلمان، وقد ساعد على ذلك طبيعة البلاد الجميلة، فقد كانت مصر والشام والجزيرة موطنًا لمجالس أنسهم وسمرهم.

ومما كتب في هذا الجانب رسالة لابن الأثير في وصف مجلس للشرب، فهو يرى أن أوقات اللهو أشبه ما تكون بالحلم، فوميضها سريع لجمالها وحلاوتها. يقول: "ولقد ظفرت بهذا اليوم فكفته في يدي، وحكمت به على غدي، وقضيته في ما شئت من منازله الآراب"⁽³⁾.

ثم شرع في وصف المكان، وهو حديقة بالموصل في زمن الربيع، حيث أفاض في وصفه، وروعة منظره، وصور خروج أهله للاستمتاع بما في الحديقة من مناظر خلابة، والسماع للمغنين، وهم يعزفون على الأوتار فيهيجون المشاعر، ويدخلون البهجة إلى نفوسهم. يقول: "ومن أحسن ما تسنى لنا أن أصحرنا في زمن الربيع إلى حديقة مؤنقة يسافر الطرب في شجرائها، ويقصر البيان عن إطرائها"⁽⁴⁾ وينقلنا إلى أجواء مجلس الشرب، فيصف لنا الخمرة، واسمها وصفاءها، ولطفها، وشهرتها في المجالس، وألطفها ما جمع بين لونين اثنين، فترى قبل المزاج في لون قان، وبعده في لون وارس⁽⁵⁾.

ثم ينتقل إلى وصف ساقى الخمر، ويتغزل به غزلاً حسياً واصفاً قده، وخذه، وجمال وجهه. يقول: "وطاف علينا ساق يؤنث ويذكر، ويصغر ويكبر، ولا يقدر حسنه فيما يقدر، فبمنظره ينتقل من دون نُقلها، وبريقه يفترق من صفوة سَجَلها"⁽⁶⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 101

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 332/1.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 73.

(4) المصدر نفسه: 73.

(5) المصدر نفسه: 74.

(6) المصدر نفسه: 74.

وجاهروا بشرب الخمرة غير مبالين بالقصاص، يقول ابن الأثير: "فإن الناس قد تهافتوا على شربها وإدمانها، وجاهروا في افتعالها وعصيانها، ولم يردعهم الحدُّ عليها عن تردد مكانها"⁽¹⁾.

* النقد الاجتماعي

عانى المجتمع في هذا العصر من بعض مظاهر الفقر والحرمان، فقد تركت ظروف الحرب، والسياسات الظالمة لبعض الحكام أثرها على حياة المجتمع، وضح عدد من الكُتّاب من هذه السياسات لعدد من الحكام والوزراء والقضاة والولاة، وتعرضوا لهم بالنقد بسبب ما أصاب الناس -لاسيما الطبقات الفقيرة- من مشقة وعنت واستغلال.

وقد ندد الكُتّاب في رسائلهم ببعض الحكام، وعملوا على تصويب سهام النقد إليهم، فذم العماد مفاسدهم وعدم وفائهم. يقول: "ونلقى ضد ما هو الواجب من وفاء الملوك، والسلطين، وقد بلينا من المسلمين بما لا نصفه من رفض أمر الدين، وإغماضهم دون مصالحه، واعتراضهم مناهج مناجحه"⁽²⁾. أما ابن الأثير، فقد وصف بعض مظاهر ظلم الحكام للرعية في جرأة قل نظيرها، فلم يكتف هؤلاء الحكام بالمحل والقحط الذي أصاب مصر، بل امتد ظلمهم إلى أصحاب المهن، وأرباب المناصب الديوانية، وطُلبوا بأمر فوق طاقتهم وخارجة عن إرادتهم. واستطاع رسم صورة مؤثرة للحالة المبكية التي وصلت إليها الرعية، مستفيدا من ثقافته الدينية في التعبير عن ذلك، يقول: "ولو شاهدت ما نزل بالناس لأورثك كربهم كربا، ولوليت عنهم فرارا ولملئت منهم رُعبا"⁽³⁾.

وقد رصد بعض الكُتّاب صورا من فساد عدد من القضاة في ذلك العصر، وكان الناس - أحيانا- يتظلمون من جورهم واستيلائهم على الأموال بغير حق، بحيث أصبح الحلال حراما، والحرام حلالا، وكان فيهم من لا يقيم حدود الله على وجهها الشرعي، ويجري لاهثا وراء دنياه، وهو نادر الوقوع في الرسائل، يقول الوهراني في رسالة وجهها إلى "قاضي الفاسقين"⁽⁴⁾، ينتقده وبعض القضاة الذين كانت تصدر عنهم مظاهر الفساد. يقول: "فلا تسأل عما يقاسيه الخادم، وما قد ابتلينا به من القضاة المخالفين والأئمة المستخفين من إقامة الحدود، وتعطيل البدود، وتحريمهم الزمر، وضربهم للسكران"⁽⁵⁾.

وعرّضت بعض الرسائل بالصوفية وطريقتهم، فقد غلب عليهم العجز والكسل، وظهروا بصور منفرة، وقد أشار الوهراني إلى ذلك في إحدى رسائله، محاورا أحدهم. يقول: "خرجت ليلة الجمعة إلى القرافة، فلما كنتُ بين تلك الأكوام، لقيت هناك شيخا في زي الصوفية عليه أثر السفر، فقلت له: من أين أقبلت أيها الشيخ؟ فقد اشمأزت نفسي منك"⁽⁶⁾.

وتحدثت بعض الرسائل عن اعتراف بعض حكام المسلمين بتقصيرهم بحق رعيّتهم، وتصويب النقد لأنفسهم، فقد اعترف "الناصر داود" بتقصيره تجاه الدين والرعية، وذلك في رسالته التي وجهها إلى القاضي

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 161.

(2) البرق الشامي - العماد الأصفياني: 136/3.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 283.

(4) لم أجد أي إشارة تدل أو تعرف بـ "قاضي الفاسقين".

(5) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 146.

(6) المصدر نفسه: 86.

"العز بن عبد السلام"⁽¹⁾، عندما هاجم الفرنجة نابلس، وما ارتكبه من جرائم بشعة بحق ساكنيها، يقول: "وسامحنا وإياه بما أهلكناه من حماية الدين وحفظ أركانه، وبما اعتمدناه من إغفاله وخذلانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قول معترف بتقصيره عن جهاد أعداء الله وأعداء دينه، ذكرا جريمته بلسانه، وسرا بيقينه"⁽²⁾.

ووجهت الرسائل النقد إلى طبقة الأغنياء في المجتمع، حيث مالت بعض الفئات في هذه الطبقة إلى الترف والبدخ على حساب الفقراء، وقد أشار ابن الأثير في إحدى رسائله إلى احتكار الأغنياء لأقوات الفقراء، يقول: "ومن الناس من آتاه الله مالا فبث في الأسواق جنود ذهبه وورقه، واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله، فأصبح فقراء بلده في ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق"⁽³⁾. ومال بعض السلاطين إلى الترف والبدخ، لاسيما في حفلات الزواج والمناسبات والأعياد، فعندما تزوج "الملك الظاهر" غازي ابنة عمه العادل جهزها والدها بقماش وآلات وأنواع من المصوغات حملها "خمسون بغلا وثلاثمائة جمل"⁽⁴⁾.

وتشير بعض الرسائل إلى انتشار بعض المفاصد الاجتماعية في هذا العصر، ومن المعروف أن أساس النظام الاجتماعي هو النظام الإقطاعي، وقد أدى هذا النظام إلى انقسام الناس إلى فئتين: فئة الأمراء وأصحاب الإقطاع والتجار، وفئة الشعب من أجراء وفلاحين يعيشون عالة على الطبقة الأولى. ومن الطبيعي أن يشيع عند بعض الأغنياء بعض المفاصد والأمراض الاجتماعية. ومن أهم الرسائل التي تكشف عن جوانب الحياة الاجتماعية في عصر الأيوبيين، وموقف الدولة من المجتمع والرعية، منشورات إبطال المفاصد الاجتماعية ومحاربتها، كما يبدو في المنشور الذي كتبه العماد لمحتسب حلب. وعند النظر إلى المنشور، تبدو فيه ظاهرة الإطالة، وقد يكون السبب في ذلك؛ حاجة الكاتب إلى شرح الموضوع والتركيز على أهميته، وكيفية معالجة القضايا الواردة فيه، وجاء في ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول: ويبدأ الكاتب فيه بمقدمة مهدة، يتلمس فيها طريقه للدخول إلى الغرض الذي أنشئ المنشور من أجله، وقد أحسن العماد بلوغ مقصده، إذ يستهل المنشور استهلالا مناسباً للغرض، ويتضح هذا للقارئ عند فراغه من قراءته بصورة كاملة. ويبدو الغرض منه محاربة المنكرات بكل أشكالها في حلب، والعمل على نشر العدل والأمان والاستقرار، ومن هنا يبتدئ العماد منشوره بتعظيم الله - سبحانه وتعالى - للعدل، وتحريمه للظلم، وما تحتاج إليه الرعية من أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، والنظر في معاشها وأمورها، ومعاملاتها على الوجه الشرعي المطهر.

⁽¹⁾ هو شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي. ولد سنة 577 هـ، ولي الخطابة بدمشق ثم ولي القضاء بمصر، كانت له مواقف مشهورة تجاه الحكام المسلمين. توفي سنة 660 هـ. ينظر: الفوائد الجلية: 135، الذيل على الروضتين: 216، النجوم الزاهرة: 208/7.

⁽²⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 135.

⁽³⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 144، وانظر: المثل السائر - ابن الأثير: 130/2-131.

⁽⁴⁾ مفرج الكروب - ابن واصل: 213/3-214.

ويحدد الكاتب شروط الاحتساب، والصفات التي ينبغي أن تتوفر في المحتسب من الأمانة والنزاهة. يقول: "نرى أن تولي الاحتساب من يكرم مُحْتَدَه، ويسمو سؤدده، فيضحي في النباهة بالفضائل، والنزاهة عن الرذائل جدده، ويخلص لله في الاستقامة عن سنن العدل قصده"⁽¹⁾.

ويتحول الكاتب إلى الجزء الرئيسي في المنشور، فيعرض في هذا الجزء مجموعة من الإجراءات التي يرى الناصر صلاح الدين ضرورة تطبيقها في مدينة حلب.

وتقتصر الإجراءات التي يتضمنها المنشور على جانبين: الأول فيما يتعلق بالعقيدة والعبادات، إذ يشدد المنشور على إبراز مظاهر الشريعة الإسلامية، والمحافظة على فروضها. ويتصل الآخر بالجانب الدنيوي في حياة الناس، ومراقبة معاشهم، وصنائعهم، ومحاربة كل ألوان المنكرات الشائعة مثل التطفيف في الكيل، والغش والاحتكار، والربا، وغيرها من المنكرات التي تفشت في ذلك العصر. يقول: "ولئنه عن الغش في العروض والنقود، وعن الربا في المعروض، والمعقود، وعن التطفيف في الكيل والوزن والدُّرْع، وعن التنكب في المقادير، والمعايير، والمكايل عن العرف المعتبر في الشرع"⁽²⁾. ويختتم العماد منشوره بخاتمة تناسب الموضوع، فقد أكد ضرورة تعاون الولاة والنواب مع المحتسب حتى لا يفقد المجتمع عناصر تميزه بوصفه مجتمعاً عادلاً يسوده الحق، والأمن والاستقرار.

ومنها التوقيع الذي كتبه الفاضل عن الناصر صلاح الدين بإسقاط المكوس عن مدينة حلب، ويتضمن دعوة الولاة، والعمال من طوائف المسؤولين في الدولة إلى أخذ الرعية بمقتضيات العدل ورد المظالم، ومعاملتهم باللين، والتخفيف عنهم أعباء الحياة. ووجه سهام النقد لأولئك الحكام الذين انحرفوا عن طريق الشرع. يقول: "وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رشوة استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار"⁽³⁾.

وتبرز الرسائل في العصر الأيوبي اهتمام السلاطين الأيوبيين بالحفاظ على مظاهر الشريعة الإسلامية، وإقامة أحكامها، وتقيض رسائل التولية التي يصدرها السلاطين بالوصايا للأئمة، يأمرهم فيها بنشر العدل بين الرعية، والعناية بأهل التقوى والصلاح، وتكريم العلماء وتقديرهم.

كما اهتم الأيوبيون بالعلم والتعليم، فأكثرُوا من بناء المدارس والمساجد، حيث لقيت العلوم الدينية اهتماماً كبيراً في هذا العصر. فقد عمل صلاح الدين على نشرها من خلال تشجيعه العلماء، وتقريبهم له. وكان مجلسه حافلاً بهم يتذكرون ويتناقشون في أصناف العلوم، وهو يحسن السماع والمشاركة، "حتى صار لكثرة مخالطته للعلماء، وأخذ عنهم يضرب في كل علم بسهم صائب"⁽⁴⁾.

(1) البرق الشامى - العماد الأصفهانى: 134/5-135-138.

(2) المصدر نفسه: 135/5.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة لمقدسي: 175/3.

(4) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية - أحمد أحمد بدوي: 5.

* تيارات مذهبية

كان المذهب السني في هذا العصر سائدا في بلاد الشام، وظل المذهب الفاطمي غالبا على مصر حتى سقطت الدولة الفاطمية فتحوّلت مصر إلى المذهب السني⁽¹⁾. وقد بينت الرسائل آنذاك حرص السلاطين الأيوبيين على المضي قدما في تطبيق أحكام الشريعة من خلال إقرار أهل السنة والجماعة.

وبالرغم من تشدد الأيوبيين في القضاء على المذهب الشيعي إلا أنهم ظلوا يحتفظون بقوتهم. وأعطانا ابن جبير صورة صادقة عن هذا المذهب، يقول: "وللشيعية في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين، وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى"⁽²⁾. ويتحدث الفاضل عن الدور الكبير الذي لعبه صلاح الدين في القضاء عليها، يقول: "ونثرت أقلام الطبّا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مُحَنَّق، وقُطِع دابرهم"⁽³⁾.

واستمر الأيوبيون طوال حكمهم على محاربة المذهب الشيعي، وتضييق الخناق عليه وعلى أتباعه. فقد أصدر الأفضل أوامره من خلال تقليد كتبه ابن الأثير لصاحب الحسبة بتطبيق أحكام الشريعة، ومحاربة الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة.

وقد استمد كاتب التقليد في مقدمته المعاني التي تمهد الغرض منه، فقد أظهر فيها تمسكه بمذهب السنة والجماعة، والعمل على محاربة البدع والمنكرات التي سادت في ذلك العصر، حتى أصبح الإسلام غريبا: "فقد جيء بنا في زمن أصبح الناس فيه سُدى، وعاد الإسلام فيه غريبا كما بدا، وهو الزمن الذي كثرت فيه أشراف اليوم الأخير، وغرّبت فيه الأمة حتى لم يبق إلا التمر والشعير"⁽⁴⁾.

ويوجه إلى صاحب الحسبة أمرا صريحا بالنظر في أمور العقيدة، ومذهب أهل السنة والجماعة، وأخذ يعدد الفرق الدينية التي انتشرت في ذلك العصر، وبين فساد مذاهبها.

وقد أطنب كاتب التقليد في ذمها، وحاول بكل الوسائل أن يثبت بطلان آرائها، وفساد عقيدتها، ووصفهم بأنهم أصحاب عقائد محلوّلة، ومذاهب منقولة غير مقبولة، وبأنهم يتأولون أحاديث على لسان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويحرفون الكلم عن موضعه"⁽⁵⁾.

ويعود الكاتب إلى استخدام لغة اللين والإقناع حيث يطلب من صاحب الحسبة أن يعظهم، ويرشدهم، ويذكرهم بما آخره الله لمن تاب وأصلح. يقول: "فخذهم بالتوبة التي تطهر أهلها، وتجب ما

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 189/2.

(2) رحلة ابن جبير - ابن جبير: 252.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 196/2.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 140.

(5) المصدر نفسه: 141.

قبلها، وقد جعل الله التائب من أحبائه فإن لم يعودوا عما هم عليه من الضلال، فقد حكموا على أنفسهم بالذل والتصغير، والتكسير، ولا تقبل منهم شهادة، وأن تراق دماؤهم⁽¹⁾.

ووقف عدد من سلاطين الأيوبيين من الفلاسفة والملحدين موقفاً مشابهاً. ويمثل المنشور الذي كتبه ابن الأثير في قتل السَّهْرُوردي⁽²⁾، نموذجاً للمنشورات القصيرة التي يُدعى الناس إلى قراءتها وسماع مضمونها، حيث يبدو المنشور متشجاً بالإيجاز، نافراً عن التطويل والإطناب، وهذا أدعى إلى إقبال الناس على قراءته من غير أن يتسلل الملل إلى نفوسهم. وبعد القراءة المتمنعة للمنشور يبدو الغرض منه أخذ العظة والعبرة لكل من تسول له نفسه الإقدام على مثل تلك الضلالات.

وقد أورد الكاتب الحجج والبراهين التي دفعت الناصر إلى قتله. يقول: "ومن أحسنها فعلاً إحياء الشريعة الإسلامية بقتل الزنديق الذي نبع أنفاً، ومراً بالناس هاتفاً، واختطف العقول بمكائد إفكه فظل لها خاطفاً، وكان ينتقل في البلاد يبغى دولة لإظهار ما يبطنه، ومع إغواز ذلك عليه فإنه تمادى في غروره، ولج في عتوه ونفوره، وظن أنه الدجال المنذر بظهوره"⁽³⁾. وختم الكاتب منشوره بالتعبير عن مظاهر البهجة والفرح التي عمت البلاد بقتله.

وشاعت ظاهرة الزهد في هذا العصر، وهي نتيجة طبيعية، إذ كانت الظروف مدعاةً لاتجاه الناس نحو التدين؛ لأنهم رأوا فيه الخلاص مما يلاقونه، فقد زهد بعضهم، واعتزلوا الناس، وعلت الدعوات إلى تذكر الناس بالموت وبذنوبهم، وتدعوهم إلى استصغار الدنيا، وعدم التعلق بها فهي إلى زوال. وقد برز هذا الجانب في ثلث رسائل التولية، والنصح، ورسائل التعازي؛ لكون هذه الرسائل تتناول جانباً من تذكير المرسل إليه بالموت والآخرة. فهاهو ابن الأثير يرسم لنا صورتين متقابلتين للدنيا في سرعة ذهابها وانقضائها، إحدى هاتين الصورتين في المآثم والأخرى في الأعراس، فكلا الصورتين تنسي صاحبها ما مضى من لذة ألمها، وسرورها، فهي "كالأحلام التي يتلاشى خيالها عاجلاً، وتجعل البقطة حقها باطلاً، وما ينبغي حينئذ أن يفرح بها مقبلة، ولا يؤسى عليها مدبرة"⁽⁴⁾.

وأبرزت الرسائل عزوف بعض السلاطين الأيوبيين عن شهوات الحياة الدنيا ومفاتنها، ويبدو ذلك من خلال الرسالة التي كتبها العماد إلى سيف الإسلام باليمن يخبره فيها بوفاة صلاح الدين، فقد كان "عارفاً بحقيقتها، ولطريقها عازفاً، وقف حياته على إحياء معالم الهدى، والإعلان بشعار التقى، وإعلاء منار الجهاد"⁽⁵⁾. وعرض العماد في رسالته بالدنيا، فهي دنية لا عهد لها ولا ذمة. ووصفها الناصر داود بأنها جيفة قدرة لا تصلح لذوي الأخطار والأقدار⁽⁶⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 141.

(2) هو يحيى بن حيش السَّهْرُوردي، صاحب الفلسفة الاشراقية، أمر صلاح الدين بقتله. ينظر وفيات الأعيان: 268/6، النجوم الزاهرة: 114/6.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 281.

(4) المثل السائر - ابن الأثير: 111/1.

(5) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 646.

(6) الفوائد الجلية - الناصر داود: 127.

ونرى في هذه الرسائل ترويجا للتصوف والمتصوفين، وقد أولى الأيوبيون هذا الأمر أهمية؛ لأنه نابع من حس ديني كما كان في عهد صلاح الدين، وقد تكون عند بعض الحكام نابعة من أهداف سياسية غايتها إبعاد العلماء والمتصوفين عن التدخل في شؤون الحكم والسياسة في الفترات المتأخرة؛ نظرا لتأثير هؤلاء في الناس، وبينت الرسائل المكانة الرفيعة التي حظي بها المتصوفون بين الناس، فهم الذين يُستجاب دعاؤهم، ويستمطر بهم الرزق، وتكشف بهم الغمة، وتحصل بهم الكرامات، ويتبرك بما يهدونه من ألبسة وهدايا. يقول ابن الأثير في الهدية التي بعثها أحد الصالحين إليه، وهي خرقة التصوف والمصلى بأنها حرز له، وفي المصلى وسيلة في الوصول إلى مقامات الله. يقول: "فالكرامات بادية من رقعتها طالعة من طلعتها، ولو شاء الخادم لأسرى عليها"⁽¹⁾.

ويصور الكتاب انتشار الشعوذة والتنجيم للحصول على المال، ومما يدل على انتشار ذلك في المجتمع الأيوبي، قيام المنجمين بممارسة أعمالهم علانية في الطرقات، ولذلك كان صاحب الحسبة يوصي بملاحقة المشعوذين، ومنعهم من الاستخفاف بعقول الناس، ومن ذلك المنشور الذي كتبه العماد لمحتسب حلب. يقول: "وليمنع الطرقيين، والمتعاطين للطب على التخمين، وليصدّهم عن مداواة الأمراض، ومزاولة الأعراض، ومعالجة العيون، ومعالجة الأدواء بالظنون وليزع المتلبسين بالتنجيم والشعوذة والكهانة، وليهن الفائلين بها والقاطعين بحكمها كل الإهانة"⁽²⁾.

* الثقافة والتعليم

اعتنى الأيوبيون بالعلم والتعليم، وعملوا على نشر المدارس بحيث كثر عددها، وتعددت وظائفها، وأصبحت ظاهرة علمية حضارية تغلغت في المجتمع الإسلامي، ولم تعد قاصرة على التعليم الديني فحسب، بل شملت كل مناحي الحياة، ففيها تدرس العلوم المختلفة⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الأئمة والخطباء والمدرسين في المساجد، كانوا يعينون من قبل الدولة، وقد حفظت المصادر عددا من رسائل توليتهم، ومن ذلك المنشور الذي كتبه العماد الأصفهاني على لسان السلطان صلاح الدين إلى الشيخ "علاء الدين الكاساني"⁽⁴⁾، مدرس المدارس الحنيفية بحلب. وقد بدأ المنشور بمقدمة تتضمن حمد الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة، ومن هذه النعم، أهل العلم، فقد بين مكانتهم، ومطالبة أولي الأمر بال العناية بهم.

ويرسم العماد للشيخ "الكاساني" صورة متعددة للمدرس الناجح عمادها: التقوى، والعلم الغزير، وحسن الأخلاق، وغيرها، مما يوحي بأهليته لتولي هذا المنصب، يقول: "ذو الفضل الواسع، والعلم الجامع، والبرهان القاطع، والدليل الصادق الصادع"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 148.

⁽²⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 137/5-138.

⁽³⁾ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام - أحمد رمضان: 141.

⁽⁴⁾ هو مؤلف كتاب "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" سنة 587هـ. ينظر: البرق الشامي: 135/5.

⁽⁵⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 135/5.

وينتقل الكاتب إلى جوهر المنشور، وهو يشمل طائفة من السلطات يضعها السلطان بين يدي الشيخ المكلف، منها تولي مدارس الحنفية في حلب والرقّة، وأن يعيّن نواباً عنه من مختلف الرتب، ابتداءً برتبة المدرس وانتهاءً برتبة المعيد، على شرط أن يكون هؤلاء النواب من أهل الكفاية والصّلاح، وأن يراعوا حقوق أهل الفضل المقربين من الشيخ. يقول: "وسبيل النواب إعزاز جانبه، وإنجاح مآربه، والشّدّ على أيدي نوابه، وإظهار جاه أصحابه، وتفرغ سره فيما هو بصدد، وترفيه خاطره لإفادة العلم، وإيضاح جده" (1).

ومنها التقليد الذي كتبه ابن الأثير بخطابة المسجد الجامع حيث قدم من خلال هذا التقليد صورة دقيقة وافية عن مراحل تطور الخطابة عبر العصور، ابتداءً من العصر الجاهلي وانتهاءً بعصر الكاتب، وقد بدأ الكاتب التقليد بمقدمة تتضمن حمد الله تعالى، والثناء على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- ثم بين أهمية الخطابة والخطبة في الإسلام، وأن ذؤابة المنبر رتبة طامحة لا يرقى إليها إلا الشّدّ الفصيح.

ثم بين مراحل تطور الخطابة، فقد كانت لسان العرب قديماً، أما في هذا العصر، فقد أصبحت مقصورة على يوم الجمعة، وفي هذا إشارة من الكاتب إلى أن الخطابة قلّ شأنها في هذا العصر، وقد أوضح الكاتب في هذا التقليد الشروط الواجب توافرها في الخطيب من سعة العلم والفصاحة وسلامة النطق، يقول: "وقد وليناك الخطابة بمدينة فلانة، وهي وجه من وجوه البلاد، ومصر عظيم يجمع بياضاً وسواداً، وما منهم إلا علم يُعدّ فيه من الأعلام، ولا يعدم أحدهم فصاحة يكون من ذوي الأفهام، وكلهم يجلس تحتك يعجّمك بنبعه ويرميك ببصره وسمعه" (2).

وانتقل الكاتب إلى لبّ التقليد، وهو يتسع ليشمل طائفة من الوصايا والتوجيهات، وقد جاءت هذه التوجيهات مناسبة لموضوع التقليد، فقد ركز فيه الكاتب على الفروض والعبادات، وأولها المحافظة على الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة "وأن يأتيها بداراً لا دباراً، وأن يمشي إليها بالسكينة والوقار" (3). وأن يهتم بقراءة القرآن، وتجويده. يقول: "فرتل القرآن بالصوت الرخيم، وأقرأه كما رتلته الرسول الكريم" (4). ثم دعا إلى المحافظة على السنن والنوافل، فإنها سادات العادات وأسواق العبادات كما يقول ابن الأثير. أما خاتمة التقليد، فقد جاءت متناسبة مع الموضوع، فقد قدّم الكاتب للخطيب نصيحة تحمل في طياتها العبرة والعظة، وهذه النصيحة تتمثل في نظرته للعالم وكأنه عابر سبيل، وجعل التقوى نصب عينيه، فإن فعل ذلك "كان أغبط أوليائه عنده لخفة حاذه" (5) (6).

(1) البرق الشامي - العماد الأصفهان: 135/5.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 125.

(3) المصدر نفسه: 126.

(4) المصدر نفسه: 126.

(5) الحاذ: الحال. لسان العرب: مادة حوذ.

(6) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 126.

وبينت الرسائل حرص السلاطين على حضور مجالس الحديث والفقه، فقد كان صلاح الدين شديد الرغبة في سماع الحديث، وقد هنا الفاضل الناصر صلاح الدين لسماعه "موطأ الإمام مالك" في الإسكندرية، وقد بدأ الفاضل رسالته بالدعاء للسلطان وبيان فضائله ومآثره، وهي بداية تتناسب وموضوع الرسالة، ويرى الكاتب أن صلاح الدين مع كثرة مشاغله، فإنه يُفرغ من وقته لسماع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته"⁽¹⁾.

ويلجأ الكاتب إلى استدعاء الشخصيات التراثية عندما يربط بين رحلة صلاح الدين وأولاده لطلب العلم، وبين "هارون الرشيد" وولديه "الأمين والمأمون" عندما خصص مجلسا لسماع موطأ مالك، وهو ربط طبيعي بين الشخصيتين اللتين سمعتا الموطأ وكلاهما سماع يدخل البهجة والسرور. وهو بذلك يستلهم التاريخ ويعتبر به.

وشاعت في الرسالة معاني البهجة والفرح، حيث تبدو عناية الكاتب في تخير معاني التهئية، يقول: "وقف المملوك على ما بُشر به من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، واسترواح القلب من كل هم، فمن ذلك صحة جسمه، وفُسحة قلبه دامت له الفسحة"⁽²⁾.

وكما أحسن الفاضل في مقدمة الرسالة فقد أحسن في اختتامها بالدعاء للسلطان، وأن يبارك له في المقام والرحيل.

وأشارت الرسائل إلى المكانة العظيمة التي بلغها العلماء والقضاة لدى الحكام، ويكفي إشارة الفاضل في رسالة له من تخرج الناصر صلاح الدين في نقل القضاء من القاضي "ابن عصرون"⁽³⁾ بعد فقده بصره إلى ابنه. يقول: "ولا يُنسى له هذا التخرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام، إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يُبقي رأيه ومشورته، وإما أن يتولى ولده النيابة"⁽⁴⁾. وكان هذا الإجراء هو احترام للقاضي "ابن عصرون"، وقد شارف منتهى العمر، فلم يُرد إيلام قلبه.

وصورت الرسائل جانباً آخر من جوانب جرأة الفقهاء والقضاة، فلم يكن هؤلاء معزولين عن قضايا الأمة، وكانت لهم مواقف مشهودة عند تعرض الأمة للتصدع؛ نتيجة تآكل الحكام. ويبدو ذلك جليا في الرسالة التي كتبها الملك "الناصر داود" إلى شيخ الإسلام "العز بن عبد السلام"، يطلب منه فيها حث الملوك على التأزر، ونبذ الخصام، وتوحيد الكلمة لإخراج المعتدين من بيت المقدس، بعد تسليم الكامل له، وقد بدأ "الناصر داود" رسالته بتقديم التعازي للقاضي بالمصيبة التي حلت بالمسلمين في نابلس، بعد تسليم بيت المقدس، من أجل تحريك مشاعر المسلمين. وعبر الكاتب أدق تعبير عن حجم

⁽¹⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 90/3.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 91/3.

⁽³⁾ هو عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، فقيه شافعي، هو الذي سار ببشارة إعلان الدعوة العباسية بمصر توفي سنة 585هـ. ينظر كتاب

الروضتين: 108/4-109، وفيات الأعيان: 53/3، مفرج الكروب: 67/2.

⁽⁴⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 98/3، سنا البرق الشامي - فتحية النراوي: 151.

المصيبة باعتزافه بتقصيره، هو والحكام المسلمين بالقعود عن فريضة الجهاد التي يعدها الكاتب من أكبر الجرائم التي ارتكبتها هو وغيره من الحكام بحق الإسلام والمسلمين. ثم ينقلنا إلى لبّ الرسالة، وهو الحديث عن المصيبة التي نزلت بالمسلمين، وتفصيل ما ارتكبه الفرنجيون بحقهم، وقد أجاد الكاتب في نقل صورة المسلمين المنهزمين، وانتصار الفرنج، مستفيدا من ثقافته الدينية التي عبّرت عن وقع الحدث، من خلال نشره آيات القرآن الكريم في ثنايا الرسالة، واضعا إياها في أنسب مكان، من مثل قوله: ﴿ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾⁽¹⁾.

وضمن الكاتب الرسالة أبياتا شجية من نظمه. يقول:

"ألا ليت أُمي أيم طول عمرها فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد لبيب أريب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل"⁽²⁾

والأبيات -كما يظهر للقارئ- تزخر بمعاني اليأس والإحباط لدرجة أنه يتمنى لو بقيت أمه عاقرا حتى لا يرى ما أصاب الإسلام من فتنة وخيل وفساد، ولكن ما يلبث الكاتب أن يستجمع قواه مخاطبا الشيخ الجليل بما يرهف عزائم المسلمين في نصرة الدين من خلال إعلان النفير، فقد أصبح فرض عين على الصغير والكبير، والحرّة والأمة، ومن جاوره من أهل الملة. يقول: "فيا أيها العز الذي كنا نظن أن الإسلام يتزايد بسعيه عزاء، تيقن أنّه قد عم بالشام النفير"⁽³⁾. ويبدو من هذه الرسالة مبالغة الكاتب في طلب النجدة لحث المسلمين على نصرة الدين، وقد خص الكاتب هذه الرسالة بالشيخ العز بن عبد السلام، لعلمه بجرائته ومواقفه المشهودة تجاه الحكام، فهو لسان الشريعة، وسيفها الذي لا بد أن يخرج من غمده، ويختم رسالته برنة أسي وحزن، فقد أصبح الإسلام غريبا في موطنه، وتناصرت همم المسلمين في الدفاع عنه، ويطلب من الله تعالى أن يرفع البلاء عن الإسلام والمسلمين⁽⁴⁾. وقد وقعت هذه الرسالة وقعا حسنا في نفس العز بن عبد السلام، حيث وصلت النجدات إلى الناصر داود، واستطاع استرداد القدس سنة 637هـ.

* القضاء

عالجت الرسائل جانبًا مهما من جوانب حياة الناس في ذلك العصر، وهو القضاء، وقد عدت وظيفة القاضي عند المسلمين من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة⁽⁵⁾. وكان القضاء في هذا العصر يختارون من العلماء العارفين بأحكام الشريعة، والمعروفين بالتقوى، وتحري العدل، وغير ذلك

(1) سورة مريم آية: 23.

(2) ينظر بقية الأبيات في الفوائد الجلية: 136-137.

(3) الفوائد الجلية - الناصر داود: 137.

(4) المصدر نفسه: 137.

(5) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام - أحمد رمضان: 98.

من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب⁽¹⁾.

وأظهرت الدولة الأيوبية حرصها على هذا الجانب، وقد تمثل هذا الحرص بوضوح في الرسائل التي كانت تكتب إلى الولاة، فهم المسؤولون عن إدارة القضاء، وتخيرات الولاة الأكفاء، والتوقيع على الأحكام التي تصدر عنهم. وعلى الرغم من عدم وجود الكثير من النصوص المتعلقة بهذا اللون الأدبي، فإنه يمكن في ضوء ما وصل إلينا من نصوص أن أحاول تشكيل ملامحه.

ومن كتب القضاء تلك، التقليد الذي كتبه ابن الأثير لنقيب الأشراف العلويين، وهو يشتمل الكثير من المعاني، ويتراءى للناظر فيه بسط القول والتفصيل والتحليل. يقول: "فخذ كتابك هذا بإحسان، وامسكه بميزان العدل الذي هو أعدل ميزان، واحمله على الأمانة التي عُرِضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأبسط يدك إلى ولايتك عالماً بأن الإعراض عنها قضى بتسويدك، وأن الملكين الكريمين نزلاً من السماء بتسديدك"⁽²⁾. إن القضاء في نظر الكاتب ميزان، وهو أفضل طريقة لإقامة العدل بين الناس ومنع الظلم، فهو ذو صلة وثيقة بالأمانة، التي إن توافرت مع العدل، فإنها من أسباب نجاح الوالي في ولايته. ويصور ابن الأثير أهمية العدل في حياة الناس، ولكنها تبقى مقصورة على جانب واحد، دون الإشارة إلى مناح أخرى في القضاء.

وفي التوقيع الذي كتبه الفاضل عن السلطان إلى أحد القضاة في معنى مساحة خبز بعض الأجناد، يحاول الفاضل أن يضع بين يدي القاضي سلسلة من الخطوات العملية التي تضمن سير عملية القضاء على النحو المنشود من اعتماد الإنصاف، وتجنب الحيف والظلم، والتحري في قول الصدق، وتوخي الدقة في أمر الأمير المتوفى، وأن يخلفه ابنه، بوصفه نوعاً من التقدير لهذا الأمير الذي خدم الإسلام. يقول: "وليعلم منزلة الأمير المتوفى ومكانته التي لا تعادلها منزلة، وأضيف ولده بموضعه، وحلوله عنده في المرتبة التي ليست بالمطرحة ولا المهمة"⁽³⁾.

ووقف القضاء في العصر الأيوبي وقفة مشرقة، في قضية صحة التحقق في كل من يدعي النسب إلى الأشراف العلويين، ويبدو هذا واضحاً في التقليد الذي كتبه ابن الأثير لنقيب الأشراف العلويين، فقد أمره بالتحقق في نسب كل من يدعي النسب إليهم، وقد بين أسباب ذلك، منها أن هذا البيت ينتمي إلى عترة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وفي هذا زيادة الشرف والرفعة لمن يدعي النسب إليهم، وقد يكون السبب رغبة بعضهم في تسنُّم موارد الحكم والسياسة. يقول: "وفي الناس طائفة أدياء يرومون إلحاق الرأس بالذنب، والنبع بالغرب، ويلحقون أبا لغير ابن، وابناً لغير أب، كل ذلك رغبة في سُحتٍ يأكلونه لا في نسب يوصلونه"⁽⁴⁾.

(1) صبح الأعشى - الفلقشندي: 23/6.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 135.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 228.

(4) المثل السائر - ابن الأثير: 227/1.

ويطالب ابن الأثير بإيقاع أشد العقوبة بمن تثبت إدانته، وعدم انتسابه للسلالة الشريفة؛ لأنها تعد من المخالفات الشرعية التي يُعاقب عليها القضاء، "ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازجار، واعلمه بأنه قد نبأ مقعده من النار، وشهره في الناس حتى ينتهي، وينتهي غيره بذلك الاشتهار"⁽¹⁾.

* الجانب الاقتصادي

أما في الجانب الاقتصادي فقد رعى الأيوبيون مصالح المسلمين الاقتصادية، وكانت السياسة العامة للدولة الأيوبية تقوم على تحصيل الخراج بالوسائل السلمية من خلال المنشورات والمراسيم التي تتحدث عن هذا الجانب، وسعى السلاطين الأيوبيون إلى التخفيف عن الرعية في الظروف القاسية كالحروب والكوارث، فأسقطوا الضرائب والمكوس، وأعلنوا حرية التجارة.

ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى التوقيع الذي كتبه الفاضل بإسقاط المكوس عن مدينة حلب، وهو توقيع يتضمن دعوة الولاة والعمال من طوائف المسؤولين في الدولة، إلى وجوب أخذ الرعية بمقتضيات العدل ورد المظالم، ومعاملتهم باللين، وتخفيف أعباء الحياة عنهم. وقد بدأ الفاضل توقيعته بتصويب نقد سياسي، واجتماعي لأولئك الحكام الذين انحرفوا عن طريق الشرع، وذلك في إشارة منه إلى الفوضى التي كانت عليها البلاد قبل توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين في مجال الضرائب والرشوة، فلم يكن هناك دستور يخضع له نظام الضرائب، وليس هناك آلية معينة يسير عليها محصلو الضرائب والجباة، وليس في نظام الدولة ما يقف أمام جورهم، وظلمهم للرعيا. يقول: "وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رشوة استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعيا إضرار"⁽²⁾. ثم يعدد أنواع الضرائب التي كانت مفروضة على الرعية، فمنها ما هو على الأثواب المجلوبة، ومنها ما هو على التي تركب، ومنها ما هو في تنوع المعاييش التي تتطلبها حياة الناس.

وركز الكاتب على قيام الناصر بأمور رعيته، وإحسانه إليهم بإبطال هذه المكوس وتعطيلها، رغبة منه في التخفيف عن الرعية، وطلباً لثواب الله وطاعته⁽³⁾. ويُنهي التوقيع بخاتمة يشوبها الحزم والشدّة، يبدو في ظاهرها النصح، وباطنها التهديد للولاة والأمراء والمتصرفين، بأن يحتكموا إلى شرع الله، وأن لا تسول لهم نفوسهم اللجوء إلى الغش والخيانة، وظلم الرعية، يقول: "فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا، ألا يهوا إليها يدا ولا يردوا، ولو بلغ الظمأ منها مورداً، ولا يرغبوا في كثير الحرام، فإن الله يُغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم والقضاء المبرم والعزم المتمم"⁽⁴⁾.

وربما يكون الحدث الخراجي الواقع في عهد السلطان الناصر صلاح الدين من أبرز الأمثلة التي يمكن الاستدلال بها على ترفق الدولة في جباية الخراج، والضرائب من الناس، فقد حدث بفعل الفرق بين السنة الشمسية والقمرية مع تعاقب الأزمنة، وترك كبس السنوات، أن وقع موعد تحصيل

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 227/1.

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 175/3.

(3) المصدر نفسه: 176/3.

(4) المصدر نفسه: 176/3.

الخراج قبل إدراك موسم الغلات، مما يلحق بالناس من جراء ذلك ضيق وعنت، ووقوع النسيء، إذ يضطرون إلى أداء ما يجب عليهم قبل حلول الموسم، وجني المحصول، وقد ألقى المنشور الذي كتبه الفاضل على لسان الناصر صلاح الدين بتحويل السنة الخراجية إلى سنة هلالية المزيد من الأضواء حول هذه القضية. وتبدو العناية الرسمية بأمر الخراج جلية في هذا المنشور، فهو يشتمل على فيض من المعاني التي يحتاج تفصيل القول فيها إلى شرح وتطويل. وقد بدأه بجملة تقريرية فحواها: "خرجت الأوامر الصلاحية"، كما هو متعارف عليه في كتابة هذا اللون من المنشورات. ثم ينتقل إلى جوهر المنشور، حيث يبدأ بذكر المسوغات التي دفعت الناصر لنقل السنة الخراجية "الشمسية" إلى هلالية، فقد تم نقل سنة 565هـ، وهي سنة خراجية إلى سنة 567هـ. حتى لا يلحق الرعية الظلم والأذى، وذلك بفعل هذا الفرق، فيحصل الخراج قبل إدراك الغلات، وهذا مما حرمة الإسلام. يقول: "ولما استهلكت سنة كذا الهلالية، وقد تباعد ما بينها، وبين السنة الخراجية إلى أن صارت غلاتها منسوبة إلى ما قبلها، وفي ذلك ما فيه من أخذ الدرهم المنقود عن غير الوقت المفقود، وتسمية بيت المال ممطلا وقد أنجز"⁽¹⁾. ومن المعلوم أن أيام السنة الخراجية بخلاف السنة الهلالية، لأن أيام السنة الخراجية 365 يوماً وربع اليوم، وأيام السنة الهلالية 354 يوماً. والخلاف في كل سنة بالتفريق أحد عشر يوماً بالتقريب، وفي كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة واحدة على حكم التقريب، إذن فالقضية تبدو قضية تنظيمية للغاية، ويقصد منها إبراز ملامح المجتمع الإسلامي في العصر الأيوبي الذي يتميز بأعياده، وأدائه فروض عباداته من صوم وصلاة وزكاة، وبالتالي يمتاز أهل الإسلام بزيادة سنة واحدة عن أهل الملل الأخرى، يقول: "لأن أهل ملة الإسلام يمتازون على كل ملة بسنة في نظير تلك المدة قصدوا صلاتها، وأدوا زكاتها، ومخالفوهم قد عطلت صحائفهم في عدوانهم، وإن كانت عاطلة، وخلت مواقفهم في أديانهم، وإن لم تكن قط أهلة"⁽²⁾.

ويوجه بلاغا عاما لجميع الولاة، والأمراء، والعاملين في مناحي الدولة الإدارية باعتماد السنة الهلالية، وذلك لإزالة الالتباس، وإقامة القسطاس.

ومن الملفت للنظر أن الكاتب ينجح إلى تخصيص عمال الخراج والجباة من بين سائر العمال، وفي هذا إشارة ضمنية إلى ما كانت عليه سيرة هذه الطائفة من الغلو والعسف، وإرهاق الرعية بالمطالبات الجائرة. يقول: "وليكا تب بحكمه من الخراج إلى من يمكّنه من المستخدمين، ومنها أن المستجد من الأجناد لو حُمِل على السنة الخراجية في استغلاله، وعلى الهلالية في استقباله لكان محالا، وكان يتعجل استقبالا، ويباطن استغلالا، وفي ذلك ما ينافر أوصاف الإنصاف والصلاح"⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى عدم توافر نصوص من الرسائل التي تلقي ظلالة على هذا الاتجاه، ويبدو أن قدرا كبيرا من رسائل الخراج قد ضاعت بفعل النكبات والحروب التي تعرضت لها البلاد في تلك

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 72/13.

(2) المصدر نفسه: 73/13.

(3) المصدر نفسه: 73/13.

الحقبة من الزمن. ومهما يكن من شأن ضياع جلّ الرسائل التي تتناول هذا الجانب، فإن النصوص التي بين أيدينا كشفت لنا بعض القضايا المهمة ذات الصلة بالموضوع.

وقد تقدم القول إن سياسة بعض الملوك الأيوبيين تتمثل في تخفيف الأعباء الاقتصادية عن الناس من إزالة للمكوس، وكشف للظلمات، وإقامة للعدالة، وقد كان لهذه السياسة أثرها في ارتقاء الحياة الاقتصادية، وازدهار التجارة بين مصر والشام، وأدى إلى تنشيط الحركة التجارية بين المسلمين والفرنج، فقد أعطى صلاح الدين تسهيلات للأجانب، وخاصة تجار البندقية وجنوة وبيزة، ولقد جمعت المدن التجارية الإيطالية الثلاث بين دورها في الحروب، ودورها في نقل السلع، والمتاجر، والحجاج والمؤن والأسلحة إلى الأراضي المقدسة⁽¹⁾.

وقد أشار الفاضل إلى هذا النشاط التجاري في إحدى رسائله إلى بغداد على لسان السلطان صلاح الدين، يقول: "ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة، والجنوية⁽²⁾، كلّ هؤلاء تارة يكونون غزاة لا نطاق ضراوة ضرّهم، ولا تُطفأ شرّهم، وتارة يكونون سُقارًا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله، وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلّهم قد قرّرت معهم المواصلّة وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد"⁽³⁾.

(1) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب - علي زيتون: 131.

(2) البنادقة: أهل مدينة البندقية، والبياشنة: من مدينة بيزا، والجنوية: نسبة إلى أهل جنوة، وكلها من المدن الإيطالية التي اشتهرت بنشاطها التجاري في

تلك العصور. ينظر كتاب الروضتين: 364/2.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي : 364/2.

الفصل الرابع الاتجاه الوجداني

محتويات الفصل الرابع

121-117.....	* التهاني
127-122.....	* التعازي
129-127.....	* الشوق والحنين
130-129.....	* العتاب
134-130.....	* الشكوى
136-134.....	* الاستعطاف
138-136.....	* الاعتذار
142-138.....	* الشكر
145-142.....	* التهادي
150-145.....	* الشفاعات
152-150.....	* العيادات

تجلى كثير من المظاهر الوجدانية في العصر الأيوبي. وكانت هذه المظاهر تمثل لونا من ألوان الصّلات الاجتماعية التي عبّرت عنها الرسائل الإخوانية في تلك الفترة. وهذه الرسائل تكشف عن اهتمامات الكتّاب الخاصة، إذ أخذوا يتوسعون في تدوين رسائلهم حول كل مظهر من هذه المظاهر المهمة. وتميزت هذه المظاهر بثرائها، فهي تعطي القارئ صورة متنوعة لعلاقات الأفراد الشخصية في ذلك العصر، إذا استطاع الكتّاب أن يعبروا عن مشاعرهم أدق تعبير، وتعرض الرسائل الإخوانية في هذا العصر جانباً من الحياة مختلف الملامح عما تقدمه الديوانيات⁽¹⁾.

فهي تكشف عن خلجات نفوسهم ورؤاهم، وأحلامهم، واضطراب مشاعرهم، وتصور علاقات المودة حينا، والجفاء والعتاب حينا آخر.

ولعل أهم ما يميز هذه الرسائل عن غيرها هو تحرزها من الشروط الموضوعية للرسائل الديوانية، فلكتبتها الحرية التامة، يقول صاحب مواد البيان: "ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها، على عكس الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير، ولا تتجاوز"⁽²⁾.

وفي هذا المقام، يمكن القول: لقد قمت باستقراء الكثير من الرسائل في العصر الأيوبي، وتبينت أن هناك رسائل ديوانية رسمية فيها تعبير عن جوانب وجدانية.

وهنا يتبادر سؤال إلى الذهن: هل يعد هذا اللون من الرسائل وجدانياً إخوانياً، أم رسمياً؟ وأقول هنا: إن تعدد المصطلحات التي استخدمها النقاد في تصنيف أنواع الرسائل، جاءت ضمن تصور منهجي تاريخي واحد، ولم يعملوا على وضعها في نطاق نقدي واضح المعالم، مما أوقع عدداً من النقاد في دائرة التناقض في التقسيم الذي اعتمدوه. لكن واقع النصوص يبين إبراز عناصر الاشتراك بين أنواع الرسائل، فبعض منهم يرى أن السياق الخارجي كافٍ لتحديد نوع الرسالة، ويكون بهذا قد أهمل الغرض والأسلوب. يقول مصطفى الشكعة مسوغاً وضعه رسالة كتبها "الصولي" في التعزية، ضمن الرسائل السياسية: "فالرسالة مواساة، ولكنها صادرة عن ديوان الخليفة، فهي ديوانية رغم صفتها الاجتماعية"⁽³⁾.

فالتهنئة والتعزية والتهادي والشوق والعتاب، وغير ذلك من الأغراض تشترك فيه الرسالة السياسية والإخوانية، لكن هذه الأغراض تصاغ على نحوين مختلفين، فهي في الرسالة السياسية أغراض تمجيدية جادة ترتبط بأحداث دقيقة كالتولية، والتهنئة، والاستعطاف. كما أنها تتضمن معاني المدح السياسي، وتعتمد على تفخيم الغرض والتغني به.

وأما في الرسائل الإخوانية فإنها تنزع منزع المجاملة، فهي رسائل تصور بعداً اجتماعياً، وتتجلى فيها صورة العلاقات الاجتماعية وما يتصل بها، كما تقدم. وهي تسجل ما يجري بين الناس من محاورات حول أحداث الحياة اليومية، ويتحول الغرض الأدبي إلى غرض آخر كأن تصبح التعزية رثاء، أو تتحول التهنئة إلى مدح، أو إلى المفاخرة بقدم مولود، وهذه الرسائل على الرغم من كونها

(1) الأصول الأدبية في صبح الأعشى - مصطفى الشكعة: 179.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 589. وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 5/9.

(3) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية - مصطفى الشكعة: 407.

رسمية فهي تحمل اتجاهها وجدانها؛ لأنها تعبر عن مشاعر الكاتب وأحاسيسهم تجاه سلاطينهم، فقد كانت علاقة الفاضل بصلاح الدين علاقة الصديق بصديقه، وعلاقة العماد بالسلطان علاقة مودة. ومن معالم الاتجاه الوجداني في ذلك العصر:

* التهاني

التهنئة مظهر من المظاهر الذاتية الوجدانية التي ترتبط بمناسبة معينة، وتكون مدعاة للفرح والسرور، ومبعثاً لمشاركة الأهل والأصدقاء، وتشير رسائل التهنئة في ذلك العصر إلى الحفاظ على معاني الأخوة والصداقة والمودة، فقد صور الكتاب ما يجيش في صدورهم من العواطف والمشاعر تجاه من أحبهم، وقد شاع هذا اللون من الرسائل شيوعاً واسعاً في ذلك العصر؛ لكثرة المناسبات من جهة، وتنوع مضامينها من جهة أخرى، مما دفع القلقشندي إلى جعلها في أحد عشر ضرباً مثل التهنئة بالولاية، وبكرامة السلطان، والعودة من الحج، والقُدوم من السفر، والتهنئة بالمواسم والأعياد، والزواج، والأولاد وغيرها، وأضاف إليها بعضاً من التهاني النادرة مثل التهنئة بإسلام ذي، والتهنئة بالعزل، والتهنئة بالشفاء من المرض، وقد أشار إلى أن أغراضها متشعبة⁽¹⁾.

وكان الكتاب يحرصون عند كتابة هذا النوع من الرسائل على أنماط معينة، لا يسمحون لأي كاتب أن يخلّ بشيء منها. ومن هذه الأنماط أن يكون الكاتب متنبهاً إلى أقدار من يخاطبهم، فينزل كل واحدٍ منهم المنزلة التي تليق به، يقول صاحب مواد البيان: "يجب على الكاتب أن يراعي فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما مما لا يتسامح بمثله"⁽²⁾.

وكانوا يُعنون بالأثر الذي تتركه الرسالة في نفس المرسل إليه؛ ولذا كانوا يشترطون على الكتاب أن يكتبوا بطريقة تؤدي الغرض من المكاتبة، وتبين قدرته على المخاطبة، يقول صاحب مواد البيان: "كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن مواقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية"⁽³⁾.

ويبدو أن طبيعة هذا اللون من الرسائل المتعلقة بالمناسبات يحتاج إلى الإيجاز وعدم الإطناب غالباً. وبالتالي كانت عناية الكتاب في اقتضاب رسالة التهنئة وإيجاز فقرها.

والتهاني ترتبط عادة بمناسبة خاصة، والمناسبات تتلون بألوان متنوعة ومتعددة، فقد تكون المناسبة شخصية كالتهنئة بالإفاقة من مرض، أو بالسلامة من السفر، أو بالعودة من الحج، أو بإنجاب الأولاد، أو بولاية عمل من أعمال الدولة كالتهنئة بالقضاء أو بالإمارة، أو بالتولية، وقد تكون المناسبة ذات صبغة اجتماعية عامة كالتهنئة بعيدي الفطر والأضحى.

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 589. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 3/9.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 590. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 5/9.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 590. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 5/9.

وفي ضوء دراسة النصوص التي وصلت إلينا، يتبين أن هذا الغرض من المراسلات كان يتميز بثنائية؛ نظراً لكثرة المناسبات وتتنوعها.

وستتناول الباحثة أولاً الرسائل السياسية التي عبرت عن جوانب وجدانية، وهي جوانب تصور علاقة الكتاب بالسلطين والأمراء، وهي علاقات كشفت بعض الجوانب الشخصية الوجدانية التي كانت تربط الكتاب بسلطينهم وأمرائهم.

1- من المناسبات التي كان لها شأنٌ خطير في حياة المجتمع في ذلك العصر، **تهنئة السلطين** **باعتلاء عرش الملك**، وعلى الرغم من تعدد السلطين الأيوبيين الذين تسنموا مناصب الحكم والسياسة، جاءت رسائل تهنئتهم بمناصبهم الجديدة قليلة ونادرة. ومن هذه الرسائل، رسالة الفاضل على لسان صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل، وهي رسالة امتزجت التهنئة فيها بالتعزية معبرة عن الأسى لوفاة نور الدين، وهو الأمر الذي أثار قلق صلاح الدين وخوفه، وشكك في أمره، فلربما يكون هذا الخبر حيلة وإشاعة من جانب الأعداء؛ لإضعاف عزيمة المسلمين. ويبدو أن استهلال الكاتب بتصوير شدة وقع الأمر على صلاح الدين لدى شيوع الخبر قبل إعلانه بشكل رسمي كان أبلغ. ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف ألا يخاطب الإنسان إلا بعد التمهيد بما يخفف من المصيبة والحزن، يقول الفاضل: "ورد خبرٌ من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين، أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، فإن كان -والعياذ بالله- قد تم، وخصه الحكم الذي عم"⁽¹⁾. ويمضي الفاضل عقب سماع الخبر في تقديم العزاء إلى الملك الصالح بما يهون عليه مصيبته، ومصيبة الإسلام بفقد والده، مستخدماً العبارات المناسبة للحال. يقول معزياً ومشيداً وداعياً له بالصبر: "فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها"⁽²⁾.

وفي نهاية الرسالة يقدم التهنئة للملك الصالح، ويعلن الطاعة والتأييد له، بقوله: "فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسيف على من عاداه"⁽³⁾.

والرسالة تشهد بقدرة الفاضل على كيفية التخلص من المواقف الصعبة، فقد أحسن بدايتها وخاتمها، واستطاع أن يؤدي الغرض منها، وهذا النوع من الرسائل يحتاج إلى معرفة بأصول المكاتبات، والقدرة على التخلص من المواقف الحرجة.

2- ولم تقف مجالات التهنئة عند تسنم السلطين المناصب الجديدة، بل تعدتها إلى مجالات أخرى مثل **تهنئة السلطين بالنجاة من محاولة قتل**، ومن تلك الرسائل رسالة الفاضل إلى الملك العادل يهنئه بسلامة السلطان صلاح الدين من محاولة قتله من قبل الحشيشية وهو على عزاز⁽⁴⁾.

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 319/2-320

(2) المصدر نفسه: 319/2.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 320/2

(4) العزاز الأرض الصلبة، تقع قرب الحدود التركية اليوم. ينظر معجم البلدان: 667/3، زبدة الحلب: 165/1، صبح الأعشى: 127/4.

والرسالة تبدأ بالحمد، وتختتم بالحمد، وتتحدث عن الإصابات الخفيفة التي أصابت الجسم الناصري، وشفائه منها، وأن الوضع الأمني في عراز مستتب ومستقر. يقول: "والركوب على رسمه، والحصار لإعزاز حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سرا"⁽¹⁾.

3- ومن ضروب التهنة، تهنة السلاطين بالإفاقة من مرض ألم بهم، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى الملك الأفضل يهنئه بالبرء من مرض ألم به، والناظر في هذه الرسالة يلحظ أن الكاتب بدأ رسالته بالدعاء لمولاه بدوام الصحة والعافية، وهو دعاء يتناسب والموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ويكون المريض بمسبب الحاجة إليه في لحظات ألمه. والرسالة كلها تنصب على تصوير وقع العلة على الكاتب نفسه عندما تنأى إليه خبر مولاه، وما قاساه من آلام لا تقل في المعاناة عن الآلام التي كابدها المريض نفسه، وقد بالغ الكاتب في تهنيئته، كما يبدو في تمنيه المرض لنفسه. يقول: "ولقد بلغ به الإشفاق إلى أنه ودّ أن يكون لمولانا البرء، وله الوصب، ولمولانا السلامة وله العطب، وينهي أنه منذ علم وعكة المزاج الكريم سرت الأمراض إلى قلبه وجسمه، ووحدّها في كل شيء حتى في أمله وعزمه، وغير بدع أن يمرض العبدُ لمرض مولاه، وأن يجعل الشركة في ذلك جزاءً لما أولاه"⁽²⁾. ويستشف من خلال الرسالة ملمح من ملامح إيمان الكاتب بالله، فهو يفوض الأمور كلها لله - عز وجل - ويستجد به، ويرفع أكفه بالتضرع والدعاء في أن يأذن الله بشفاء مولاه، يقول: "ومن سنة المملوك أنه يستعين فيما أمّهُ بكثرة السجود، ويستجد من الدعاء الصالح بكثرة، ويأوي إلى بيوت الله التي أذن أن تُرفع، فإن يدّ الابتهاال ترفع فواح الأعباء"⁽³⁾.

وتعبر الرسالة عن مدى الفرح بشفاء مولاه وقيامه من علته، ومعافاته من سقمه: "ولما وصل خبر العافية قرّت قلوب كانت طائرة، ورقدت عيون كانت ساهرة، وعادت مسرات كانت عازبة، ووجبت نذور لم تزل في معالي مولانا واجبة، وأقبل الناس على الهناء فتقارضوه قرضا، وهنا بعضهم بعضاً"⁽⁴⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بالحمد والثناء على الله أن منّ على مولاه بالعافية، وأذهب عنه الحزن والكآبة، وهو لا يكتفي بتصوير فرحة الناس بشفاء مولاه حتى يشعرنا بعجز قلمه ولسانه عن التعبير عن فرحته بهذا الشفاء.

4- ومن ألوان التهاني التي كانت ترسل إلى السلاطين ما يتعلق بالشؤون الأسرية الخاصة، ومن هذه الرسائل رسالة الفاضل إلى الناصر صلاح الدين يهنئه بمولود له اسمه داود، ويستهل الكاتب رسالته بالدعاء للسلطان مبدئياً فرحه وسروره بهذه النعمة العظيمة التي أفاء الله بها على السلطان، ويشير الكاتب إلى أن هذا المولود هو الابن الثاني عشر له، وقد بالغ الكاتب في التهنة إلى حد كاد

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 410/2.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 89.

(3) المصدر نفسه: 89.

(4) المصدر نفسه: 89.

يكون غير مقبول حينما جعل نجم المولود يعلو على نجم يوسف -عليه السلام- وجعل الخلق جميعا له سجودا، يقول: "فقد زاد الله في أنجمه عن أنجم يوسف -عليه السلام- نجما، ورأهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حلما، ورأهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجودا"⁽¹⁾.

ويبدو استعمال الكاتب أسلوب التحوير وهو أسلوب فني يدخل به الكاتب على النص القرآني، مجريا عليه بعض التغييرات التي تجعله موافقا للسياق، وذلك عندما أخذ يقارن بين سيدنا يوسف -عليه السلام- وقصته مع الحلم الذي رآه، وقدم هذا المولود الذي سمي يوسف. ومع أن الغرض من الرسالة هو التهئة بالمولود، إلا أنها استأثرت بنصيب وافر من الدعاء للسلطان، وهو مما لا يستغنى عنه في هذا اللون من المكاتبات.

5- ومن ضروب التهاني التهئة بقدم مولودة أنثى، وبعد استقراء النصوص التي بين أيدينا يتبين أن التهئة بقدم مولود اقتصر على المواليد الذكور، وذلك بسبب النظرة الاجتماعية إلى البنات، والتي حاول الإسلام تغييرها، وقد بقيت تلك النظرة في أوساط ذلك المجتمع، ولا يعني ذلك نظرة المجتمع كله، ومن الأمثلة على هذا النوع من التهاني رسالة الفاضل إلى أحد الأمراء يهنئه بمولودة. يقول: "وعرفنا أن الله رزقه غرة مباركة، ضاحكة مستبشرة، وريحانة عبقة، وشجرة مثمرة"⁽²⁾. ويكشفنا الفاضل عن شعور والدها تجاه البنات، وهو الشعور الذي كان يحمله بعض أبناء المجتمع العربي منذ الجاهلية، فقد "زوى وجهه، ونأى بجانبه عند إخباره بنعمة ربه"⁽³⁾.

وينبه الكاتب الأمير بضرورة تغيير نظرته، وأن هذه المولودة هي نعمة من نعم الله، فمن الواجب عليه شكره، وأنه لا فرق بين الذكور والإناث. ولا بين الشمس والبدور.

ويتمثل الكاتب في تهنته بأمتلة من واقع الحياة، فكثير من الذكور ينتمون إلى عائلات ذوات حسب ونسب جلبوا العار، وسوء الذكر إلى أهلهم الذين ابتهجوا وفرحوا بهم عند قدومهم، وفي المقابل هناك إناث شهد واقع الحياة لهن بجدارتهن، وتحولت كراهية مقدمهن لدى ذويهن إلى سرور وبهجة وسعادة. ومهما يكن من أمر، فإن رسالة الفاضل تمثل حلقة من الحلقات الكثيرة، التي أدخلها كتاب هذا العصر إلى النثر العربي، فموضوع الرسالة يبدو في غاية الجدة.

ومن اللافت للنظر أن الباحثة لا تكاد تقع على نظير هذه الرسالة فيما وصل إلينا من رسائل في العصر الأيوبي!

6- ومن ألوان التهاني المشتملة عليها الرسائل في العصر الأيوبي، تهئة الولاة والأئمة على ما أسند إليهم من مناصب عامة في الدولة. وقد انتشر هذا اللون من التهاني في جملة من رسائل ابن الأثير⁽⁴⁾، ومن ذلك ما كتبه على سبيل المثال في التهئة بالتدريس في مدرسة جديدة إلى أحد الأئمة.

(1) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 75/3-76.

(2) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 110.

(3) المصدر نفسه: 110.

(4) ينظر الرسائل 157-158-159-160-161-162. تحقيق أنيس المقدسي: 158.

يقول: "والخادم يهنيه بمنصب التدريس، بل يهني التدريس بمنصبه، والفارس البطل لا يُزهي بركوب الجواد بل الجواد يُزهي بمركبه، وعلم أن الله عناية بإثبات هذه الأمة الإسلامية على أصلها"⁽¹⁾. وتتبيّن هذه الرسالة عن مفارقة طريفة يختارها الكاتب بعناية ورعاية، فهو لا يهني الشيخ بمنصب التدريس في المدرسة بل يهني التدريس بالشيخ؛ لأن هذا الشيخ على درجة كبيرة من الأمانة، وحسن الخلق، ووزارة العلم، وبالتالي فإن التدريس يفتخر به. وهذه الرسالة تدل على براعة ابن الأثير الفكرية، وغنى ثروته اللفظية الذي استطاع أن يوظفها توظيفاً طريفاً.

7- ومن ضروب التهاني ما كان يُكتب في **التهنئة بقضاء مناسك الحج**، فقد كانت فريضة الحج -وما زالت- من المناسبات العظيمة التي يجلبها المجتمع الإسلامي، وكان الحج -يوم ذاك- فيه نوع من العنت والمشقة؛ لما يلقاه الحاج من العناء الشديد في الرحلة على وسائل النقل البدائية. يقول ابن الأثير في كتاب كتبه إلى بعض إخوانه يهنئه بالحج: "وهذه الأسطر توجهت إليه مهنئة بسلامة الإياب، وغنيمة الثواب، ومحو لوعة الفراق بمسرة اللقاء التي أربها فوق الآراب"⁽²⁾.

والرسالة في مجملها تدور حول الدعاء للحاج بقبول نسكه، وصلواته، ودعائه، وقد بالغ الكاتب في الثناء على صديقه الحاج، وأسبغ عليه صفات نكاد نشعرُ فيها بالمبالغة، يقول: "ولقد تشوق الجو الحجازي إليه تشوق السامع إلى أن يرى، وود أن يُصافح بقدمه الكريمة صفحة ذلك الثرى، فأَي زهرة به لم تخرج من حجابها، أم أيّ ثلعة لم تسل أندية شعابها، أم أي خيمة لم تنزع أوتادها للقاءه"⁽³⁾.

9- وثمة لون طريف من التهنّات يختص **بتهنّته من دخل الإسلام من أهل الذمة**، كما يظهر في رسالة كتبها الفاضل للحكيم موفق الدين⁽⁴⁾ ابن المطران عند إسلامه، والرسالة لا تصرّح بالتهنئة بدخوله الإسلام، إنما تصور المكانة العظيمة التي بلغها عند صلاح الدين طبيباً له بعد دخوله الإسلام، والصّلاحيات التي فوضها له، يقول: "أمرناه بملازمة الخدمة السلطانية سفراً وحضراً، وجعل له من حلبة الاصطفاء في حلبة الاصطناع والاجتباء أواضح وغرراً، ووثقنا به لما ألقناه فيه من المعرفة والنزاهة والعفاف"⁽⁵⁾.

10- ومن ألوان التهاني ذات الصبغة الاجتماعية **الأعياد الإسلامية**، وخاصة عيدي الفطر والأضحى، لما لهذين العيدين من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، وقد تقدم القول عن الأعياد الإسلامية، والتهنئة بها في الفصل السابق.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 158.

(2) المصدر نفسه: 180.

(3) المصدر نفسه: 179.

(4) هو موفق أسعد بن إلياس بن جرجس المطران الطبيب، أسلم على يد السلطان صلاح الدين، كان غزير المروءة، حسن الأخلاق، مات بدمشق سنة

587 هـ. ينظر: النجوم الزاهرة: 6/113، شذرات الذهب: 4/288.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 146.

يحتل هذا اللون من الرسائل منزلة رفيعة بين الرسائل الإخوانية، فهي تمتاز عن غيرها بإحساس صادق مؤثر. وتسير رسائل التعازي مع رسائل التهاني في ركب واحد، فكلا النوعين يرتبط بمناسبة معينة، ويجريان على الرسم نفسه في إنزال صاحب المناسبة منزلة من الخطاب، يقول صاحب مواد البيان: "وحكمها حكم التهاني من الرئيس إلى المرؤوس، ومن المرؤوس إلى الرئيس، ومن النظير إلى النظير"⁽¹⁾.

وينضاف إلى ذلك اشتراك الغاية في إنشاء التهئة والتعزية، وتتمثل هذه الغاية في الأثر الذي تتركه الرسالة في نفس المهناً أو المعزّي. وفي المقابل يتسع الفرق بين النوعين من حيث طبيعة المناسبة، وأسلوب كتابتها، فرسائل التعزية تتشح بالسواد، وتقطر ألفاظها حزناً وألماً، في حسن أن رسائل التهئة تعج بمظاهر البهجة والفرح.

وكما عبّرت رسائل التهاني عن مظاهر الحياة المختلفة في العصر الأيوبي، كانت رسائل التعازي قد شاعت شيوعاً واضحاً في ذلك العصر، فقد راح الكتاب يشرعون أقلامهم في التعبير عن المصائب والنوازل، فيكشفون عن مشاعرهم تجاه ما يدور حولهم، ويصورون ذلك كله تصويراً يئم عن الألفة والمودة والمحبة.

ومن اللافت للنظر، أن التعازي أكثر ما تكون في الشعر؛ لأن التعازي صورة من صور الرثاء، ولكن بحكم التطور الذي طرأ على النثر العربي، أصبح هذا النثر قادراً على مجارة الشعر في أكثر الأغراض خصوصية، بل إنه تفوق عليه في بعض الأحيان.

وسأقف في دراسة هذا اللون الأدبي على ما كان يبرز في تلك الرسائل من عواطف ومشاعر تجيش في نفوس الكتاب عند نزول المصيبة بأحد المقربين إليهم من أهلهم وإخوانهم وأصدقائهم؛ كون هذه الرسائل ألصق بالرسائل الإخوانية.

وهذا اللون من الرسائل يدور في ثلاثة أطر، ففي الإطار الأول يتحدثون عن الدنيا، وأنها إلى زوال ثم يستتبع الحديث عن حقيقة الموت والحياة، وفي الإطار الثاني إظهار التقجع على الميت، وذكر مناقبه، ثم في الإطار الثالث تقديم العزاء لأهل الميت، والترحم للفقيد والدعاء له. والجدير بالقول إن مجالات التعازي في هذا العصر قد اتسعت اتساعاً كبيراً، وشملت موضوعات جديدة تمثل التطور الذي أصاب النثر في تلك الفترة.

وانقسمت رسائل التعازي إلى قسمين: القسم الأول رسائل إخوانية وجدانية بين الإخوان والأصدقاء، والثاني رسائل سياسية تحمل طابعاً وجدانياً تعبر عن المشاعر والأحاسيس التي يحملها الكاتب تجاه السلاطين، ففي الوقت ذاته تصور المشاعر والأحاسيس التي تحملها الشعوب تجاه ملوكها وسلاطينها.

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 603، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 80/9.

1- من الرسائل الرسمية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء، **التعزية بالسلطين**، رسالة العماد الأصفهاني إلى سيف الإسلام باليمن، يُعزّيه فيها بوفاة الناصر صلاح الدين. وقد بدأ العماد رسالته بالحديث عن حالة الفرع والذهول التي أصابت الأمة لدى سماعها النبأ، فقد كانت وفاته مصيبة عظيمة حلت بالأمة الإسلامية، ويصفها بالنبأ العظيم، والخطب الجسيم، والرزء العميم. ثم ينتقل الكاتب إلى تذكير الناس بالدنيا، فهي تافهة حقيرة، مبنية على المصائب والفتن، وأن العاقل فيها من أعدّ نفسه لدار المقام. يقول: "والسعيد من استعد في معاشه للمعاد، واستكثر مُدة مقامه في الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد. ومن نظر إليها بعين القلى، عَرَفَ أنها دار البلاء والبلى"⁽¹⁾.

ويتحدث الكاتب عن الفقيه، معرباً عن تفجعه. يقول: "فقد عَظُمَ الخطب وجلّ، وتلّم غرب الصبر وفلّ، وأجرى غرب الدموع، وأزكى كرب الضلوع"⁽²⁾. وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى إبراز مناقب الفقيه، وتعداد مآثره ومحامده، فيصفه بالزهد، والتقوى، والهدى، مجاهداً في سبيل الله، "وقد أقصى عن المسجد الأقصى مدنسيه، وأزال عنه أيدي غاصبيه"⁽³⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بضرورة التسليم بقضاء الله، وأن الموت أمرٌ حتمي، وذلك في محاولة من الكاتب التخفيف من هول الفاجعة وعظمتها.

2- أما رسائل التعازي بين الإخوان والأصدقاء، فمن الجدير قوله: إن كثيراً من رسائل التعازي التي وصلت إلينا جاءت في كتب ورسائل ابن الأثير باستثناء رسائل التعزية بالسلطين. وسوف ندرج الباحثة في تناول موضوعات الرسائل بالنظر إلى درجة القرابة. وأول ما نقف عنده: ما كُتِبَ في **التعزية بالآباء**، وتتمثل في رسالة ابن الأثير التي كتبها إلى شخص بدمشق يعزّيه بوالده، والرسالة تقع في ثلاثة محاور يتصل بعضها ببعضها الآخر. المحور الأول: يصوّر فيه حالة الفرع والذهول التي أصابت الكاتب لدى سماعه نبأ وفاته. يقول: "فلو أخبرت كتب التعازي عن حال مصدرها، لجاء هذا الكتاب وقد شقّ قرطاسه، كما يُشق من الثاكل جيب لباسه، وبدت الكأبة على وجهه، وتكاثرت العثرات في خطي أقلامه"⁽⁴⁾.

ويتحول الكاتب بعد هذه الفاتحة إلى التسليم بقضاء الله وقدره، ولأن المتوفى كان من المقربين إلى الكاتب، فقد أخذ بالإشادة بمآثر ابن المتوفى، مؤكداً أن الابن حلّ محلّ أبيه في منزلته من نفسه. ويتحدث عما هو مأمولٌ من الولد للقيام مكان أبيه في الحفاظ على مودته و صداقته له. يقول: "وفي بقاء

(1) الفتح القسي - العماد الأصفهاني: 646.

(2) المصدر نفسه: 645.

(3) المصدر نفسه: 646.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 83.

المجلس خلفاً يرضي المكارم استخلافه، وتستأنف به تجديد عهدها فيحمد استئنافه، فلا أخلى الله المكارم من سيدٍ منهم يلي زعامتها، ويشدد عامتها⁽¹⁾.

المحور الأخير: ويتمثل في التعبير عن رغبة الكاتب في استمرار المودة مع ابن المتوفى، وأن يستثمر التعزية في إقامة علاقة وطيدة مع المعزى، كذلك التي كانت قائمة مع والده، وإظهاراً لحسن النية يعاهد الكاتب أن يكون صادق المودة له، مخلصاً لا يتغير عليه⁽²⁾.

2- وإضافة إلى اللون السابق من ألوان التعازي، وجدت التعزية بالإخوة، ومن بين النصوص التي تمثلها رسالة الناصر داود إلى "ابن قليج"⁽³⁾ يعزیه بوفاة أخيه، واستهل الكاتب رسالته استهلالاً تذكيرياً، فقد بدأها بآية قرآنية ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽⁴⁾. والكاتب في هذه المقدمة يرسم منهج العقيدة الإسلامية في أدب النوازل، وما ينبغي على المرء فيها من التثبت، وحسن الاعتقاد بالله، والانصياع لأوامره، ويحاول الكاتب تقديم التعازي إلى الأمير سيف الدين من خلال نصحه ووعظه بالتحلي بالصبر، والوقوف من هذه المصيبة موقف المؤمن الشاكر لله، مُذكراً إياه بما أعدّه الله في الآخرة لمن صبر على قضاء الله، "وأنزل عند نزول الحوادث صبراً، وعظم له في الدارين أجراً، وأبقاه بعد معمري أهله دهرًا، وجعل من يتقدمه منهم عنه فداءً وله ذخراً"⁽⁵⁾.

وينقلنا الكاتب بعد ذلك إلى تصوير الحالة النفسية التي مرّ بها لدى سماعه الخبر، فقد انصدع قلبه، واشتعل بنار الحرق والالأم، وجرت دموعه حتى نضبت، ويحاول الكاتب تذكير سيف الدين ما ينبغي عليه من الرجوع إلى الله، والتمسك بفضيلة الصبر، والتسليم بقضاء الله، ومع أن الكاتب يعرف أن المعزى قد عود نفسه على هذه الأمور، إلا أنه يقدمها له على سبيل التذكير والنصح، يقول: "والمولى ثبت الله عزائمه، أهدى من يُهدى إلى محجة الصبر، أو أن يُعرّف مما في التبصر من جزيل الثواب والأجر؛ لأنه يعلم أن هذه الدنيا دار خسران"⁽⁶⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بالدعاء للمعزى، وأكثر ما ينصب الدعاء ههنا أن يطيل الله في عمره، وأن يوفقه إلى فضيلة الصبر، وأن لا يحرمه الأجر والثواب.

3- وانتقل بعد هذه الوقفة عند رسالة كتبت في التعزية بالإخوة إلى ضرب آخر يختص بالتعزية بالأخوات، والحق أن هذا اللون من التعازي لا يختلف عن سابقه كثيراً، وأقف عند ما كتبه ابن الأثير إلى القاضي الفاضل يعزیه بأخت له. ويُعنى الكاتب في رسالته بإظهار المواساة للمعزى، والدعاء له بأدعية تتغلغل في جوهر التعزية نفسها، فهو يدعو له بالسعادة، وأن تبقى داره مؤنسة لا تروعها الحوادث والنوازل. ويبدو أن الكاتب يشحن طاقته في مقاطع الرسالة إلى نقل المعزى إلى حالة نفسية أفضل تثق

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 83.

(2) المصدر نفسه: 84.

(3) هو الأمير سيف الدين علي بن قليج، توفي سنة 643هـ. ودفن بترته داخل دمشق. ينظر: النجوم الزاهرة: 355/6. البداية والنهاية: 171/13.

(4) سورة البقرة آية: 156.

(5) الفوائد الجلية - الناصر داود: 121.

(6) المصدر نفسه: 122.

بأمر الله، والتسليم بقضائه، من خلال تذكيره بالموت والفناء، وأن السعيد من استعد لدار البقاء، وهو أمرٌ يفضي إلى التخفيف من وقع المصيبة التي كابدها المعزّي. يقول: "وما جعلت الحياة الدنيا متاعاً قليلاً إلا لئلا تكون النفوس بعمرها القصير مستمتعة، والسعيد من ذخّر لمنزلة الذي هو إليه صائر، وعلم أن ذخائر هذه المنازل فانية، وفي ذلك المنزل بقاء الذخائر"⁽¹⁾.

وأما **التعزية بالأبناء** فتتماز عن غيرها من ألوان التعازي بالكثرة والشيوخ، وثرأء المضامين، وقد افتتح القلقشندي⁽²⁾ ضروب التعازي بهذا النوع، ومن بين الرسائل التي كتبت في التعزية بالأبناء رسالة الفاضل إلى صديق له يعزّيه بولد، وهي تبدأ بالدعاء للمعزّي، وإلهامه الصبر والاحتساب، ويحاول الكاتب أن يخفف عن صديقه حين يذكره بالحقيقة المرّة، وهي أن كل إنسان إلى زوال، وبالتالي يحاول أن يقنع صديقه بأن ولده انتقل إلى خير جوار، ويجعله سبباً لنوال الأجر والثواب، والشفاعة يننفع بها الوالد عند لقاء ربه.

وفي الخاتمة يستطيع الكاتب من خلال قدرته على التأثير والإقناع أن يصل بالمصاب إلى حالة من التوازن النفسي، فهو ليس بحاجة إلى تعزية أو تسلية؛ لأنه نال شرفاً لم يرق إليه أحد. يقول: "فلا يحتاج إلى تعزية تُسليه، ولا يدعو مُعزّيه إلى تحبير قولٍ يعزّيه"⁽³⁾. ويدعو الكاتب للمعزّي بأن يجعلها خاتمة أحزانه على غرار ما كان يُعبّر عنه الكتاب في خواتم رسائل التعازي.

وإلى جانب رسالة الفاضل، نقف عند رسالة ابن الأثير التي كتبها إلى أحد الأصدقاء يعزّيه بولد صغير مات له، والكاتب في هذه الرسالة يتدرج إلى التهوين من مُصاب صديقه إلى إقناعه بفضيلة الصبر والاحتساب، إلى أن يصل التدرج منتهاه إلى دعوته، إلى شكر الله في السراء والضراء.

ويُعزّض الكاتب في ثنايا الرسالة بالدنيا فهي إلى فناء، وإن طال عمر الإنسان فيها، وغرته بزخرفها وشهواتها. ثم يتحول كاتب الرسالة بعد هذه الفاتحة إلى تصوير أثر المصيبة في نفسه، ويجعل نفسه شريكاً لصديقه في هذه المحنة. يقول: "كلا والله، بل هو شريك في ألم الفجع، كما هو شريك في ردّ المفجوع، وليس قلبه إلا من تلك القلوب، ولا دمة إلا من تلك الدموع، ومن أولى منه بالحزن على فقيد أوحشت له السماء من شمسها، والأرض من أنسها"⁽⁴⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بالدعاء لصديقه، وهو دعاء ينبثق من الأجواء العامة للمصيبة التي مُني بها صديقه، وتجري بعض جمل هذا الدعاء على هذا النحو. يقول: "والله تعالى يعقب سيدنا منه خلفاً"⁽⁵⁾. ويبيدي الكاتب عقب الدعاء لصديقه اعتذاره الشديد؛ لأنه كان مقصراً تجاه صديقه المصاب، فرسالة

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 193.

⁽²⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 80/9.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 210.

⁽⁴⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 166-167.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 167.

العزاء، وصلاة الغائب على المتوفى لا تكفي، بل من الواجب عليه لقاء صديقه، وتقديم حسن العزاء له، ومواساته⁽¹⁾.

5- وإذا تركنا باب التعزية بالأبناء، وقفنا عند رسائل التعزية بالبنات، وهذا يدل على المكانة التي وصلت إليها المرأة في ذلك العصر. ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى صديق له يعزيه ببنات له توفيت، ويدعو الكاتب في تعزيتة لصديقه بطول العمر والبقاء، ويدعوه إلى الصبر والاحتساب، والرضا بالقضاء والقدر، ثم ينتقل إلى الحديث عن مكانة الفتاة المتوفاة، ويذكر عددا من صفاتها، وهي صفات إيجابية تتمثل في حسن السمعة، وأصالة النسب، والعفة والطهارة، وهي من الصفات التي تدفع الكاتب إلى التعزية بها. يقول: "ولو كانت في الأعصار السالفة لما وئدت من النساء موعودة، وقد قضى لها شرف النجار، وطهارة الإزار، أن تُندب في المجالس، كما تندب في المآتم"⁽²⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بمواساة صديقه، ودعوته إلى التسليم لأمر الله عز وجل، والصبر على المصيبة واحتسابها، راجيا من الله الثواب لصديقه⁽³⁾.

6- وإضافة إلى الألوان السابقة من التعازي ثمة لون آخر يتناول التعزية بالزوجات، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير في التعزية بوفاة زوجة وولدها. ويستهل الكاتب رسالته بحالة من الذهول والفرع حيث تنامي إلى سمعه مصيبتان. الأولى وفاة الزوجة، ثم أتبع وفاتها وفاة طفل صغير، وما صادف ذلك من انصداع قلب الكاتب، واشتعاله بنار الحسرة والألم. يقول: "أشجى التعازي ما أتبع فيه المفقود بمفقود، لا سيما إذا جمع بين سعد الأخبية"⁽⁴⁾، وسعد السعود⁽⁵⁾، يلقي عن الرؤوس تيجانا، ولم يوفهما حقهما من بكى ولا ندب"⁽⁶⁾. ثم تبدأ نفسية الكاتب بالهدوء، ومحاولة التخفيف عن الملك، وتسليته بمصابه، وتقديم العزاء له، ويأخذ ابن الأثير في الترحم على الميتين، والدعاء لهما بحسن العاقبة وطيب المنقلب. والرسالة تزخر بمعان عميقة تشي بقدرة الكاتب على تطويع الألفاظ، وابتداع صور من المقابلات الطريفة تجسد رهبة الموت ومنغصاته من مثل قوله: "وقد نزل بمنزل عديم الإيناس، وإن كان مأهولا بأكثر الناس، فهو القريب دارا، البعيد مزارا"⁽⁷⁾.

وفي نهاية الرسالة يقدم الكاتب رغبته في المسير إلى صديقه لتقديم العزاء له عن كُتب، بيد أن بُعد المسافة حال دون تلك الرغبة التي تمنّاها الكاتب مكتفيا بالرسول الذي ينوب عنه والكتاب⁽⁸⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 167.

(2) المصدر نفسه: 142.

(3) المصدر نفسه: 143.

(4) كناية عن المرأة، وهو اسم منزلة من منازل القمر، والأخبية جمع "خباء" ومن شأن المرأة أن تحتجب في الأخبية فهي سعداء.

(5) كناية عن ولدها الصغير، وهو اسم منزلة من منازل القمر.

(6) المثل السائر - ابن الأثير: 329/1.

(7) المصدر نفسه: 329/1.

(8) المصدر نفسه: 330/1.

7- وقد لفت انتباه الباحثة وجود عددٍ من التعازي العامة التي لم تختص بأي لون من الألوان السابقة، وهي تدور في إطار ألوان التعازي التي سبق أن تناولتها الباحثة، وقد برز هذا بشكل واضح في رسائل القاضي الفاضل، وسأقف عند رسالة من رسائله، وهي رسالة قصيرة تدور حول فكرة قضاء الله، ونفاذ إرادته في العباد، وهي فكرة يُفصح عنها الكاتب حين يقول: "ولو سلم من الحمام ملك مُقَرَّبٌ، أو نبيٍّ مرسل، لكان أجدر بالبقاء سيد الأولين، والآخرين"⁽¹⁾. وهكذا تعرض الرسالة الفكرة من وجهين: أولهما أن قضاء الله وحكمه نافذ في أمر العباد، لا يسلم منه صغير أو كبير، نبي أو ملك، فكلهم يخضع لقضاء الله وحكمته، وثانيهما: أن قضاء الله إذا وقع، فينبغي على العباد الصبر والإذعان لقضاء الله. ويختتم رسالته بالدعاء للمصاب بأن يلهمه الصبر والسلوان، وأن يجعل هذه المصيبة خاتمة أحزانه. يقول: "والله تعالى يجعل هذا الرزء خاتمة أحزانه ونهاية امتحانه، وتستجيب منا فيه صالح الدعاء، وأطنب الحمد والثناء"⁽²⁾.

وبالمثل كانوا يلتفتون عند الإجابة عن التعازي إلى أقدار المخاطبين ومراتبهم، وكانت مادة رسالة التعزية تتخذ أساساً ينطلق منه الكتاب في إقامة الجواب، ويتحدث صاحب مواد البيان، عن طريقة كتاب ذلك العصر في بناء أجوبة التعازي قائلاً: "أجوبة التعازي يجب أن تُبنى على وقوف المعزّي على كتاب المعزّي، وأن إرشاده نفع غلته، ووعظه نفع علته، وتبصيره سَكَن أواره، وعمل بالحكم مقتدياً بمذهبه، وغالب الرزء بالعزم، وأخذ فيه بالحزم، وسأل الله تعالى أن يُحسّن له العوض في ردّه، ويجعله له خلفاً مما أصيب بفقده"⁽³⁾.

ومن الجدير قوله إن المصادر قصرت في إمداد الباحثة برسائل كتبت في التعزية بالأقارب كالأمهات، والأجداد، والعمات، والأخوال، والخالات التي كانت من الممكن أن تشكل سلسلة من الشراء ينضاف إلى الأنواع السابقة، وربما صارت هذه الرسائل إلى ضياع شأنها شأن رسائل هذا العصر.

* الشوق والحنين

يمتاز هذا اللون من الرسائل الإخوانية بالتعبير عما يكابده الإخوان والأصدقاء من شوق وحنين إلى لقاء بعضهم بعضاً، وبخاصة من بُعد بهم المكان عن الخلان، وأتراب الصبّاء، وأصحاب الفضل. وكانت رسائل الشوق على درجة من الصدق في العواطف؛ ولذلك أخذ الكتاب في كتابتها "مأخذاً من اللطافة والرقّة، يدل على تمازج الأرواح، وائتلاف القلوب، واستخدموا لها أعذب لفظ، وألطف معنى، وذهبوا فيها مذهب الإيجاز والاختصار؛ تجنباً للملق والتكلف"⁽⁴⁾.

والمعاني التي تدور في فلكها رسائل الشوق، تشمل الحديث عن لواجع الشوق، ومرارة الفراق

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 155.

(2) المصدر نفسه: 155.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 605. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 89/9.

(4) مواد البيان - علي بن خلف: 608، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 204/9.

للإخوان والأحبة، والتأسف على انقضاء الأيام الخوالي، وتمني عودتها، كما أنها كانت تعرب عما يحمله الكتاب في نفوسهم من نقاء السريرة، وحسن المودة لإخوانهم.

وكان الكتاب يركزون في رسائلهم على تصوير الألم والمعاناة اللذين كابدهما نتيجة لفراق أحبّتهم. ولما كان من الصّعب إيجاد حدود فاصلة بين أكثر الرسائل المكتوبة في هذا المضمار، ارتأت الباحثة أن تدرسها بالنظر إلى كتابها، وهي طريقة تسهل على الباحثة تناول أبرز جوانبها ومن تلك الرسائل:

1- الشوق إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، ومنها رسالة الفاضل إلى أحد مشايخ مكة بعد رجوعه من الحج سنة 574هـ: "سقى الله الحجاز وحياً كعبته، ويا طول ما ترشّفتني سهام الشوق الذي أصبح الذكر جَعْبَةً، آهاً على تلك المواقف، وتباً لمن رضي أن يكون مع الخوالف"⁽¹⁾.

فالكاتب لا يملك إلا الإقرار بعظيم شوقه إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، وهو شوق يبعث في نفسه الأمل، والرجاء بالعودة إلى تلك الأماكن الطاهرة، ولا يجد في سبيل التعبير عن مدى شوقه وحنينه إلى تلك الأماكن أنسب من هذين البيتين اللذين كتبهما الفاضل، وقد صور فيهما شوقه وحنينه. يقول: "آها عليها ليال ما تركن لنا عسى الرياح إذا سارت مبلغة توفي قد غدر الأحباب بالدمم"⁽²⁾

2- ويأخذ العماد الأصفهاني وجهة مغايرة، إذ يبدي شغفا شديداً إلى لقاء صديقه القاضي الفاضل، والأنس بقربه، مبدياً تلطفه في إبداء العذر عن تقضيله مصر على الشام، فالرسالة تمثل أسلوب المجاملة بين الأصدقاء في ذلك العصر، إذ يبدي العماد بها أعداره، ويلتمس العفو من صديقه طالبا رفع العتب، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. يقول: "فقيم معاودة العتاب، ومواعدة العقاب، وحاشا لبيت بناه فضله من الخراب، فإن بيت المملوك من كنف المولى عال، وسعره في سوم سموه غال، ولا يشك في أن العذر قبل، والذعر قتل، والذنب الفاسد ذاب، والخبُّ الحاسر خاب، والعبد هفا، والسيد عفا"⁽³⁾. معتمداً في ذلك كله على التلاعب بالألفاظ، وتكرارها.

3- ويبدو الناصر داود شديد التلطف في شوقه إلى صديقه "المنصور شيركوه"⁽⁴⁾. فالرسالة تعبر عن إحساس الكاتب تجاه صديقه، وقد بدأها بأبيات من نظمه تصور حُرقة الشوق التي ذاقها جراء فراقه لصديقه، والآثار الناجمة عن هذا الفراق. ويؤكد هذه الحقيقة في ثنايا الرسالة، فهو يصور ما أصابه من أحوال متقلبة حين فراقه يقول: "المملوك يقبل خدمة متى تذكرها فاضت عبراته، وتوالت حسراته، وكيف لا، وقد فارق مالك رقه، وسويداء قلبه، وإنسان عينه، وبدر ليله، ويشكو إلى مولاه ما

⁽¹⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 25/3.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 25/3.

⁽³⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 140/3-141.

⁽⁴⁾ هو الملك المنصور، صاحب حمص، واسمه إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه. مات بدمشق سنة 644هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 178، النجوم الزاهرة: 356/6.

لقي بعده من توالي أرقه، وتواتر قلقه، وتوحّشته حتى من الصديق الحميم، ونفوره حتى من الملك العقيم⁽¹⁾. ويدعو الكاتب في آخر رسالته الله - عز شأنه - أن يجمع شمله بصديقه بعد الفراق الذي أبعدهما⁽²⁾.

4- وتطالعنا رسالة الفاضل التي كتبها متشوقاً إلى صلاح الدين، يقول: "المملوك يقبل الأرض، وينتهي أنه فارقه وصبره غير مفارق، واستصحب نيرانا من الأشواق متأججة، ولواعج من الوجد مزعجة"⁽³⁾. وهذه الرسالة الموجزة تقوم على صورة تشف عن إحساس الكاتب، وتصور لهفته وشوقه إلى لقاء حبيبته ومولاه، معتمداً في تصوير هذا الشوق على القصص القرآني، فهو يربط بين لهفته لتسلم كتاب مولاه، وبين لهفة يعقوب عليه السلام على قميص يوسف - عليه السلام - يقول: "وصل الكتاب الشريف فأدرك به غاية الحريص، وكان كييعقوب إذ بشر بالقميص"⁽⁴⁾.

ويدعو الكاتب في آخر رسالته أن يجمع الله شمله بمولاه وأن يديم عليه الصحة والعافية.

* العتاب

أما رسائل العتاب فإنها تعبر عن علاقة الأفراد بعضهم ببعض الآخر، فالعتاب لا يكون إلا بين من جمعتهم علاقة مودة، وإن فترت تلك العلاقة، أو كانت هناك جفوة أو قطيعة، إلا أن الحرص على المودة والصداقة هو الدافع لكتابة مثل هذه الرسائل⁽⁵⁾. والمكاتبة بالمعاتبة كما يقول صاحب مواد البيان: "يجب أن تستوفي شروطها، وتكمل أقسامها؛ لأن ترخيص الصديق في المقاطعة والمصارمة دال على ضعف الاعتقاد، واستحالة الوداد"⁽⁶⁾.

وفي ضوء استقرار النصوص المتاحة لي، تبين أن هذا الغرض من الرسائل اتسم بالإيجاز وبعدوية اللفظ وجمال العبارة، كما اتسم بقلته. ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى:

1- رسالة الفاضل التي كتبها إلى أحد أصدقائه يعاتبه فيها على انقطاع رسائله، فالكاتب يعاتب صديقه تارةً، ويتشوق إليه تارة أخرى، وواضح أن هذه المعاتبة المشحونة بالشوق تلبست ثوب الرجاء، فهو حريص على بقاء صلته بصديقه قائمة، على الرغم مما يقف عثرة في طريقها، يقول: "على أن القلب يستلذ والله بعتابه، ولكن لا إلى هذا الحد، والمحب يهوى التجني، ولكن بحيث لا يبلغ إلى الصد"⁽⁷⁾.

وتتجلى في هذه الرسالة فكرة إخلاص المودة، وهي فكرة تقوم على أساس احتفاظ الكاتب بمودته تجاه صديقه؛ لأنه مهما طالت الوحشة بين الصديقين، فلا بد أن يعود الود والصفاء إلى سابق

(1) الفوائد الجلية - الناصر داود: 114-115.

(2) المصدر نفسه: 115.

(3) الدر النظيم - اختيار محي الدين بن عبد الظاهر: 58.

(4) المصدر نفسه: 58.

(5) نقد الشر في تراث العرب النقدي - نبيل رباح: 279.

(6) مواد البيان - على بن خلف: 624. وينظر صبح الأعشى - القلقشندي: 189/9.

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 19.

عهدهما، ويزول الجفاء، وهو ما كان ينظر إليه الفاضل بعين الأمل والرجاء. يقول: "فليجر على عادته المشكورة وخليقته المشهورة وليؤنسنا بمتجدداته، وليطالعنا بمقترحاته، وملتمساته إن شاء الله" (1).

2- ويضعنا ابن الأثير أمام رسالة جاءت جواباً عن عتاب، وهي معاتبة تطفح بشدة شوقه إلى صديقه، يقول: "ولا شبهة في أن كتب الأحبة أحبة لا مغبة. وكم في قطرات الأقلام من شفاء لغيليل الأوام، إلا أن هذا الكتاب ورد في عطفه ازورار الصدور، وعلى وجهه قطوب العتاب الذي يظهر في ديباجة السطور" (2).

وواضح أن هذه المعاتبة المقترنة بالشوق تلبست ثوب الاستعطاف، ولكنه استعطاف ينم عن أمل الكاتب في وصل حبال المودة مع صديقه.

وتتجلى في هذه الرسالة فكرة إخلاص المودة، وهي فكرة تقوم على أساس احتفاظ الكاتب بمودته تجاه صديقه، مهما ساءت العلاقة الحميمة بينهما؛ وطال سوء الفهم بينهما، فلا بد أن تعود إليهما المودة. يقول: "فرققاً يا مولاي رفقا، والعتاب إذا طرق المودة صار طرقة على أن ضرب الحبيب كما يقال زبيب، ولربما ظن أني أرميه كما رمى، وأبسط إليه بالقول يدا وفما" (3). وفي خاتمة الرسالة يطلب الكاتب من صديقه ألا يزيد في المجافة، وأن يجمع شمله في أقرب وقت.

وهكذا عبر هذا اللون من الرسائل عن العلاقات الشخصية الخاصة بين أفراد المجتمع في ذلك العصر، وكشفت عما يعانيه الكاتب من التلهف والنزاع إلى الاجتماع بالأحبة والخلان.

* الشكوى

هي من موضوعات الرسائل الإخوانية يمس شغاف القلوب، ويعبر عن حالة التصدع والتوجع التي تعانيها النفس الإنسانية من جراء إصابتها بالمصائب والنوازل. وقد عبّر الكاتب في رسائلهم عما يجول بخواطرهم، وخواطر من يكتبون عنهم من أجل التنفيس والتخفيف عن أنفسهم. ومن هنا برزت رسائل الشكوى، وتعددت مضامينها بتعدد المصائب والنوازل. وتدور رسائل الشكوى حول معان مشتركة يحتذيها الكاتب، من وصف لحال الشاكي، وما يعانيه من قسوة الدهر وتقلبه عليه وفساد أهله، وتغير عاداتهم وأخلاقهم ونحو ذلك.

وكانت طبيعة الكتابة الجارية في هذا النوع من الرسائل الإخوانية "أن تكون مبنية على صفة الحال المشكية على ما يوجب المشاركة فيها، ويقضي بالمساعدة إن استدعيت عليها من غير إغراق يفضي إلى تظلم الأقدار وإحباط الأجر، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه، والتسليم إليه، والرضى بأحكامه" (4). وأول الموضوعات التي طرقتها رسائل الشكوى:

(1) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 19.

(2) رسائل ابن الأثير- تحقيق أنيس المقدسي: 307.

(3) المصدر نفسه: 308.

(4) مواد البيان- علي بن خلف: 617. ينظر: صبح الأعشى- الفلقشندي: 173/9.

1- ما كان ينشئه الكتاب شكاية من الزمان وأهله، فقد أفاض الكتاب في الحملة على الدهر، فوصفه بالغدر والخيانة، ويمكن للدارس أن يتمثل هنا برسالة ابن الأثير التي كتبها إلى بعض الفضلاء تتضمن شكوى الزمان في تقلب حالاته، واتضاع ولاته. ويستهل رسالته مصورا حاله عندما أخذ يسطر هذه الكلمات، شاكيا لصديقه ما يجده من تقلب الدهر وصروفه، وشكوى الكاتب تعبر عن الحالة النفسية الصعبة التي يمر بها بحيث لا يقدر معها على اتخاذ قرارات صحيحة في حياته، يقول: "حتى جاءتته سطورها مغضبة، وألفاظها متعبة، فلم أرَ إلا من أدمته الأيام بكلمها، وهزمته بجيوش همومها"⁽¹⁾.

ويرسم الكاتب صورتين متناقضتين لأخلاق الناس، الأولى ما كان يتمتع به الناس في الزمان الماضي من أخلاق وفضائل ومآثر، وكأنه يقصد من ذلك بيان التغير الذي طرأ على أخلاق أهل المجتمع الذي يعيش فيه، وهو يُعبر في ذلك عن تجربة شخصية عاينها بنفسه، يقول: "وقد أضى الناس وملوكهم طغام. لم ترضهم فطرة سليمة، ولا هذبهم عقول كريمة، فهم بكم الأديان، عجم الألسنة والأذهان"⁽²⁾. وهكذا يصور ابن الأثير بعض ملامح التحول في العادات والأخلاق، فأصبح ما كان محمودا مذموماً، وأصبحت الخصال الحميدة تجرّ على أصحابها السوء، فأضحت المناصب تجارة، والكرم والجود خسارة.

وإذا كان ابن الأثير استطاع أن يعبر عن مدى التناقض بين زمانين متضادين في الأعراف والتقاليد، فإنه يدخل ذلك مدخل الشكوى الصريحة من الزمان الذي عاش فيه، وكأنه يشير بطريقة خفية إلى بغي الزمان عليه، على الرغم من توافر المؤهلات التي تؤهله كي يحظى بمنزلة رفيعة، بيد أن تبدل الزمان عليه سرق منه ما كان يطمح إليه. يقول: "كأنهم يرعون من الناس غنما، ويعبدون من عوائدهم في الجاهلية صنما، ومن محاسن شيمهم أنهم يعتدون بالإمارة تجارة، ويرون فضيلة الجودة خسارة، ويهون عليهم إنفاق الأعمار في جمع الدرهم والدينار"⁽³⁾.

ويبدو أن الشكوى من الزمان اتخذت شكلا خاصا، وأن معالم هذا الشكل كانت تركز على الموازنة بين ما كان عليه أصحاب الزمان السابق، وما صار إليه أصحاب الزمان اللاحق.

2- وثمة موضوع آخر هو الشكوى من المرض، وقد ورد هذا اللون في رسائل الفاضل، فقد دارت رسائل الشكوى عنده في فلك واحد لا تتعداه، وهي الشكوى من المرض. وتعد رسالة الفاضل في الشكوى من مرض النقرس، ووجع المفاصل خير مثال على هذا المنحى. يقول: "وما كنت أدري ما قيد الحياة، حتى قيدتني المفاصل بوجعها، وعلة النقرس بتسفلها وترفعها، وأنا الآن في ضد الحياة إحساساً، ولا بس جسم قد كرهته للنفس لباساً"⁽⁴⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 89.

(2) المصدر نفسه: 89.

(3) المصدر نفسه: 90.

(4) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة: 41. ينظر: المختار من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 55-56.

والناظر في الرسالة لا يسعه إلا أن يلاحظ استغراق الكاتب في تصوير أوصابه وآلامه، وما تجرعه من غصص حتى أصبح لا يشعر بقيمة الحياة وطعمها.

ويتكئ الكاتب في تصوير علته على توظيف المادة الشعرية المناسبة مع صرف النظر عن عصرها، فقد أورد الكاتب شطراً واحداً من بيت زهير بن أبي سلمى وأدرجه في ثانيا كلامه، حتى يبدو جزءاً مكتملاً في السياق. يقول في معرض حديثه عن وجع المفاصل: "فأعضائي قد رابتني بعد صحة، وصارت لما يمر عليها من أيدي الراقين والذاكرين كأنها خرزات سبحة، ولقد سئمت تكاليف الحياة⁽¹⁾، وسهلت علي تخاويل الوفاة"⁽²⁾.

3- ومن ألوان الشكوى في مضمار الرسائل ما يتصل بانحباس مورد الرزق المفضي إلى حاجة ماسة، وهذا المنحى من الرسائل يتراوح بين الشكوى من جهة، والاستمناع من جهة أخرى، أما الشكوى فمن أجل الحصول على العطاء والمساعدة، وأما الاستمناع، فمن أجل تحريك عواطف المستماع وإثارة مشاعره، حتى يندفع إلى تقديم يد العون إلى السائل، لا سيما إن كانت به ضائقة. ومن الأمثلة التي تقف شاهداً على هذا المنحى من الرسائل ما كتبه ابن الأثير في شخص من أصحاب الملك الأفضل تتضمن شكوى حاله إليه، وهو يمهد الطريق إلى طلب المعروف بالثناء على المخاطب، والإشادة بكرمه الواسع. يقول: "وقد أفاض مولانا جوده على الناس حتى نهلوا وعلّوا، وعوّدهم من كرمه أنه لا يملّ حتى يملّوا"⁽³⁾.

ويتحول الكاتب بعد هذا الإطراء إلى وصف حالة الشاكي، فقد أصابه العوز، فلم يكن في وسعه إلا الوقوف أمام الباب العزيز ليسد فقره، وكيفيه المؤونة، ويصون وجهه عن ذل السؤال⁽⁴⁾.

4- ومن ضروب الشكوى، ما يتصل بالمكان كالإقامة في بلد لا يوافق هوى في النفس، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى بعض الإخوان، يشكو إليه قسوة الطبيعة في حصن صرخد⁽⁵⁾.

فقد كان الكاتب شديد الضيق من جو الحصون الجبلية، فهو يشكو بؤس صرخد، وقلة خيرها، وشؤم طيرها، وما أؤذي به من مطرها وبردها، واحتجاب الشمس، وانحجاز الناس في بيوتهم كاليرابيع، كلها أمور وأحوال، تبعث الضيق في نفس الكاتب، فنراه يجأ بالشكوى. يقول: "وقد عدّلت الآن عن شكوى الزمن المليم إلى شكوى المكان الذي أنا به مقيم، وكيف لا أشكو أرضاً منيت بقلّة خيرها، وشؤم طيرها، فلا يوجد بها جار إلا البوم، ولا زادٌ إلا الهموم"⁽⁶⁾.

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى - تحقيق فخر الدين قباوة: 25.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 41، المختار من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 55-56.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 142.

(4) المصدر نفسه: 143.

(5) هي قلعة حصينة من أعمال دمشق، أعطاهها الناصر صلاح الدين لولده الأفضل، ثم أعطاهها الملك العادل إلى عز الدين أيبك المعظمي من 608هـ -

644هـ. ينظر: الأعلام الخطيرة: 55-59-60.

(6) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 118.

5- وثمة لون طريف من رسائل الشكوى، يتضمن **الشكوى من الكتابة** حيث صارت إلى غير أهلها. وتعدّ رسالة ابن الأثير الإخوانية والتي تتضمن شكوى الكتابة الأجدر بالدراسة، فالكاتب يهدف من وراء تلك الرسالة الكشف عن سلبات الكتابة، وضعف الكتاب، وكأنه يسعى من وراء ذلك إلى حث أولي الشأن في الدولة على تعليم الناشئة ضروبا متنوعة من المعارف والعلوم، والآداب ذات الصلة الوثيقة بالكتابة. يقول: "وقد أصبح وكل من نمّق حروف خطه، قال: أنا الكاتب المعلوم، وكلامي هو اللؤلؤ المنظوم، وإذا اعتبرت كتابته لم يوجد لها بين الكتاب مكانة، ولكنه ظهارة على غير بطانة"⁽¹⁾.

ويبدو أن الكاتب كان يهدف من وضع هذا الحديث على لسان الكاتب إلى نقد الكتاب المنحرفين عن أصول الكتابة، مما أفسد جمال العربية، ونصاعة ألفاظها، فلقد عاين الكاتب بنفسه ما طرأ على الكتابة في عصره من ضعف، وهذا ما دعا الكاتب إلى اختراع هذه الشكوى على لسان الكتابة؛ لتكون معبرة تعبيراً دقيقاً عما وصلت إليه. يقول: "وكتّابها قد عدّموا بسطة القلم، وذلاقة اللسان، وهم في العي والخل صنوان وغير صنوان، لا سيما كاتبها اليوم، فإنّه حاطب لا كاتب، وخابط لا خاطب"⁽²⁾.

وتطالعنا في الرسالة بعض الملامح الأسلوبية، فقد استعان الكاتب في تصوير حال الكتابة بالاقتراس من القرآن الكريم، وهو اقتباس يدل على براعة المقتبس في جعل النصّ المقتبس وحده، معبرا عن تصوير حال الكتابة. ومن هذه الشواهد، قول ابن الأثير: "فألفاظه مشحونة بنفرة الأجانب لا بألفة الأتراب، وإذا استنتج من فكره معنى لم يدر أيمسكه على هون أم يدسه في التراب"⁽³⁾⁽⁴⁾.

6- ووجد لون آخر موضوعه **الشكوى من الكبر والمشيب**، فقد شعر بعض الكتاب بوطأة الكبر والمشيب عندما تقدمت بهم السن، فكتبوا رسائل يشكون فيها ما آلت إليه أحوالهم، وضعف قواهم، وتفيض رسالة ابن الأثير التي كتبها إلى بعض إخوانه في تصوير حرقه الشكوى والألم، الذي ذاقه الكاتب بعد أن تقدمت به السن، واضطر إلى حمل العصا، ويصور ما أصابه من الأحوال الصعبة التي كابدها حين تقدمت به السن، وهي أحوال موزعة، منها ما كان مختصا بنفسه، ومنها ما كان متعلقا بيده، وقدمه، ومنها ما كان متصلا بظهره، وهذا التفرق على مجموعة من أعضاء الجسم المهمة، يدل على حجم الأثر الذي تركه الكبر والمشيب في نفس الكاتب. يقول: "فالعصا في يدي أدم بها قلمي، وأهش بها على سنين كثيرة من عمري لا على غنمي، فهي لقوس ظهري وترّ، ولمبدأ ضعفي خبر"⁽⁵⁾.

7- ومن رسائل الشكوى ما كان يتصل **بالأخلاق**، فقد صور الكتاب في رسائلهم ملامح التحول في الأخلاق والعادات مما أدى إلى اختلال واضح في المجتمع، فأصبحت الخصال الحميدة مصدر وبال على صاحبها.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 234.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 234.

⁽³⁾ اقتباس من قوله تعالى: "أيمسكه على هون أم يدسه في التراب" سورة النحل آية: 59.

⁽⁴⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 234.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 234.

ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير يشكو من خلق بعض أصحابه، ويميل الكاتب في هذه الرسالة إلى توظيف بعض اللوحات القرآنية التي تفصح عن هول ما عاناه من صديقه، ففي إشارته إلى قصة الخضر مع موسى-عليه السلام- ما يوحي بضيق الحال التي مُني بها الكاتب "ولقد صَبَرْتُ على أخلاقه العائنة، وعالجته بضروب المعالجات، فلم تتفع فيه رقى الراقية، ولا نفت النافثة، ولما أعيأ علي إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة⁽¹⁾.

وكان الكتاب في هذا اللون من الرسائل يلتفتون إلى أجوبة رسائل الشكوى، وكانت نوعية الشكوى تتخذ أساساً ينطلق منه الكتاب في إقامة الجواب. يقول صاحب مواد البيان: "يجب أن تبنى أجوبة هذه الرقاع على الارتماض في الحال المشكية، والتوجع منها، وبذل الوسع في المعونة عليها، والمشاركة فيها، وما يجري هذا المجرى مما يليق به"⁽²⁾.

وقد وردت في باب الشكوى، رسالة لابن الأثير جواباً على كتاب يتضمن الشكوى من شخص بينه وبين الكاتب خصام، ويبدو واضحاً من خلال الرسالة أن الكاتب يوظف مقدرته الفكرية، وموهبته الفنية في إقناع المخاطب بضرورة نبذ الأحقاد، وهو يشير صراحة إلى دور النفس الأمارة بالسوء التي تلح على إفساد رباط الألفة بين المتحابين، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ويمضي الكاتب في رسم صورة من صور التسامح في المجتمع الإسلامي من خلال دعوته إلى نبذ الفرقة والخصام، والتغاضي عن الهفوات والزلات. ومن أجل تأكيد هذه الصورة يلجأ الكاتب إلى تذكير الشخصين المتخاصمين بفضيلة البادئ بالسلام، وما في هذه البداية من أجر عظيم عند الله. يقول: "وأن الفائز بالأجر هو البادئ بالسلام، ودفع السيئة بالحسنة تجعل العدو ولياً حميماً، وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابراً، وجعل له حظاً عظيماً"⁽³⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بدعوته إلى صديقه بالترفع، والتنزه عن هذه الحماقات التي لا تليق بمثله.

* الاستعطاف

يُعبّر هذا اللون من الرسائل الإخوانية عن الحالة النفسية التي يعيشها المستعطف، ومدى حاجته إلى عفو المخاطب عن جريمة اقترافها، أو تهمة ألصقها الحساد والواشون به. وكانت مادة رسالة الاستعطاف تقوم على كسب ود المخاطب واستمالته، وإزالة سخيمة ما في قلبه من أحقاد حتى يضمن المستعطف عفو المخاطب، يقول صاحب مواد البيان: "المكاتبة في استعطاف الرؤساء، وملاطفة الكبراء، تحتاج إلى حسن تأت، والعادة جارية عندهم إثارة اعتراف الخدام لهم بالتقصير والتفريط، والإخلال بالفروض؛ ليكون لهم في العفو عند الإقرار عارفة توجب شكراً، فأما إذا أقام التابع الحجة على براءته مما رُفِع عنه، فلا يوضع الإحسان إلا إليه، في إقراره على منزلته، والرضا عنه"⁽⁴⁾.

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 127/1.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 618.

(3) رسالة ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 340.

(4) مواد البيان - علي بن خلف: 615، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 165.

وبعد استقراء النصوص التي توافرت بين يدي الباحثة، تبين أن رسائل الاستعطاف كانت تدور في فلكين: الأول إثبات المستعطف براعته مما نسب إليه، وإيراد الحجج التي تثبت بطلانه، وتبين حسن ولائه وانتمائه، وقد يلجأ المستعطف إلى حلف الأيمان، للتدليل على صدقه وبراعته، ولكن تبقى نبذة الاستعطاف واضحة في ثنايا الرسالة، وقد يطلب العفو عن ذنب لم يقترفه كوسيلة للحصول على العفو. ومن الأمثلة البارزة على هذا المنحى من الرسائل، رسائل ابن الأثير الثلاث التي كتبها على لسان الأفضل إلى عمه العادل مستعظفا إياه، وهو يقيمها على تأكيد مودته، وصفاء سريرته لعمه، ويتخذ من أيمانه المغلظة دليلا على حسن نواياه. يقول: "وينهي أن كتابه تقدم مشحونا باليمين التي هي سلاح البريء السليم، وهي تسبيح في لسان الصادق البر، ووبالاً على الكاذب الأثيم، وويل لمن جعل الله عُرْضة ليمينه"⁽¹⁾.

ويتكئ ابن الأثير في استعطاف "الملك العادل" على تذكيره بقرابة "الملك الأفضل" إليه، وما أسداه من خدمات جليلة له، محاولاً بذلك إقناع "الملك العادل" ببراءة ابن أخيه من التهمة الملتصقة به، وهو يعتمد في هذا الصدد إلى استثارة المخاطب ودعوته إلى التثبت من الحقيقة قبل إذاعتها"⁽²⁾. والكاتب يصور الأذى والألم اللذين لحقا مولاه من ظن عمه فيه، وبهذا يعطي البراءة بُعداً أعمق، ويسوق بين يدي عمه أدلة براعته. ويوظف قدراته الفنية والفكرية في إقناع الملك العادل ببراءة مولاه مما نُسب إليه. وهو يشير صراحة إلى دور الوشاة في إفساد أواصر المحبة بين الأقرباء.

ويميضي الكاتب في تأكيد مودة مولاه لعمه وإخلاصه له، ويجعل برهان هذه المودة طلب العفو عن ذنب لم يرتكبه، وما يجمل هذا الطلب في ثناياه من إظهار التذلل والخنوع. يقول: "وكذلك كان رجاءه أنه لو قارف ذنباً لم يلق من مولانا عقاباً، ولا وجد منه عتاباً"⁽³⁾.

ويوظف الكاتب في هذه الرسالة بعض اللامحات القرآنية، كأن يورد الكاتب النصّ المقتبس في معرض مقول القول نفيًا. يقول: "وإنه ليس ممن يقول ذلك من عمل الشيطان، ولا كذلك ألقى السامري"⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

ويلجأ الكاتب في رسالته إلى استدعاء الشخصيات التراثية في محاولة منه تذكير المستعطف بمآثر من سبقه في منح العفو. يقول: "وما ظن أنه أنزل ما فعله بدار مضیعة، ولا زرعة في غير مزرعة، ولمثله غفر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذنب حاطب بن أبي بلتعة"⁽⁶⁾⁽⁷⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 96.

(2) المصدر نفسه: 96.

(3) المصدر نفسه: 97.

(4) إشارة للآية "فقدناها فكذلك ألقى السامري" سورة طه: آية 20.

(5) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 96.

(6) كان شاعرا وفارسا في الجاهلية، أسلم وشهد بدر، وكان قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم، فزلت فيه الآية الكريمة "يأيها

الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء" سورة الممتحنة آية: 1. ينظر: الإصابة: 300.

(7) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 98.

وعلى الرغم من الحجج والبراهين التي قدمها الكاتب دليلاً على براءة مولاه، فإن الرسالة تبرز فيها نبرة الاستعطف بروزا واضحا، وما أنطوى على هذا البروز من إظهار الخنوع والتذلل من أجل كسب ود المستعطف، والحصول على رضائه.

أما النوع الثاني: فتطالعنا به رسالة استعطف للفاضل يطلب فيها العفو والصفح من إنسان لا يخاف بطشه، وإنما يخاف على ذهاب وده وصدافته لصالح الدين، فقد كتب رسالة إليه يطلب منه العفو والصفح عن تقصيره تجاهه. يقول: "وهو متطامن الرأس من الحياء، مطرق الطرف من سوء أدبه في قلة الوفاء، منحصر اللسان إلا عن الدعاء"⁽¹⁾.

ومن الملاحظ على الرسالة أن الكاتب أطل فيها الدعاء والثناء على مولاه، وأوجز في الاستعطف إيجازاً شديداً. يقول: "فالمملوك يهفو والمولى يعفو ويصفح، عندها يحيد العبد عن سنن العبودية ويجنح"⁽²⁾. وألفاظ الرسالة كلها يشيع فيها الحب والود لصالح الدين.

* الاعتذار

تُعد رسائل الاعتذار من أبرز الرسائل الإخوانية التي صورت جانباً من جوانب العلاقات الشخصية بين الأفراد في ذلك المجتمع، فالاعتذار صورة من صور المودة، ورمز من رموز الوفاء بين الناس. وقد شهدت رسائل الاعتذار تطوراً ملحوظاً عبر العصور، فبعد أن كان هذا الفن مقصوراً على الشعر وحده، أصبح النثر قادراً على حمل معانيه، والتعبير عنه تعبيراً يضاهي الشعر في كثير من الأحيان. وقد سمت رسائل الاعتذار بطوايع وسمات فنية لافتة، فقد لوحظ أن هذا اللون من المراسلات ينحو منحى المجاملة والملاطفة في ألفاظه من أجل كسب عطف المخاطب ووده؛ حتى يقبل عذراً، أو يتجاوز عن جريرة، أو زلة، بما يفضي إلى إزالة الأحقاد والضغائن، وكسب المحبة والمودة. يقول صاحب مواد البيان: "وينبغي للكاتب أن يستعمل فيها فكره، ويوفيهما حقها من جودة الترتيب، واستيفاء المعاني، وأن يذهب إلى الألفاظ الجامعة لمعاني العذر الملوحة بالبراءة مما قُرف به، وما يتبع هذا من التصل والاعتذار الذي يسلب السخائم من القلوب، ويستنزل الأوغار"⁽³⁾ من الصدور، ويُطلع الأنس وقد غرب، ولها موقع في تأليف الكلام"⁽⁴⁾.

وهذه الرسائل كانت تدور حول معانٍ مشتركة، تنحصر عادة في الحديث عن طبيعة العلاقة الشخصية التي تربط الكاتب بالمخاطب، وهي علاقة تقوم على الحب والمودة، وتتطرق هذه الرسائل عادة إلى التنويه، والإشادة بالمخاطب، وحسن الثناء عليه، تمهيداً لاستعطافه، وطلب رضاه وعفوه، من خلال إقرار المعتذر بذنبه حيناً، وتقديم العذر حيناً آخر. ويغلف الرسائل أمل المعتذر قبول المخاطب عذره، والتجاوز عن إساءته.

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 237.

(2) المصدر نفسه: 238.

(3) الأوغار: مفرداً وغر وهي الأحقاد والضغائن. لسان العرب - مادة: وغر.

(4) مواد البيان - علي بن خلف: 615، وينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 165/9.

ويبدو أن رسائل الاعتذار تنوعت تنوعاً واضحاً، ولكن ما وصل إلينا من رسائل يقصر عن هذا التنوع، فقد قصرت المصادر في إمدادنا برسائل وفيرة كتبت في الأغراض المتنوعة لرسائل الاعتذار، ومما وصل إلينا من رسائل اختص بالاعتذار عن انقطاع المكاتبات، أو الاعتذار عن تفضيل البلدان، ومنها ما اختص في الاعتذار عن مفارقة خدمة أمير، والتلطف في العودة إلى خدمته، ومنها ما اختص بالاعتذار عن التباطؤ في لقاء السلطان.

1- وأستهل رسائل الاعتذار في ما اختص بالاعتذار عن تفضيل البلدان، كما في رسالة العماد الأصفهاني التي اعتذر فيها للفاضل، وقد عاتبه الأخير على تفضيل الشام على مصر، يقول العماد في رسالته رداً على معاتبة الفاضل له: "وما كتبت ما كتبت في تقييد الشام سأمًا من بلد السأم، بل بأمر السلطان أذكر فضيلة هذه البلاد، وميزها بقرب مسافة الجهاد، فلا وجه للتغضب، ونسبته إلى التعصب بالتعصب"⁽¹⁾.

ويبدو جلياً أن الكاتب يُدخل اعتذاره مدخل التنصل، فهو يحتج لتفضيل الشام على مصر، ويتمثل هذا الاحتجاج في أن الكاتب امتثل لأمر السلطان الناصر في ذكر فضائل الشام. وقد حاول الكاتب في تنصله أن يُصِف نفسه من خلال بيان مسوغاته في تفضيل الشام على مصر.

2- ومن بين الموضوعات التي طرقتها رسائل الاعتذار ما كان ينشئه بعض الكتاب اعتذاراً عن مفارقة خدمة أمير، ثم التلطف في العودة إلى خدمته، ومثال ذلك رسالة ابن الأثير إلى الأمير "مجاهد الدين قايمار"⁽²⁾ أمير الموصل، وقد اعتذر فيها عن مفارقتها إياه، ثم تلطفه في العودة إليه. والكاتب في رسالته -كما يبدو واضحاً- ينحو على نفسه بالتقصير في مفارقتها الأمير، ولا يُعفي نفسه من الذنب، لكنه يحاول أن يجد مسوغاً يستند إليه، فيجعل من الصعوبات والمشاق التي واجهها في رحلته من دمشق إلى الموصل وسيلة بين يدي اعتذاره، متكئاً على ما يتمتع به صاحب الموصل من السماحة وحسن الخلق، وعلى العلاقة الوطيدة التي تربط الكاتب بالمخاطب مما يسوغ قبول العذر، والإعفاء من التقصير. والكاتب في هذه الرسالة يحاول أن يستثمر قدراته اللغوية في إقناع صاحب الموصل بضرورة العفو عنه، من خلال اعترافه بذنبه؛ لأن الاعتراف بالذنب أوقع في قبول العذر. يقول: "ولئن أذنب في بُعد عن الخدمة، فقد نابت الأيام عن مولانا في عقابه، وأعلمته أن الخيرة له في أيامه، إلا أنها لم تعلمه الجرم بعد الإيلاء، ولا أرتته نور الصواب إلا بعد عثرات الإيلاء، ويكفيه عقاباً ما لقي في هذه الطريق التي كانت كصعبة ركبتها"⁽³⁾.

وفي نهاية الرسالة يفصح الكاتب عن مدى الشوق الذي يكابده تجاه صاحب الموصل، وما يمكنه من مودة وصفاء نحوه.

(1) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 142/3.

(2) صاحب الموصل، سكن قلعتها، كان المبارك بن الأثير كاتباً بين يديه، وضيء الدين بن الأثير، اتصل به من الشعراء سبط بن التعاويذي. توفي سنة 595هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 14، وفيات الأعيان: 82/4، مفرج الكروب: 153/2، النجوم الزاهرة: 144/6.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي ونوري القيسي: 102.

3- وبالمثل طرقت الرسائل موضوع الاعتذار عن التباطؤ في لقاء السلطان، ومنها رسالة الفاضل إلى صلاح الدين يعتذر فيها عن تباطؤه للقاء مولاه في الديار المصرية. يقول: "هذه الخدمة صادرة إلى المجلس، مقصورة على وصول الخادم إلى الديار المصرية، وذكر تأسفه على ما فاتته من سامي فخر رؤيته العلية، وطامى بحر رؤيته الهنية"⁽¹⁾.

والكاتب هنا -كما يبدو واضحا- ينحو على نفسه بالنقصير في التخلف عن لقاء مولاه، ولا يعفي نفسه من الذنب، لكنه يحاول أن يجد مسوغا يستند إليه فيجعل انهماكه في الأعمال الكثيرة وسيلة بين يدي اعتذاره متكلا على ما يربطه بمولاه من مودة تجعله يقبل العذر بالإضافة إلى أن قدرة الله حالت دون لقائه. يقول: "لكن الأقدار لا تدافع، والأفضية لا تمنع، ومن حكم الله أنه عن إلفه بائن، والقدر الكائن لا شك كائن، بل اعتماد الخادم الاعتزاء إلى حسن العزاء، وإن كل الصبر وقل، فاتكاله بعد الله على قوة حاشد اللقاء، وإن كان حسن التأني قد دل"⁽²⁾.

ومن أجل أن يجد عذر الكاتب صدق في نفس مولاه، وحتى تقر عينه، فإنه يرسل إليه هدية تقوم بالعذر عند السلطان، فهي دليل المحبة. يقول: "والمجلس السامي يحيط علمه بأن الخادم سطرها في حال وصوله ليقوم بالعذر عما يصحبها من الهدية التي هي هادية إلى سبيل التشريف لازمة لازمة"⁽³⁾⁽⁴⁾.

4- ووجد لون آخر موضوعه الاعتذار عن انقطاع المكاتبات، ذلك أن المكاتبات بين الإخوان، والأصدقاء من رموز المودة والمحبة، وإهمالها أماره من أمارات الجفاء وعدم الرضى عن الطرف الآخر، ولا شك أن ما يعتريها من فتور أو بطء يدعو إلى إيداء العذر؛ حفاظا على المودة، يقول ابن الأثير في رسالته إلى بعض الإخوان معتذرا عن انقطاع كتبه: "وليس مطلوبها إلا قبول اعتذارها في تراخي مزارها، ومن شأن الصديق أن يقبل عذر أخيه، ولو كان ضعيفا، وأن يكون بمدارة ودّه لطيفا"⁽⁵⁾. فالكاتب يبدي اعتذاره عن انقطاعه فيما كان متعارفا عليه من مراسلة صديقه، والسؤال عنه، ولكنه في الوقت ذاته يلوم صديقه في مجافاته له، حيث وقف له موقف الند والنظير في المعاملة، وكأنه يوجب على صديقه إيداء العذر كما أوجبه على نفسه، وليس من شك في أن معرفة كل منهما بخطئه يزيل أسباب الجفاء، والضعينة بينهما. ويطلب في نهاية الرسالة من صديقه العفو، لأنها أدوم لصفاء القلوب، واستمرار المودة⁽⁶⁾.

* رسائل الشكر

ولا تأتي هذه الرسائل ابتداءً، بل جوابا عن رسالة من أحد الأصدقاء، أو الأعيان في المناسبات الاجتماعية المختلفة كالتهنئة والتعزية والهدية والاعتذار وغيرها. وكانت طرائق الكتابة الجارية في هذا

⁽¹⁾ الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 42.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 43.

⁽³⁾ أي ثابتة.

⁽⁴⁾ الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 43.

⁽⁵⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 124.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 125.

النوع من الرسائل " أن يفتن فيها، ويقرب معانيها، وينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطها بالقلوب؛ لتستيقن نفس المتفضل أنه قد اجتني ثمرة تفضله، ولا بدّ فيها من الثناء على المكاتب، وشكره على اهتمامه وعنايته، ومقابلة إحسانه بالدعاء له بما يناسب الحال⁽¹⁾.

وتنوعت رسائل الشكر في هذا العصر وشارك الكتاب في هذا اللون من الرسائل المعبر عن المظاهر الاجتماعية المختلفة، ويبدو أن كثرة المناسبات كانت حافزا على الكتابة في هذا اللون من الرسائل. وكان هذا اللون من الرسائل لا يحتمل الإطالة والإطناب؛ لأن نوعية المراسلات المتعلقة بالمناسبات الاجتماعية كانت تقتضي الإيجاز وعدم المبالغة والإسراف، ولكنّ الكتاب أخذوا يبالغون في بعض الأحيان حتى أخرجت الرسائل إلى حدّ الكذب والنفاق، يقول صاحب مواد البيان: "وإنما يجب أن يذهب فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفن مذهب الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر دون مذهب الغلو والإفراط"⁽²⁾.

وفي ضوء استقرار النصوص تبين للباحثة أن هذا الغرض يتصل بالرسائل السياسية التي تعبر عن أغراض ذاتية وجدانية. ولم تقف الباحثة على رسائل شكر بين الإخوان تحمل طابع ذاتية وجدانية، ولعل السبب، طبيعة العصر، فقد كان عصر صراع مع الفرنج فلم يكن هناك مجال لتبادل مثل هذه الرسائل، أو ربما أنها وجدت وصارت إلى ضياع.

وتستهل الباحثة برسائل الشكر تلك التي كانت تحمل لأمرأى الولايات على ما قدموه من معونة للسلطان في جهاده وحروبه، فهي رسائل شكر مرتبطة بالجهاد.

1- وأول ما يصادفنا في هذا المضمار رسالة العماد الأصفهاني إلى عز الدين مسعود يشكره فيها على إهدائه النفط الأبيض والرّماح والثّراس في حصار عكا، والرسالة تبين الأثر الذي تركته المساعدة في نفوس المسلمين، فقد استعادوا قوتهم، وارتفعت روحهم القتالية، يقول: "واتصل بالنفط الواصل من أهل النار الاحتراق، وطعنت وضربت منهم النحور، والأعناق، وقد هدأ بما أهداه النصر إلى الهدى، والردى إلى العدا"⁽³⁾.

وقد غلف الكاتب معاني الرسالة بفيض من الألفاظ المسجوعة عندما أبدى الأسباب التي أوجبت السلطان للسلح في جمل قصيرة "وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة، والضرورة الشاقة، فإن الحروب المتطاولة المدد- أتت على جميع العدد، فالسمر متحطمة، والبيض منتلثة، ووجوه الصّاح بلثام النجيع متلثة"⁽⁴⁾.

وأضفى الكاتب على المرسل إليه صفات مستمدة من الصّفات التي اشتهر بها، فتكون وسيلة يتوصل الكاتب بتوجيهها إلى ما يريد من صور ومعان. ويبدو التكرار والإطناب غالبا في هذه الرسالة،

(1) مواد البيان- علي بن خلف: 620. ينظر: صبح الأعشى- القلقشندي: 25، 31، 40، 54، 57، 63، 70/9.

(2) مواد البيان- علي بن خلف: 621. ينظر: صبح الأعشى- القلقشندي: 25/9.

(3) الفتح القدسي- العماد الأصفهاني: 350.

(4) المصدر نفسه: 350.

كما يبدو واضحا التلاعب بالألفاظ ليصل إلى السجع، مع ما يرافق ذلك من تكلفٍ وتعقيدٍ وإغراب، فهو يقول في وصف نفاذ الأسلحة. يقول: "وقد أفنى المصال⁽¹⁾ النَّصال، والنضال النبال، والرماء الأفواق⁽²⁾، واللقاء العتاق، والمصاع المناصل⁽³⁾، والقراع الذوابل⁽⁴⁾"⁽⁵⁾.

2- ومما يتصل بهذا اللون من رسائل الشكر إرسال الجيوش، كما فعل صاحب الموصل، إذ سير ولده على رأس جيش لمساعدة السلطان في حصار عكا، فكتب إليه العماد رسالة يشكره فيها على صنيعه، والرسالة ترتدي ثوب الإيجاز، وتخبر عن وصول ابن صاحب الموصل، وشكره على همته ونخوته في إرسال الجيش. ويبين الأثر الذي تركه وصول هذا الجيش في تحقيق النصر للمسلمين، يقول: "والمنة الثانية التي أربت على الأولى حيث حث همته العلية، وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية، فلقد ورد إلى الساحل بحرا، وطلع في ليل القساطل بدرا، وأسفر لمرتقبي صباح النصر فجرا، وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشرا"⁽⁶⁾.

3- وثمة رسالة شكر أخرى للعماد إلى صاحب الموصل على إنفاذه الجصاصين لحفر خندق القدس، وتجديد أسواره، وذلك عندما عزم السلطان الناصر على عمارة القدس عام 588هـ. وقد جاءت رسالة الشكر هذه مُعبّرة عن الغرض، واشتملت على مجموعة من المعاني: أولها الإخبار عن وصول الجصاصين⁽⁷⁾ بعدتهم المطلوبة، وما كان لهم من دور كبير في الحفاظ على بيت المقدس من طمع الغزاة، "فقد وصل الرجال وما فيهم إلا من أبان عن جده، وأبان بحده، وتلم الحديد بتلم الصخر وهده"⁽⁸⁾، وثاني المعاني بيان الأسباب التي أوجبت طلب الجصاصين وهو العمل على تحصين القدس وعمارته خوفا من طمع الغزاة، وقد آتت هذه التحصينات نتائجها.

4- ومن بين الرسائل التي تناولت الشكر على التهنة بالإفاقة من مرض ما كتبه ابن الأثير عن الملك الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر جوابا عن كتاب ورد منه يسأله عن مرض ألم به، وقد بدأ الكاتب رسالته ببيان الأثر الذي تركته الرسالة في نفس المرسل إليه، فقد كانت شفاءً له، وحتى تقع الرسالة موقعا مؤثرا، أخذ الكاتب يقف على نتفٍ من معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم يقول: "ورد الكتاب الكريم عن المجلس، جعل الله يده مسيحية في إبراء الأسقام، خليلية في تعمد نار الهموم بالبرّد والسلام، محمدية في الإسراء بعفاتها إلى المطلب الأقصى عن المطلب الحرام"⁽⁹⁾.

(1) المصال: قطر الدم وسيلانه

(2) الأفواق: مفردا فوق وهو موقع الوتر من السهم. لسان العرب - مادة: فوق.

(3) المناصل: مفردا مُنْصَل وهو السيف. لسان العرب - مادة: نصل.

(4) الذوابل: مفردا ذابل وهو الرمح لدقته. لسان العرب - مادة: ذبل.

(5) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 351.

(6) المصدر نفسه: 351.

(7) الجصاصون: جمع جصاص وهم الذين يصنعون الجص ويطلون به الجدران. لسان العرب - مادة: جصص.

(8) المصدر نفسه: 579.

(9) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 278.

ويبدو الأثر الديني واضحاً في ثنايا الرسالة، فقد حلّ ابن الأثير حديثاً للمصطفى -صلى الله عليه وسلم- مع بقاء شيء من لفظه. يقول: "وتداوى بمعسول كلمته، أخذاً بالأمر النبوي: اسقه عسلاً"⁽¹⁾.

ويتحدث الكاتب عن نوع العلة التي أصابت الملك، وهيئتها وأوصافها، وكأنما أراد الكاتب أن يعبر عن الحالة الصعبة التي وصل إليها مولاه من جراء إصابته بالحمى، ويؤكد ما حصل لمولاه من جراء هذه العلة من نعمة الأجر، وموهبة الثواب، وأخذ العظة والعبرة من كل ما فات يقول: "ففيه التفكير لما فات، والموعظة لما هو آت"⁽²⁾.

5- وهذه رسالة الفاضل إلى أحد الأمراء، يشكره فيها على قضاء حاجة قضاها له وهي رسالة موجزة جداً يقول: "وقفنا على مطالعة الأمير -وفقه الله- وأحسن إليه، وجعل أبواب السعادة مفتوحة بين يديه، فأما ما ذكره من الانتصاب في قضاء حاجتنا، فما ازددنا خبرة بكفايته ونهضته، وأمانته وخير نيته، وهو مشكورٌ بلسان اهتمامه، ومذكورٌ بماضي اعتزامه"⁽³⁾.

ومن الجدير قوله: إن رسائل الفاضل في الشكر قليلة جداً، ولعل السبب في ذلك المكانة الرفيعة التي احتلها الفاضل في دولة صلاح الدين، وفوق ذلك فقد اجتمع له من الجاه والمال والعلم ما لا يجعله يحتاج إلى غيره، وبالتالي فإن هذه الأسباب جعلته لا يكثر من رسائل الشكر.

6- ومن الرسائل التي تتضمن الشكر على هدية، رسالة ابن الأثير إلى أحد الأمراء يشكره فيها على سجادة صلاة، كان قد أهداها إليه، والرسالة تنشي بوجود علاقة حميمة، انعقدت بين الكاتب وهذا الأمير، وقد يكون الدليل على عمق هذه الصداقة خلو نص الرسالة من صيغ التمجيل والتفخيم التي جرى الكتاب على إيداعها رسائلهم إلى أصحاب الشأن في الدولة.

ويبدو أن مكانة ابن الأثير عند هذا الأمير جعلته يتخفف من قيود التكلف والتصنع. وراح الكاتب يعبر عن فرحته بالهدية من خلال وصفه لها، والمبالغة في قيمتها، متخذاً منها مجالا يستمد منها ألفاظه وصوره.

وقد أجاد الكاتب في ذلك أيما إجادة. يقول: "ولما شهدها الخادم لم يدر أي ديباجة رومية أو بُردة يمانية، وإذا رأى حسن حوكها بشرٌ كان قوؤلاً سبحان مبتدعه لا يتخطاه الطرف من أحدٍ يُنصف إلا صلى على صنعه"⁽⁴⁾.

7- وأقف عند رسالة الفاضل التي كتبها إلى الملك المظفر تقي الدين وكان قد أهدى إليه فرساً. والرسالة كلها تخلو من الغلو والإفراط في الشكر، كما أنها تخلو من أي وصف للهدية. والرسالة كلها ترسم الخلق الإسلامي الرفيع في قبول الهدية، وشكر مرسلها، ويبلغ أدبه غايته عندما يبدى رفضه لكل

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 278.

(2) المصدر نفسه: 279.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 235.

(4) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 180.

مطامع الحياة وشهواتها، ولكنه أمام مولاه، لا يستطيع رفض هديته. يقول: "ورد على المملوك إنعام مولانا، فقابله بشكر لا يقوم بواجبه، وتقبله قبولاً حسناً"، "والمملوك قد أخذ نفسه بسد هذه الأبواب، وخلع ما للطمع من أثواب، والراحة من أقاويل الناس"، ثم يردف: "خفت من عيب المجلس، وتبركت بركوبه، فلا عدمت مقاصد مولانا فإنها المقاصد العالية، ولا من عزمته فإنها العزيمة الماضية"⁽¹⁾.

8- وثمة رسالة كتبها ابن الأثير تتضمن الشكر على باز أهده إليه الملك المعظم عيسى. والكاتب في هذه الرسالة يرسم أمارات تميز هذا البازي، فهو سريع في العثور على فريسته، ويثبت له فضيلة التفوق على أقرانه من الطيور الجوارح، وهو يبيت الرعب والخوف بصوته وحضوره، كما يثبت له حسنه وجمال منظره، كل هذا بالفاظ معبرة متناسقة. يقول: "ولما حلّ بهذه الأرض شاع في الطيور صيت خبره، وغمت بصوت حذره، فحملها الخوف على أن ذهبت من أوطانها مستقلة، وقالت: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة"⁽²⁾⁽³⁾. ويبدو أن مقصد ابن الأثير من إضفاء صفات التميز على هذا البازي، إثبات التميز لنفسه بصورة خفية، وللملك المعظم، فالهدية المميزة لا يهديها إلا مُهدٍ مميز أيضاً، كما أنها لا تهدى إلا لإنسان مميز كذلك.

* التهادي

الهدية رمز للمحبة بين الناس، وهي مظهر من المظاهر الاجتماعية التي يتقرب بها بعضهم من بعضهم الآخر. وإذا كانت رسائل التهاني والتعازي ترتبط بمناسبة معينة، فإن رسائل التهادي لم ترتبط دائماً بنوع من المناسبات⁽⁴⁾. والنصوص التي بين يدي الباحثة لم تشر إلى طبيعة المناسبة التي أرسلت من أجلها الهدية.

وكانت طريقة الكتاب في كتابة هذا النوع من الرسائل إيداعها الألفاظ المستحسنة التي تناسب الموضوع، وتمهد لقبول الهدية، كما كانوا يعنون بتضمين رسائلهم من أوصاف الشيء المهدي على نحو يزيد حسناً في نفس المُهدى إليه، لكنهم تحرزوا من المبالغة في تعظيم الهدية، ورأوا في ذلك ما يخلّ بشروط المروءة، وأسباب المودة والصداقة⁽⁵⁾.

وقد عُني القلقشندي في باب الهدايا بما يتصل بالسلطان ونوابه من هذا النوع من الرسائل، وأهم ما دار بين الأصدقاء والإخوان، إلا في حديثه عن الأجوبة بوصول الهدايا، وسوف نلحق أجوبة رسائل الهدايا برسائل الشكر.

وقد تنوعت الهدايا التي كانوا يرسلونها تنوعاً بيناً، وأول ضروب الهدايا:

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 234.

⁽²⁾ إشارة إلى قوله تعالى: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة" سورة النمل آية: 34.

⁽³⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 293.

⁽⁴⁾ الرسائل الفنية في العصر العباسي - محمد محمود الدروبي: 257.

⁽⁵⁾ مواد البيان - علي بن خلف: 605، صبح الأعشى - القلقشندي: 100/9.

1- ما يتصل بالأشربة وخاصة الخمرة، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير عندما سأل بعض أصدقائه من أمراء الموصل أن يمليه عليه ليكتبه إلى بعض الأمراء بدمشق، وقد أرسل إليه هدية من جملتها خمر. وتتم الرسالة عن تكلف وتصنع واضحين تجاه المهدى إليه، فالكاتب يستخدم صيغ التبجيل والتعظيم، وهي من الصيغ التي جرى الكتاب على إيداعها رسائلهم إلى أولي الأمر، ثم يذكر السبب في إرسال الهدية للأمير في دمشق، وهي رغبته في أن يتذوق صديقه خمرة بلاده، وأن يستشيريه في حلوة مذاقها. يقول: "ولهذا مائل المولى بينها وبين شراب بلاده، وأرسله إلى الخادم ليعرضه على محك انتقاده"⁽¹⁾.

وحتى تقع الهدية موقعها اللائق في نفس الأمير، يمضي الكاتب في رسالته بإضفاء صفات الخمرة ومحاسنها، فهي داء لكل دواء، وهي من أنفس الهدايا، والكاتب يدعو الأمير إلى الابتهاج بهذه الهدية، فهي لا تقدر بثمن، ولا توزن بذهب. يقول: "ولولا أن تُعجب بنفسها لما تتوجت بتيجان من الحب، ولم تُر صفراء اللون إلا لامتعاضها حيث لم توزن بمثلها من الذهب"⁽²⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بالمقابلة بين صفات الخمرة، وصفات الأمير في دمشق، وهو في هذه المقابلة يسقط صفات الخمرة على هذا الأمير لكي يصل إلى حقيقة مفادها أن هذا الأمير أحق بهذه الهدية من غيره. يقول: "وما يُقال: إلا أنها خلقت من جوهر الروح، أو خلق جوهر الروح منها، ولو مزجها المولى بخلق من أخلاقه لكمُلت أوصافها، وأشرقَت في الحسن بحسن إشراقها"⁽³⁾.

2- إضافة إلى هذا الضرب من ضروب التهادي التي عبّرت عنها الرسائل في ذلك العصر، عرف نوع آخر من الهدايا المتعلقة بالطيب والمسك، ومن نماذج هذا اللون رسالة ابن الأثير إلى بعض الأكابر، ومعها هدية من المسك، فابن الأثير يرى في الهدية رسول المودة والمحبة بين القلوب، فهي تدخل إلى النفوس بغير استئذان، وذلك في إشارة من الكاتب إلى الأثر الذي تتركه الهدية في نفوس المتحابين.

وتظهر الرسالة أدب الكاتب، وذوقه المهذب في تقديم الهدية إلى صديقه، فالكاتب يعدد الآثار الإيجابية التي تتركها الهدية في نفس صاحبها، فهي تجدد المودة والمحبة، وتقرب بين الناس، وتعمل على تواصلهم، مستعينا في ذلك كله بثقافته الدينية، فقد لجأ إلى حلّ بعض الأحاديث النبوية من مثل قوله: "وما من قلب إلا وصورتها تُجلى عليه في سرقة"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 172.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 173.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 173.

⁽⁴⁾ السرقة حرقه من الحرير، إشارة إلى الحديث أن حبريل عليه السلام -أرى النبي صلى الله عليه وسلم- صورة عائشة على سرقة، وقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة، ويريد هنا أن الهدية حبيبة إلى كل قلب. ينظر: رسائل ابن الأثير - حاشية 2.

ثم يأخذ في إسباغ صفات المسك على أخلاق صديقه وحسن سيرته، ويلجأ إلى الاستعانة بثقافته الأدبية للتعبير عن مقصده. فيردف: "ومما زاده مزية على مزيتة أنه وشيم المولى توأمان، غير أن شيمه تنتمي إلى كرم محتدها، وهو ينتمي إلى سرر الغزلان⁽¹⁾"⁽²⁾.

ويشير في ختام رسالته إلى ضرورة قبول الهدية مهما كانت قيمتها، ويبدو واضحاً أن الكاتب يشعر بقصور هديته تجاه صديقه، ولذلك هو يعتذر منه على بساطتها. فيقول: "وقد نطق الخبر النبوي بأنه أخذ الثلاثة التي لا تُرد على من أهداها، وإذا نظر إلى محصول بقائها، وفائدتها وجد أطولها عمراً وأجداها، وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم في إرساله"⁽³⁾.

3- ومثلما كتب الكاتب في التهادي بالطيب والمسك، كتبوا في التهادي بالدرهم والثياب، وثمة رسالة لابن الأثير كتبها إلى حاجب السلطان، ومعها هدية من ثياب ودرهم. ويتحدث الكاتب في بداية رسالته عن الدور الكبير الذي تتركه الهدية في نفس صاحبها، فالهدية في نظره "مشتقة من الهدى، غير أنها تُرف إلى القلب لا إلى الندي"⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

وهذا الأثر هو الذي سوغ للكاتب أن يتحف صديقه بهدية تدخل إلى قلبه البهجة والسرور. ويفرغ طاقته في خلع الأوصاف على الهدية. يقول: "وقد أرسلتها إلى المولى، وهي تتهدى في إعجابها، وتُدلّ بكثرة دراهمها وثيابها، ونقول: أنا الكريمة في قومها، والشريفة في أنسابها، وأحسن ما فيها أنها جاءت سرا، لم تعلم بها اليمنى من اليسرى"⁽⁶⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بالدعاء لصديقه الحاجب بأن يبقى بابه مفتوحاً لأصحاب الحاجات؛ فهو سينال الشكر المستديم في الدنيا، وفي الآخرة الثواب العظيم⁽⁷⁾.

4- ومن ضروب الهدايا ما يتصل بالأطعمة، وأول الأطعمة في هذا المضمون الفاكهة، ولا سيما الرطب، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى بعض ملوك الشام، وقد أهدى إليه رطباً، وقد رأى الكاتب أنها أجدر هدية تهدي إلى مولاه. والكاتب -في هذه الرسالة- يقر بضعف قدرته المادية، وقصوره بشأن تقديم هدية تليق بشخص مولاه. ويبلغ أدب الكاتب غايته، عندما يعلل قصوره عن تقديم الهدية، فالهدية من الأشياء المستظرفة التي لفتت انتباه الكاتب، وبالتالي حاول أن يتحف بها مولاه. فهو يقول: "وإذا أراد العبيد أن يهدوا لمواليهم قصرت بهم يدٌ وجُدْهم، وعلموا أن كل ما عندهم من عندهم، لكن في الأشياء المستظرفة ما يهدى وإن كان قدره خفيفاً"⁽⁸⁾.

(1) إشارة إلى قول المتنبي "إن المسك بعض دم الغزال" - ديوان المتنبي: 239/4.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 227.

(3) المصدر نفسه: 227.

(4) الندي: نادي القوم، الهدى: ما يهدي من الضحايا، والهدي أيضاً العروس، ينظر: لسان العرب.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 225.

(6) المصدر نفسه: 226.

(7) المصدر نفسه: 226.

(8) المثل السائر - ابن الأثير: 321/1-322.

وحتى تقع الهدية موقعا مؤثرا في نفس الملك، راح ابن الأثير في تبيان فضائل الرطب، وهو في هذا السياق يورد فقرا من أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- في محاسن هذه الفاكهة، وفوائدها، فهي أول غذاء يفطر عليه الصائم، وأول غذاء يدخل به على المولود. يقول: "وقد أثنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليه ثناءً جما، وفضل شجرته على الشجر بأن سمّاها أمّا"⁽¹⁾.

وليس من شك في أن وقوف الكاتب على هذه الأقوال يدل على ثقافته الدينية، التي كان الكتاب يستقون منها ثقافتهم في ذلك العصر.

ويختتم الكاتب رسالته بمناشدة مولاه بالتفضل عليه بقبول هديته، وإن كانت بسيطة؛ لأن الهدية لا تقدر بثمن، فهي ذات مكانة عالية، وإن كان ثمنها قليلا، وهذا هو المغزى الذي أراد الكاتب أن يوصله إلى مولاه في رسالته.

* الشفاعات

"هي نوعٌ من الرسائل الإخوانية تصدر عن ذوي الرتب والأخطار، والمنازل والأقدار الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب، ودرك الرغائب"⁽²⁾.

وقد وجد أصحاب الحاجات في مقدرة الكتاب الأدبية ما ييسر عليهم قضاء حاجاتهم. ولهذا كان الكتاب يظهرهم براعتهم، وقدرتهم في هذه الرسائل على إقناع ذوي الشأن في تيسير أمورهم.

والناظر في الشفاعات التي وصلت إلينا، يلاحظ أنها تتميز بملامح فنية من ناحية الشكل، ومن ناحية المضمون. أما ما يتعلق بالشكل فقد لوحظ في رسائل الشفاعات التي كتبها القاضي الفاضل أن سمة الإيجاز والقصر كانت غالبية عليها، أما رسائل ابن الأثير فقد لوحظ عليها سمة الإطالة والإطناب، فقد كان الكتاب يودعون رسائلهم الألفاظ المؤنقة واللطيفة في مخاطبة أصحاب المنزلة والشأن. وأما ما يتعلق بالمضمون فقد كانت رسائل الشفاعة تتضمن الإشادة بأخلاق المستشفع له، والدعوة إلى إنجاز حاجته، كما كانت بعض رسائل الشفاعات والعنايات تكشف عن بعض العلاقات الودية التي تربط الكاتب بالمخاطب؛ لأن هذه العلاقات من شأنها أن تؤثر في نفس المخاطب، وتجعله على قدر من الاهتمام بحامل الشفاعة.

وأفصحت رسائل الشفاعة والعناية في أغلبها عن حاجات أهلها الحقيقية، وفي القليل منها لم تفصح عن حاجة صاحبها، وإنما اكتفت بحاجة صاحبها إلى العون والمساعدة.

ولقد استخدم الكتاب، وأصحاب الشأن في العصر الأيوبي مكانتهم، وأقلامهم في إعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم. يقول صاحب مواد البيان: "والكاتب يحتاج إلى التلطف فيهما، وإيداعهما من الخطاب ما يخرج به الشافع عن صورة المتقل على المشفوع إليه بما كلفه إياه، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له، ونجاح مطلبه، ويحبذ فيها مسلك الإيجاز والاختصار، وأن يرجع فيما يودعه إلى قدر الشافع والمشفوع فيه"⁽³⁾.

(1) أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سَمَّى النخلة أمّا، فقال أمّكم النخلة، ينظر: المثل السائر: 322/1.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 607. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 124/9.

(3) مواد البيان - علي بن خلف: 607-608. ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 124/9.

ومن الملاحظ أن هذه الرسائل كانت تبدأ غالباً بمقدمة تتضمن الثناء، والمدح، والدعاء للمخاطب، ثم يتطرق إلى العلاقات الودية المتبادلة التي تربط الكاتب بالمخاطب، وتحدث عن مضمون الشفاعة، وتختتم بتوجيه الشكر للمخاطب على إنجاز حاجة صاحب الشفاعة.

تنوعت مضامين الشفاعات والعنايات في هذا العصر بتنوع حاجات أصحابها، فمنها ما يكون في التجاوز عن الزلات، ومنها ما يكون في طلب المسامحة بالأموال، أو العناية برجل أو ببعض الفقراء، أو بغرباء مقيمين في بلد، أو في تعيين المشفوع له في وظيفة يطمح إليها، ونحو ذلك.

1- وأول ضروب الشفاعات ما يتصل بالمسامحة بالأموال. ومنها ما كتبه ابن الأثير على لسان الملك الأفضل إلى الملك الظاهر غازي شفاعة في أحد العمال العاملين في ديوان الخراج، وكان قد طُوبل بأموال نقصت من ديوانه. والرسالة ترتدي ثوب الإطالة والإطناب، وقد افتتحها الكاتب بالثناء على المخاطب، وذكر فضائله. ويكشف لنا عن السبب الذي من أجله أنشأ هذه الرسالة، وهي الشفاعة في أمر إنسان ملهوف أعوزته الحاجة. ويحاول الكاتب أن يظهر مدى ثقته بالمخاطب، وهذه الثقة مردها أن المخاطب من بيت أصل كريم أصله ثابت، وفرعه في السماء، من خلال تعداد أفضاله ومآثره وواضح -للقارئ- أن الرسالة تترك اسم صاحب الحاجة غفلاً، والسبب في ذلك ربما يعود إلى أن حاملها صاحب مكانة مرموقة ومعروفة لدى المخاطب. وأما مضمون الشفاعة الذي من أجله كتبت الرسالة، مطالبة صاحب الحاجة بأموال نقصت من ديوانه. يقول: "وفحواها أنه كان يخدم بين يدي الديوان السامي، فتعقبوه في حسابه، وطالبوه بإخراج أمر مولانا بما بدر في طلابه، ولا شك أن قلم الحساب يُخرج على العمال ما لم يكن في الحساب"⁽¹⁾.

ويعبر الكاتب في ختام رسالته عن أمله بكرم المخاطب من خلال استشهاده بنص قرآني؛ ليثير الرحمة والعطف في نفسه.

وتختلف الشفاعة التي كتبها الفاضل إلى أحد الأمراء في أمر قاض أخذ ماله عن سابقتها اختلافاً واضحاً. والطريف في هذه الرسالة تخفف الكاتب من قيود المجاملات، فالفاضل يدخل في مضمونها مباشرة، وهي أن القاضي أخذ ماله، ومُطّل في رده، وهُدّد بالقتل. وتبدو لهجة الأمر واضحة في ثنايا الرسالة، كما أنها تميل نحو الإيجاز، ومن بداية فاتحة الرسالة إلى نهايتها تبرز النزعة الذاتية عند الكاتب، وهذه النزعة مستمدة من سلطة الكاتب الذي كان وزيراً لصلاح الدين. وكانت هذه السلطة تعطيه الصلاحية في المخاطبة بهذا الأسلوب. يقول: "ونأمرك بالكشف عما أنهاه، وحمله مع خصومه على موجب العدل ومقتضاه، وأخذهم بإعادة ما أخذوه منه، وغرامة ما خسروه إياه"⁽²⁾.

⁽¹⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 129.

⁽²⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 79.

2- وتطالعنا شفاعة كتبها الفاضل، وهي **شفاعة في فلان عزم على أداء فريضة الحج**، وفي هذه الرسالة تلقانا بعض الخصائص الفنية لهذا اللون من الرسائل، فهي مع قصرها لا تُسمي صاحب الحاجة، ولكنها تشير إلى مضمونها. ويبدو من أسلوب الأمر الذي يستعمله الفاضل في مخاطبته للأمير أن هناك علاقة قوية بين الكاتب والمخاطب، وبالتالي لم يلزم الكاتب نفسه بما يلزم به الكُتّاب أنفسهم في مخاطبة من هم أعلى شأنًا منهم. يقول: "فليعتمد الأمير على إكرامه، ورعايته، وإيصال الراحة إليه، وحسن النظر إليه، وعنايته لينفصل عنه شاكرًا، ولصنيعه ناشرًا"⁽¹⁾.

3- ومن ضروب الشفاعات ما يتصل **بوعده إعطاه الناصر لأحد مماليكه**، ومنها رسالة الفاضل، والرسالة لا تنشذ عن سابقتها، فهي تميل إلى الإيجاز، وعدم التكلف والمجاملة في مثل هذا اللون من الرسائل، كما لا تصرح باسم صاحب الشفاعة. ويُعنى الكاتب بإبراز ثقته بالسلطان الناصر في قبول الشفاعة، فهو يشير إلى الخدمات الجليلة التي أداها هذا المملوك للدولة الأيوبية. يقول: "ووقف بين يديه مواقف تُسر الإسلام وسلطانته، وجاهد في الله جهادات فات به أضرابه وأقرانه"⁽²⁾. ويختتم رسالته بالتعبير عن أمله في أن يقبل السلطان شفاعة هذا المملوك، فيحقق رغبته في الوعد الذي قطعه السلطان على نفسه. يقول: "وهو معتمد على ما خرج به الأمر العالي؛ ليكون على بصيرة من أمره، وعلى ثقة من مخاصمة دهره، وعلى يقين من مفارقة فقره إن شاء الله"⁽³⁾.

4- ومن ضروب الشفاعات ما يتصل في **إبقاء المشفوع له في وظيفته بعد وفاة مولاه**، وقد كتب الفاضل رسالة إلى الملك العزيز عثمان في أمر فقيه عزل من خطابة المسجد بعد وفاة مولاه. وفي هذه الرسالة الموجزة تلقانا بعض الطوابع الفنية التي سبق الحديث عنها. ويبدو ذوق الكاتب وأدبه في مخاطبة من هو أعلى منه رتبة. يقول: "وقد أنعم السلطان -عز نصره- على هذا الفقيه المذكور بتوقيع بالخط الشريف بإبقاء مسجده بيده، وهو يسأل الإنعام في تنفيذها على يده من الأمر المطاع، وإنجازه أثر هذا الاستشفاع"⁽⁴⁾.

ويظهر الكاتب اهتمامًا بحامل الشفاعة؛ لأن حاملها بمنزلة الأمير المتوفى، وفي هذا إشارة من الكاتب إلى مكانة المشفوع له، حتى لكأنما هو الأمير نفسه، وبهذا يلزم الكاتب المخاطب إلزامًا مؤكدًا بالعناية بحاجة حاملها، وتحقيق أمانيه.

5- وشاع لون آخر من الشفاعات يعنى **بالتجاوز عن الزلات**، وتطالعنا شفاعة للناصر داود كتبها إلى عمه السلطان "الملك الصالح" عماد الدين إسماعيل⁽⁵⁾ شفاعة في "ناصر الدين داود بن النقيب البصري"⁽⁶⁾، وقطع عنه إدرار إحسانه. وفي هذه الرسالة التي اتسمت بالإطناب والتطويل، تتبدى بعض

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 47.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 51.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 52.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 34.

⁽⁵⁾ هو الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن "الملك العادل" أبي بكر، صاحب بعلبك، وبصرى ملك دمشق مدة، قتل سنة 648هـ. ينظر: الذيل على

الروضتين: 14، مفرج الكروب: 275/3، البداية والنهاية: 179/13.

الخصائص الفنية المختلفة عن الشفاعات السابقة، فهي تقوم بتسمية صاحب الحاجة، وتشير إلى مضمونها.

ومن اللافت للنظر في هذه الرسالة أن الكاتب يسلك طريق التخصيص في عرض حاجة صاحبه، ويقوم هذا العرض على أمرين: أحدهما يتناول علاقة الناصر داود بمملوكه ناصر الدين، والآخر علاقته بالمخاطب وهو عمه السلطان، وهي علاقة امتازت في شقيها بالحب والمودة، وهو ما يجعل أمل الكاتب قويا في تحقيق حاجة المملوك.

والرسالة فيما يظهر -للقارئ- تجري من فاتحتها إلى خاتمتها على وتيرة واحدة، فهي تتخذ الاستعطاف سمة لها، ولا تُفسح فرصة لاتخاذ أي إجراء عقابي بحق المشفوع له.

ويبدو بينا من بداية الرسالة أن الكاتب قصد استدرار عطف السلطان فيقبل شفاعته، فقد أخذ بالثناء على المشفوع له، وتذكير السلطان بالخدمات الجليلة التي أداها لمولاه، وتقانيه، وإخلاصه في الدفاع عن الدولة، ودوره في مقارعة الخصوم والأعداء، "وهو ممن تقدمت له في الخدمة يدُ السفر عن الأوطان، والتغرب عن الأهل والإخوان، وقد اتخذ ظل مولانا حيث كان له وطنا، وجعل الخدمة الشريفة عن سكنه سكنا، رجاء أن يسفر صبح الظفر لمولانا عن نهار الفتوح"⁽¹⁾.

ويسعى الكاتب -من خلال رسالته- إلى إظهار ثقته بالمخاطب، من خلال إشارته إلى أن صاحب الحاجة يُسمى داود، وهو الاسم الذي يحمله الكاتب؛ في إشارة منه إلى مكانة المشفوع له من نفسه "ومملوك مولانا ناصر الدين ابن النقيب البصري سمي المملوك"⁽²⁾، إن جنى جناية غفرها عند مولانا كونه للمملوك سميا"⁽³⁾.

ومزج الكاتب شفاعته بشيء من شعره، وأشعار الآخرين، وكأته أراد أن يأتي بشيء جديد في بناء هذا الغرض من الرسائل. يقول:

"إن الملوك إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يصحبهم بالمنزل الخشن"⁽⁴⁾.

ويلجأ الكاتب في نهاية الرسالة إلى استئثاره نوازع الخير، ومكانتها في نفس المخاطب؛ ليعفو عن هذا المملوك، ويتجاوز عن زلته، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

6- ومن الموضوعات التي عبّرت عنها رسائل الشفاعة ما كان ينشئه الكاتب في طلب رفع الحال، كطلب الحصول على وظيفة من وظائف الدولة. ويمكن للدارس في هذا السياق أن يتمثل برسالة الفاضل إلى السلطان الناصر في أمر فقيه، وهي تُستهل بمدح السلطان، والإشادة بمآثره ومناقبه. يقول:

"وبنهي أن الله سبحانه- ولي الحمد قد أحله من الشرف الذي لا يُسامى، ولا يُسام،

⁽⁶⁾ من قدماء غلمان ناصر الدين داود. ينظر: الفوائد الجليلة: 106.

⁽¹⁾ الفوائد الجليلة- الناصر داود: 106.

⁽²⁾ قصد الكاتب نفسه، فإن اسمه داود.

⁽³⁾ الفوائد الجليلة- الناصر داود: 106.

⁽⁴⁾ البيت لأبي تمام من قصيدة مطلعها: "أراك أكثرت إدماني على الدّم وحملني الشوق من بادٍ ومكتمن".

ينظر: ديوان أبي تمام: 337/3.

وعقد عليه تاج الملك الذي أشرق بضياء وجهه البسام⁽¹⁾.

ويتحول الكاتب بعد هذا الإطراء الجميل إلى ذكر الغرض من الرسالة، وهو تعيين الفقيه في وظيفة تناسب مكانته، فهو من الرجال الذين عُرف فضله في الدولة، ولا يكتفي الكاتب بذلك، بل يلجأ إلى إقناع السلطان بمؤهلاته، وقدراته. ولعل في حديث الكاتب عن بعض مؤهلاته ما يجد طريقاً إلى تعيينه في وظيفة تلبيق به. يقول: "وخروج الأمر المطاع إلى فلان بتصرفه في شغل يليق بمثله من ذوي الوسائل المحفوظة، والذرائع الملحوظة، والأمانة المشهورة، والكفاية المذكورة، والتقدم في أمره بما يظهر قبول الشفاعة في بابهِ"⁽²⁾.

7- ومن ألوان الشفاعات ما يتصل بالعبادة بالغرباء، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير إلى الملك الظاهر غازي عناية ببعض الناس الغرباء المقيمين بحلب، والرسالة هذه تميل إلى الإيجاز على عكس رسائل ابن الأثير في هذا اللون، والمتسمة بالتطويل والإطناب. والكاتب يتجنب الحديث عن هؤلاء الأشخاص، ربما لمعرفة السلطان بقدرهم، ومكانتهم.

ويعقد الكاتب مقارنة لطيفة بين كرم السلطان وجوده، وبين قلمه، وما ينشره على صفحات الكتب من شفاعات وعنايات، ولكن شتان بين كرمه، وكرم مولاه.

ويبدو أن الكاتب لا يعنى بالإشادة بهؤلاء الأشخاص، مكتفياً بأنه اللسان الناطق عن حالهم، معبراً بطريقة غير مباشرة عن موقع صاحب الحاجة من نفسه، حتى لكأنما هو الذي يحمل الرسالة، وبالتالي تجد هذه الرسالة أذناً صاغية من المخاطب. يقول: "والمملوك ينطق عن المشار إليه مادحاً، ويستزيد له من الإحسان مانحاً"⁽³⁾.

ولا بدّ عند الفراغ من تناول الألوان السابقة من الشفاعات من التنبيه على أمر لافت، وهو وجود عدد وافر من نصوص الشفاعات. وهي لا تباين ضروب الشفاعات التي سبق تناولها. ومنها شفاعات لابن الأثير إلى الملك الأفضل، وهي على قصرها الشديد تجلي فكرة حرص الطلاب، وذوي الحاجات على قصْدِ المخاطب؛ ليحصلوا منه على قضاء حوائجهم؛ كون المخاطب يتحلّى بصفات الجود والكرم والفضل⁽⁴⁾.

ومنها شفاعات للأفضل، وهو في هذه الرسالة يتحلل من قيود المجاملات والتكلف في خطابه إلى الأمير، حيث يبدي اهتمامه بصاحب الحاجة، وهو من كبار العلماء، وذلك من خلال استثارة الجوانب الدينية في نفس المخاطب، فهو يدعو إلى الانصراف عن ملذات الدنيا، والسعي إلى اقتناء الأجر والثواب. وهو في سبيل تعزيز هذه الدعوة، يلجأ إلى اقتباس إحدى الآيات القرآنية التي تنقلنا إلى أجواء

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 184.

(2) المصدر نفسه: 185.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 338.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي ونوري القيسي: 157.

الحياة الآخرة، ويبدو واضحاً أن الفاضل يقف -في رسالته هذه- موقف من يسعى إلى تبيان صورة الأمير بالنموذج المقتدى. يقول: "والأمير -أبقاه الله- يوعز باغتنامها فرصة ثواب، وذخيرة أجر أهداها إليه خطاب في كتاب، وحسنة يراها غدا مسطرةً في كتاب"⁽¹⁾.

وكان الكتاب يلتفتون في أجوبة الشفاعات إلى منازل المخاطبين ومكانتهم، وكانت مادة الشفاعة تتخذ أساساً ينطلق منه في إقامة الجواب. يقول صاحب مواد البيان: "هذه الكتب إذا أُجيب الملتمس إلى حاجته، فينبغي أن تبنى أجوبتها على شكر مقصد الشافع، والإدلال والاسترسال، وإنالة المشفوع له وطره إيجاباً لحق الشافع، وإن وقع الامتناع والتوقف عن الإجابة إلى الملتمس، فالواجب أن تبنى على إقامة العذر لا غير"⁽²⁾.

ولابن الأثير رسالة تمثل ردّاً على شفاعاة واعتذاراً عن تلبيتها، عن الملك الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن شفاعاة، وهي تنصّ على الاعتذار عن عدم القدرة على تنفيذ الشفاعاة بحق صاحبها، وتقديم المسوغات في عدم القيام بحقها. والكاتب يقدم العذر في ذلك؛ حتى لا تتخرم أسباب المودة بين الأخوين.

وواضح من الرسالة تصريح الكاتب بالمانع الموجب للعذر، إذ هو يعزو عدم تنفيذ الشفاعاة إلى عدم رغبة مولاه في إشاعة الجريمة التي اقترفها المشفوع له، قبل العفو عنه؛ لأنها من العورات الواجب سترها وكتمانها، ففي ذلك مدعاة لتوبة صاحبها. يقول: "ومن محمود الشيم ستر الذنوب، وإن أغلظ في عقوبة أربابها، فإن كتمانها أخو اغتقارها، وإظهارها أخو عقابها"⁽³⁾.

ولعل أول ما يستوقفنا في هذا الاعتذار ذلك التلطف السمج، والخلق الجم للذان أشاعهما الكاتب في رسالته، فهو يسوغ السبب في عدم قبول الشفاعاة. يقول: "وما بطأ بالخادم عن امتثال أمرها الذي له حكم الإجمال، إلا أنها أمرته بذكر جريمة المشفوع له قبل المسارعة إلى الامتثال"⁽⁴⁾. والكاتب ينبه الملك الظاهر إلى ما جُبِل عليه مولاه من خلق كريم، وتجاوز عن الأخطاء والزلات. وأمام هذه الحقيقة يدعو الكاتب "الملك الظاهر" إلى التعقل في التماس العذر لأخيه، إذ الأخ العاقل أولى الناس في فهمه وقبول اعتذاره. ويغلب على الرسالة طابع البساطة وعدم التكلف.

* العيادات

لون من ألوان الرسائل الإخوانية التي تعبر عن تكاتف أفراد المجتمع، ووقوفهم بعضهم إلى جانب بعضهم الآخر في السراء والضراء. ويختص هذا اللون من الرسائل بالسؤال عن حال المرضى، والدعاء لهم بالشفاء. ويلقي هذا اللون من الرسائل المزيد من الأضواء على جانب من جوانب الحياة الاجتماعية المتبادلة في العصر الأيوبي، فالعيادة نمط من أنماط العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 189.

(2) مواد البيان - علي بن خلف: 608، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 183/9.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 314.

(4) المصدر نفسه: 314.

الأصدقاء. فقد كان الكُتّاب يرسلون رسائلهم التي تتوب عنهم بالسؤال عن حال المريض، والدعاء له بالرحمة والشفاء.

وبعد النظر في النصوص التي وقعت بين يدي الباحثة، تبين أن رسائل العيادة في مجملها تنصب على تصوير وقع العلة على الكاتب نفسه، وما تجرعه من آلام لا تقل عن آلام المريض.

1- ومن أحسن ما يمكن الوقوف عنده من رسائل العيادة رسالة ابن الأثير إلى أحد الملوك، في العيادة من مرض ألم به. والناظر في هذه الرسالة، يلاحظ عليها سمة الإطالة، وقد بدأها الكاتب بالدعاء للمريض، وهي أدعية ترتبط بموضوع العيادة، فهي تدور حول طلب العافية والشفاء والسلامة، وهي أدعية يكون المريض بمسيس الحاجة إليها. يقول: "فالخادم يسأل الله تسهيل الشفاء لمولانا، وأن يقرن عيشه بالصفاء، وأن لا يعطف عليه العافية بثم بل بالفاء"⁽¹⁾.

ويعرض ابن الأثير صورة عن حال الرعية، وقد تناهى إليها خبر مرض مولاهما، وهي لا تملك ما تقدم إلى مليكها للتخفيف من معاناته، سوى المشاركة بشعورها بالآلم والحزن.

ويرى الكاتب أن الرسول لا يمكن أن يقدم صورة حقيقية عن المشاعر التي يكنها الكاتب لمولاه، كما أن اختلاف هيئة الرسول عن هيئة مرسله تقف حاجزا في نقل الصورة المعبرة التي يرغب الكاتب في نقلها إلى مولاه. وتعبّر الرسالة عن مدى فرحة الرعية بشفاء الملك؛ لأن هذا الشفاء ستنتعم به الرعية، "وعافية أحوالهم معلقة بعافية جسده، وسوادهم الأعظم يود لو قاسموه مدة الأعمار، وما منهم إلا من يرفع يده لدعائه بالليل كما يبسطها لنواله بالنهار"⁽²⁾.

2- وتتسم رسالة أخرى له بالإيجاز، فهو يكتب إلى صديقه، وقد أصيب بعلّة، حاصراً هذه الرسالة في إطار مشابه للإطار الذي حدده في الرسالة السابقة، فهي تشترك مع سابقتها في صيغ الدعاء مع ملاءمة هذه الصيغ لطبيعة موضوع الرسالة. يقول: "جدد الله أيام المجلس السامي، وأقدم عليه وفد العافية أكرم مقدم، وألبسه منها اللباس المعلم، وحماه من مكاره الجذع الأزلم"⁽³⁾، والكاتب في الرسالة يصور وقع العلة على نفسه عند ورود خبر مرض صديقه، فهو يكابد الآلام والأوجاع التي يشعر بها صديقه، وربما بلغت الصورة حدّ المبالغة المفرطة، حين يجعل الكاتب العلة التي أصابت صديقه أشد من وقعها على المريض نفسه. والكاتب حين ينظر إلى العلة التي انتابت صديقه إنما يستمد أصول هذه النظرة من ثقافته الدينية، وهذا ينكشف حيث يشير الكاتب إلى أن العلل التي تصيب الناس إنما هي كفارة يمحو بها الله الذنوب، ويضاعف بها الأجر والثواب.

ويعتذر الكاتب في نهاية الرسالة عن إيجازه القول فيها، وذلك حرصاً منه على راحة صديقه، وعدم إزعاجه في ساعات مرضه. يقول: "ولعلمي بأن الإطالة على المريض مما يقلق له جانب وساده،

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 113.

(2) المصدر نفسه: 114.

(3) أي الدهر. لسان العرب - مادة: جذع.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 114.

وأن يضجر من طول الكتاب على نظره، كما يضجر من إطالة عواده، ولولا ذلك لنزفت خاطري نزفاً، ولم أترك من أساليب الكلم حرفاً⁽¹⁾.

3- وأخيراً ففي رسالة العيادة التي كتبها الفاضل عندما مرض والد ابن سناء الملك، لم يجد - وهو المحب الودود- في كنانته أولى من ولوج باب الحمد والثناء على الله على نعمة المرض. ويشف أسلوب الرسالة عن ملمح من عقيدة الكاتب، فهو ممن يفوض الأمور كلها لله -عز وجل- فهو بيده الخير والشر، والعافية والمرض. يقول: "وله الحمد فإنه ينعم بالبلوى فتكون أحسن عائدة من النعمى، ويمتنح بالنعمى فتكون أصعب مؤنة من البلوى"⁽²⁾.

والكاتب -كما يظهر بوضوح- لا يكاد يستهل عبارة من العبارات التي أودعها رسالته حتى يعود بضميرها الفاعل إلى الذات الإلهية، فالله هو الذي يهب النعمة والمرض، ويأذن بالشفاء. ويختتم الكاتب رسالته بوصف المرض الذي كابده صديقه، بأنه كفارة يمحو بها الذنوب ويضاعف بها الأجر والثواب، يقول: "ولكن ليبتلي الله ليأجر، ويعاني لي شكر، ويذكرنا بفضل له لنذكره، فله الحمد على العافية"⁽³⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 115.

(2) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 283.

(3) المصدر نفسه: 283.

الفصل الخامس

الاتجاه الأدبي والنقدي

محتويات الفصل الخامس

أولاً: أغراض تقليدية.....	157-175
* المدح.....	157-159
* الهجاء.....	159-165
* الرثاء.....	165-166
* الفخر.....	167-168
* الوصف.....	168-175
ثانياً: أغراض محدثة.....	175-184
* الطرديات.....	175-178
* الخمريات.....	178-179
* المفاضلات.....	179-181
* المفاخرات.....	181-184
ثالثاً: رسائل نقدية.....	184-194

تمهيد:

شارك النثر في هذا العصر الشعر، في طرق الموضوعات التقليدية، حتى غدا قادرا على التعبير عن أكثر المضامين التي كان الشعر العربي يستأثر بالتعبير عنها، كالمدح، والثناء، والهجاء، والوصف، وغيرها. وقد كان التعبير عن هذه الأغراض نثرا من أبرز نقاط التطور التي حظي بها النثر العربي في هذا العصر. ولعل من الصواب القول: إن الحدود الفاصلة بين الشعر والنثر من ناحية الموضوعات المطروقة في كلا الفنين قد طمست معالمها، وغدا النثر ممثلا في الرسائل الأدبية كالشعر يطرق كل الأبواب، ويرتاد كل الميادين، بل ربما تفوق على الشعر في هذه الناحية. وقد أشار إلى هذا التقارب بين الشعر والنثر ابن خلدون. يقول: "وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية، وتقديم النسب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن"⁽¹⁾.

ولعل الشمولية والانفتاح على جميع الموضوعات في فن الرسائل تعود إلى تطور النثر نتيجة لنضج العقل العربي، وخاصة بعد انفتاح العرب على حضارات الأمم منذ القرن الثاني الهجري. وقد راح الكُتّاب يُعبّرون في كتاباتهم عن تجاربهم الخاصة، ومواقفهم من الحياة ومباهجها ومآسيها، والناس وطباعهم، والطبيعة وفتنتها وقسوتها، والبلاد ومناخاتها وبيئتها، وهذه الرسائل قد يُكتب بها، وقد لا يُكتب"⁽²⁾.

وتفوق الكتاب المبدعون-أو كادوا- في عباراتهم الموحية، إذ إن طبيعة الشعر، والملتزم بالقيود كالأوزان والقوافي، لا تتيح للشاعر أن يدلي بكل ما لديه، وأمّا لغة النثر فهي أسهل وأقدر على التعبير عن المعاني؛ بسبب تحررها من تلك القيود، مما فتح أمام الكُتّاب آفاقا رحبة، وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن رفع الشعراء رايتهم دهورا طويلة في تناول هذا الغرض الأدبي. واتسم هذا اللون من الرسائل بطوابع فنية لافتة، إذ يغلب على هذه الرسائل الوصف، فقد كان أجلّ ما لدى كتابها وميدان بلاغتهم، فإن لم يكن المقام مقام الوصف لووا إليه أعنة الأقلام كلما عنت مناسبة أو سنحت فرصة"⁽³⁾.

ويغلب على هذا اللون من الرسائل عدم الارتباط بمناسبات معينة، كما أنها مجال رحب لبروز ذات الأديب، ووجهة نظره الخاصة.

وتتراوح الرسائل الأدبية بين الإيجاز والإطناب، فرسائل الفاضل الأدبية يغلب عليها الإيجاز، أما رسائل ابن الأثير الأدبية فقد اتسمت بالإطناب والتفصيل. ومن الجدير قوله: إن القارئ سيتساءل لماذا وُسم هذا الفصل بالاتجاه الأدبي؟ وهل ينفي هذا سمة الأدبية عن اتجاهات الرسائل السياسية أو الاجتماعية أو الوجدانية؟

(1) مقدمة ابن خلدون- عبد الرحمن بن خلدون: 568.

(2) صبح الأعشى- الفلقشندي: 157/14.

(3) عصر سلاطين المماليك- محمود رزق سليم: 215/5-217.

والحقيقة أن هذه المسألة جديرة بالتساؤل. والسؤال الذي يتبع السؤالين السابقين: لم لم يحظ هذا الغرض من الرسائل باهتمام النقاد القدامى؟ ولم لم يتحدثوا عما ينبغي أن يكون فيها؟. وتري الباحثة أن هناك خطأ بين مصطلح الرسائل الإخوانية والسياسية نتيجة تصورين من التصنيف مختلفين: التصور الأول: وهو نمط قديم، يستند إلى تصور القدامى لأصناف الرسائل، وهو تصور معياري غير وصفي، تصنف بمقتضاه أنواع الرسائل تصنيفاً هرمياً، وهو كذلك تصور يميز بين هذه الأنواع تمييزاً صارماً لا مجال فيه للتداخل بين قواعد الرسائل الإخوانية والرسائل السياسية. وحرص مصنفو كتب تعليم الإنشاء على وضع أسس وقواعد كل نوع من أنواع الرسائل، فحدّدوا صيغ الدّعاء، وأساليب المخاطبة، وطرق التمثّل والاستشهاد، وأنواع الخواتم، مراعين في ذلك كله أغراض كل نوع، وعلاقته بالمخاطب.

يرد هذا التصنيف جميع أنواع الرسائل إلى قسمين كبيرين: قسم المكاتبات الرسمية، وفيه تتفاوت درجات المخاطبين، وقسم المكاتبات الإخوانية، وفيه تتشابه درجات المخاطبين. ولكنهم لم يدرجوا الرسائل الأدبية إلا ضمن هذين القسمين.

والتصور الثاني: وهو نمط حديث يعتمد عنصر الأدبية⁽¹⁾. وهذا الاعتماد متولد من الفكر اللساني البنيوي في بداياته الأولى، إلا أن المحدثين لم يعيروا إشكالية التصنيف أية أهمية، فقد استخدموا التصور القديم دون أن يثيروا مشكلة تصور القدامى لأنواع الرسائل، وما ينطوي عليه هذا التصور من أبعاد جمالية واجتماعية، وسايروا في ذلك القدامى في إهمالهم قسماً من الرسائل التي تكون أنواعاً فرعية من الرسائل، فالتداخل بين النثر والشعر أفضى إلى وجود نوع فرعي من أنواع الرسائل يتميز عن سائر الأنواع، وأغفله المحدثون؛ لأنهم اقتفوا آثار القدامى في اعتبار الشعر مجرد أسلوب من أساليب تحسين الكتابة النثرية وزخرفتها، ولم يتصوروا إمكان تحوله إلى مقوم من مقومات هذا النوع الفرعي من الرسائل. وقد أدى هذا الفصل بين أنواع الرسائل إلى إهمال دور كل نوع منها⁽²⁾.

وبالبحثة ترى ثبات عنصر الأدبية في أنواع الرسائل السياسية والإخوانية والأدبية، ومثال ذلك أن التهنة غرض تشترك فيه الرسالة السياسية، والرسالة الإخوانية، لكنه يصاغ فيها على نحوين مختلفين، فهو في الرسالة السياسية غرض تمجيد، يرتبط بأحداث مهمة كالتبشير بالفتوحات أو التولية، وإظهار الغرض في أفخم صوره، وأقواها تأثيراً في النفوس. ويستخدم الغرض نفسه في الرسائل الإخوانية على سبيل الإخبار والمجاملة، وهي تُنسج على منوال واحد كالتهنة بمولود أو الإفاقة من مرض، أو العودة من الحج، وغيرها. وقد يتفرع عن هذا الغرض غرض آخر إذا خرج إلى الهزل كالتهنة بالألم⁽³⁾، أو السخرية والهزاء، أو التسلية كالتهنة بالعزل.

(1) الرسائل الأدبية - صالح بن رمضان: 76.

(2) المصدر نفسه: 77.

(3) صبح الأعشى - القلقشندي: 73/9.

ويعتمد الباحث في تحليل هذا الغرض في كل الأنواع على أدوات التحليل كالوصف والحوار والخطاب؛ لإنزال كل نوع من الأنواع منزلته الأدبية من سائر أنواع النثر الفني. وستقف الباحثة عند أهم الأغراض التي عالجتها الرسائل الأدبية في هذا العصر في محاولة منها استجلاء الصورة العامة لهذا الغرض الأدبي.

وقد انقسمت أغراض الرسائل الأدبية إلى أغراض تقليدية جارت الشعر كالمدح، والهجاء، والثناء، والوصف. وإلى أغراض محدثة ابتدعها الكتاب تباين الصورة التقليدية كالمفاضلات والمفاخرات والمحاورات. ومنها رسائل نقدية.

أولاً: أغراض تقليدية

* المدح

يُعد هذا الغرض من الأغراض الشعرية التي جرى الأدباء منذ الجاهلية على استخدامها في التعبير عن مقاصدهم المختلفة. ويُعنى بإبراز المناقب والخصال الحميدة على عكس الهجاء الذي يركز على إبراز المثالب والنقائص. ومع اتساع دائرة الموضوعات التي طرقتها الرسائل، أصبحنا نرى احتضان الرسائل لأغراض الشعر، وهذا الاحتضان جاء نتيجة تطور الحياة الثقافية، فأصبحت رسائل المدح تقف جنباً إلى جنب مع قصائد الشعر؛ لتؤدي وظيفة إعلامية.

ويبدو للناظر أن هذا الغرض، الذي عبّر عنه فن الرسائل في هذا العصر، اتسم بملامح فنية خالصة من أبرزها: اتساع المدحة النثرية لتفصيلات كثيرة لا تتاح في العادة للمدحة الشعرية، فبنية الشعر القائمة على قيود البيت والقافية، تقتضي من الشاعر أن يقتصر على الإشارة والتلميح، في حين أن النثر يتيح للكاتب أن يتوسع في الإنشاء، ويصوغ الفصول الطوال.

ومن الجدير قوله: إن المدح من الأغراض التي أضرب عنها صفحا كل من صاحب مواد البيان وصباح الأعشى. وفي ضوء استقرار النصوص المتعلقة بهذا الغرض، تبين للباحثة أن رسائل المدح تتدرج في إطارين: الأول: لا يمثل المدح فيه غرضاً مستقلاً بذاته، وإنما يمثل رافداً من روافد الأغراض التي تكون ما يمكن أن نسميه بأدب المجاملة، وهي وثيقة الصلة بحياة الكتاب اليومية، وبملاقاتهم الخاصة، فمعانيه تتلون بحسب الغرض الذي يعبر عادة عن إحدى العلاقات الاجتماعية، فقد اقتضت آداب المراسلات في الأغراض الإخوانية كالتهنئة والتعزية، والتهادي وغيرها، أن يكون المدح معنى من المعاني التي تتضمنها الرسائل. ففي رسائل التهنئة تكون معاني المدح فيها ثرة وغزيرة، كما في رسالة التهنئة بمولود، ومن ذلك ما كتبه الفاضل إلى صلاح الدين، فالمعاني تقوم فيها على كرم الأصل. يقول: "ودل على أن هذا البيت الكريم فلك الإسلام لا تطلع فيه إلا البدور، كما دل على عناية الله بأبيه"⁽¹⁾. وفي رسائل التهنئة بالإفاقة من المرض نجد أنها تقوم على مدح قدرة المخاطب على تحمل العلة، وإيمانه المطلق بالله بالشفاء.

(1) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 75/3.

وفي رسائل التعزية يمدح الكتاب مخاطبيهم، ويصفونهم بالصبر على المكاره، ويذكرون أنهم ليسوا بحاجة إلى من يذكرهم بتقلب الأيام؛ لأنهم أعلم الناس بذلك. يقول ابن الأثير في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه يعزيه بوفاة ولده: "وليعلم أن حزنه وصبره مثبتان في كتاب شهيدته، والمشار إليه بذلك هو المجلس السامي صان الله دمه"⁽¹⁾.

الإطار الثاني: ويتمثل في رسائل المديح الخالصة، وهي قليلة للغاية؛ ولعل السبب في ذلك أن الكتاب لم تدفعهم فاقة أو حاجة للتكسب أو التزلف. ومن رسائل المدح الخالصة التي تعبر عن هذا الإطار رسالة للفاضل في مدح أحد الأمراء، وقد أبدى فيها إعجابه بما أبلاه في الجهاد ضد الأعداء. ويبدو للمتأمل في الرسالة أن الفاضل ابتعد عن كل التقاليد المتبعة في مثل هذا اللون من المكاتبات من الدعاء للممدوح، والحمد والتسليم. وقد وجه الكاتب عنايته إلى استظهار مناقب الممدوح التي أغفلها الكتاب. ويبدو أن الكاتب يصدر مدحه عن إعجاب شديد بشخصية الممدوح، وتقدير بالغ لما قام به من أعمال خدمة للإسلام؛ فهو يعرض لنا صفحة مشرقة من سيرة هذا الأمير المجاهد، فيشيد بحسن بلائه في الحروب، وإقدامه وشجاعته. يقول: "إن محل الأمير من العزائم التي يسرها الله للجهاد في سبيله، والإقدام المسدد إلى نحور الكافرين سهام شديد الفتك ووبيله"⁽²⁾.

وينوه الفاضل بمناقب هذا الأمير، وما اجتمع لديه من كريم الشيم، وحميد الأخلاق، ومن كرم النسب، ومن إحياء لسنن الدين، وإماتة للبدع. يقول: "فمنزلته تسامي منزلة الكواكب بإفراط رفعتها، والهمم المنتدبة لتعفير أثر المنكرات، وإماتة بدعتها"⁽³⁾.

ويختتم الكاتب رسالته بإجماع الجميع على أن هذا الأمير "من صدور أمراء الإسلام وكبرائه"، وبالتالي "توحد بالرياسة العظمى، والفخر الفخم"، وتفرد "بسعادة الجد التي أوى إلى ركنها الأشد، واعتلى على طودها الأشم"⁽⁴⁾.

ومن الرسائل التي مدح بها الكتاب سلاطين عصرهم، وأشادوا بفضائلهم، لا سيما من أبلى في جهاد الفرنج بلاءً حسناً مثل آل أيوب، رسالة الفاضل في مدح الأيوبيين، والإشادة بكرمهم، وهي من أبرز الرسائل نظراً لدلالاتها على هذا الغرض، فالكاتب يعنى بتعداد خصال آل أيوب حتى جعلهم يبلغون الغاية القصوى في الكرم والشجاعة، ومثلاً فريداً لا يمكن أن ينافسهم فيه غيرهم. يقول: "وانتم يا بني أيوب، أيديكم آفة نفائس الأموال، كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال، فلو ملكتم الدهر

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق نور القيسي وهلال ناجي: 172.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 31.

(3) المصدر نفسه: 31.

(4) المصدر نفسه: 31.

لامتطيتم لياليه أدهم، وقتلتم أيامه صوارم، ووهبتم شموسه دنانير، وأقماره دراهم⁽¹⁾.
والرسالة على وجازتها تبين حرص الفاضل على مدح الأبطال والإشادة بمآثرهم، ودورهم البارز في
جهادهم ضد الفرنج، فالفاضل لم يكن كاتباً فحسب، بل كان سياسياً محنكاً يحرص على مصلحة الأمة.
وشاع في هذا العصر مديح البلدان والإشادة بفضائلها، فالكاتب الذي يروق له مكان ما،
وتحلو أيامه في أجوائه، يكتب فيه رسالة مدح يستجمع فيها محاسن المكان وميزات سكناه، ويمثل هذا
المنحى من الرسائل رسالة "ابن شكر"⁽²⁾ في مدح دمشق. يقول: "دمشق نزهة الأبصار وعروس
الأمصار، ومجرى الأنهار، ومُعَرَّس السقار، ومعبد الأبرار، المستغفرين بالأسحار"⁽³⁾.
والرسالة تدور حول محورين رئيسيين: المحور الأول: حول طبيعة المدينة وطقسها، وتطالعنا
دمشق بنسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، ومائها السلسيل.
ويبدو الأثر القرآني في هذه الرسالة واضحاً، فالكاتب وظف النص القرآني توظيفاً ملائماً مع
معطيات السياق الأدبي، فنراه حيناً ينقل النص المقتبس في سياقه. يقول: "وأوى إليها من اختار من
أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المبين ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذات قرار ومعين
﴿(4)﴾(5)).

ونراه حيناً آخر يعمد إلى إخفاء بعض أجزاء النص المستعار. يقول: "وفاكهتها الكثيرة لا
مقطوعة ولا ممنوعة"⁽⁶⁾.

المحور الثاني: يدور حول فضل دمشق ومكانتها بين سائر المدن، يقول: "ولم تزل مقر
البركات، ومعدن النبوات، ومنزل الرسالات، ومسكن أرباب الكرامات"⁽⁷⁾.
ولجأ الكاتب إلى الاستشهاد بالحديث النبوي لتدعيم رأيه في بيان فضل دمشق وقديسيته. وتبدو
غاية الكاتب من الاستشهاد بالحديث إلى تأكيد فضل هذه المدينة، من مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-:
"إن الله تكفل لي بالشام وأهله"⁽⁸⁾.

* الهجاء

(1) ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي: 223.

(2) هو الوزير صفى الدين عبد الله بن علي بن شكر، ولد في مصر سنة 540هـ، له بدمشق آثار منها بناء مصلى العيد، وبناء مسجد الفوارة، توفي
سنة 622هـ في مصر. ينظر: الدليل على الروضتين: 147.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 219/3.

(4) سورة المؤمنون آية: 50.

(5) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 219/3.

(6) إشارة إلى قوله تعالى: "وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة" سورة الواقعة آية: 33.

(7) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 219/3.

(8) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (7306) من حديث عبد الله بن حوالة.

الهجاء غرض أصيل من الأغراض المهمة التي عبّر عنها الشعر العربي، وهو فن يُعنى
بإبراز النقائص والمعائب، أي أنه يُعنى بإظهار الصّفات السلبية، وهو بذلك يقف موقفاً مناقضاً للمدح
الذي يقوم على إظهار الصفات الإيجابية. تقدم القول إن النثر زاحم الشعر في أغراضه، وغداً بفعل

التطور الذي طرأ على الفكر العربي قادرا على مجازاة الشعر في هذا الغرض، بل إنه تفوق عليه، فقد لمس الكتاب في النثر قدرته على حمل معاني الهجاء بسبب طواعيته واتساعه للكثير من المعاني.

وفي ضوء الدراسة الفاحصة للنصوص تبين للباحثة أن هذا الغرض من الرسائل اتسم بالإيجاز، وعدم المغالاة في الهجاء والإفحاش، وهو هجاء أشبه بالمداعبة، وربما يعود السبب في ذلك إلى طبيعة الصِّراع الذي كان قائما في ذلك العصر بين المسلمين والفرنج، وبالتالي لم يكن هناك مجال لتبادل مثل هذا الغرض من الرسائل.

تنوعت مضامين الهجاء في هذا العصر، فمنها ما يتناول هجاء الأفراد، ومنها ما يتناول ذم النسب، ومنها ما يتناول ذم الدنيا، ومنها ما يتناول ذم المدن، وغيرها من المضامين التي خرج إليها هذا الغرض الأدبي.

وأول المضامين التي عبّر عنها الهجاء:

1- **هجاء الأفراد**، وقد سلك الكتاب في هذا المضمون ثلاثة أساليب الأول: يتناول **الصفات المعنوية للمهجو**، والتي تخلّ بقدره، وتحطّ من شأنه، وتسلبه كل مكرمة، فينعت بالغدر والخيانة والجبن، وما إلى ذلك من الصفات التي يعبّرها العرب من المطاعن والنقائص.

ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى رسالة للفاضل يذم فيها رجلا يماطله، ويرجع سبب مماطلته إلى البخل. ومنذ مستهل الرسالة يأخذ الفاضل في إظهار صورة عكسية مقلوبة للمهجو، وهذه إحدى الطرائق الفنية التي وظفها الكاتب في هجاء المهجو، فهذا الرجل -في نظر الكاتب- شخصية تحمل جوانب سلبية، وتبدو هذه الجوانب في طباعه، فهو رجل مماطل شديد الشح، مفرط البخل. يقول: "المطل -أطال الله بقاء الحضرة- دخان نار الصنع الجميل، وكسوف لتمام بدر التأميل، وما برح للبخل أcha مناسبا، وجارا مصاقبا⁽¹⁾"⁽²⁾. ومع أن هذا الرجل مفرط في البخل إلا أنه يتظاهر بالكرم، فعندما تزداد وتيرة إلحاح الكاتب عليه في قضاء وعده، والابتعاد عن المماطلة، فإن جوابه يظهره بمظهر الجواد الكريم، فنراه يقول على لسان البخيل: "وهو يسأل أن يُنعم عليه بالقول: "نعم" مفيدة أو "لا" مريحة إن شاء الله تعالى"⁽³⁾. وهكذا نرى الفاضل أدخل أسلوب القلب لإظهار البخيل في صورة مشينة، وهي صورة تقوم على السخرية، والنقد للمهجو، بعيدا عن عبارات السباب والإقذاع.

أما الأسلوب الثاني من هجاء الأفراد فيركز على **الصفات الحسية للمهجو** كالشكل، وأعضاء البدن، والحركات، والنطق، ويصاغ ذلك كله في قالب ساخر مضحك، تنتقص من قدره، وتحطّ من شأنه. وينحو هذا الأسلوب رسالة للوهراني كتبها في هجاء أمير بخيل، ويجري أسلوب الرسالة على شاكلة الرسالة السابقة، وفيها يعمد الوهراني إلى إدخال طريقة القلب حتى تظهر صورة الأمير بصورة مزرية مشينة. فالكاتب من خلال الرسالة يسعى إلى إبراز الملامح الخلقية للأمير في صورة شوهاء

(1) مصاقبا: صاقبهم مصاقبة - واجههم، وهنا يريد أنه ملازم للبخل. ينظر: القاموس المحيط: مادة صقب.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 25.

(3) المصدر نفسه: 25.

ساخرة من خلال إسقاط صفة البخل على الأمير؛ ليصل إلى حقيقة، هي أن هذا الصفة حوّلت الأشياء عن مواضعها في خلقته "فجفانه أضيّق من أجفانه، وقدره أصغر من قدره، وليس في بيته للطارق غير السماء والطارق، ولا يُقدّم للمنتاب⁽¹⁾ غير التّقرّيع والعتاب، ولا يمدّ للنزّل غير العرض الهزيل"⁽²⁾.

ويمضي الكاتب متحدّثاً عن نزعة البخل المتأصلة في نفسه، والآخذة بمجامعه، ومن جوانب هذه النزعة أنّه إذا قدم طعاماً يرى أنه من أفخر الأنواع، فمائدته تمتلئ من بقايا الخبز ومن لحوم الإخوان، وإذا طلب ضيفه الأكل بالإدام أطعمه من الذي في الأقدام⁽³⁾.

ولا يكتفي الكاتب بتوجيه سهام النقد لهذا الأمير، بل يتجاوز إلى الإشارة إلى ما عنده من نعم وخيرات يمنعها، معتمداً في ذلك على مخزونه الثقافي واللغوي. يقول: "وعلق على رؤوس الخيل أجزاء من كتاب الذيل، وربما قدّم للجمل شرح أبيات الجمل، ويعوض البغال عن العلف جملاً من أخبار السلف، ويقدم للحمار باب رمي الجمار"⁽⁴⁾.

ويحاول الكاتب في آخر الرسالة أن يترفق مع المهجو من خلال إيراد نفا من الشعر تتفق مع مقصد الكاتب، فهو يحاول أن يتخفف من المضي في تعداد مناقص المهجو رعاية للأمير، وحتى يرتاح من تسويات هذا الأمير ومواعيده غير المسئولة. يقول: "فإن رأى -أدام الله علوه- أن يجعل رسوله وصوله، وجوابه ركابه، ويُعفى من التسويات الأبدية، فعل ذلك موفّقاً إن شاء الله"⁽⁵⁾.

ومن هذا الضرب رسالة ابن الأثير في ذم غلام أبله كان يقاسي من بلهه نكداً، فالكاتب في هذه الرسالة يوجه نقداً للغلام، وهذا النقد يحمل في طياته سهام النقد الساخر، حتى تظهر صورة الغلام مثيرة للضحك، يقول: "ولقد ملكه النسيان حتى كأنّه يقظ في صورة نائم"⁽⁶⁾.

ويبدو أثر الثقافة الدينية فيها واضحاً في حديثه عن قصة موسى -عليه السلام- مع الخضر رابطاً بينها وبين عجز الغلام عن حفظ أي شيء يوكل إليه، يقول: "فما أرسل في حاجة إلا ذهبت عن قلبه يُمنّة ويسرة، ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾"⁽⁷⁾⁽⁸⁾.

كما يعتمد الكاتب على ثقافته الواسعة ومعرفته بالآديان في رسم صورة مضحكة للغلام: "حتى حقق قول التناسخ في نقل أرواح الأناسي إلى البهائم"⁽⁹⁾.

أما الأسلوب الثالث فيتناول الصفات العلمية والثقافية، فيتجاهل الكاتب معرفة المهجو، ويحط في ثقافته وينكر عليه علمه.

(1) المنتاب: الملح في الطلب مرة بعد مرة. لسان العرب - مادة: نوب.

(2) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 173.

(3) المصدر نفسه: 173.

(4) المصدر نفسه: 174.

(5) المصدر نفسه: 175.

(6) المثل السائر - ابن الأثير: 128/1.

(7) سورة الكهف آية: 63.

(8) المثل السائر - ابن الأثير: 128/1.

(9) المصدر نفسه: 128/1.

ومما يتصل بهذا الغرض من الرسائل رسالة ابن الأثير في ذم كاتب ممن يدعي الكتابة وليس منها، فقد نعت الكاتب المهجو بالجهل في أمور الكتابة وأصولها، وعدم معرفة البلاغة والبيان. ولعل من أهم الأمور التي تلفت انتباهنا منذ مطلع الرسالة تلك البداية التي استهل بها ابن الأثير رسالته، وهي بداية تقوم على تجريد شخص يخاطبه الكاتب، ويتوجه إليه بالحديث، فهو يستغفر الله تعالى عن كل ذنب فعله أو أضمره إلا ذم هذا الكاتب، فهو لا يسأل الله المغفرة في ذمه.

وتمثل هذه الرسالة موقفا جريئاً من الكاتب، فقد انتقد حكام ذلك الزمان، وتعيينهم مسئولين في غير مكانهم المناسب، وما قد يجره هذا التعيين من ظلم وإساءة للمهنة. يقول: "ولا عجب من أغاليط الزمان التي هي أقبح من أغاليط الناس، وكثيرا ما يضع الذنب موضع الرأس، ويشتبّه عليه الأنكاس بالأكياس، وقد قيل إنه أعشى لا يحقق النظر على شدة تحديقه"⁽¹⁾.

ويأخذ الكاتب في نشر مثالب المهجو بغية إطلاع القارئ على حقيقته، فيظهره في صورة عكسية مقلوبة وهي إحدى الطرائق الفنية التي لجأ إليها الكاتب في هجائه. فالكاتب في نظر ابن الأثير رجل جاهل، غير متمكن من مهنته. يقول: "أيها المهين الذي لا يبين ولا يبين، وأضحك الناس على خُرَانِكَ (2) العظام"⁽³⁾.

ويعرض ابن الأثير صورة ساخرة تكشف عن أهم ملمح سلبي انبنت عليه شخصية المهجو، وهذا الملمح يدور حول اعتداد هذا الرجل بما عنده، وشموخه شموخا لا يستوي في ميزان العقل، فصورة الكاتب في هذا الجزء من الرسالة صورة الكاتب المغالي الذي يوهم من حوله بأن له باعا طويلا في الكتابة.

ويسخر ابن الأثير بذلك الكاتب الذي يذمه حين يذكر أن كتبه جاءت غثة باردة "لا يقف عليها واقف إلا وجد في حلقه سورة الدخان، ومن الحشائش ما يُسمى خانق الكلب، وهذا هو خانق الإنسان"⁽⁴⁾.

ويسعى ابن الأثير إلى تشويه صورة المهجو، فيجعله مغنيا اختلطت عليه أمور، وهو لا يفرق بين مهنة الغناء ومهنة الكتابة، يقول: "وإذا أراد صاحبها أن يقول: يا سلمي، سبقه لسانه فقال: يا لبينى، ومع هذا فينبغي لك أن تحمد الله إذ جعلك في الطرب ذا براعة"⁽⁵⁾.

ويحاول الكاتب في آخر الرسالة أن يشعر هذا المهجو بمدى جديته وموضوعيته، كما أنه يبدو لنا مترفقا به، فهو إن لم يُبدع في مهنة الكتابة، فسوف يبدع في مجال تخصصه بالغناء.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 184.

(2) حرّان: جمع: حرّ وهو السلاح والفضلات الخارجة من المعدة. لسان العرب - مادة: حرّأ.

(3) المصدر نفسه: 184.

(4) المصدر نفسه: 185.

(5) المصدر نفسه: 185.

ويحاول إقناعه من خلال استدعائه بعض الشخصيات التاريخية المشهورة من أجل إضفاء أجواء تعبيرية موحية، يقول: "فما فانتك فضيلة الألمان، وفي أغاني الغريض ومعبد ما يغني عن فصاحة قس وسحبان"⁽¹⁾.

ويبدو أن ابن الأثير يتخفف من ذم الكاتب وهجائه؛ ربما لمودة فائنة ربطت بينهما، ويصرح أن ذمه له رعاية له وخوفاً عليه من الذكر السيئ؛ لأنه يسوؤه أن يقال: "هذا نسيب فلان، ومن الأنساب ثآليل في الوجه، ومنها خيلان"⁽²⁾.

2- ومن ضروب الهجاء ما يتعلق بـ **ذم النسب**، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير، يقول: "لهم نسب لا تدخله لام التعريف، وهو موضوع لا يجري على سنن التوقيف، فإذا ذكر أوله وقفت من عرفانه على طلل، ووجدته مهملاً في جملة من الهمل"⁽³⁾.

يرى الناظر في الرسالة أن الكاتب أفاض كثيراً في ذم هذا النسب، والحمل عليه حتى رماه بكل نقيصة وشنيعة، فهو مجهول الهوية مُنكرٌ، موغلٌ في الإهمال وطي النسيان. يقول: "فما أرهف لوصفه لسان إلا نبا، ولا اقتدح له زناد خاطر إلا كبا"⁽⁴⁾. فالكاتب بنى فكرته على هذا النحو لكي تزيد المعنى عمقا؛ لما تتميز به المقابلة من قدرة على النهوض بالتعبير عن صورة الانقلاب التي يريد الكاتب إطلاعنا على أوضح ملامحها وقسماتها العامة.

ويميل الكاتب في الجزء الأخير من الرسالة إلى توظيف الشعر؛ ليفصح عن ذمه لهذا النسب، ففي إشارته إلى بيت أبي نواس في هجاء "الخصيب" ما يوحي بضيق الكاتب من هذا النسب. يقول ساخراً: "وهم منه كأوى الذي يرى الناس له ابناً، ولا يرون لابنه أباً"⁽⁵⁾. وهذا مأخوذ من قول أبي نواس في هجاء الخصيب:

"وما خبزه إلا كأوى يرى ابنه ولم ير أوى في حزون ولا سهل"⁽⁶⁾.

فأبو نواس ذم خبز الخصيب في عدم رؤيته، وقد نقله الكاتب إلى ذم النسب، يقول ابن الأثير في أخذه المعنى: "وهذا المعنى الذي أخذه أبو نواس لم يكن مناسباً، فإن الخبز في عدم رؤيته لا يحمل على ابن أوى، وإنما المناسبة تقع في النسب من أجل ذكر الابن والأب"⁽⁷⁾.

3- ومن ضروب الهجاء ما يتصل بـ **ذم الدنيا**، ويبدو ذلك واضحاً فيما كتبه ابن الأثير عنها، فالكاتب يسطر كلماته مبدياً رأيه فيها، صادراً في ذلك كله عن تجربة ذاتية عميقة عاشها الكاتب بنفسه.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 185.

(2) المصدر نفسه: 185.

(3) المثل السائر - ابن الأثير: 105/1.

(4) المصدر نفسه: 105/1.

(5) المصدر نفسه: 105/1.

(6) المصدر نفسه: 105/1.

(7) المصدر نفسه: 111/1.

يقول: "أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جُبِلت النفوس على حبها، وكل ما تستلذه الأبدان من مأكُلها، فإنه يضرها من جهة طبيعتها"⁽¹⁾.

ويبدو أن ذم الدنيا في هذه الرسالة قد اتخذ إطاراً خاصاً، وأن معالم هذا الإطار كانت تركز على الموازنة بين ما تجلبه الدنيا للإنسان من منفعة ومضرة، معتمداً في ذلك كله على موروثة الثقافي، والمتمثل بالمثل الذي أمدَّ عبارة الكاتب بالقوة والمتانة، وأضاف عليها رونقاً وجمالاً. فالكاتب وظف المثل بالتمهيد له بعبارة صريحة أسند فيها الفعل "قيل" إلى ما يدل على كونه مثلاً. يقول: "وهو كالذي ينتفع باصطلاء النار، وهي محرقة لأثوابه، وقد ضُرب لذلك مثل من الأمثال، وقيل "إن كل ما ينفع الكبد مُضِرٌّ بالطحال"⁽²⁾⁽³⁾.

4- ومن ضروب الهجاء ما يتصل بـ **ذم البلدان**، فكما أشاد الكاتب بعدد من البلدان وفضائلها، فإنهم ذموا عدداً منها وعرضوا بها. ويمثل هذا المنحى من الرسائل رسالة الفاضل في ذم ماء دمشق، فقد كان الفاضل شديد الضيق من أجواء بلاد الشام، فالمطر المتهاطل، والبرد الشديد، واحتجاب الشمس، وتراكم الثلوج، وطبيعة مياهها، أمور وأحوال بعثت الضيق في نفس الكاتب، مما دفعه إلى ذمها وذم مائها. يقول: "وماذا يقول في بلدٍ لو صحت الجميئة من مائه، لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمي وشفائه، فإنه ماء يؤكل، وبقية المياه تُشرب، ويجد وخامته من يُنصف ولا يتعصب"⁽⁴⁾.

ويتصل بهذا اللون من الرسائل رسالة ابن الأثير في ذم الخابور⁽⁵⁾، وتبدو الجوانب السلبية لهذه المدينة في ثنايا الرسالة، حيث أخذ الكاتب يسردها محاولاً أن يُضفي على نهرها صفات مستمداً إياها من حميم جهنم، يقول: "ولا يجد ماؤه مَسَّ البرد، ولا يروي وارده على كثرة الورد، فالحميم مستمد من شرابه، وطينة الخبال مخلوقة من ترابه"⁽⁶⁾. وراح يصف الكاتب مبينا أثر طبيعة المدينة السيئة على أهلها، فهم "أحياء في صورة أموات، قد منوا بدقة الرقاب، وعظم البطون، وضعف الأصوات"⁽⁷⁾. وينقل لنا شعوره لدى خروجه من هذه المدينة، فقد استبشر الكاتب بالنجاة من ذلك العذاب، مضمناً بشارته بيتين من الشعر أدخلهما الكاتب في رسالته دون الإشارة إلى كونهما من شعر غيره، يقول:

لم آتِها من أي وجه جنتها إلا حسبت بيوتها أجدثا

⁽¹⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 111/1.

⁽²⁾ لم أعر على المثل في المصادر المحققة والمطبوعة.

⁽³⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 111/1.

⁽⁴⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 9/3.

⁽⁵⁾ ولاية واسعة وبلدان جمّة، غلب عليها اسم الخابور، فنسبت إليه من البلاد قرقيسيا، وماكسين، والمجلد وعربان. ينظر: الأعلام الخطيرة: 788/3،

معجم البلدان: 334/2.

⁽⁶⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نور القيسي وهلال ناجي: 111.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 111.

تصدأ بها الأفهام بعد صقالها وتُرَدُّ ذكران العقول إناثاً⁽¹⁾.

وأخيراً: تشير الباحثة إلى أنه لا يمكن أن تتصدى لدراسة جميع الرسائل المدرجة ضمن هذا الغرض، واكتفت بمجموعة الرسائل السابقة في الدلالة على الملامح العامة للمضامين التي عبّر عنها فن الهجاء كما صورته الرسائل في هذا العصر.

* الرثاء

فن من فنون الأدب العربي اختُصّ الشعر بالتعبير عن معانيه، وظل مستأثراً بمعانيه فترة طويلة، ولكن بحكم التطور الذي طرأ على النثر العربي، أصاب فن الرثاء قدرًا من التطور. وفي ضوء فحص النصوص التي بين يدي الباحثة، تبين لها أن رسائل الرثاء تعدّ قليلة مقارنة مع غيرها من الرسائل، ويبدو أن أكثرها قد امتدت إليه يدُ الزمن، فصارت إلى ضياع. ومن رسائل الرثاء في هذا الضرب رسالة لابن الأثير كتبها إلى أبيه جواباً عن كتابه المخبر بوفاة أخيه -رحمه الله- وقد بدأ الكاتب رسالته بالدعاء لوالده بطول البقاء، وأن يجزيه الله الثواب لقاء صبره على المصيبة التي ألمت به.

إن رسائل الرثاء تدور في محاور ثلاثة. الأول: يدور حول التفجع على الميت، والثاني: تعداد مناقب الميت ومآثره، والثالث يدور حول الشكوى من الزمن، وذم الدنيا والإلحاح على زوالها. والكاتب في رسالته يُعبّر عن أزمة نفسية عاشها الكاتب، وتتمثل في موت أخيه الأكبر مجد الدين⁽²⁾. وهو يصور حالة الذهول التي أصيب بها لدى سماعه الخبر، بحيث غدا غير قادر على تمالك نفسه من فداحة المصيبة، يقول: "فعمي طرفي عن نظره، وصم سمعي عن خبره، ووقف لساني فلم يمس بقرأة أسطره"⁽³⁾.

ويستمر الكاتب في تصوير مشاعره، فقد بكى بكاءً حاراً حزناً على أخيه الذي كان يحنو عليه، ويقاسمه الحياة بلحوا ومرها. ويعد هذا الجزء من أكثر أجزاء الرسالة حرارة وعاطفة. ويعمد الكاتب فيه إلى تعداد طائفة من مناقب الفقيد، وفي مقدمتها حسن العشرة، والأخلاق الحسنة والعلم الغزير⁽⁴⁾. ويلفت الكاتب نظر القارئ إلى صغره مما هيجه وأثار شجوه، إذ تخطفه الموت، وهو ما زال في ريعان الصبّاء، ولم يذق سكر الشباب⁽⁵⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق نور القيسي وهلال ناجي: 111.

(2) هو مجد الدين المبارك بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري. ولد في جزيرة ابن عمر سنة 540هـ، وانتقل إلى الموصل ونشأ بها، وقرأ الأدب والحديث، وكتب لأمرائها، كان منقطعاً للعلم، صنف كتباً عديدة منها "النهاية في غريب الحديث" وهو مطبوع، توفي: 606هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 68، وفيات الأعيان: 141/4.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 86.

(4) المصدر نفسه: 86.

(5) المصدر نفسه: 86.

ويوجه الكاتب جهده إلى حشد ما يمكنه من الآثار السلبية التي ترتبت على رحيل أخيه، وهذه الآثار كلها تتحد لتشكل صورة الأذى الذي لحق بالكاتب جراء فراق أخيه. ومع أن الكاتب بذل قصارى جهده في تشكيل هذه الصورة، وحاول أن يُقرب هذه الصورة إلى الأذهان، فإنه سيبقى مقصرا عن الوفاء بنقل الصورة الحقيقية، يقول: "فقد كان أُملي الذي به أصحب الأيام، ومجدي الذي به أفاخر الأقسام، وكنانتي التي تجمع سهام المطالب، وجنتي التي تقي سهام النوائب"⁽¹⁾. ويطالعنا الكاتب بنفس الواعظ موظفا موروثة الأدبي لإثراء فكرته من جهة، وشد أزرها من جهة ثانية، فقد كلف بزيارة المقابر، وأصبح مغرما بالبكاء. يقول:

"لقد لامني عند القبور على البكا
فقال: أتبكي كلَّ قبر رأيتُه
خليلي لتذراف الدموع السوافك
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له: إن الشجي يبعث الشجي
فدعني فهذا كله قبر مالك"⁽²⁾

وفي نهاية الرسالة يختم الكاتب رسالته بالدعاء لأخيه بأن يبقى قبره حيا مدرارا وترابه معطرا، ولكن هذا لا يخفف من حزن الكاتب على رحيله فهو "لن يبيل له أواما، ولا يشفي منه سقاما"⁽³⁾. ولم يقتصر الرثاء على رثاء الأفراد بل تعداه إلى رثاء الديار الدارسة، ومن ذلك ما كتبه ابن الأثير في رثائها، يقول: "دارٌ كانت مقاصر جنة، فأصبحت وهي ملاعب جنة، ولقد عميت أخبار قطانها، وأنشاز"⁽⁴⁾ أوطانها حتى شابهت إحداها على الخفاء الأخرى في العفاء"⁽⁵⁾.

ويبدو من خلال الرسالة تأثر الكاتب لحال هذه الديار بعد أن أقفرت وهجرها أهلها. وتحدث عن الآثار التي خلفها هجران أهلها لتلك الديار، معتمدا على الثنائيات التقابلية لتوضيح المعنى من مثل قوله: "وكنئتُ أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام، ولا يرفع عنها جلباب ظلام"، ويقابلها "غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سوافج دموعه، والليل شق عليهم ثوبه، فظهر الصباح من خلال صدوعه"⁽⁶⁾.

ويلحظ القارئ اعتماد الكاتب على موروثة الأدبي في إقامة هذه الثنائيات. يقول:

"أمرابع الغزلان غيّرك البلى
حتى غدوت مراتع الغزلان".

وهذا التضمين أشار إليه الكاتب نفسه في كتابه "المثل السائر" بقوله: "وهذه معان لطيفة جدا، وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضي"⁽⁷⁾.

ولعل النماذج السابقة التي أدرجتها ضمن هذا الغرض الأدبي قد مثلت إسهام الرسالة في التعبير

عنه.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 86.

(2) الأبيات لمتنم بن نورية في رثاء أخيه مالك. ينظر مجموع شعرهما المطبوع تحت عنوان: مالك ومتمم ابنا نورية البربوعي - تحقيق ابتسام مرهون الصفار.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 87.

(4) أنشاز وهو ما ارتفع وظهر من الأرض، وجمعها النشُر. ينظر: اللسان مادة "نشز".

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 108/1.

(6) المصدر نفسه: 108/1.

(7) المصدر نفسه: 109/1.

غرض قديم من أغراض الشعر العربي، فمنذ الجاهلية تغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم. وإذا كان الشعراء قد وقعوا كثيرا من قصائدهم الألبان الخلقية الرفيعة مما يتصل بالمروءة والكرم والوفاء، وغيرها من الفضائل، فإن النثر لم يصول الشعر في هذا الغرض الأدبي، بالرغم من التطور الذي طرأ على النثر العربي، وظل الشعر متفوقا على النثر في هذا الغرض. وفي ظل تفحص النصوص تبين أن رسائل الفخر قليلة، ومنها رسالتان للفاضل، ورسالة لابن الأثير. وفي رسالة الفاضل الأولى، يتباهى فخورا بشعره وكثرته، وتنوع ضروبه، وقد أورد الصّدي جزءا منها، يقول: "إني من درجة ستين وما قاربها، وقد نظمت بها خمسين ألف بيت من الشعر بشهادة عيانها، وحضور ديوانها، ومثل هذا العدد لا يُعرف لقديم ولا مُحدث في مثل هذه المدة"⁽¹⁾. فالكاتب هنا يفتخر بما وهب من البراعة في نظم الشعر، ويَعْتَدُّ أيما اعتداد بما اجتمع لديه من القدرة على نظم عدد كبير من أبيات الشعر وصلت خمسين ألف بيت، وهذا العدد لم يصل إليه أحد من أصحاب الشعر القديم على وفرتهم زاعما أنه أتى بقواف لم يتسن ابتداعها لأحد من قبل.

والناظر في الرسالة يلحظ أن الكاتب مأخوذ بكثرة شعره، ومن المتعارف عليه أن الكثرة في الشعر ليست مقياسا للجودة، كما أنه مزهو بقوافيه الفريدة اليتيمة التي لم يسبقه أحد إليها مع أن الشعراء العرب لم يتركوا قافية إلا وسلكوا طريقا للوصول إليها حتى أضحت ذلولا متداولة.

وفي رسالة الفاضل الثانية يفخر برسائله، فقد أورد ابن نباتة فقرة منها يقول فيها: "قد علم الناس أن كتبي لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا مجال فيها لهماز مشاء بنميم، وإني فيها على هدى قويم، إذ كان المتوسلون في ضلال قديم، وإن مَنْ قطع ما أمر الله به أن يُوصل منها، وكشف ذيلها لا يكشفها عن عورة يُعتذر عنها"⁽²⁾.

والكاتب في هذه الرسالة يفخر بأنه يقتفي أثر القدماء في كتابة رسائله، وأنه يسير على نهجهم، فهم أئمة البيان، وهذا شيء يُحمد للكاتب. ولعله يعد مبالغا في حديثه عن خلو كتبه من العيوب، وهذا أمر غير مقبول، فلا يوجد عمل أدبي خال من العيوب.

وهذه رسالة لابن الأثير كتبها إلى "معين الدين بن سكينه"⁽³⁾ جوابا عن كتاب، كان المذكور قد أرسله إليه، وضمنه ضربا من الوصف والمدح والإطراء، وقال لابن الأثير فيه: "إنك في الكتابة كفلان الكاتب"، يعني به الفاضل، ويظهر أن هذا التشبيه لم يكن ليرضي غروره، فعرض بذلك في الجواب، يقول: "أما تشبيهه إياي بفلان الكاتب، فقد وضعني بقوله هذا، وهو يرى أنه رفعتني، لكن يُغفر له ذلك لسلامة مقصده، ويحمل على أنه اشتبه الذهب والنحاس على نقده"⁽⁴⁾.

(1) الواقي بالوفيات - الصفدي: 352/18.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 54.

(3) هو ابن سكينه معين الدين عبد الوهاب بن علي، كان محدثا، توفي سنة 607 هـ. ينظر: الذيل على الروضتين: 70، النجوم الزاهرة: 201/6.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 313.

ويبدو من هذا القول وجود منافسة أدبية بين الأديبين، فقد ذكر ابن خلكان أن ابن الأثير كان يعارض القاضي في رسائله، "فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها، وكان بينهما مكاتبات ومجاولات"⁽¹⁾. ويبدأ الكاتب بتقديم الحجج التي جعلت الفاضل يتبوأ مكانة مرموقة بين أدباء عصره، ومنها أنه عاش في دولة صلاح الدين، وهي دولة جردت نفسها لقتال الفرنج، فاكنتسب الشهرة من تلك الدولة. يقول: "وقد علم أن ذلك الرجل رُزق دولة سيفها أفصح من كتابه، وخطبها أعظم من أن يفتقر إلى تزوير خطابه، فكان يقول عنها بعض ما يرى، ولا فضل للقلم إذا جرى بحكاية ما جرى"⁽²⁾. ويرى أنه لو وُضع في نفس الظروف لكان أبدع في الكتابة، وأغنى قلمه عن كل ذي قلم، يقول: "فتفضل وأعطني دولة كنتك حتى أخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجدا"⁽³⁾. ويمضي الكاتب في افتخاره بكتابات، ويعتد بنفسه أيما اعتداد، فقد ملك ناصية البيان، ولم يترك لأحد سبقه أو جاء بعده بقية، وتبلغ لهجة الفخر ذروتها عندما يتبرأ الكاتب من الكلام الذي قاله عنه المذكور، فهو كالشمس في وضوحها لا تستر بنقاب. والكاتب في فخره بنفسه يتكئ على مخزونه الأدبي، فهو يستشهد ببيت من الشعر يدل فيه على مكانته دون الإشارة إلى قائله بل يتركه غفلا:

مجد تلوح حجوله⁽⁴⁾ ونصيله⁽⁵⁾ لي سافر والحق لا يتلثم⁽⁶⁾

ويختتم الكاتب رسالته بلغة لا تخلو من الغرور، فكما أن الله أعطى الفاضل ميزة قربه من الملك الناصر، فإن الله جعل لسانه للألسنة إماما⁽⁷⁾. وهكذا فإن ابن الأثير شغل نفسه بمنافسة الفاضل، وهو يشير إلى هذا في "المثل السائر" حتى إنه لم يدع للفاضل كتاباً ذكر فيه بالثناء إلا نافسه فيه⁽⁸⁾.

* الوصف

يُعدّ هذا الغرض من أهم الأغراض التي تناولتها الرسائل الأدبية في العصر الأيوبي، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كثيرا من موضوعات الرسائل الفنية يدخل في باب الوصف، فقد تخلل الوصف كثيرا من الرسائل الرسمية والإخوانية والأدبية، لكن تلك الرسائل لا تقتصر على الوصف، بل هو عنصر تابع للغرض الذي تسعى إلى أدائه، أي أنه لم يكن غرضا قائما بذاته، حتى أخذ يستقل بنفسه نتيجة للتطور الذي برز في النثر العربي، بحيث صار الوصف يجاري الشعر ويصاولة مصاولة قوية في التعبير عن معاني هذا الفن تعبيراً فنياً مميزاً، حيث تتيح لغة النثر للكاتب التوسع والمرونة، وتطويع

⁽¹⁾ وفيات الأعيان - ابن خلكان: 333/2.

⁽²⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 313.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 313.

⁽⁴⁾ المحجول: جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس. لسان العرب - مادة: حجل.

⁽⁵⁾ النصيل: الخطم أو مقدم الأنف أو الفم. لسان العرب - مادة: نصل.

⁽⁶⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 313.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 313.

⁽⁸⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 211/1.

الألفاظ للمعاني على نحو يمكنه من التفصيل في هذا الغرض على عكس لغة الشعر المقيدة بالوزن والقافية. وعلى الرغم من استقلال هذا الفن إلا إنه ظل ممزوجاً بالألوان الأخرى من الرسائل.

والوصف من الأغراض التي لم يتعرض لها صاحب مواد البيان، وصاحب صبح الأعشى، فيما أوردها من أغراض الرسائل. ولعل الباحثة لا تستطيع أن تحيط بكل ما وصفه الكتاب في رسائلهم في هذا العصر؛ نظراً لكثرة نصوصها، وتنوع موضوعاتها.

وارتأت الباحثة انتقاء أهم الأطر التي دارت حولها رسائل الوصف، واختيار النماذج التي عبّرت عن أبرز مضامينه. أمّا الأطر فهي: وصف الطبيعة، وصف المظاهر الحضارية ووصف البلدان. وسأعنى فيما يلي بدراسة هذه الأطر في ضوء النصوص المنتقاة.

الإطار الأول: وصف الطبيعة: اشتهرت مصر وبلاد الشام بطبيعة جميلة، ومفاتيح متعددة، من أنهار جارئة، وجبال خضر، وسهول يانعة، تجري فيها الجداول، وقصور رائعة.

كانت هذه الطبيعة مدعاة لجذب أنظار الكتاب، وشد انتباههم، فراحوا يصفون ما يحيط بهم من مظاهر الطبيعة كالرياض، والبساتين، والمتنزهات، والأشجار والثمار، فضلاً عن المظاهر الطبيعية العامة مثل وصف المطر بعد قحط، ووصف الكواكب، ووصف الشتاء وبرده، ووصف الثلوج. وبالمثل فقد أقبل الكتاب يصفون ما يحيط بهم من حيوانات وطيور.

1- ومن المضامين التي عبّر عنها الكتاب في وصف الطبيعة **وصف متنزه** في فصل الربيع، ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى رسالة لابن الأثير، فقد رسم الكاتب لوحات فنية رائعة تصور مشاهد الربيع الجميلة المتمثلة في السماء المنقوشة، والشمس، والسحاب الماطر، وما يتصل بها من مظاهر الجمال التي تأتي مع الربيع، وما يبعثه من حياة وأمل. فالكاتب يشخص الطبيعة، ويبت فيها الحياة والحركة، ويخلع عليها المشاعر الإنسانية. يقول: "فالشمس تكشف لنا عن بعض وجهها وتستتره، والسحاب يطرنا تارة، ورذاذاً أكثره"⁽¹⁾. ومما زاد في جمال هذا اليوم الربيعي الروض الغناء، وما يحيط به من مفاتيح وجمال. فالحديقة "عاليها لجين وعقيان، وأدانيها من ديباج خُسرواني ومن عصب يمان"⁽²⁾.

وقد أضفى الكاتب على الروض صوراً تعج بالحركة، وتبعث فيها الحياة، فهذا الروض منتدى للغناء تشترك فيه كافة مظاهر الطبيعة، وهي ما بين مطرب للسمع، ومبهج للنفس، وممتع للنظر"⁽³⁾. وأخذ الكاتب يعبر عما يحس به تجاه الطبيعة الخلابة، ويدعو صديقه إلى مشاركته في الاستمتاع بمظاهرها، وما فيها من جمال، يقول: "ومن علامات المودة أن يتمنى الصديق مساهمة صديقه في كل لذة طاب مجناها، وطال مهنائها"⁽⁴⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 147.

(2) المصدر نفسه: 147.

(3) المصدر نفسه: 147.

(4) المصدر نفسه: 147.

ويرى الكاتب أن هذا الروض كان مسرحاً له ولأصدقائه، فهم يلجأون إليه ليستريحوا من ضجيج الحياة وصخبها. ويلاحظ القارئ على الرسالة لغتها السهلة الواضحة، وتراكيبها القصيرة التي بثت فيها عنصر الحركة والحيوية من خلال اعتماد الكاتب على التجسيم والتشخيص، كما أن ضروب الصنعة كالسجع والجناس لم تحل دون فهم معاني الرسالة.

2- ومن الرسائل التي كتبت في وصف نزول الأمطار الغزيرة بعد جذبٍ شديد، رسالة للناصر داود كتبها إلى ولده "غياث الدين شادي"⁽¹⁾ مهناً بنزول الغيث بعد انحباسه مدة. وكانت مثل هذه المناسبات مدعاة لإدخال الغبطة والسرور بين أفراد المجتمع؛ لما في نزول الغيث من توافر الخصب، والنماء، والرحمة، بعد القحط والجذب، وضيق الحال. يقول: "أعلم الولد، أنه لما كان في يوم كذا أقبلت السماء مرتدية بمطارفها ملتحفةً بذكُن ملاحفها، تنقط وجه الأرض بدر قطرها، حتى استخرجت من داوي نبتها يانع زهرها، ومن معاطن قيعانها متأرج نشرها"⁽²⁾. ولعل من أهم المشاهد التي دارت حولها الرسالة مشهد الغيث المنهمر الذي ظل انهماره مستمرا وبكثافة، مما جعل الناس يتخوفون من تَكُون السيول الجارفة. وربط الكاتب بين انهمار الغيث المستمر الذي سال من شناخيب الجبال، وبين قوم نوح -عليه السلام- الذين أهلكهم الله بالفيضان، ولكّنه ربط بين صورتين متناقضتين، فقد كان نزوله على قوم نوح غضبا من الله تعالى ونقمة، في حين كان نزوله عليهم سقيا رحمة ونفع، فبدت السماء متزينة بالكواكب، يقول: "فالتقى الماء في هذا العصر على أمرٍ قد قدر"⁽³⁾. ولئن كان ذلك لغضب من الله على من كان كفر، إن هذا الرضى منة على من أسلم إليه وصبر، ومنة على من قنع بما قسم له وشكر"⁽⁴⁾.

ويتجاوز الكاتب هذه الصورة متحدّثاً عن الآثار الإيجابية التي أحدثها سقوط المطر، من حلول الرحمة، واتساع الرزق. وهذه الآثار ناجمة عن وفرة الأمطار الغزيرة، ومما زاد فرحة الناس، وسرورهم بهذا الغيث، ما كانوا لقوا في عامهم المنصرم، من قحط وجذب، حتى يؤسوا من رحمة الله، فجاء المطر، وهم في أشد الحاجة إليه، فكانت سقياه رحمة وبركة عمّت بخيرها جميع أفراد الرعية.

3- ومن الرسائل التي كتبت في وصف البرد والثلج ما كتبه ابن الأثير عن مدينة ملطية، وما عاناه من بردها وتلجها. يقول: "ومن صفات هذا البرد أنه يعقد الدر في خلفه، والدّمع في طرفه، ولربما تعدى إلى قلب الخاطر فأجفه أن يجري بوصفه"⁽⁵⁾.

والرسالة تصور ضيق الكاتب من أجواء البرد والثلج، فهو يجأ بالشكوى من قسوة الطبيعة فالشمس مأسورة، والنار بقره مقرورة، ويربط الكاتب بين نار الشوق التي تشتعل في قلبه من جراء

⁽¹⁾ هو غياث الدين شادي بن داود عيسى، ولد سنة 625هـ، بقلعة دمشق، توفي سنة 681هـ بقرية الناعمة من الغور، وحُمل إلى القدس الشريف.

ينظر: ذيل مرآة الزمان: 172/4.

⁽²⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 110.

⁽³⁾ إشارة إلى قوله تعالى: "فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر" سورة القمر الآية: 12.

⁽⁴⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 110.

⁽⁵⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 105.

مفارقة مليكه الأفضل، وما يشعر به من ألم برد ملطية القارص، ولكنه ربط بين صورتين متناقضتين، فشوقه إلى مليكه يدخل إلى نفسه البهجة، أما بردها فيدخل الضيق واليأس إلى قلبه.

ثم ينتقل إلى تصوير غزارة الثلج المتساقط، وقد ملأ الفضاء من كثرتة، فأصبحت الدنيا بيضاء. يقول: "ومسيلات الجبال أنهار إلا أنها جامدة لم تُخض، والثلج قد ملأ الفضاء"⁽¹⁾.

وبصور مشاعر الخوف التي انتابته عندما تساقط الثلج بكثافة، فقد رسم صورة طريفة للثلج، وهو يتوالى كأنه الموت الزؤام، "وأبرز الموت الأحمر في صورة بيضاء"⁽²⁾.

وفي نهاية الرسالة يجعل الكاتب من وصف الثلج والبرد مدخلا للثناء على مليكه وكرمه، فالجنة التي أسبغها عليه مولاه وقته البرد. يقول: "لكنه قد استظهر بما يعمه من سعادة مولانا التي تصحب الأولياء في الأسفار، فتتقدمهم من ورطات الأخطار، وقد اكتنّ منها بجنة تقيه البرد"⁽³⁾.

4- ومن مظاهر الطبيعية العامة التي وصفها الكتاب الليل وما فيه من مجرات وكواكب، ويمثل هذا المنحى من الرسائل رسالة الفاضل في وصف الليل وما فيه من مظاهر خلاصة. وعلى الرغم من الليل من وحشة ورهبة، فقد مضى الفاضل في رسم لوحة فنية جميلة، فالليل يتيح للكاتب التجوال وإقامة مجالس الأنس على الرغم من سواده الحالكة، ونجومه، وقسوة رياحه وتلاعبها بالسراج، وكلها أمور أثارت إعجاب الكاتب، وأدخلت البهجة والفرح إلى نفسه. يقول: "والليل كالبنفسج تخلله من النجوم أقاح، أو كالزنج شعلة من الرمح جراح، والكواكب سائرات، والمواكب لا معرّس لها دون الصباح"⁽⁴⁾.

ويمضي الكاتب إلى رسم صورة كلية لنجم سهيل، وهي صورة تعتمد على جزئيات مؤتلفة، فجمال الصورة تبدى من اتحاد الكلمات الدالة على اللون والصوت والحركة، والكلمات الدالة على الصوت "تدلى إلى الأرض ليشرب"، والكلمات الدالة على الحركة "فكأنها قبس تتلاعب به الرياح"، والكلمات الدالة على اللون "يدي الصباح، جيش الليل".

5- ووصف الكتاب بعض الثمار كالشمش، والتفاح، والعنب، والرمان، والتين، والنخيل. فقد عرفت مصر والشام بكثرة خيراتها ووفرة ثمارها وفواكهها، ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى رسالة ابن الأثير في وصف بستان ذي فواكه متعددة، ومن الثمار التي وصفها المشمش فقد اشتهرت دمشق الفيحاء به. وثمار هذه الفاكهة جميلة في شكلها، جذابة في لونها، فهو كالقلادة في جيد الحسناء. كما أضاف على التفاح صفات بديعة مستخدماً التشخيص. يقول: "عظم قده، وتورد خده، وطابت أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده"⁽⁵⁾.

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 105.

(2) المصدر نفسه: 105.

(3) المصدر نفسه: 105.

(4) نهاية الأرب - النويري: 70/1.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 190.

أما العنب والرمان والتين والنخيل فقد لجأ في هذا المضممار إلى نشر القصص القرآني بصورة مكثفة لإبراز أهمية الفاكهة التي يتحدث عنها، وفي هذا السبيل رأى الكاتب في قصة نوح -عليه السلام- ما يسند حديثه عن فضل العنب، وقيمتها الغذائية وجمال شكله، فعمد إلى المحور المهم في القصة، وقدمه بشكل جديد، يقول: "وأول غرس اغترسه نوح عند خروجه من السفينة، فقطفه يميل بكف قاطفه، ويغري بالوصف لسان واصفه"⁽¹⁾.

وفي حديثه عن التين يلجأ الكاتب إلى استدعاء الشخصيات القرآنية، فقد استدعى الكاتب آدم -عليه السلام- وقصة خروجه من الجنة، واستتاره بورق التين. يقول: "واستتر آدم بورقه إذ كشفت المعصية من ستره، وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما"⁽²⁾.

وفي وصفه للرمان والنخيل يلجأ إلى استخدام ألفاظ المعجم القرآني في تدعيم فضل هاتين الفاكهتين، يقول في وصف الرمان: "ومن فضله أنه لا نوى له فيرمى نواه" ولا يخرج "اللؤلؤ والمرجان"⁽³⁾ من فاكهة سواه"⁽⁴⁾. ويقول في وصف ثمرات النخيل: "ولا يماثل بينه وبين الحلواء، فيقال: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾"⁽⁵⁾. وهكذا استطاع الكاتب أن يوظف أي القرآن الكريم في وصف الثمار، مما يجعل النص القرآني ركيزة أساسية في بنائه المؤثر.

6- وبالمثل أقبل الكتاب على وصف ما يقع تحت أنظارهم من **صنوف الحيوان والطيور**. ومن أبرز الرسائل التي تمثل هذا المنحى رسالة لابن الأثير إلى الملك المعظم عيسى، يصف فيها كلاب صيد كان قد أرسلها إليه، يقول: "وقد أرسل من الغضف"⁽⁶⁾ المنتخبة أشباه الجياد في صفة أعضائها، وسرعة مضائها، فما منها إلا طويل الباع، مشبوح الذراع، مضطمر الكشح مخطفه، أسيل الخد مرهفه، سواء لديه الوعور والسهول، والظباء والوعول"⁽⁷⁾.

وتبدو صورة الكلاب في هذا المقطع واضحة للغاية، فهي كلاب شبيهة بالجياد في أشكالها وسرعتها، وهي عظيمة تتوشح بالقوة والنشاط والحدة. ويمضي الكاتب برسم لوحة فنية أخرى للكلاب، يصور فيها قدرتها على اقتناص فريستها، فهي لا تروم فريسة إلا بلغت مرامها، وكل ما يقع تحت عينيها فهو صائر إليها، وكأنما كتبت علامات النصر على جبين تلك الكلاب. ويتحول الكاتب ليتحدث عن هذه الكلاب التي كان قد أرسلها في وقت لا يشكو فيه القانص هجيراً ولا زمهريراً في أجواء ربيعية جد مواتية ومناسبة لإطلاق مثل هذه الكلاب للصيد. وقد عمد الكاتب إلى اتخاذ وصف تلك الكلاب في زمن الربيع

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 190.

(2) المصدر نفسه: 190.

(3) إشارة إلى قوله تعالى: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" سورة الرحمن آية: 22.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 190.

(5) سورة لقمان الآية: 11.

(6) الغضف: مفردا أغضف وهي كلاب الصيد مسترخية الأذنان. لسان العرب - مادة: غضف.

(7) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 104.

وسيلة إلى المدح، والمزج بين وصف شجاعتهما والثناء على الممدوح. يقول: "وقد شابته سلطانها الآن في نضارة أيامه، ولو تقدم زمانه عليها لقليل إنه أعداها بخلفه، فأنشأها خلقاً جديداً، وجعل عودها كما هو عوداً مثمراً"⁽¹⁾.

وربما عمد بعض الكتاب إلى وصف الطير مستلهمين طريقة التصوير الساخر، ومن أبرز الأمثلة التي تحتذي هذه السبيل رسالة الوهراني التي وجهها إلى الطيور، وطلب فيها ألا يفخر فيها الطير القوي على الضعيف، وندد بالوطواط، وطلب من كل من يظفر به أن يفتك به لسوء حاله. وتبدو صورته في مقاطع الرسالة مشينة مزرية، فهو بدل أن يكون أبيض الوجه، يألف الأماكن الجميلة المشرقة، يبدو أسود الوجه والقفا والصفات، يألف أماكن الأموات، ويعشق الظلم والظلمات.

ويصوره الوهراني بالشيطان الممسوخ، لا يُسمع منه هديل ولا هدير، كما يصوره باللص الذي يعدو على الرياض، ويقتنص الثمار، فهو ميشوم⁽²⁾ الطلعة، سيئ الدار، قبيح الآثار⁽³⁾.

ويمضي الكاتب في رسم لوحة كاريكاتيرية له، يبدو فيها سيء الذكر، في هيئة مزرية، تجعل الناس يشعرون بالضيق من رؤيته، ويستغرقون في الضحك. يقول: "أسود من سمار، وأفسد من فار، أخس مخلوقات الله، وهو المسمى بالوطواط كم خرى، وكم وكم ساء"⁽⁴⁾.

وحتى تكتمل ملامح الصورة الساخرة يدعو الكاتب جميع الطيور إلى مقاطعته والفتك به، فهو "مما لا ينتفع به صائد، ولا صائل، ولا آكل، وضرره للأحياء والأموات فاش"⁽⁵⁾.

ويتحدث الكاتب بمزيد من السخرية عن مسمياته، وطباعه القبيحة، فيقال له: "خفاش"، ولا يكرع في نهر النهار، ولا يحوم مع ذوات الجناح في مطار"⁽⁶⁾.

وفي نهاية الرسالة يفوض الكاتب حسبة الطير للإمام شرف الدين غراب، ويقدم له مجموعة من النصائح متكناً فيها على ثقافته الإسلامية، فقد ضمن الكاتب رسالته شخصية النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديثه مع السوداء، قال لها: "أين الله تعالى؟ قالت في السماء"⁽⁷⁾. ويأمره بقراءة هذا المنشور على رؤوس الأشهاد، وعند الآبار المعطلة، والبراري الخراب، وذلك في إشارة من الكاتب إلى الأماكن التي يسكنها الوطواط.

والم تأمل في الرسالة يرى أن الكاتب يرمي من طرف خفي إلى نقد المجتمع والمطالبة بإصلاحه، فهو يرسم صورة معبرة لسلوك بعض الحكام والسلاطين الذين انغمسوا في ملذاتهم، وتحكموا في مصائر الناس، ونهبوا ثروات البلاد على حساب الفقراء والعباد، ويدعو دعوة مبطنة إلى القضاء

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 104.

(2) ميشوم الطلعة: لفظة عامية - مشنوم الطلعة غير ميمون ولا مبارك. لسان العرب - مادة: شأم.

(3) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش: 235.

(4) المصدر نفسه: 236.

(5) المصدر نفسه: 236.

(6) المصدر نفسه: 236.

(7) المصدر نفسه: 236.

على الفساد من خلال دعوته لإهلاك الوطواط وقتله، فوجوده وعدمه لن يفيد المجتمع، وهكذا حال السلطان الجائر ينبغي التخلص من ظلمه والانقلاب عليه.

الإطار الثاني: يتعلق بوصف **المظاهر الحضارية**، وقد وقف الكتاب عند كثير من مظاهرها، وأفردوا رسائل لوصفها. ومن المظاهر الحضارية التي وصفها الكتاب **الأقلام**، ومن الرسائل التي سجلت وصفه رسالة لابن الأثير إلى الديوان العزيز في وصف القلم. يقول: "وقلم الديوان العزيز، وهو الذي يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، وهو المطاع الجدع أنفه، وسواد لباسه، وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع، ومن صفاته أن شعاره من شعار مولاه، فهو يخلع على عبيده من الكرامة ما يخلع"⁽¹⁾.

والرسالة على وجازتها تزخر بعدد وافر من الصفات التي يحملها هذا القلم، وهي صفات لطيفة، ولكن الكاتب جاء بمعنى غريب مبتدع في قوله: "وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع"⁽²⁾. وهذا المعنى الغريب مستخرج من الحديث النبوي في ذكر الطاعة والجماعة: "أطع ولو عبدا حبشيا مجدعا ما أقيم عليك كتاب الله"⁽³⁾. وبما أن القلم يُجدع، ويقمص السواد، فقد صار حبشيا أجدع⁽⁴⁾.

ومن المظاهر الحضارية التي وصفها الكتاب **لعبة الشطرنج**، ومنها رسالة لابن الأثير في وصف هذه اللعبة. يقول: "وجيء بلعبة عجماء للناس بها غرام، وهي جديدة لديهم على قدم الأيام، ومما توصف به أنها حلال وأخوها حرام، وقد وضعت على أرض استوت طولاً وعرضاً، وسُويت جوانبها فلا رفعا ولا خفضاً"⁽⁵⁾. والكاتب في هذا الجزء من الرسالة يصف ملامح هذه اللعبة التي كان الأصدقاء يجتمعون حولها، فالكاتب هنا يُعنى بتقديم وصف دقيق يسعى من خلاله إلى تحقيق المتعة التي يشعر بها، فالفريقان يتكونان من خيل ورجل، كل منهما له شعار، وهما يقاتلان بلا سلاح، كما أن ضحاياهما لا توارى في القبور، ولا تترك طعاماً للثعالب ولا للنسور. وزيادة في إضفاء لمسات الجمال على هذه اللعبة، فإن الكاتب يشير إلى أصحابها أثناء ركضهم لا يثيرون الغبار، ويقالون من العثار، وأنه "كلما أخدمت لهم نار حرب عادوا إلى إشعال تلك النار"⁽⁶⁾. وهذا المعنى لطيف مأخوذ من قوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾⁽⁷⁾. ويبدو من هذه الأوصاف أن الكاتب كان ينشد ضرباً من اللعب يجمع بين المتعة والإثارة والتناسق والانسجام.

ومن المظاهر الحضارية التي أجاد الكتاب وصفها **القصور** ومنها رسالة لابن الأثير في وصف قصر صديق له، وكان قد دعاه إليه ليتناول مأدبة طعام، وكان مما زاد جمال ذلك القصر اقترابه من الفضاء في علوه، وبتجويفه الذي صنّع من اللؤلؤ الأبيض وبركته، وكأنها موضوعة على الأرض،

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 320/1.

(2) المصدر نفسه: 320/1.

(3) الحديث في صحيح مسلم: 240.

(4) المثل السائر - ابن الأثير: 320/1.

(5) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 148.

(6) المصدر نفسه: 149.

(7) سورة المائدة آية: 64.

وعلى جانبها الفوارات المتساوية في الارتفاع⁽¹⁾. وقد وقر هذا التقارب عنصرا جماليا مما جعل القصر يعتد بمباهجه ويزهو بنفسه، مما يبعث في النفس الإحساس بالجمال.

والإطار الأخير من أطر الرسائل الوصفية يتعلق بوصف الأماكن، وبخاصة ما يتصل منها بوصف المدن، وما يبدو فيها من معالم مختلفة. وكانت هذه الرسائل تسلك سبيل المدح أو الذم، فالكاتب الذي يعجب بمكان ما ويحلو له العيش فيه يكتب فيه وصفا جميلا يستجمع فيه محاسنه، وقد تنقلب الصورة عند بعضهم فيصفون مساوئ المكان، وما اجتمع فيه من ضيق وكدر.

ومن الرسائل التي تقف شاهدا على هذا المنحى رسالة لابن الأثير في وصفه مصر وتعلقه بها، فهو لم يمتع ناظره بمحاسنها، فكأنها شوقته وما ذوقته. يقول: "ووجدته على الحقيقة هو المِصر، وما عداه فهو السواد"⁽²⁾.

وينقل إلى وصف بعض عجائب مصر كالهرمين، والمقياس، وبركة الحبش⁽³⁾ وبركة الفيل⁽⁴⁾، فالكاتب يحشد عددا من الصور الفنية المعبرة التي تزيد من شوقه لمصر. يقول: "وهي لعمري حسنة المنظر، شبيهة بدراهم مبنوثة على فراش أخضر، فهي بلد يسلي المحب عن أحبابه، ويغري الغريب بطول اغترابه"⁽⁵⁾.

والكاتب يكشف لنا عما يغمر نفسه من مرارة وألم، لما يشعر به من فراقه لمصر لظروف خارجة عن إرادته.

هذا وقد تنوعت الأغراض المحدثّة في موضوعات الرسائل الأدبية على نحو ملفت لنظر، ويبدو أن رغبة الكتاب في التجديد، هي التي دفعتهم إلى ابتكار وسائل فنية للتعبير عن الأغراض التي تناولوها. ومن أهم الأشكال التي وقفت عليها الباحثة وتناولتها بالدراسة والتحليل: الطرديات، والخمريات، والمفاضلات، والمفاخرات، وغيرها.

* أغراض محدثة

* الطرديات

احتل الصيد في العصر الأيوبي مكانة رفيعة وخاصة عند السلاطين والأمراء، وقد جعل القلقشندي رسائل الصيد ضربا من الرسائل الملوكية⁽⁶⁾. وهي "رسائل تصف الرمي بالبندق، وأحوال الرماة،

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 148.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 115.

(3) وهي من أشهر برك مصر، كانت مواتا استنبطها قرة بن شريك، وأحياها وغرسها قسبا، وجعلت وقفاً لبني حسن وبني حسين ابن علي بن أبي طالب. ينظر: الخطط: 723/2.

(4) وهي بركة كبيرة جدا، وضع قواعد بنيانها جوهر الصقلي، وعُمرت حولها المساكن، وكانت مساكنها من أجل المساكن، وكانت عادة السلطان أن يركب فيها بالليل. ينظر: الخطط: 747/2.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 115.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 188/14.

وأسماء الطير، واصطلاح الرماة وشروطهم⁽¹⁾.

وقد حفل الشعر بهذا الغرض، فظهرت قصائد الطرديات التي تصف تتبع الصيادين للظبي، أو لحمار الوحش، أو الطيور، وتصف أدوات الصيد من كلاب، وصقور، وخيول.

وكما احتفل الشعر بهذا الغرض احتفل النثر به، واعتنى به عناية فائقة، وأثبت تفوقا واضحا على الشعر بسبب طبيعة النثر المرنة والسلسة.

وراح الكُتاب يشتركون في رحلات الصيد، ويصورون كل ما يحدث فيها من أوقات اللهو والسمر التي يقضيها ركب الصيد، ويصفون الحيوانات والطيور، وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها.

وفي ضوء استقرار النصوص، وجدت الباحثة أن هذا اللون من الرسائل ورد في رسائل ابن الأثير خاصة، وهذا يعود إلى أنه قد أدلى دلوه في هذا الباب. ومن الرسائل التي مثلت هذا المنحى رسالته التي تصف خروجه للصيد وركوبه مع أصحابه للاصطياد بالفهود، والرسالة كلها تدور في قالب وصفي خالص، فالكاتب خرج وركب مع أصحابه للقنص، في يوم مثالي يقل الظفر بمثله، وتتسى وعشاء الأيام من أجله. يقول: "ثم إني قصدت بعض الضواحي التي هي للقنص مربع، وللوحش مرتع في فتية غدوا بالنعماء وهم إن خلقوا من طينة الأرض فإنهم للطفهم من أهل السماء"⁽²⁾.

ولعل أجمل ما في هذه الرسالة تلك الروح القصصية التي تسري في ثناياها، ولكنها لم تصل إلى مرحلة النضج الكامل للقصة بسبب استطراده في الوصف، وكان الأجدر به في هذه الرسالة أن يهتم بالأحداث لا بوصف ما يصادفهم أثناء الرحلة، غير أن الأمر كان على النقيض، فبينما يستغرق وصف طائر ثمانية أسطر، يأتي وصف صيده في سطرين فقط.

وينقل الكاتب إلى وصف الغلمان المحيطين بهم وصفا حسيا، فوصف قدودهم الميادة، وخصورهم النحيلة، فهم ملائكة في صورة بشر، أما خيولهم فهي كالظلمان⁽³⁾، أو كالعقبان، من كل أشهب، أو أدهم حندسي اللباس، أو أشقر كالمرجانة. وهو يعتمد في رسم ملامح الصورة على ثقافته الدينية والأدبية، فهو في وصفه للغلمان يعتمد على النص القرآني: ﴿ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾⁽⁴⁾.

وفي وصفه لخيولهم يعتمد على ثقافته الأدبية، فقد ضمن شطرا واحدا من الشعر أدرجه أثناء كلامه حتى بدا جزءا من النص، فالكاتب ضمن صدر بيت المتنبي من قصيدته البائية: "وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرب"⁽⁵⁾.

(1) صبح الأعشى - الفلقشندي: 283/14.

(2) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 98.

(3) جمع ظليم، وهو ذكر النعام. لسن العرب - مادة: ظلم.

(4) سورة يوسف آية: 31.

(5) ديوان المتنبي - دار المعرفة: 180/1.

ويقف القارئ على وصف مطول لأدوات الصيد ومنها الفهود فهي مجدولة القدود، وإنائها أفضل من ذكورها في تنفيذها للأوامر، كما أن لها قدرة على التركيز في صيد فريستها. يقول: "ومما اتصفت به أنها تنظر إذا أدبرت نظر المقبل، وتعدو إذا أحرنت عدو المسهل، تلثم وجه الأرض من جرائها"⁽¹⁾.

ويرسم الكاتب صورة وقوع الفهود على فريستها من الطباء، معتمدا في ذلك على عنصر المباغلة والمفاجأة. يقول: "حتى اعترضنا سرب الطباء مهملا في مسرحه، غير عالم بأن المنايا كامنة في مصبحة"⁽²⁾.

ومن ثم تبدأ عملية المطاردة والقنص، "فلا نرى إلا صريحا قد انتصبت رجلاه وصار أسفله أعلاه، فمن طيبة قد فجعت بخشفها، وأخرى أذيق طعم حتفها"⁽³⁾.

ولما قضى الراكب مأربه من صيد الطباء، انقلبوا إلى روضة غناء، فنزل الراكب للاستراحة والأكل، وتندر الصبح ببعض القصص والأشعار.

ويختتم الكاتب هذا المشهد الجميل بالحديث عن جمال المكان الذي نزلوا فيه، وطيبة أهله. يقول: "وما أقول إلا أنه أخو الجنة التي أكلها دائم، وظلها وأوقاتها سحر كلها، وبه أهل قد عيقت بهم أقطاره، ودل ذلك على أنهم طيب، وأن البلد صواره"⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

وجدد الكتاب في الطرديات، فوصفوا **صيد البحر**، وتحدثوا عن آلاته، ومن ذلك رسالة لابن الأثير في صيد السمك، وقد جاءت هذه الرسالة في إطار قصصي ممتع، وفيها مشاهد مختلفة لصيد البحر، وهو لون جديد يمتاز بالطرافة والجدة، فوصف الكاتب أدوات الصيد، كما وصف منظر السمك وهو في الشباك.

والكاتب يبدأ رسالته بالجلوس على شرفة، وهو في أثناء جلوسه رأى على ساحل دجلة صيادا يجاذب سمكة قد وقعت في شصه⁽⁶⁾، مما أثار فضوله، ودفعه لسؤاله عن صيد البحر، فأجابه الصياد: بأن أبواب الرزق مفتوحة للجميع. يقول: "اعلم أن أبواب الرزق مُصرفة بالقدر، وإذا كانت بيد الله الذي هو خالقها فالكل جار على قدر"⁽⁷⁾.

ويصف أدوات الصيد كالعقافة والشبكة، والعقافة شبيهة بالهلال في شكلها، وبالأفعوان في فعلها، فهي تختطف ولا تتعطف، والشبكة شديدة المراس كأنها في حوكها ثوب من الزرد⁽⁸⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 99.

(2) المصدر نفسه: 99.

(3) المصدر نفسه: 99.

(4) صواره: الرائحة الطيبة. لسان العرب - مادة: صور.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 100.

(6) الشص: حديدة عقفاء يصاد بها السمك.

(7) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 196.

(8) المصدر نفسه: 196.

وفي نهاية الرسالة يصف ما غنمه الصياد من أنواع السمك، فبعضها صغير الحجم، وبعضها كبير، ويرسم صورة جميلة لحركة السمك أثناء صيده، ونقله من برد الماء إلى حر المقلاة. يقول: "ولقد راقتني ما رأيته من اضطراب السمك في ذلك المعترك"⁽¹⁾.

ومن الجدير قوله: إن هذه الرسالة تعدّ من الرسائل الفريدة قلّ أن تعثر الباحثة على نظير لها في العصر الأيوبي.

* الخمریات

لم تحفظ المصادر رسائل كثيرة في هذا الموضوع إلا النزر اليسير، وإذا كان الكتاب قد تحدثوا عن هذا الموضوع فلم يكن حديثهم عنه إلا تقليدًا، فوصفوا مجالس اللهو والشراب، وما يجري فيها من خلاعة، ومجون.

وهذه الرسائل أنشئت رياضة للخاطر، واختبارا للفرجة، لا بهدف الوصف على أمر حدث، أو تجربة وقعت. وقد أفاد الكتاب في وصفهم الخمر، ومجالسها، وسقاتها، وكؤوسها، وألوانها، وأصنافها، من معاني أبي نواس، فهم تارة يشبهونها بالحسنة التي تسلب الحكيم لُبّه، وتارة يسقطون عليها صفات الغيد.

ومن الرسائل التي مثلت هذا الغرض رسالة خمرية لابن الأثير في وصف مجلس شراب وشرح ما جرى فيه. والكتاب في الرسالة ينحو منحى الأسلوب القصصي، فكأنه يحكي حكاية متصلة المواقف، تبدأ أحداثها بحديث الكاتب عن أوقات اللهو والمتعة التي قضّاها الكاتب وصحبه، وكيف أنها مضت بسرعة، فهي كالقيل في اختلاسها، أو كالشعل في اقتباسها. ويبدو الكاتب حريصًا على ترصد هذه الأوقات والتمتع بها.

وينتقل بالحديث عن اتفاق الصحب على قصد بيت خمار نصراني، في ليلة كعين الطبي في سوادها، وذوابة الحسنة في امتدادها، بحيث لا يراهم رقيب، ولا واش يشي بهم، حتى إذا وصلوا، استقبلهم الخمار بأنس التكريم، وقدم لهم أمّ اللغو والتأثيم، ثم أتاهم بتمثال في غاية الدقة والاتقان، يحمل صليبا من الذهب في نحره يسلب العقول بجماله، وقد حمل في يديه كأسا من الخمر.

والكتاب في وصفه هذا يتكئ على القصص القرآني، حيث يتخذ من قصة يوسف -عليه السلام- محورا لوصفه، فهو يربط بين جمال التمثال وقد سلب عقل الكاتب والحاضرين، بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن لدى رؤيتهن يوسف عليه السلام، يقول: "فلما رأيناه استتطق ألسنتنا بالتسبيح، ورمى أفئدتنا بالتبريح، يقول: وأتى كل واحد منا سكيناً فعاد على يده بالتجريح"⁽²⁾»⁽³⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 197.

(2) إشارة إلى قصة يوسف الصديق، وتجريح النسوة لأيديهن وإنهارهن بحسنه.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 163.

ويعصف الكاتب الأثر الذي تركته الخمر لدى شربهم لها، فصاحبها لا يميز بين الحقيقة والخيال. يقول: "فما نعلمُ أهَي طيف في النوم سري، أم سُحِرَت عيوننا فنحن نرى ما لا نرى"⁽¹⁾. وأما مجلس الشراب فقد وصف الكاتب الصبح، والقдах، والأباريق، وأنواع الشراب، وصنوف الطعام، والسقا، وما يُصاحب ذلك من لهو ومجون. يقول: "ولما صرنا إلى مجلس الشراب، وجدنا مجلسا يكثرُ حسوده، ويقل وجوده، ورأيناه والراووق"⁽²⁾ أميره، والأكواب جنوده"⁽³⁾. ويختتم رسالته واصفا حالة صحبه لدى انفضاض مجلس الشرب، وعند صياح الديك إيذانا ببزوغ الفجر، وتعاهدهم على العودة إلى مثل هذا المجلس. يقول: "وصاح الديك، وفعله مشتق من اسمه، نهضنا عند ذلك لقصد الخروج والمقام أقصد، وتعاقبنا على المعاودة والعود أحمد"⁽⁴⁾. ووصف ابن الأثير في رسالة أخرى الأثر الذي تتركه في النفوس، فهي تجمع شمل الأحاب، وتلين عريكة الشارب فتترك طباعه، وتقلل من إحساسه بالهموم ووطأتها، فتصفو الحياة بعد كدر. يقول: "مدامة تنفي خواطر الهموم، وتسري مسرى الأرواح في الجسوم وتشهد بأن الكرم مستمدٌ من ماء الكروم ويتمثل حبيبها نجوما إلا أنها مُضلة والهداية للنجوم"⁽⁵⁾. والناظر في هذه الرسالة على وجازتها يلحظ أن الكاتب أخذ بعض معاني الخمر من قول أبي نواس: "إذا هي حَلَّت في اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل"⁽⁶⁾. ومن الجدير قوله: إن هذا الغرض من الرسائل وُجد في رسائل ابن الأثير خاصة بشكل قليل، ويبدو أنه كتب في هذا اللون مجازاة لغيره من أهل الصناعة النثرية، إذ سرعان ما راح يعتذر⁽⁷⁾، شأن الشعراء يقولون في الخمر وليسوا من أهلها ويقولون في العشق وليسوا بعاشقين.

* المفاضلات

احتلت المفاضلات مكانة بارزة في الأدب العربي، وتجري المفاضلة غالبا بين أطراف قريبة من التجانس، يحاول كل طرف منها أن يفضل الآخر، وأن يحرز قصب السبق في صفة ما، أو أمر ما، ذلك أن المفاضلات بنية سجالية تقوم على المدح والذم، بذكر الكم والعدد، وعلى حجج الكيف، أي على تفضيل الشيء بحجمه، وتفضيله بنوعه، ويستغل الكتاب الأدلة النقلية أو الشواهد لصناعة هذه الحجج⁽⁸⁾.

(1) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 163.

(2) الراووق: مضافة الشراب أو الباطية. لسان العرب - مادة: روق.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 163.

(4) المصدر نفسه: 164.

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 101/1.

(6) ديوان أبي نواس - تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي: 310.

(7) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 11.

(8) الرسائل الأدبية - صالح بن رمضان: 416.

وهذه الرسائل امتداد وتطور لتلك الرسائل التي أخذ الكتاب ينشئونها منذ أواخر القرن الثاني الهجري؛ نتيجة تأثره بروافد الثقافات المختلفة وخاصة الثقافية الكلامية التي أتاحت للكتاب أن يقيموا رسائل موفقة من هذا النوع.

وإذا ما رحنا نفتش نصوص الرسائل التي بين أيدينا، فإننا نقف على لون واحد من ألوان المفاضلات، وهو المفاضلة بين البلدان، والمتمثل في المفاضلة بين مصر والشام.

والمتمثل في هذه الرسائل يتبين له أن هذا الغرض من المفاضلات ذو صوت واحد. أي أن الكاتب يقتصر فيه على ذكر فضائل الطرفين، وتغليب أحدهما على الآخر، مجردا من النزعة الحوارية الموجودة في رسائل المحاورات والمفاخرات.

ومما يمثل هذا الغرض من الرسائل رسالة للعماد الأصفهاني يفضل فيها الشام على مصر، وكان كتبها إلى "زين الدين الواعظ"⁽¹⁾.

وكان هذا الأخير قد شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه إليه. ويبدو للقارئ من عنوان الرسالة أنها بنيت على إظهار نتيجة المفاضلة منذ البداية، فالكاتب أصدر حكمه بأفضلية الشام على مصر فلم يدع المفاضلة تتطور تطورا حجاجيا، كما أنه لا يترك للقارئ فرصة أن يُبدي رأيه بأفضلية إحداهما، وقد أعطى الكاتب قراره قبل البدء بالمفاضلة. وهو يعمد إلى حشد ما وسعه من الأدلة لتأكيد قراره في نفس القارئ.

وتدور الرسالة حول فكرة واضحة، فالعماد يحاول جاهدا أن يدافع عن الشام بذكر فضائلها ومحاسنها، فهو يعترف بطيب الديار المصرية، ولكنه يرى أن الشام أفضل، مستخدما كلمة "لأريب"، حاشدا أدلة كبيرة على فضلها ومكانتها. وتدور هذه الأدلة حول عدد من المحاور المهمة: أولها أن الشام هواؤه أنقى، وزلاله البارد أعل وأنهل، والجمال فيه أكمل، والقلب به أروح، فطبيعته خلابة، وثماره متعددة، من روح وريحان، وفاكهة ورمّان.

والمحور الثاني: يدور حول فضل دمشق، ويتخذ من قسم الله -تعالى- بها في سورة "التين" والزيتون" دليلا على مكانتها وفضلها، ومن حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما يؤيد كلامه وكلام الصحابة -رضوان الله عليهم-، واختيارهم السكنى بالشام ما يؤكد هذه الحقيقة. وفي المقابل يعقد الكاتب تقابلات ثنائية بين مصر والشام، وهذه التقابلات مستمدة من ثقافة الكاتب الأدبية المتنوعة، فالشام ذكرت في القرآن والحديث، وكذلك مصر ورد ذكرها في القرآن. يقول: "وما ننكر أن الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضا، فما الذكر والتسمية في فضيلة القسم، ولا الإخبار عنها دليل على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق إليها"⁽²⁾.

⁽¹⁾ هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نوح، ولد بدمشق سنة 508هـ، سكن مصر، كانت له في دولة صلاح الدين منزلة جليلة، توفي سنة 599هـ.

ينظر: الذيل على الروضتين: 34، وفيات الأعيان: 530/2، شذرات الذهب: 340/4.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 216/3.

ويدور المحور الثالث: حول دور الشام في الجهاد، فهي أقرب للرباط. يقول: "ثم المقام بالشام أقرب للرباط، وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد"⁽¹⁾.

ويورد الكاتب في المحور الرابع ما يؤكد أن حُبَّ الأوطان من الإيمان، فليس يصح إيمان المرء إلا إذا أقر بذلك، وهو مع تفضيله الشام على مصر، لا ينكر مكانتها، وموقعها الجغرافي المهم، ويُدعم رأيه بقول الفاضل: "بأن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر"⁽²⁾.

وفي المحور الأخير: يعرض الكاتب حججه التي دفعته لتفضيل الشام على مصر، وهو تعرض زين الدين للشام بالذم، مما دفعه إلى المناقحة عنها وذكر فضائلها. يقول: "وزين الدين قد تعرض للشام، فلم يرض أن يكون المساوي حتى شرع وعدّ المساوي، ولعله يرجع إلى الحق"⁽³⁾.

وتطالعنا في الرسالة بعض الملامح الأسلوبية، فقد اعتمد الكاتب في دفاعه عن الشام على الاقتباس من القرآن الكريم وفق صورة تدل على براعته، وقدرته على جعل النص المقتبس وحده كافياً في الدفاع عن الشام. ومن الشواهد التي تدل على هذا المنحى قول الكاتب: "نحن نتلو عليها آلاءها، إلى أن يرجع إلينا فنتلو على منكرها: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾"⁽⁴⁾. فالكاتب اقتصر دفاعه على موطن الاقتباس، دون الحاجة إلى إيراد شيء من كلامه.

ومن الملامح الأسلوبية التي رسمها استدعاؤه شخصيات الأنبياء -صلوات الله عليهم- ومنها شخصية يوسف -عليه السلام-، وتجربته التي عاشها في الشام بعد رحيله عن مصر.

جاءت ألفاظ الرسالة سهلة لا يهتم فيها الكاتب بالمحسنات البديعية، على عكس ما هو معروف عن العماد من ولعه بالصنعة والتكلف.

وأخيراً وفق الكاتب في دفاعه عن الشام لما يمتلكه من ثقافة عميقة، فمضى يدافع عن بلده بالحجة والبرهان، مضمناً رسالته شواهد وأدلة تدل على مكانة بلده وفضله على مصر.

* المفاخرات

هي رسائل أدبية على شكل مفاخرة خيالية، يضع فيها الكاتب سياقات حوارية، تقوم على المفاوضة والمقارنة على ألسنة المتفاخرين، يعيرها الكاتب آراءه ومعارفه بهدف إثبات مقدرته الفنية.

وثمة غاية أخرى يسعى الكاتب إلى تحقيقها من توليد المفاخرات على هذا النحو، ويتمثل هذا في رسم ملامح الحالة السياسية للبلاد، مما دفعت عدداً من الكتاب إلى تفضيل سلطان أو أمير على غيره، فيتخذ من وردة أو زهر معين رمزا لمليكه أو أميره ويجعل تقدمه على سائر الورود والأزهار نظيراً لتفرد بين الملوك والأمراء. ومن هنا ترى الباحثة أن هذا الغرض من الرسائل نحا منحى رمزياً، عبّر فيه الكتاب عن تفاخرهم بأمير أو ملك على غيره.

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 217/3.

(2) المصدر نفسه: 217/3.

(3) المصدر نفسه: 218/3.

(4) سورة الرحمن، وقد تكررت في السورة كلها.

وهذه الرسائل غاية في الظرف، وإن دلت على ضرب من الترف الفكري، وهي قائمة على تخيل الكاتب⁽¹⁾. وتنتهي المفاخرة بالمصالحة أو بتغلب إحداها.

وتختلف المفاخرات عن رسائل الوصف، وإن كان الوصف عمادها، لأنها تقوم على الحوار وسوق الأدلة، "فتتمشى الحماسة بين سطورها، وينقلب أسلوبها إلى نمط من الأساليب الخطابية"⁽²⁾

وفي ضوء تفحص النصوص، فإن الباحثة لم تقف إلا على رسالة واحدة في المفاخرة، وهي رسالة ابن الأثير والموسومة بـ "رسالة الأزهار". وقد دارت المفاخرة بين ست أزهار والورد من جهة، وبين الوراق والغمام من جهة أخرى، وانتهت المفاخرة بعقد لواء المدح للملك الأشرف حيث أسقط الكاتب كل المزايا والصفات على أخلاق الممدوح؛ ليوصله إلى مرحلة ينشد فيها الكمال.

وقد ألبس الكاتب هذه الأزهار صفة إنسانية، وأجرى حواراً على لسانها، ويبدو ذلك واضحاً في الأسلوب الجدلي، حينما وقفت كل زهرة تفخر بنفسها، وتدلي بدلوها، معتمداً في ذلك كله على ثقافته الدينية والأدبية. والكاتب يعقد مفاخرته بين ستة أصناف من الزهور، شكلت مادة الحديقة. وقد رتب الكاتب هذه الأصناف: النرجس، والأقحوان، والشقيق، والزهرة البدوية، والبنفسج، والورد. ويبدو أن الكاتب رتب هذه الأصناف حسب وجودها في الحديقة، وجعل كل صنف يفاخر بنفسه، ويعدد مناقبه، ويعضد رأيه باستنباط الأدلة والشواهد ليدعم موقفه. وتقع المفاخرة في أربعة محاور.

ويشمل المحور الأول: اشتداد حدة المفاخرة بين الأزهار، حيث بدأ كل صنف يعدد مناقبه، ويذكر معائب منافسه، فكان مما قاله النرجس: "أنا عيون الرياض الناضرة، والبشير بمقدم طيب الزمان"⁽³⁾، فيتصدى الأقحوان له قائلاً: "وأنت أعجمي الاسم، والعجمة ضربٌ من الالتباس، ولولا خبث طويتك لما كتفت، ولو لم يلحق بك الماء ذبلت وتلفت، ولا تستخدم إلا صاغراً قائماً، أما أنا فحسني حسن البداوة لا حسن الحضارة، ولا أحتاج لما يحتاج النبات إليه من النفحة المستعارة"⁽⁴⁾.

وينبري الشقيق لقدح الأقحوان وذمه، مبرزاً مآثره وفضائله. وفي هذا الجزء تبرز براعة الكاتب الأدبية، وسعة اطلاعه، ففي إبراز فضل الشقيق يدرج أبياتاً من الشعر في بيان فضله، دون الإشارة إلى قائلها. يقول: "لكن أنا المصبوغ بدم القلوب، الشارب دمع الغمام المسكوب

"عن مهجتي تتحدث الجمرات
وإلى احمراري تنسب الوجنات
فانظر إلى المحمر ثم تأمل الـ
مسودّ فيه كأنه خالات"⁽⁵⁾.

(1) عصر سلاطين المماليك - محمود رزق سليم: 264/5.

(2) المصدر نفسه: 263/5.

(3) رسالة الأزهار - تحقيق هلال ناجي: 8.

(4) المصدر نفسه: 8.

(5) المصدر نفسه: 8.

وهكذا تمضي المفاخرة على لسان كل زهرة من الأزهار، وكل واحدة منها ترى أنها أعلى قدرا من غيرها، إلى أن ينبري الورد للدفاع عن نفسه أمام الأزهار، فهو سيدها بلا منازع، فلا "يشرف الربيع إلا بوروده، ولا تشبه خدود الحبيب إلا بخدوده، ولا تطرب النفوس إلا بمحاورته"⁽¹⁾.

وفي المحور الثاني من الرسالة، تبدأ حدة المفاخرة تتضاءل، فالكاتب ينقل أجواء المفاخرة من الأزهار إلى ورقاء تضع حدًا لهذه المفاخرة، فهي تفخر بنفسها، تقول: "فهل أنتم إلا أعشاش أفراخنا، ومواضع أوساخنا، ونحن المسبحون بحمد ربنا"⁽²⁾.

وينقل الكاتب المفاخرة من الورقاء لتصبح مقتصرة على الغمام والشمس، ودور كل منهما في الحياة، وبعد هذا الجدل الطويل بين الأزهار والورقاء والغمامة والشمس، والذي لم يؤدِ إلى نتيجة حاسمة، اتفقت جميع الأطراف أن تتخذ طريق المودعة، وأن تتسب كل هذه الصفات إلى السلطان، وعقدت لواء الطاعة والمبايعة، وأقرت له بالتفوق، وبطيب الخصال، يقول: "فلما اعترف الجميع لأنفسهم بالنقص، وله بالمزيد، قالوا: "إذا جاء نهرٌ يزيد"⁽³⁾⁽⁴⁾.

ومهما يكن، فلا بد أن يكون ابن الأثير قد نحا منحى رمزيًا من خلال إقرار جميع المتفاهرين بتميز سلطانه على سائر أقرانه، من رجال السياسة بل هو أفضلهم؛ لما يتمتع به من صفات تؤهله ليتبوأ هذا المنصب. ويبدو أن الكاتب كان يعيش الصّراع السياسي، ويريد موقفًا ثابتًا لمكانته. ولما كان يستحيل عليه التصريح بما يجول في خاطره، لجأ إلى الرمز والتلميح.

وبدت في الرسالة بعض الملامح الأسلوبية، فقد أودع رسالته بعضا من الشعر العربي، ويبدو أن غنى مخزونه الثقافي قد أسعفه في التعبير عما يجول بخاطره، ومن ذلك قوله عندما فخر الغمام بفضله على الورقاء: "وهاتف في البان تملّي غرامها فيتلو علينا من صبايتها صحفا ولو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقا ولا خضبت كفا"⁽⁵⁾.

ويبدو واضحا أثر القرآن الكريم في الرسالة، فالكاتب يوظف النص القرآني لحاجاته الأسلوبية، ويبدو هذا في مفاخرة الغمامة بنفسها، يقول: "وقد نطق بحالي الكتاب العزيز ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾"⁽⁶⁾⁽⁷⁾.

واعتمد الكاتب على التجسيد والاستعارات، فأضفى على الأزهار صفة الإنسانية، وجعلها مركز القدح والذم، معتمدا على الكلمات الموزونة المسجوعة، وعلى الأسلوب الخطابي. ومالت الرسالة إلى

(1) رسالة الأزهار - تحقيق هلال ناجي: 10.

(2) المصدر نفسه: 10.

(3) المصدر نفسه: 10-11.

(4) يقول المحقق: وهذا مثل لم أظفر به في كتب الأمثال المطبوعة، وقد أورده ابن الأثير في بعض رسائله المطبوعة

(5) رسالة الأزهار - تحقيق هلال ناجي: 11.

(6) سورة الحج آية: 5.

(7) رسالة الأزهار - تحقيق هلال ناجي: 11.

الإطناب؛ كون هذا اللون من الرسائل يتطلب استخدام هذه الظاهرة، فالكاتب بحاجة إلى بسط القول لإبراز براعته الأدبية عن طريق الإتيان بالحجج المنطقية، تدعيماً لرأيه وقراره.

ومن الجدير قوله: إن هذه الرسائل كانت امتداداً وتطوراً لتلك الرسائل التي أنشأها الكتاب في أواخر القرن الرابع الهجري على السنة الورود والأزهار، حيث اعتمد عليه كتاب هذا العصر، وطوره، ووسعوا مجالاته⁽¹⁾.

* رسائل نقدية

هي رسائل شاركت في التعبير عن حركة النقد الأدبي في هذا العصر. ويمكننا القول إن جل الرسائل في هذا اللون كان نتاج علاقة حميمة ربطت بين القاضي الفاضل وابن سناء الملك، فقد كان ابن سناء الملك يعتز برأي الفاضل فيه، وبمدحه له وثنائه عليه وعلى كتبه. وقد جمع ما كتبه إليه أو إلى والده مما فيه ثناء عليه، في كتاب سماه "قصص الفصول وعقود العقول".

وفي هذه الرسائل إطراء ومديح من الفاضل لابن سناء الملك، وإعجاب مفرط من ابن سناء الملك بالفاضل. والرسائل هذه تمثل نظرات وملاحظات نقدية في شعر ابن سناء الملك وكتابات، وتضم آراء وآراء ابن سناء في بعض الشعراء السالفين، وكان كلما أرسل له مدحة فيه أو في صلاح الدين كتب إليه مثنياً ومشيداً⁽²⁾. وهذه الآراء "نظرات نقدية وجهها الفاضل إلى ابن سناء الملك، وقد اضطر ابن سناء الملك إلى أن يدافع عن وجهة نظره إزاء هذا النقد. وفي هذه الرسائل كثير من آراء الكاتبين في الأدب والأدباء"⁽³⁾.

وفي ضوء وقوف الباحثة على النصوص تبين لها أن آراء الفاضل النقدية جمعت رأيه في الشعر والنثر والموشح. وستقف الباحثة عند كل قسم من هذه الأقسام، وستتناولها بالتحليل والدراسة.

أولاً: الشعر: من الجدير قوله: إن معظم الرسائل النقدية في كتاب "قصص الفصول" جاءت مسجلة آراء الفاضل في شعر ابن سناء الملك، وخصوصاً الشعر الذي وجهه ابن سناء في مدح الفاضل، ومدح صلاح الدين والتغني بانتصاراته. فقد "خصّ ابن سناء الفاضل بتسع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التي بلغت خمساً وسبعين"⁽⁴⁾، وخص صلاح الدين بتسع قصائد⁽⁵⁾.

ويبدو للمتأمل في نقد الفاضل لشعر ابن سناء الملك، أن الفاضل كان يُصدّر آراءه النقدية بناءً على ذوقه بعيداً عن أي مقياس نقدي، فهي أحكام عامة تقوم على وجهة نظره الخاصة، وهذا ما ذهب

(1) أدب الرسائل في الأندلس - فايز القيسي: 201.

(2) فصول في الشعر ونقده - شوقي ضيف: 172.

(3) المصدر نفسه: 172.

(4) ابن سناء الملك حياته وشعره - محمد إبراهيم نصر: 57.

(5) المصدر نفسه: 66.

إليه بعض الباحثين في أثناء دراستهم لشعر ابن سناء الملك، "ومن هذا العرض لرأي الفاضل نرى أنه لا يقوم على التحليل والتعليل، وبيان أوجه الحسن، وإقامة الدليل، وإنما يقوم نقده على الذوق"⁽¹⁾. ومنهم من رأى نقد الفاضل نقداً تأثرياً غير معلل، ينطوي أكثر ما ينطوي على ثناء جم على فن ابن سناء الملك"⁽²⁾.

ويمكن القول إن آراء الفاضل النقدية في شعر ابن سناء الملك تدور في أربعة محاور نقدية: الأول: يدور حول رأيه في شعره بشكل عام، والمحور الثاني: يدور حول تسجيل آرائه في بعض الشعراء ونتائجهم الشعري كالبحتري، وأبي تمام، وأبي نواس، وابن الرومي، وابن رشيق. أما المحور الثالث فيدور حول قضية كثرة الحديث عنها في كتب النقد، وهي قضية السرقات الشعرية، وموقف الفاضل منها. أما المحور الرابع: فيدور حول قضية التجديد في شعر ابن سناء الملك.

* **المحور الأول:** وقفت الباحثة على آراء الفاضل في الرسائل النقدية التي بعث بها إلى ابن سناء الملك، من هذه الرسائل النقدية رسالة سجل فيها رأيه في قصيدتين له.

الأولى: فائية هنا بها صلاح الدين بإفاقة من مرض ألم به، والثانية: سينية مدح بها الملك الناصر، وقد أوضح ابن سناء الملك الأسباب التي جعلت الفاضل يبدي آراءه في القصيدتين في رسالة واحدة. يقول: "أما القصيدة السينية المشار إليها، فكنت قد مدحت بها الملك الناصر -رحمه الله- قبل هذه الفائية وأرسلتها إليه، وكان بدمشق والملك الناصر -رحمه الله- بحران⁽³⁾، فأخر إنفاذها إليه لأجل المرض الذي كان فيه، فلما عوفي كتبت إليه هذه الفائية، وأشرت في كتابي إلى السينية وتأخرها بأن قلت: "إن تلك القصيدة صادفها زحل في الطريق"⁽⁴⁾، وقد أشاد الفاضل بالفائية ومطلعها:

"نظر الحبيب إلي من طرف خفي فأتى الشفاء لمدنف من مدنف"⁽⁵⁾

فهو يرى أن هذه القصيدة فاقت كل قصيدة، ويجعلها تتفوق على المعلقات، يقول: "وقد علقّ العرب أدون منها، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق، وبالضلوع تعنق، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها، وفضلتها هذه بجودتها وجدتها"⁽⁶⁾.

ويصف شعر الوأواء⁽⁷⁾ بالضعف والركاكة، دون أن يأتي بدليل واحد ليقنعنا بما ذهب إليه، يقول: "ومن هو الوأواء الركيك، بل كل شاعر مغلق على حروف المعجم عندها فأفاء"⁽⁸⁾.

(1) ابن سناء الملك حياته وشعره - محمد إبراهيم نصر: 154.

(2) ملامح الشخصية المصرية - محمد الصاوي الجويني: 361.

(3) مدينة في تركيا، مقابل مدينة تل أبيب السورية، وهي مدينة الصابيين، وبها سدتتهم. ينظر: معجم البلدان: 235/2.

(4) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 251.

(5) المصدر نفسه: 251.

(6) المصدر نفسه: 249.

(7) هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوأواء، كان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب، له ديوان شعر مطبوع. ينظر: ديوان الوأواء - تحقيق

سامي الدهان، يتيمة الدهر: 272/1، فوات الوفيات: 301/2.

(8) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 249.

وفي رسالة نقدية للفاضل، كتبها عندما أرسل إليه ابن سناء الملك قصيدة مطلعها:

"لو واصلتني يوما لم أمت أبدا أو لم تصلني فيا موتي بها كمدا"⁽¹⁾

وقد أطلق الفاضل مرة أخرى أحكاما نقدية عامة اتكأ فيها على ذوقه الخاص، مع المبالغة في ذلك مبالغة مفرطة، فهو يجعل القصيدة بليغة فريدة صارت للقوائد قصداً، وللبلغاء طريقاً، وهي لا تحتاج إلى من يرويه أو ينقلها، وإنما تدل على نفسها بإشراق شمسها، كما أنه يجعل من الشاعر فريداً ليس له نظير، وأنه لا يجارى في هذه الصناعة، يقول: "ولو أن له نظيراً لقلت: إنه واحد الجماعة، ولو أن هذه الصناعة طلبه، لقلت: إنه الآن على العصابة من عصابة شيخ الصناعة"⁽²⁾.

وثمة رسالة نقدية كتبها الفاضل عن قصيدة ابن سناء الملك، هنا فيها الناصر بفتح القدس، وكسر الفرنج، ومطلعها:

"لست أدري بأي فتح تهنا يا منيل الإسلام ما قد تمنى"⁽³⁾

والفاضل في نقده لهذه القصيدة يطلق أحكاماً تأثرية انطباعية غير معلة. يقول: "وما أقف على لفظة إلا أقول هذه وما بعدها، فتأتي الأخرى غضبي علي، وما أعرف لهذه المحاسن نظيراً ولا تسأل بها غيري خبيراً، وهذه دواوين الفحول قد جَبَّها، وهذه وجوه الأقوال، قد أوردها نار النقد فأكَبَّها"⁽⁴⁾.

والثانية يسجل الفاضل رأيه في القصيدة البائية التي كتبها ابن سناء الملك إليه يهنئه بقدوم مصر: "أتيت فجليت عنا الهموم وجئت ففرجت عنا الكروب"⁽⁵⁾

وإنه لجعل من تلميذه فحلاً يفوق كل من سبقه من الشعراء الفحول على مَرَّ العصور، يقول: "وبالجملة إن أهل هذه الصناعة وقفوا خلفاً، ووقف أماماً، وأتت السماء بهم دخاناً وأتت به غماماً"⁽⁶⁾. وعلى الرغم من الأحكام العامة التي أطلقها الفاضل في نقده لشعر ابن سناء الملك فإننا نرى له بعض الوقفات الدقيقة، تتم عن ذوق نقدي، ومن ذلك نقده لأحد الأبيات في سينية ابن سناء، وهو في الغزل وهذا البيت:

"صليني وهذا الحسن باق، فربما يعزل بيت الوجه منه ويكنس"⁽⁷⁾

يقول الفاضل في نقده لهذا البيت: "وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة، فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلاً"⁽⁸⁾. ويجيبه ابن سناء معتذراً عن هذا البيت، فيقول: "البيت الذي ذكر أنه

⁽¹⁾ فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 273.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 273.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 274.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 279.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 279.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه: 279.

⁽⁷⁾ ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 424، فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 262.

⁽⁸⁾ فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 262.

أراد أن يكنسه منها هو في الغزل⁽¹⁾. ويسوغ موقفه من هذا البيت بقوله: "شُغِف بهذا البيت، وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز في قصيدته المشهورة ومطلعها:

"وقامي مثل الفتاة من الخط وخدي من لحيتي مكنوس"⁽²⁾

ثم يُعلق: "والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل، ويتعثر، ويطلب، فتعسر عليه وتتعذر، وما آمن المملوك به سدى، ولا آنس ناره إلا لما وجد عليه هدى"⁽³⁾.

فأجاب الفاضل ابن سناء برسالة يقول فيها: "ولا حجة للقاضي السعيد فيما احتج به عن الكنس في بيت ابن المعتز، فإنه غير معصوم من الغلط، ولا يُقْلَدُ إلا في الصَّواب فقط"⁽⁴⁾.

وقد علق الأهواني على ذلك أن ابن المعتز كان في حالة الفكاهة والعبث، على حين أن ابن سناء يتحدث عن فتاة في مطلع مديح الملك، وكان أولى بابن سناء أن يعتذر بأنه استخدم لغة العامية واصطلاحاتها في الحديث عن البيت يُعزَّلُ منه ساكنوه فيكنس، في انتظار الساكن الجديد؛ لأن هذه الصيغة تستخدم في العامية ولا ترد في المعاجم العربية. وعلى أي حال فالبيت لا يدل من قريب أو بعيد على شاعرية، ولا صدق، وإنما يدل على دفاع ابن سناء عن عبوديته للشاعر القديم⁽⁵⁾.

وبرزت بعض الآراء النقدية للفاضل، ففي حديثه عن ابن المعتز، "فإنه غير معصوم من الغلط ولا يُقْلَدُ إلا في الصَّواب فقط"⁽⁶⁾. وهذا دليل على أن الفاضل لا يحترم القديم لقدمه، وإنما يجب الأخذ من القديم جيده وطرح رديئه.

* ويتحدث في **المحور الثاني**: عن آراء الفاضل في بعض الشعراء ونتائجهم الشعري، ويلجأ إلى المفاضلة دائما بينهم وبين ابن سناء الملك، ومن هؤلاء الشعراء البحري، فهو يقارن بين قصيدة البحري ومطلعها: "أجذك ما تتفك يسري لزينبا
وقصيدة ابن سناء الملك ومطلعها:

"تذكرت أيام الصبا والصبا وعيشا مليحا بالمليحة معجبا"⁽⁸⁾

يقول: "وددت لو كان البحري حيا فكنا نلسه من تلك القصيدة بحية، وكانت بائيته تغضّ من بأوها وعجبها، وتستتر من الأوراق في حبها، وكنا نعلم أيّ الزينبين الحلوب؟ وأيهما أحقّ بملك القلوب ولا شك أن الغالبة هي زينب الغالب وهو صاحبنا، والمغلوبه هي زينب المغلوب"⁽⁹⁾.

(1) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 262.

(2) ديوان ابن المعتز - تحقيق محمد بديع شريف: 273/2.

(3) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 263.

(4) المصدر نفسه: 265.

(5) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - عبد العزيز الأهواني: 35.

(6) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 263.

(7) ديوان البحري - تحقيق حسن كامل الصيوفي: 196/1.

(8) ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 538.

(9) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 265.

ويبيدي الفاضل رأييه في أبي تمام والبحثري مخالفا رأي ابن سناء في تفضيل البحثري على أبي تمام. فيقول: "وقد تعصّب القاضي السعيد على أبي تمام، فنقصه، وحطّه، وللبحثري فأعطاه أكثر من حقه، وما أنصفهما، ولو كان هذا الموضع العتب لاشتقت قلوب، ولكن للعتاب مواضع" (1).

ويسجل الفاضل وابن سناء آراءهما في شعر ابن الرومي، فالفاضل يسلم لابن الرومي شاعريته، ويتعرض لقضية الجودة والرداءة في الشعر، والتي لا يسلم منها شاعر، سواء كان قديما أم محدثا. يقول: "فكان يبرز من الشعر محاسنه المغمورة، ويلفظ أبياته الخراب، ويبقي أبياته المعمورة" (2). أما ابن سناء فقد اعترف بعدم قدرته على الغوص في استخراج درر ابن الرومي، فهي تحتاج إلى ناقد بصير، وإلى جهبذ خبير (3).

ويبدو أن الفاضل كان يختار له شعر غيره، وقد أشار إلى ذلك ابن سناء بقوله: "فأما ما أمر به المولى في شعر ابن الرومي، فما المملوك من أهل اختياره ولا من الغواصين؛ لأن بحاره زخاره، وأسوده زاره" (4).

وسجل ابن سناء الملك رأييه في شعر ابن رشيق، فجميع شعر ابن رشيق مسروق في رأييه إلا موضعين أو ثلاثة (5)، وهذه المواضع أثارت إعجاب ابن سناء وحيرته لفرط حسنهما، يقول: "وقد حيرت المملوك استحسانا لها، وتعجبا منها، وأتعبته تفتيشا وتنقيبا عليها، ولم يعرف من أين اختطفها، وهنيئا له إن كان خاطره افترعها، أو ذهنه اخترعها" (6).

ويسجل الفاضل رأييه في شعر ابن رشيق، وهو لا يبتعد كثيرا عن رأي ابن سناء الملك، فالفاضل في تسجيل آرائه الخاصة بالشعراء، كان يفاضل بينهم وبين تلميذه، فيجعله في مقدمة السبق، فهو أشعرهم جميعا. يقول: "وقد تقدم أنه أشعر من كل من يختار شعره" (7).

ويبدو للمتأمل في تفضيل الفاضل لشعر ابن سناء الملك على غيره من الشعراء، يتجرد من أي مقياس نقدي، وإنما يُصَدَّر حكمه عن إعجاب بشخصية ابن سناء، ومجاملة له بعيدا عن أسس النقد التي استقرت في عصره.

* المحور الثالث: يدور حول قضية كثر الحديث عنها، وهي مشكلة السرقات الشعرية، يقول

في تعليقه على قصيدة ابن سناء الرائية:

"ألا فانتبه من ألقها طلع الفجر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر" (8)

(1) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 265.

(2) المصدر نفسه: 267.

(3) المصدر نفسه: 267.

(4) المصدر نفسه: 268.

(5) المصدر نفسه: 307.

(6) المصدر نفسه: 306.

(7) المصدر نفسه: 256.

(8) ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 149، فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 256.

"إنّ ابن المعتز أغار على ذي الرّمة في تشبيهاته"⁽¹⁾. والفاضل في هذا كله يصدر آراءه كالعادة دون الاستناد إلى دليل يُدعّم رأيه فيما يقول. وإذا رحنا نفتش عن مفهوم السرقة بمعناها الواضح، فهي "أخذ جمل وأفكار أصيلة، وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها"⁽²⁾. وابن المعتز لم يسرق نصوصا دون الإشارة إليها فكل ما فعله هو توليده معاني جديدة من معانٍ قديمة، وقد اعترف بذلك الفاضل، يقول: "وقد اتكأ واتكل على ذي الرّمة، فأخذني في طريقه مستأنسا برفيقه، فما ترك له تشبيها إلا نقله وصقله، واستعمله، واستتر له، وروجه، وأخرجه، وخرّجه"⁽³⁾.

* **المحور الرابع:** فيدور حول فكرة التجديد أو الابتكار، فابن سناء الملك في نظر الفاضل لا يغير على غيره من الشعراء؛ لأنه "ما استأنس إلا بنفسه، ولا أخرج إلا من كيس فكره"⁽⁴⁾. وقد وقف الفاضل على أبيات محددة وأشاد بها، فجعل منها عيون القصائد. يقول في تعليقه على القصيدة الرائية التي هنا بها ابن سناء عند عودته من دمشق، ومطلعها: "ألا فانتبه"، "وما رأيت أغرب من مطلع هذه القصيدة، ولا أدل منها على شطارة طبع، ولا من بيت الكأس المكسورة، ولا أدل منه على صلابة نبع، ولا من بيت الورق الخضر، ولا أدل منه على رقة طبع، وشدة نزاع، وما هو إلا مالك عنان الفضل في عصره، وواحد كل دهره"⁽⁵⁾.

أمّا بيت الكأس المكسورة الذي لفت انتباه الفاضل بما فيه من محسنات بديعية من مفارقة⁽⁶⁾، وجناس بين كأس وكسر وسحر. يقول:

"وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر"⁽⁷⁾

أمّا بيت الورق الخضر الذي يدل على رقة طبع ابن سناء الملك، فقد جاء فيه ما يسمى بحسن التعليل⁽⁸⁾. يقول:

"فلا تتكروا منها الخضاب، فإنما هي الغصن في أطرافه الورق الخضر"⁽⁹⁾

وهذا البيت مأخوذ من قول أبي صخر الهذلي وهو:

"تكاد يدي تندي إذا ما لمستها وتبتت في أطرافها الورق الخضر"⁽¹⁰⁾

(1) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 256.

(2) مشكلة السرقات في النقد العربي - محمد مصطفى هدار: 265-266.

(3) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 255.

(4) المصدر نفسه: 255.

(5) المصدر نفسه: 254.

(6) هو أن يعمد المتكلم إلى نوعين من جنس واحد بينهما تباين في المدح أو الذم. ينظر: علوم البلاغة: 308.

(7) ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 159، فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 256.

(8) وهو أن ينكر الأديب صراحة أو ضمنا علة الشيء المعروفة، ويأتي بأخرى طريقة تناسب الغرض الذي يقصده - معجم البلاغة العربية - بدوي طبانة.

(9) ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 159، فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 256.

(10) ديوان الحماسة - تحقيق عبد المنعم أحمد صالح: 369/2.

فأين الابتكار الذي جاء به ابن سناء الملك؟ وما هو مصدر إعجاب الفاضل به؟ وقد علق
الأهواني على الأبيات التي أعجب بها الفاضل، فأرجع سرَّ إعجابه ببيت الكأس المكسورة إلى حسن

التعليل، وبيت الورق الخضر إلى المفارقة، كما يرى أن حسن التعليل والمفارقة رياضة وصناعة عقلية وهما أعلى مراحل التفكير العقلي في شعر ابن سناء الملك⁽¹⁾.

وأعجب الفاضل ببعض مطالع القصائد، فقد كان حُسن المطلع، وبراعة الاستهلال، يلفتان نظر الفاضل، وكان يقف عند نادر المعاني في شعره⁽²⁾. يقول في تعليقه على البائية ومطلعها:

"ألا فاعجبوا من هجرها لحبيبها ولا تعجبوا من لمتي ومشيبها"⁽³⁾

يقول: "وأما البائية فبيت طبيبها دُرْجُ طبيبها، وقد تعطر به كل فم يرويه، وكل سمع يعيه، وهو من غريب ما قيل في الشيب، وما أحسبُ أحدا وقع عليه وهو بيت كله فضل، وما فيه فضلة. ويهون على الإنسان بيت إذا قال مثله"⁽⁴⁾. فالفاضل يرى ابن سناء مبتكرا لهذا المعنى في الشيب ولم يسبقه إليه أحد. وغالى الفاضل مغالاة كبيرة، فقد قال الشعراء الذين تقدموا عليه أبدع المعاني وأغربها، وكان لهم قصب السبق في هذا المضمار، فأين البحراري وما قاله في الشيب:

"عيرتني المشيب وهي بدته في عذاري بالصد والاجتناب

لا تريه عارا فما هو بالشيب ب ولكنه جلاء الشباب

وبياض البازي أصدق حسنا إن تأملت من سواد الغراب"⁽⁵⁾

والناظر في دواوين الشعراء يجدها مليئة بالكثير من المعاني الرائقة في الشيب⁽⁶⁾.

ثانيا: النثر

لا تبتعد آراء الفاضل النقدية في رسائل ابن سناء الملك كثيرا عن نقده لشعره، فقد كان نقد الفاضل لنثره "نقدا تأثريا، فهو لم يُفصل لم يستحسن أو يفسر لم استجاد"⁽⁷⁾.

وستقف الباحثة عند رسالتين للفاضل كتبهما جوابا على رسائله: أما الرسالة الأولى: فقد كتبها جوابا عن رسالة ابن سناء، وأخبره فيها باختياره كتاب "الحيوان" للجاحظ، وسمى المختار "روح الحيوان"، وذكر فيها ابن سناء إعجابه بثلاثة من أعلام الكتاب، من أمثال أبي حيان التوحيدي، وابن العميد، والوزير أبي القاسم المغربي، إلى أن وقع على كتاب "الحيوان" للجاحظ فتغير رأيه فيهم، فجميعهم يغير على الجاحظ، ومن ثم فهو السابق وهم اللاحقون⁽⁸⁾.

ويبدو للناظر في الرسالة أنها تدور حول قضية نقدية مهمة هي قضية التأثر والتأثير، فالجاحظ وغيره تأثروا بالسابقين، واغترفوا من آثارهم، فكما تأثر الجاحظ بمن سبقه، فلا بُدَّ أن من أتى بعده قد

(1) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - عبد العزيز الأهواني: 86-87.

(2) ملامح الشخصية المصرية - محمد الصاوي الجويني: 367.

(3) ديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر: 367، فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 367.

(4) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 266.

(5) ديوان البحراري - تحقيق حسن كامل الصيرفي: 84/1.

(6) ينظر على سبيل المثال: ديوان المتنبي - دار المعرفة: 76/3، وديوان ابن المعتز - تحقيق محمد بدیع شريف: 376/2-386.

(7) ملامح الشخصية المصرية - محمد الصاوي الجويني: 364.

(8) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 303، ملامح الشخصية المصرية - محمد الصاوي الجويني: 364.

تأثر بفنه، وكتابات، ويدلل الفاضل في رسالته على هذه القضية من خلال تعداده لأبرز أعلام الفن والكتابة في الأدب العربي من أمثال سالم⁽¹⁾، وعبد الحميد الكاتب⁽²⁾، وعمار بن حمزة⁽³⁾، وابن المقفع⁽⁴⁾.

ووقف الفاضل عند "محمد بن الليث"، وألقه "بالطبقة العالية"⁽⁵⁾. وهذا يدل على ثقافة الفاضل العميقة وصلته بالتراث، وقد قال ابن النديم عن محمد بن الليث: "كان بليغا مترسلا كاتباً فقيهاً متكلماً بارعاً"⁽⁶⁾.

ويقف الفاضل عند مجموعة من الكتاب المتأخرين من أمثال عمرو بن مسعدة، وعلي بن عبيدة، وأحمد بن يوسف، وسهل بن هارون.

وقد أشار ابن النديم إلى مكانة علي بن عبيدة، وأحمد بن يوسف، فالأول: أثنى على بلاغته وفصاحته وذكر له خمسة وخمسين كتاباً في مختلف الفنون. والثاني: فقد جعله من بين البلغاء العشرة، وقد اشتهر بكتابة رسائل الخميس⁽⁷⁾ «(8)».

وأشاد الفاضل بسهل بن هارون، فجعله في قمة البلاغة فهو ملك خطباء العرب جاهليها وإسلاميها ومخضرمي دولتها. ولكن لماذا توقف الفاضل عند كل من محمد بن الليث، وسهل بن هارون؟ ربما لفصاحتهما وشهرتهما، فالأول: من خلال رسالته التي كتبها عن الرشيد إلى قسطنطين يدعو فيها إلى الإسلام، حاشداً كل الحجج والبراهين التي تدافع عن الإسلام، واستمد فيها كثيراً من الحجج مما يجادل به المتكلمون والنصارى. ويشير فيها إلى النعمة والخير اللذين سيعمانهم إن دخلوا في الإسلام⁽⁹⁾.

ولسهل بن هارون رسالة يحتج فيها للبخل، وينصره على الكرم، وقد اعتمد فيها على الجدل والحجج التي دافع بها عن البخل، وهي "حجج استمد فيها من المأثور عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين، وعن حكماء أمته الفارسية"⁽¹⁰⁾.

(1) جعله ابن النديم أحد البلغاء العشرة. ينظر: الفهرست: 247.

(2) قال عنه ابن النديم "وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل واحد دهره، ولرسائله مجموعة نحو ألف ورقة. ينظر: الفهرست: 231.

(3) كان عمار بليغا فصيحاً، وله رسائل مجموعة من جملتها رسائل الخميس. ينظر: الفهرست: 231.

(4) جعله ابن النديم على رأس البلغاء العشرة. ينظر: الفهرست: 247.

(5) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 301-302.

(6) الفهرست - ابن النديم: 237.

(7) هي رسائل كانت تكتب في عهد كل خليفة عباسي، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحقُّ أهل بيته بالخلافة. ينظر: العصر العباسي الأول: 468.

(8) الفهرست - ابن النديم: 236-247-248.

(9) العصر العباسي الأول - شوقي ضيف: 478.

(10) المصدر نفسه: 538.

وللفاضل رأي غريب بقوله عن الجاحظ: "وإذ تأملت ما عملوا رأيت عقدا منظوما، وإذا تأملت ما عمل الجاحظ رأيت هباءً منثوراً⁽¹⁾. وهو أمرٌ غريب حقا فقد خالف الفاضل إجماع كثير من النقاد على تفرد الجاحظ وعبقريته، فالجاحظ تأثر بسابقيه، ولكنه تفوق عليهم وأبدع، وقد يتفوق التلميذ على أستاذه، وليس في الرسالة دليل واحد يستند الفاضل إليه في إطلاق رأيه هذا، فالجاحظ "ملاً الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة، فأسلوبه مليء بالنغم، إذ يُمتّع الألسنة حين تنطق به، والآذان حين تُصغي إليه كما يُمتّع بمضامينه العقول والأفئدة"⁽²⁾.

ويختتم الفاضل رسالته بتأييد تلميذه في ما ذهب إليه من تأثر أبي حيان التوحيدي، وابن العميد، وأبي القاسم المغربي بالجاحظ⁽³⁾.

وأما رسالة الفاضل النقدية الثانية، فكان قد كتبها جواباً عن رسالة لابن سناء يصف فيها رسالته، يقول: "فأما بلاغته فقد بلغت الغاية، وأما قلمه فإنه به قد أعطى الراية، وقد تجاوز حد الكمال فانصرفت عينه، وأوجب حرمة الأيام مقدماً"⁽⁴⁾.

وتظهر في الرسالة غلبة النقد التأثري الانطباعي، والذي لا يستند فيه على أسس علمية نقدية، فالنقاد القدامى لم ينكروا أهمية الذوق في عملية النقد، يقول ابن الأثير: "واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم"⁽⁵⁾. ولكن الذوق وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ من الدربة والمران على ممارسة النقد. ويقول: "فإن الدربة والمران أجدي عليك، وأهدى بصراً وسمعا، وهما يريانك الخبر عياناً، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً"⁽⁶⁾.

فالفاضل كان يصدر أحكامه معتمداً في ذلك على ذوقه الخاص، متناسياً أمر الدربة والمران، والتي من خلالها تمكن الناقد من تقديم أدلته وتعليقاته النقدية.

ثالثاً: الموشح

كتب ابن سناء الملك بعض الموشحات في مدح القاضي الفاضل، واطلع الفاضل على تلك الموشحات، وأبدى رأيه فيها. ومن المعروف أن ابن سناء الملك اهتم بالموشح اهتماماً كبيراً حتى ألف كتاباً في هذا الفن سماه "دار الطراز في عمل الموشحات". وقد صرح في مقدمة الكتاب بشغفه بها في سن مبكرة، يقول: "وكنْتُ في طليعة العمر، وفي ريعيل السن قد هممتُ بها عشقا، وشغفتُ بها حباً، وصاحبته سماعاً، وعاشرتها حفظاً، وأحطتُ بها علماً"⁽⁷⁾.

(1) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 302.

(2) العصر العباسي الثاني - شوقي ضيف: 610.

(3) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 302.

(4) المصدر نفسه: 286.

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 17/1.

(6) المصدر نفسه: 17/1.

(7) دار الطراز في عمل الموشحات - ابن سناء الملك: 24.

وقد حفظ كتاب "فصوص الفصول" ثلاث رسائل قصيرة أبدى فيها الفاضل رأييه في ثلاثة موشحات. وستقف الباحثة عند رسالتين لتتبين آراء الفاضل النقدية في هذا الفن. أمّا الرسالة الأولى: فقد كتبها عن موشح مدّحه فيه ابن سناء الملك وسمّاه "الموشح الجناري". يقول فيه:

"صرف كأسه جناره
فأدرها واسقنيها
وهي بالمزج بهاره
في هوى من ريق فيها
من شراب الكأس أحلى
ولهذا صار أغلى"⁽¹⁾

وقد علق الفاضل على الموشح كعادته بأحكام عامة ينقصها التعليل، يقول: "وقفت على موشح الجناره وهو أحسن من الموشح الجناري الذي كان زينة أعياد الخلفاء، وأجدر منها بالنفاسة من القيمة والزيادة في البقاء"⁽²⁾. ويعلق الأهواني على كلام الفاضل، فيرى أنه قد بالغ في مدح ابن سناء الملك؛ لأن الموشح كله لا يستحق المديح الذي أسبغ عليه القاضي الفاضل⁽³⁾. ويقف الأهواني عند آخر فقرة من هذا المطلع، فيقول: "ولهذا صار أغلى" فيقول: "إنه أشبه بأقوال الفقهاء والمناطق منه بأقوال الشعراء"⁽⁴⁾.

أمّا الرسالة الثانية، فقد كتبها عن موشح مدح فيه ابن سناء، الفاضل ومطلعه:

"في خديك من صير اللاذ
شاب بالياسمين
ودع ذا فيا حيرة الواش
من ذا السحر المبين"⁽⁵⁾

وقد أعجب الفاضل بالموشح إعجاباً شديداً؛ لأن ابن سناء جعل خرجة الموشح فارسية، وهذا ما عجز عنه في نظر الفاضل السابقون. يقول: "وتضمن الكتاب السعيد موشحاً فارسياً خرجته، عربية لهجته، واضحة في تعجيز السابقين الأولين حجتة"⁽⁶⁾. ويعلق الأهواني على الخرجة التي أعجب بها الفاضل، فيرى أن فيها خروجاً عما هو مألوف فيها، فقد وقع ابن سناء الملك في الخطأ حينما حاول أن يخالف الأندلسيين في شروطها التماساً للابتكار، فمن شروطها أن تكون عامية اللغة لا أعجمية، ففهم ابن سناء الأعجمية أنها استخدام لغة أجنبية. وهذا خطأ في الفهم لأن المقصود بالأعجمية في لغة أهل الأندلس العامية المتداولة في المجتمع الأندلسي⁽⁷⁾.

وعلى الرغم مما يراه الأهواني من أنها أعجمية، فليس من حق أحد أن يغمط ابن سناء حقه في عصره، وفي ظروف لم يستطع غيره أن يصل في هذا الفن إلى ما وصل إليه. وبالطبع لن تكون

(1) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 292.

(2) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - عبد العزيز الأهواني: 194.

(3) المصدر نفسه: 194.

(4) المصدر نفسه: 194.

(5) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 260.

(6) المصدر نفسه: 260.

(7) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - عبد العزيز الأهواني: 185-186.

موشحاته في قوة الموشحات الأندلسية، ولا في روعتها، ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الفن عند ابن سناء بعيداً عن غيره وجدناه "روعة جرس، وإيقاع، ومهارة في تشكيل الألفاظ وتحويلها إلى ألحان خاصة"⁽¹⁾. وأخيراً، يمكن القول: إن أدب ابن سناء الملك قد جمع بين الجيد والردئ شأنه شأن أي أديب، ولكن الفاضل كان يغض الطرف في نقده عن كثير من عيوب ابن سناء، ويعمد إلى إبراز محاسنه فابن سناء كان تلميذاً للفاضل - كما أسلفنا - يسترشد بأرائه، ويعنى بنقده، كما كان يعينه أن يستجيد في شعره ونثره؛ فالفاضل كان زعيم مدرسة الكتاب في العصر الأيوبي، ومن هنا فإن ابن سناء الملك تأثر به تأثراً كبيراً.

⁽¹⁾ الموشحات في العصر الأيوبي - ماجدة جمال الدين: 174.

الفصل السادس

البناء الفني للرسائل

محتويات الفصل السادس

208-197.....	* بناء الرسالة.
237-208.....	* الأسلوب واللغة.
247-237.....	* الصنعة الفنية.
258-247.....	* الصورة الفنية.
268-258.....	* الموسيقى في الرسائل.
274-268	* نموذجان تحليليان.

بالرغم من التطور الذي شهده النثر في هذا العصر ممثلاً بالرسائل الفنية إلا أن هذا التطور ظل محكوماً بتلك القوالب الفنية التي أودعها مؤسسو كتاب ديوان الرسائل، فقد أرسى هؤلاء الكتاب أسس البناء الفني للرسائل بشكل عام، وقد كان ديوان الإنشاء -آنذاك- مؤسسة تعليمية يخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه، فيلتحق به من يتتقف ثقافة معينة.

وكانت هذه المؤسسة تخضع لقواعد كتابية محددة تصدر بمقتضاها سائر مكاتبات الدولة. وقد أتاح هذا الأمر للرسائل قوالب فنية جاهزة، ظل يتداولونها خصوصاً أولئك النفر الذين اندمجوا في سلك الوظائف الديوانية، أما الكتاب الذين لم يلتحقوا بالعمل في ديوان الإنشاء، فقد انفكوا من القيود الفنية لبناء الرسائل في معظم الأحيان، وإن كان بعضهم حاول أن يراوح بين هذه القيود والتحرر منها. وقد اهتم النقاد العرب بالحديث عن بنية الرسائل وما يصحبها من عناصر شكلية في كل جزء من أجزائها، ولما كان هذا النوع من العناصر يشكل الملامح الأساسية لبنية الرسالة من ناحية الشكل، فقد استمر الكتاب ينسجون رسائلهم على منوالها حتى صارت تقاليد ثابتة.

ومن الجدير قوله: إنه على الرغم من العناصر المثالية لبناء الرسائل، فقد تخفف بعض الكتاب من هذه القيود وأهملوها بل سعوا إلى تغييرها وخاصة في الرسائل الإخوانية والأدبية. وبحكم صلة الرسائل الديوانية بديوان الإنشاء، فقد اختصت دون غيرها بالالتزام بتلك العناصر، بل مضى بعض الكتاب إلى محاولة التغيير في هذه العناصر ومخالفة الصيغ المألوفة. وسأحاول دراسة الملامح الأساسية في شكل الرسالة في العصر الأيوبي من حيث المقدمات والخاتمة، والأسلوب واللغة، وبعض الظواهر الأسلوبية، عاكفة على كل محور من هذه المحاور بالتحليل والتفصيل.

* بناء الرسالة

احتفل الكتاب في هذا العصر بمقدمات رسائلهم احتفالاً شديداً، فالافتتاح أول ما يطالع المرسل إليه، وبالتالي فإنه يشبه أن يكون لبنة أساسية في شكل الرسالة الفني، ولهذا اهتم بها النقاد اهتماماً شديداً، ووضعوا لها قواعد وأصولاً. يقول صاحب الصناعتين: "احسنوا معاشر الكتاب الابتداعات فإنهن دلائل البيان"⁽¹⁾.

ومن شروط الرسالة الجيدة براعة الاستهلال، واتساقه مع المقصد الذي تبني عليه، فعلى الناظم أو الناثر " أن يأتي في ابتداء كلامه ببينة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة، أو معظم مراده، والكاتب أشد ضرورة من غيره ليبيّن كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أول وهلة علّم بها مقصده، إما في خطبة تقليدية أو دعاء كتاب"⁽²⁾.

واشترط النقاد أن تدل الفاتحة على الغرض الذي من أجله كتبت الرسالة، فقد قال ابن الأثير: "وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من هذا

⁽¹⁾ كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري: 431

⁽²⁾ حسن التوسل - شهاب الدين الحلبي: 250-251.

الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني⁽¹⁾.

ذكر الفلقشندي: "أن عادة الكتاب جرت على أن تشتمل الرسالة على مقدمة يفتح بها الكلام، وتكون مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض"⁽²⁾.

واشترط النقاد في الافتتاح الحسن والدلالة على الغرض، واشترط أن يبدأ الكتاب رسائلهم بالبسملة "ليبارك لهم فيما يحاولون، ويؤجرون عليه"⁽³⁾.

وكانت عادة الكتاب في الجاهلية افتتاح رسائلهم بعبارات مخصوصة، فقد كانوا يكتبون عبارة "باسمك اللهم"، وبقيت هذه العبارة متداولة في صدر الإسلام في مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم - إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽⁴⁾، فاستفتح بها النبي صلى الله عليه وسلم - وصارت سنة بعده⁽⁵⁾.

وقد حرص الكتاب على الاقتداء بها في أوائل رسائلهم، وتأكيذا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم - في اتخاذ البسملة في صدور الكتب، فقد وردت أحاديث نبوية تحت على احتذاء هذه السنة، وبيان فضائل الاستهلال بها، من مثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم - "كلُّ امرئٍ بال لا يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع"⁽⁶⁾.

ومن الملاحظ على رسائل هذا العصر أن البسملة فيها ساقطة من مقدماتها، وهذا ليس من صنع الكتاب، وإنما من صنع جامعي الرسائل والمؤرخين، وهذا ما أشار إليه "أحمد أمين" عند دراسته الرسائل في مصر الإسلامية إلى نهاية الدولة الإخشيدية. يقول: "وقد ترد بعض الرسائل خالية من البسملة، ولكن هذا يجيء من باب اختصار المؤرخين للرسائل، حيث إن افتتاح الرسائل بالبسملة أمرٌ معروف لا حاجة إلى تأكيده"⁽⁷⁾.

وجاءت بعض الرسائل المتبادلة مع غير المسلمين ملتزمة بالبسملة على غرار أكثر ما كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى غير أهل الإسلام. ومن الرسائل التي جرت هذا المجرى رسالة "البهاء زهير" إلى "لويس التاسع"، والتي كتبها رداً على رسالته، وقد بدأها بالبسملة. يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين"⁽⁸⁾.

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 2/209.

(2) صبح الأعشى - الفلقشندي: 6/279.

(3) أدب الكاتب - ابن قتيبة: 31.

(4) سورة النمل آية: 30.

(5) أحكام صناعة الكلام - الكلاعي: 63.

(6) صبح الأعشى - الفلقشندي: 6/22.

(7) الرسائل في مصر الإسلامية - أحمد أمين: 255.

(8) الخطوط - المقرئ: 1/611.

ويلي البسمة العنوان، وهو من جملة العناصر الذي يقام عليه بناء الرسالة، يقول صاحب مواد البيان: "العنوان كالعلامة، يدل على مرتبة الكاتب من الكتاب، فالأصل فيه أن يتم الإخبار فيه عن اسمي الكاتب والمكتوب إليه حتى لا يكون الكتاب مجهولاً"⁽¹⁾. ويفسر الكلاعي سبب تسمية العنوان بهذا الاسم قائلاً: "لأنه يدل على الكتاب ممن هو، وإلى من هو"⁽²⁾.

ومن الملاحظ على رسائل هذا العصر إسقاط العنوان في معظمها، وربما يكون السبب رغبة المؤرخين والجماع في الاختصار. ولكن في الوقت ذاته التزمت بعض أنواع الرسائل السياسية كالتقليدات ذكر العنوان، وإن اختلفت صيغ العنوان فيها، إذ كان بعضها يتضمن ذكر اسم المرسل والمرسل إليه موشحاً بالألقاب، والإكثار من النعوت والأوصاف، والإغراق في حشد عبارات التبجيل والتفخيم، كذلك الصادرة عن الخليفة في بغداد إلى السلاطين في مصر والشام. ويبدو هذا في عنوان التقليد الذي كتبه ابن الأثير، فقد ذكر صورة اللقب الذي جرى الأمر على مخاطبة الخليفة به، يقول: "فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله، وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب"⁽³⁾.

ويسير على نفس المنحى التقليد الصادر عن ديوان الخلافة ببغداد إلى الناصر صلاح الدين، ويبدو عنوان التقليد من خلال إثبات اسم الملك الناصر مضافاً إليه جملة من النعوت، والأوصاف، والألقاب، يقول: "ولما كان الملك الأجل السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، قاهر الخوارج والمتمردين عز المجاهدين..."⁽⁴⁾.

ولعل من الطريف أن يعتمد الوهراني، وابن الأثير إلى اختراع عنوانات وهمية لبعض ما أنشأوه من رسائل أدبية مطولة متأثرين بذلك بالجاحظ، حيث لاحظ خلو الرسائل الأدبية المطولة من هذا العنصر، فسعى على مفارقة المؤلف مبتدعاً شكلاً جديداً يشكل خروجاً واضحاً على ما هو مألوف في الرسائل السياسية والإخوانية"⁽⁵⁾.

ويمثل هذا المنحى من الرسائل رسالة الوهراني⁽⁶⁾، التي كتبها على لسان جامع دمشق إلى "الملك العادل نور الدين"، فالرسالة تحمل شخوصاً عدة، ابتداءً من الجامع الأموي إلى جامع النيرب إلى جامع المزة إلى مسجد برزة إلى القاضي "سعد بن أبي عصرون"، وانتهاءً بنور الدين.

ويلي العنوان السلام: وجعل السلام في صدور الكتب، يقول الفلقشندي: "إنما جعل السلام في ابتداء الكتب وصدورها؛ لأنه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب"⁽⁷⁾، فكما أنه يفتتح به الكلام طلباً

(1) مواد البيان - علي بن خلف: 74.

(2) إحكام صناعة الكلام - الكلاعي: 60.

(3) الرسائل في مصر الإسلامية - أحمد أمين: 255.

(4) صبح الأعشى - الفلقشندي: 145/10.

(5) الرسائل الفنية في العصر العباسي - محمد الدروي: 469.

(6) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 61-71.

للتأليف كذلك تفتتح به المكاتبات، وتُصدّر طلباً للتأليف⁽¹⁾.

أما صدور الرسائل الديوانية: فقد كان الكتاب يفتتحونها "بالدعاء للديوان العزيز، وتارة بالدعاء لما يعود عليه، وتارة بالصلاة، وتارة بالسلام"⁽²⁾.

ويذكر أنه من الحذاقة في هذا الباب أن يجعل الكاتب "التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب"⁽³⁾؛ لأن التحميدات "لا تصدر في غيرها، فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد كفتح معقل، أو هزيمة جيش، أو ما جرى هذا المجرى"⁽⁴⁾.

ومن محاسن المقدمات "أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم أو بخبر من الأخبار النبوية، أو ببیت من الشعر، ثم يبنى الكتاب عليه"⁽⁵⁾. وفي الافتتاح بالدعاء، قد تأتي براعة الاستهلال في فنون الكلام، وقد تأتي مع الابتداء بالتحميد، وقد تقع مع الابتداء بالنقيب⁽⁶⁾. وقد تحقق هذا في مقدمات الرسائل الرسمية.

وفي ضوء استقرار النصوص التي بين يدي الباحثة تبين لها أن مقدمات الرسائل السياسية في هذا العصر تختلف من غرض لآخر. فالنظر في رسائل الوحدة الإسلامية، ورسائل الاستجداء، ورسائل البشرى، يؤكد على أن كتابها كانوا يفتتحون صدورها بالدعاء للمرسل إليه. ويبدو أن الكتاب الأوائل لم يهتموا بالدعاء في رسائلهم، مما دفع الكلاعي أن يقول: "إن الإكثار من الدعاء في الرسائل من أبهر الدلائل على ضعف البضاعة في الصناعة"⁽⁷⁾. ولما كان معظم هذه الرسائل موجهة إلى الخليفة في بغداد، فقد كانوا يتوجهون فيها بالدعاء إلى الديوان العزيز "ويكون الدعاء للديوان بما فيه معنى دوام العز والسلطان، وبسط الظل، وما أشبه ذلك، مثل "أدام الله أيام الديوان العزيز"، أو "خلد الله أيام الديوان العزيز"⁽⁸⁾.

ومن أمثلة ذلك رسالة الفاضل إلى الديوان العزيز: "خلد الله تعالى سلطان الديوان العزيز النبوي، وضاعف جلاله، وأسبغ على الإسلام والمسلمين ظلاله"⁽⁹⁾.

ومنها ما ورد في رسالة العماد الأصفهاني عند نزول السلطان على سنجار، يقول: "بعد الدعاء على العادة أصدر الخادم هذه الخدمة"⁽¹⁰⁾.

وقد يفتتح الكتاب رسائلهم بالدعاء لغير الديوان، بما فيه تعظيم الخليفة، كما كتب الفاضل عن صلاح الدين بقوله: "أسعد الله عظماء الأملاك بالانتساب إلى الخدمة الشريفة، وأوزعهم ما أمرهم الله به من طاعة"⁽¹¹⁾.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 229/6.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 429/6.

(2) المصدر نفسه: 495/6.

(3) المثل السائر: ابن الأثير: 218/2.

(4) المصدر نفسه: 218/2.

(5) المصدر نفسه: 225/2.

(6) نصره الثائر - الصفدي: 53-54.

(7) إحكام صناعة الكلام - الكلاعي: 81.

(8) صبح الأعشى - القلقشندي: 496/6.

(9) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 64، ينظر: الرسائل: 38-65، صبح الأعشى - القلقشندي: 496/6.

(10) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 42/5.

وقد يسبق الدعاء عند بعض الكتاب لفظ "المملوك يقبل الأرض"⁽¹⁾. وقد ذكر القلقشندي أن هذا من مصطلحات الدولة الأيوبية، ولم يذكر شواهد على ذلك إلا للفاضل⁽²⁾.

وقد تفتتح بعض الرسائل بآية مناسبة للموضوع، ومنها ما ورد في رسالة العماد القدسية إلى الديوان العزيز. يقول: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾⁽³⁾.

أو أن تفتتح الرسالة بالصلاة والسلام على الخليفة على مذهب من يجيز الصلاة على غير الأنبياء، ومن ذلك رسالة الفاضل إلى بغداد يبشر فيها بفتح بلاد النوبة، يقول: "صلوات الله التي أعدها الله لأولياته، وذخرها، وتحياته التي قذف بشهبيها شياطين أعدائه ودحرها"⁽⁴⁾.

وقد يغفل الكتاب الافتتاح في بعض الرسائل المرسلّة إلى بغداد، كما في رسالة العماد التي أخبر فيها عن سقوط عكا بيد الفرنجة، إذ بدأ الحديث مخبراً عن أمر عكا، ولعل صعوبة الموقف، هي التي صرفت الكاتب عن الافتتاح، يقول: "فقد عُرف أمر عكا، وأن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها"⁽⁵⁾.

إن الرسائل التي كتبت إلى الملوك والأمراء تباينت، ولم تلتزم صيغة معينة، فقد تفتتح الرسالة بلفظ الإصدار، كما في رسالة الاستجداء التي كتبها الفاضل إلى "سيف الإسلام طغتكين"، يقول: "أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس"⁽⁶⁾.

وقد تفتتح الرسالة بالدعاء، ويبدو هذا واضحاً في رسالة ابن الأثير إلى "الملك الأشرف" يهنئه بفتح: "خلد الله دولة مولانا الملك الأشرف"⁽⁷⁾.

أو قد تفتتح الرسالة بلفظ الدعاء للمجلس، كما في رسالة العماد إلى الفاضل، يقول: "أعز الله نصر المجلس العالي الأجلّي الفاضلي"⁽⁸⁾.

وتنوعت أساليب الافتتاح في مخاطبة الوزراء والأمراء تنوعاً ملحوظاً، وقد عبر عن ذلك صاحب صبح الأعشى بقوله: "على أن في الدولة الأيوبية أساليب أخرى لا يسع المقام استيعابها، ويغني عنها فيما تقدم ذكره"⁽⁹⁾.

(11) صبح الأعشى - القلقشندي: 504/6.

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 42، ينظر على سبيل المثال الرسائل: 194، 181، 51 وغيرها، الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 51.

(2) صبح الأعشى - القلقشندي: 90/7.

(3) سورة الأنبياء آية: 105.

(4) صبح الأعشى - القلقشندي: 512/6.

(5) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 514.

(6) صبح الأعشى - القلقشندي: 23/7.

(7) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 48.

(8) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 59/3.

وفي رسائل المخاطبات الإعلامية كالمنشورات، فإن الصيغة تختلف من منشور لآخر، ففي منشورات

202

الحماية افتتح الفاضل صدر منشوره لأحد الفقهاء بقوله: "هذا منشور"⁽¹⁾.

وفي المنشورات التي تدرج في باب تنظيم المهن، بدأ العماد منشوره لطبيب حلب، بقوله: "لما كان الحكيم فلان حرسه الله"⁽²⁾. وفي منشورات الاستخدام، بدأ الفاضل أحدها، بقوله: "خرج الأمر العالي باستخدام فلان"⁽³⁾، وافتتح الآخر بقوله: "يعلم الأمير أن فلاناً قد استخدم"⁽⁴⁾. وليس لمنشورات إسقاط المكوس⁽⁵⁾، وتحويل السنين⁽⁶⁾، افتتاحيات تبدأ بها؛ لأنها صادرة إلى خاصة الناس وعامتهم، ومن الأمثلة على ذلك المنشور الذي كتبه ابن الأثير عن "الأفضل" بإطلاق المكوس في دمشق، يقول: "خرج الأمر العالي المولوي الأفضل الصلاحي"⁽⁷⁾. ومنها المنشور الذي كتبه الفاضل على لسان صلاح الدين، بتحويل السنة الخراجية إلى هلالية، يقول: "خرجت الأوامر الصلاحية"⁽⁸⁾. وكذا الأمر في التوقيعات على القصص⁽⁹⁾، فإنها تخلو من الافتتاحيات لأنها مختصرة جداً، غير أن التوقيعات التي تكتب في الولايات، كانت تفتتح بلفظ "إن أحسن" و "إن أولى"، ومن الأمثلة على ذلك التوقيع اللذان كتبهما الفاضل فقد افتتحهما بلفظ "أولى" ثم أتبع ذلك بالدعاء⁽¹⁰⁾.

وفي الرسائل المتبادلة مع غير المسلمين، أورد صاحب صبح الأعشى تحت عنوان "مكاتبة ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر"، رسالة الفاضل عن صلاح الدين إلى "بلدوين" معزيا في أبيه، ومهنئاً له بالملك، يقول: "والذي وقفت عليه في ذلك أسلوب واحد، وهو الابتداء بأما بعد، والخطاب فيه بالملك، والاختتام بالدعاء"⁽¹¹⁾.

والرسائل ذات الصبغة الوجدانية الإخوانية فإنها خلت من البسمة والعنوان، بسبب خصوصية هذه الرسائل التي ابتعدت عن الطابع الرسمي، كما أن الصلة الحميمة المنعقدة بين طرفي التراسل تجعل ذكر اسم المرسل والمرسل إليه أمراً غير مسوغ.

⁽⁹⁾ صبح الأعشى - القلقشندي : 79-29/7.

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش : 199.

⁽²⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني : 139/5.

⁽³⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش : 231.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه : 232.

⁽⁵⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي : 91، وينظر على سبيل المثال في كتاب الروضتين : 175/3.

⁽⁶⁾ صبح الأعشى - القلقشندي : 72/13.

⁽⁷⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي : 91.

⁽⁸⁾ صبح الأعشى - القلقشندي : 72/13.

⁽⁹⁾ ينظر على سبيل المثال : كتاب الروضتين : 63/4، الفتح القدسي : 439 وغيرها.

⁽¹⁰⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش : 229-230.

⁽¹¹⁾ المصدر نفسه : 115/7.

كانت الرسائل الأدبية، فإنها تعتمد في افتتاحياتها على كونها يكتاب بها أو لا يكتاب⁽¹²⁾، وقد كانت الرسائل الأدبية أبعد أشكال الرسائل عن الالتزام بالقوالب الشكلية الجاهزة، وهذا يعود إلى تطور مفهوم

203

الرسالة الأدبية، فلم يعد طرفا المراسلة متعلقين بمرسل ومرسل إليه، بل تجاوزهما إلى معالجة المضمون معالجة تجريدية خالصة ترتفع من الخصوص إلى العموم، دون النظر إلى طرفي التراسل⁽¹⁾. ولم تكن صدور الرسائل الإخوانية تنقيد بصيغة معينة، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك بقوله: "وليس لمصطلحهم ضابط في الابتداء، ولا في الترتيب في الرفعة والضعفة، بل افتتاحاتهم في ذلك متباينة، فمن ذلك أنهم كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء وهو أكثر ما يقع في مكاتباتهم، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس⁽²⁾. ومن هذه الافتتاحيات رسالة الفاضل إلى العماد، يقول: "أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المذل مُدلية، ولعثرات المُقل مُقيلة"⁽³⁾.

ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير إلى بعض الإخوان، يقول: "جدد الله سعادات سيدنا المولى الأجل السيد الفاضل الكامل، لا زالت يده ملثومة، وحوزته مخدومة"⁽⁴⁾ وقد يفتتحون رسائلهم بعبارات مختلفة: "إن تأخرت مكاتباتي"⁽⁵⁾، و"كتبت هذه الجملة"⁽⁶⁾ و"أصدرت هذه الخدمة"⁽⁷⁾ و"إذا صدر الكتاب"⁽⁸⁾ و"تشعر الأمير"⁽⁹⁾ و"هذه المكاتبه صادرة"⁽¹⁰⁾.

وقد تفتتح الرسائل الإخوانية بآية من القرآن الكريم كما في رسالة الفاضل إلى الملك "المعظم" على لسان "السلطان الناصر" عند قدومه من اليمن⁽¹¹⁾، يقول ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾⁽¹²⁾.

وقد تفتتح الرسالة الإخوانية ببيت من الشعر مناسب للغرض الذي من أجله أنشئت الرسالة، كما في رسالة الشوق التي كتبها الفاضل، يقول في صدرها:

(12) المصدر نفسه: 157/14.

(1) الرسائل الفنية في العصر العباسي - محمد محمود الدروي: 469.

(2) صبح الأعشى - القلقشندي: 167/8.

(3) صبح الأعشى - القلقشندي: 867/8، ينظر رسائل عن الحرب والسلام - محمد نغش: 21، 26، 182 وغيرها.

(4) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 146، ينظر الرسائل على سبيل المثال: 150، 152، 155، رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 100، 111، 114، 820 وغيرها.

(5) صبح الأعشى - القلقشندي: 167/8.

(6) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 162.

(7) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 187.

(8) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 193.

(9) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 42.

(10) المصدر نفسه: 16.

(11) المصدر نفسه: 86.

(12) سورة يوسف آية: 90.

"إن كنت لست معي، فالذكر منك معي يراك قلبي، وإن غيبت عن بصري"⁽¹³⁾.
ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود التي كتبها متشوقاً إلى عمه يقول:
"أيّا ملكاً أهدى إليّ تحيّة نما عرفها النامي وطاب مَثْمُهُ"⁽¹⁴⁾.

204

وقد تفتتح الرسائل الإخوانية بعبارات مثل "أعلمُ الولد"⁽¹⁾ و"أولى الناس"⁽²⁾ و"كتب الخادم"⁽³⁾.
وقد تفتتح الرسائل بالتحية والسلام، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة الناصر داود إلى أحد
الشيوخ "سلام الله على حضرة المولى السيد الشريف الحسيب النسيب"⁽⁴⁾.
أما إجابات الرسائل التي كانت ترد على الكُتّاب، فقد تنوعت بأنماط معينة كأن يصدر دعاء
صدورها بلفظ "الوقوف" مثل "وقفنا على كتاب.." ⁽⁵⁾ أو "وقف خادم المجلس"⁽⁶⁾. وقد يصدر هذا النوع
من الرسائل بلفظ الوصول مثل "وصل كتاب.." ⁽⁷⁾ و"وصلت مكاتبة المولى"⁽⁸⁾.
وقد تفتتح إجابات الرسائل بلفظ ورد مثل "وردت على المملوك"⁽⁹⁾. و"ورد من القاضي"⁽¹⁰⁾.
وقد اصطلح الكُتّاب في هذا العصر على ألقاب ونعوت يخاطبون بها أصحاب المراتب
والأقدار، يقول صاحب كتاب معالم الكتابة: "كان الناس لا يكتبون "المجلس" إلا للسلطان خاصة،
ولأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم "الحضرة" ثم أفردوا السلطان بالمقام" و "بالمقر" وجعلوا "المجلس
لمن دونه، ولم يستسيغوا أن يكتبوا السلطان بعد ذلك "بالمجلس"⁽¹¹⁾.
وأحسن الكُتّاب التّخلص في رسائلهم بذكر ألفاظ تشعر بالانتقال من الافتتاح إلى الموضوع. وقد
جرى الكُتّاب منذ الجاهلية على استعمال صيغة "أما بعد" لتفصل بين فاتحة الرسالة وموضوعها. وقد
تركها كُتّاب هذا العصر، ولم يلتفتوا إليها، وقد أشار إلى ذلك العسكري بقوله: "وقد تركها اليوم جماعة
من الكُتّاب فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم إلا في القليل"⁽¹²⁾. ومن الشواهد على هذا المنحى

⁽¹³⁾ الدر النظيم - اختيار محيي الدين عبد الظاهر: 59، وينظر على سبيل المثال: رسائل عن الحرب والسلام: الرسائل: 154، 150، 75، 72.

⁽¹⁴⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 121.

⁽¹⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 109.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 116.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 116.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 142.

⁽⁵⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 144، ينظر: إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 61.

⁽⁶⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 78-101، وينظر فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 254.

⁽⁷⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 81-84-85-103، وينظر رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 26-232.

⁽⁸⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 123-131، وينظر إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 58-68.

⁽⁹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 79.

⁽¹⁰⁾ فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 268.

⁽¹¹⁾ معالم الكتابة - ابن شيث: 60.

⁽¹²⁾ كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري: 165.

القليل رسالة التولية التي كتبها ابن الأثير إلى والي دمشق، فقد استعمل لفظة، "أما بعد" بعد الحمد لله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹³⁾. ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى ابنه يعظه وينصحه، فقد بدأ رسالته بها "أما بعد"⁽¹⁴⁾ قبل الحمد لله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

205

واشترط النقاد ارتباط المقدمات بالموضوع، يقول صاحب مواد البيان: "أما مقدمة المنشور فيكون اتصالها بما بعدها عن طريق المعنى، وهو اشتغالها بالقول المجمل على معاني ما جعلت مقدمة له، واشتمال ما بعدها على تفصيل ما أجمل فيها"⁽¹⁾.

ويُعد حسن التلخيص من المقدمات والانتقال إلى الموضوع ضرورة من ضرورات الكتابة⁽²⁾. ولهذا اعتمد الكتاب في ذلك على عدد كبير من الكلمات، وقد خصص ابن الأثير فصلاً كاملاً في كتابة "المفتاح المنشأ" لهذه الكلمات والعبارات التي تلي الأدعية، وتنقل الكاتب إلى الغرض الرئيس، ومنها "ينهي، يوضح، يشعر، يُعلم، يحيط، يتوقع، يتوخى"⁽³⁾.

وينتقل الكاتب إلى العرض، وقد يتناول موضوعاً واحداً، كما هو في رسائل الاستتجاد، والبشارات، ومنشورات إسقاط المكوس، أو قد يتحدث عن موضوعات متعددة كما في رسائل التولية⁽⁴⁾، حيث يتناول الكتاب الموضوعات المتعددة في الرسالة الواحدة تلو الأخرى ويمثل العرض أو المضمون صلب الرسالة، فهو يشكل أهم أجزاء الرسالة، وفيه يعتمد الكاتب إلى بسط رؤيته في الموضوع الذي يعرضه، ومنها الرسالة التي كتبها الفاضل يبشر فيها الخليفة العباسي بهزيمة الفرنج، واستعادة بيت المقدس وما حوله من أيديهم. وهو ينتقل بعد المقدمة انتقالاً موفقاً إلى الغرض الأساسي الذي بعث رسالته من أجله، وهو البشارة بفتح بيت المقدس.

وفي هذا الجزء من الرسالة تبدو ملامح قدرة الكاتب الفنية على عرض موضوعه عرضاً منطقياً مقنعاً من خلال توظيف أدواته الفنية في عرض أسلوبه، وميله إلى إضفاء قدر من التميز الفني على رسالته. وقد حرص كتاب الرسائل في هذا العصر على بناء وحدة موضوعاتهم، ويبدو هذا واضحاً من التناغم والانسجام بين الألفاظ وما تحمله من معانٍ حتى يتحقق الائتلاف والتناسب. ولجأ بعض الكتاب إلى استخدام بعض الأدوات والوسائل الفنية التي تربط بين أجزاء الرسالة، لا سيما في الرسائل التي اتسمت بالإطالة. ومن أبرز هذه الوسائل تكرار لفظة معينة في مطلع كل فقرة

⁽¹³⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 158.

⁽¹⁴⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 124.

⁽⁷⁾ مواد البيان - علي بن خلف: 266.

⁽⁸⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 80/1.

⁽⁹⁾ المفتاح المنشأ - ابن الأثير: 20.

⁽¹⁰⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 157-164.

جديدة من فقرات الرسالة. وتبدو هذه الوسيلة بارزة في التقليد الذي كتبه الخليفة في بغداد إلى صلاح الدين، إذ تبدأ كل فقرة من فقرات التقليد بكلمة "وأمره"⁽⁵⁾. ومما لاشك فيه أن تكرار لفظة بعينها في أول كل فقرة من فقرات الرسالة تحقق التماسك والترابط، وتفضي إلى وحدة الموضوعات في الرسالة الواحدة. ومن ضروب الربط أن تتوالى رابطة من الأفعال في مقدمة فقر الرسالة، كما هو الحال في

206

المنشور الذي كتبه العماد لمحتسب حلب، فهو يفتح أكثر فقرات المنشور بأفعال تحمل الأمر، مثل "فليتول" و"ليصن" و"ليعتبر" و"ليقم" و"ليبحث" و"ليمنع"⁽¹⁾. وتعد وحدة الموضوع في الرسالة أو ترابط الموضوعات فيها ركنا من أركان الكتابة إذ يجب "أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها برقاب بعض ولا تكون مقتضبة"⁽²⁾.

وبالانتقال إلى الخاتمة، يتبدى أن الكتاب في ذلك العصر كانوا يحتفلون بخاتمة رسائلهم كاحتفالهم بمقدماتها، فهناك علاقة قوية بين فاتحة الرسالة وخاتمتها، وبالتالي جعلوا عنايتهم بخاتمة الرسائل متسقا مع فواتحها، وكما اشترط النقاد حسن الفاتحة، فقد اشترطوا حسن الخاتمة، فهي آخر ما يبقى في الأسماع، ولهذا ينبغي أن تأتي متناسبة مع الموضوع⁽³⁾. وينص أئمة البلاغة على الحسن فيها والتأنق، وينبغي أن يكون الحسن فيها "راجعا إلى المعنى المختتم به أو إلى سهولة الألفاظ، وتجنب الحشو وغير ذلك من موجبات التحسين"⁽⁴⁾.

ويرى ابن أبي الأصبع أنه يجب: "على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع؛ لأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال"⁽⁵⁾. ويشير إلى اهتمام الفاضل بخاتمة رسائله، يقول: "وكان رحمه الله - كثيرا ما يحترز في ذلك ويتوخاه، فيأتي فيه بكل نكتة ترقص لها القلوب، وتغني عن النسب في المحبوب"⁽⁶⁾.

ومن الجدير قوله: إن أساليب الكتاب تنوعت في خاتمة رسائلهم، فكانوا يجعلون قفل رسائلهم في الغالب المشيئة، وكان يسبق المشيئة عند الكتاب في الخاتمة دعاء مثل قول الفاضل في ختام رسالة

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 146/10.

(2) البرق الشامي - العماد الأصفهان: 136/5-137.

(3) المثل السائر - ابن الأثير: 80/1.

(4) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية - عبد الجليل عبد المهدي: 340.

(5) صبح الأعشى - القلقشندي: 312/6-133.

(6) تحرير التحبير - ابن أبي الأصبع: 616.

(6) المصدر نفسه: 616.

إلى صلاح الدين: "والله تعالى يخلد المجلس السامي ما ازدان معصم بسواره، ونشر أردية الضياء بروز الهلال من طي سراره⁽⁷⁾، إن شاء الله"⁽⁸⁾.

ومنها ما كتبه الناصر داود إلى الديوان العزيز، يقول: "لا زال كرم الديوان عالما بخدمات عبيده، مُمّداً من محض النصيحة منهم يُعده وعديده، إن شاء الله تعالى"⁽⁹⁾.
وقد تأتي خاتمة رسائلهم التي يوجهونها إلى من هم أعلى رتبة تحمل الملاطفة، والموادعة، والمجاملة، وتكون صورة الخاتمة على هذا النحو "فإن رأى مولانا أن يكون كذا وكذا أمر به أو

207

فعل"⁽¹⁾. ومن أمثلة هذا المنحى رسالة الفاضل إلى أحد الأمراء، يقول: "فإن رأى المواصل بتشريفاته فعل منعماً، إن شاء الله"⁽²⁾. ومنها ما ورد في رسالة الوهراني في ذم بخيل: "فإن رأى-أدام الله علوه-أن يجعل رسوله وصوله وجوابه ركابه، ويُعفى من التسويات الأبدية، فعل ذلك موقفاً إن شاء الله"⁽³⁾.
وكثيراً ما كان الكتاب يوردون في خاتمة رسائلهم عبارة "إن شاء الله" تأدياً مع الله، يقول القلقشندي: "وأعلم أنه يستحب للكاتب عند انتهاء ما يكتبه من مكاتبه أو ولاية أو غيرها أن يكتب "إن شاء الله" تبركاً ورغبة في نجاح مقصد الكتاب، فقد ورد الحث على التعليق بمشيئة الله تعالى"⁽⁴⁾.
وقد يختمون رسائلهم بألفاظ متعددة مثل "والرأي أعلى إن شاء الله"⁽⁵⁾ و"للآراء العالية مزيد العلو إن شاء الله"⁽⁶⁾ و"السلام"⁽⁷⁾ و"السلام إن شاء الله تعالى"⁽⁸⁾ و"الله حسبنا ونعم الوكيل"⁽⁹⁾.
وقد تختتم الرسالة بآية قرآنية، كما في رسالة التهديد التي وجهها البهاء زهير إلى لويس التاسع: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽¹⁰⁾⁽¹¹⁾.

وقد يختم الكتاب رسائلهم في أحيان قليلة بأبيات الشعر، مثل رسالة الفاضل التي كتبها إلى سيف الإسلام يهنئه بقدومه من الحج، يقول:

⁽⁷⁾ سرار الشهر: آخر الشهر ليلة يستسر الهلال "أي يختفي". لسان العرب- مادة: سرر.

⁽⁸⁾ رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 144.

⁽⁹⁾ الفوائد الجلية- الناصر داود: 96.

⁽¹⁾ معالم الكتابة- ابن شيث: 74.

⁽²⁾ رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 51، ينظر على سبيل المثال رسائل ابن الأثير- تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 88-144.

⁽³⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله- تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 173.

⁽⁴⁾ صبح الأعشى- القلقشندي: 223/6.

⁽⁵⁾ رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 18-62-141.

⁽⁶⁾ رسائل ابن الأثير- تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 70-71-72-73-75-120-121، وغيرها.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 118-124، وغيرها.

⁽⁸⁾ رسائل ابن الأثير- تحقيق أنيس المقدسي: 27-31-34-37-39-40، وغيرها.

⁽⁹⁾ رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 18-21-67-118-124.

⁽¹⁰⁾ سورة البقرة آية: 249.

⁽¹¹⁾ الخطوط - المقرئ: 611/1.

" قَدِمْتُ فَأَقْدَمْتُ النّدي يحمل الرضا إلى كل غضبان على الدهر عاتب.
 وجئت كما جاء السحاب محرّكا يدك بمعروف يفي بالسحائب"⁽¹²⁾.
 ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير إلى صديقه في "ملطية"، يقول في خاتمتها:
 " يكون أاجا دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب"⁽¹³⁾.

⁽¹²⁾ الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 65.

⁽¹³⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 324.

ويتضح للقارئ من صيغ الخاتمة هذه بأنها أقرب ما تكون إلى الأدب والمجاملة؛ لأنها توجه إلى من هم أعلى رتبة كالخلفاء، والأمراء، والوزراء.

وقد تستعمل هذه الصيغة في مخاطبة الإخوان والأصدقاء على سبيل التودد والملاطفة بين الخلان، ومن أبرز الأمثلة على ذلك رسالة ابن الأثير إلى أحد الأصدقاء، يقول: "والله لا يُخلي من خبره إلا بنظره، ولا من كتبه إلا بقربه إن شاء الله تعالى"⁽¹⁾.

وقد تتقلب الصيغة من لهجة الأدب والمجاملة إلى اللهجة الأمرة التي تجري على ألسنة من هم أعلى رتبة إلى من دونهم، ويبدو هذا في رسائل المنشورات والتقليدات والتوقيعات، ومن أبرز الأمثلة على ذلك، التوقيع الذي كتبه الفاضل إلى أحد الأمراء، يقول: "فليتلق هذا الإنعام بشكره، وليتق الله في سره وجهره، فليعلم ذلك، وليعتمد على التوقيع أعلاه إن شاء الله"⁽²⁾.

ومنه المنشور الذي كتبه العماد لمحتسب حلب يقول: "وسبيل الأمراء والنواب معاونته على ما وليناه، والعمل في جميع ذلك الأمر العالي ومقتضاه، والاعتماد على التوقيع فيه إن شاء الله"⁽³⁾.

ومن الأساليب التي استخدمها الكتاب في خاتمة رسائلهم، أنهم كانوا يختمونها بالدعاء. ويبدو هذا الأسلوب في رسائل الاستجداء، ومنها الرسالة التي كتبها الفاضل على لسان الناصر إلى سيف الإسلام يستجده فيها على الفرنج، يقول: "والله سبحانه يلهمه توفيقاً، ويسلك به إليه طريقاً، وينجدنا به سيفاً لرقبة الكفر مرقاً ودمية مريقاً، ويجعله لي في مضمار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً"⁽⁴⁾.

ومنها الرسالة التي كتبها الناصر داود إلى شيخ الإسلام "العز بن عبد السلام" يستنهضه، ويستجده به، يقول: "والله سبحانه يتلافى الإسلام بتلافيه، ويحميه بحمايته، وحسن نظره فيه، إنه قريب مجيب"⁽⁵⁾.

وقد يختم الكتاب رسائلهم بحمد الله على ما أولى المخاطب من النعم، ومن أمثلة ذلك قول ابن الأثير في خاتمة المنشور الذي كتبه عن الأفضل بإطلاق المكوس في دمشق، يقول: "والحمد لله الذي جنبنا فعل القوم المسرفين، وجعلنا ممن أسلف خيراً، فكان من المسلفين"⁽⁶⁾.

* الأسلوب واللغة

– الألفاظ والمعاني

تباينت الأساليب في النثر الفني بين فن أدبي وآخر. فالرسالة السياسية يتباين أسلوبها عن الرسالة الإخوانية وعن الرسالة الأدبية، فلكل لون أسلوب خاص به. فالرسالة التي نتحدث عن الفتح

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير – تحقيق أنيس المقدسي: 81.

⁽²⁾ رسائل عن الحرب والسلام – تحقيق محمد نغش: 231.

⁽³⁾ البرق الشامي – العماد الأصفياني: 139/5.

⁽⁴⁾ صبح الأعشى – القلقشندي: 27/7.

⁽⁵⁾ الفوائد الجلية – الناصر داود: 138.

⁽⁶⁾ ديوان رسائل ابن الأثير – تحقيق هلال ناجي: 92. ينظر رسائل ابن الأثير – تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 92.

تتباين في أسلوبها عن رسالة اعتذار أو وصف أو مجون أو غزل أو غير ذلك. كما أن أسلوب الكتب السلطانية لا يستخدم في الكتب الإخوانية⁽¹⁾.

وتميّزت لغة الكتاب في هذا العصر بسمات خاصة تتلاءم والموضوعات التي تناولوها. اهتم الكتاب في هذا العصر بالألفاظ اهتماماً فائقاً، فبرعوا في انتقائها لتناسب مع معاني الرسالة وموضوعها من ناحية، ومع مستوى المخاطب من ناحية أخرى.

ومن ثم فقد اشترط النقاد القدامى شروطاً لاستعمال اللفظة، ومن أهم ما اشترطوه: الحسن في الكلمة، ويتجلى الحسن في اللفظ، وتظهر ميزته عند ابن الأثير، فالألفاظ عنده تنقسم إلى قسمين: جزلة ورقيقة، ولكل منها موضوع يحسن استخدامه، فالألفاظ الجزلة: يحسن استخدامها في مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشبه ذلك، وأمّا الألفاظ الرقيقة فيحسن استخدامها في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وما إلى ذلك⁽²⁾.

وبالنظر في رسائل هذا العصر يظهر أن الرسائل السياسية استخدمت الألفاظ الجزلة، وليس المقصود بالجزل كما يرى ابن الأثير: "أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجية البدابة بل هو" أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع⁽³⁾.

وفي ضوء استقرار النصوص تبين للباحثة مصداق ما ذهب إليه ابن الأثير، ففي الرسائل القدسية نجد الكتاب يصفون الرماح والسيوف، والجيوش، وعثرات الأقدام، وجذع الأنوف، وفي تصويرهم لحصار الحصون والقلاع، نكاد نسمع منها ضجيج الردم والتدمير، وفي تصويرهم لحظة اللقاء بين الطرفين نكاد نسمع صهيل الخيول، وقعقة السلاح، وهي ألفاظ تتناسب وشدة المعركة.

أما إذا تحدث الكتاب في الموضوعات الوجدانية، فإن لغتهم تليق وتترك لتلائم الموضوع الذي يعالجونه، وهذا يخالف ما أشار إليه بعض الدارسين، فقد وصفوا هذا العصر بعصر الجمود والانحطاط، فمصطفى ناصف يقف بمستوى إبداع اللغة عند القرن الرابع، ويصف ما تلاه من قرون بعصور الانهيار⁽⁴⁾. ويذهب شوقي ضيف إلى أنه قد "ظل النشاط اللغوي الخالص ينمو بمصر، ويتسع طوال القرن السابع الهجري زمن الأيوبيين والمماليك إلى أن توج الكتاب "لسان العرب لابن منظور"⁽⁵⁾.

وقد شارك الشوام المصريين في النهوض بالبلاغة وازدهارها، وقد رسم معالم هذا الاتجاه بعض البلاغيين المصريين كالسبكي والقلقشندي، وقد تبع هذا النشاط في اللغة والنحو تطوراً في البلاغة منذ الفاطميين وحتى المماليك، ولقد بحثت مصر في الدرس البياني ما سبقها إليه العرب السابقون في

(1) سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي: 302.

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 168/1.

(3) المصدر نفسه: 166.

(4) نظرية المعنى في النقد العربي - مصطفى ناصف: 20.

(5) عصر الدول والإمارات - مصر - شوقي ضيف: 114.

بيئاتهم المختلفة، لكنها جددت هذا الدرس، ونفخت فيه من روحها، وتركت عليه طابعها⁽¹⁾.

ومن الظواهر الأسلوبية في هذا العصر استخدام الكتاب الغريب في مواضع قليلة للوصول غالباً إلى السجع أو الجناس أو غيرهما من ألوان البديع. واستعمال الكتاب الغريب في رسائلهم لا يعد عيباً ما دام السياق يتطلبها، يقول مصطفى ناصف: "هناك كلمات غريبة أو سوقية، وهذه الكلمات قد تكون مطلوبة ومفيدة بتفاعلها مع سياق أو أنظمة خاصة من الكلمات"⁽²⁾. ولعل السبب في لجوء الكتاب إلى استخدام الغريب في كتاباتهم ورسائلهم تبيان مقدرتهم اللغوية والأدبية، حيث ينتقون ألفاظاً تستغلّق في بعض الأحيان على المتلقي؛ لصعوبتها وغرابتها. وإن جاءت تحمل نغمة موسيقية تعتمد على السجع ومن الأمثلة على هذا المنحى لفظة "البرض"⁽³⁾ بمعنى القليل، يقول الفاضل واصفاً ألفاظ رسالة وردت عليه: "وأفنع من بارقها بالومض، ومن زارها بالبرض، ومن دلالاتها بما أبان الطرق"⁽⁴⁾.

واستخدم الوهراني في رسالة وجهها إلى أحد الشيوخ، لفظة "التدقنصرم" و"التبضرم" ولم أقف لهما على تعريف في المعجمات، يقول: "ألا ترى أنها لا ينطق بها اللسان حتى ينخلع منها الفك؟ ومع ما فيها من التدقنصرم، والرقاعة المعجونة بالتبضرم"⁽⁵⁾.

واستخدم الكتاب مصطلحات مختلفة في الرسائل وهي مصطلحات لغوية ودينية وكلامية وفلسفية وغيرها، لكنهم لم يبالغوا في استعمالها فجاء استخدامهم متقفاً مع ما يرمون إليه في سياق النص. ويبدو أن بروز هذه الظاهرة في رسائلهم له ما يسوغه، إذ يرجع سبب ولوع بعضهم به إلى أنهم كانوا علماء فقهاء في الدين أو مبرزين في النحو أو غيره، كما كان لثقافتهم الموسوعية دور في ذلك، ويبدو واضحاً أن الكتابة لم تكن تعاني مشكلة لغوية مثل تلك التي عانى منها الشعر بسبب تلك المصطلحات والأسماء التي وجهوها. وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة التوجيه كانت بارزة في الرسائل الديوانية والأدبية على نحو أوضح منه في الرسائل الإخوانية، وأكثر ما دار في رسائلهم من توجيهات، كان توجيه اصطلاحات العلوم اللغوية، وبخاصة اصطلاحات النحو والعروض والبلاغة. ويبدو أن شيوع هذه الاصطلاحات أكثر من غيرها عائدٌ إلى أن هذه العلوم كانت أساسية لمن يترشح للكتابة، كما كان أكثر الكتاب شعراء، وبذلك علقت في أذهانهم⁽⁶⁾.

وكان الكتاب يستخدمون بعض المصطلحات النحوية، كالاسم المنقوص، والفاعل والجار والمجرور. وقد تجلّى ذلك في رسائلهم، إذ ورّوا بها في أساليبهم على نحو ما فعل الفاضل في رسالته ضمنها بعض المصطلحات النحوية على سبيل التورية، يقول: "وقد فارق العالم المجموع في واحده،

(1) البلاغة والنقد في مصر في عصر الماليك وكتاب "جوهر الكثر لنجم الدين ابن الأثير" مجلة فصول، م ج 6-14، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985.

(2) نظرية المعنى في النقد العربي - مصطفى ناصف: 48.

(3) اللسان: مادة برض.

(4) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقه: 44.

(5) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 132.

(6) عصر سلاطين الماليك - محمود رزق سليم: 401/6.

والمجد المنتظم في شاهده، وهي كالاسم المنقوص الذي لا يتم إلا بصلة وعائدة⁽¹⁾. ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود جواباً على كتاب، يقول: "وينهي وقوفه على المثال الأشرف الديواني الذي لم يزل قدره به مرتفعاً ارتفاع الفاعل في إعرابه، وقدر ضده منخفضاً انخفاض المضاف إليه من بين أضرابه"⁽²⁾. إن المصطلحات النحوية من شأنها أن تزيد القيمة الفنية للرسالة، ولعل السبب في ميل الكتاب إلى أن يسلكوا هذا المسلك رغبتهم في إبراز مقدرتهم اللفظية، ومجارة للأسلوب النثري الذي ساد هذا العصر.

كما دخلت في رسائلهم بعض مصطلحات العروض، ومنها ما ورد في رسالة الوهراني يذم فيها بخيلاً، يقول: "ولا يعطيك المعجون بالمجون؛ ولا الشراب بالضراب، ولا يأخذ في هذه العروض مستفعلات القروض، ولا يُسهل لك مجالس التّجو بمعرفتك بالنحو والهجو"⁽³⁾.

كما استخدم الكتاب بعض المصطلحات الخاصة بالنقد، حيث استخدم الفاضل مصطلح وقوع "الحافر على الحافر"، وهو مصطلح يتصل بقضية السرقات الشعرية التي كثر الحديث عنها يقول: "ووقفت منه على رياض خط مُعلمة، وحياض لفظ مفعمة، وطرائق ما مرّ فيها الحافر على الحافر، واستضاءت منها بشمس لا يكدر نورها؛ لأن الشمس ألفت يدا في كافر"⁽⁴⁾.

وقد استخدموا بعض المصطلحات الفقهية، فمن مصطلحاتهم إشارة الفاضل إلى "القصر والجمع"، وهي أمور فقهية، يقول: "فتلك يدُ ألفت إساء الأيادي، فلا برحت صلاتها كصلاتها لا يدخلها قصرٌ على طاعته في سفره، ولا يخلو من الجمع على استمراره بحضره"⁽⁵⁾. فالكاتب هنا جاء بمصطلحات فقهية استمدّها من فريضة الصلاة، وهي إحدى أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها، وقد أدخلها الكاتب في ثنايا رسالته وحاول أن يرصعها بألوان البديع كالطباقي مثل قوله: "سفره" و"حضره". ويستخدم الناصر داود المصطلحات الفقهية في شفاعته كتبها. يقول: "ثم إن ديوانه تأول عليه تأويلاً يناقض النص والقياس"⁽⁶⁾. والنص والقياس مصطلحان فقهيان.

كما استعمل الكتاب مصطلحات المتكلمين كما جاء في رسالة الناصر داود. يقول: "فكتبها العبد وعيونه تُنقطها بنجيها، ويده تشكّلها حتى تشكك أخطأ في تفصيلها أم تفريعها"⁽⁷⁾؛ فالتفصيل والتفريع

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 76.

(2) الفوائد الجلية - الناصر داود: 104.

(3) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 74.

(4) رسائل القاضي الفاضل الأدبية - غير معروف من قام بجمعها: 79.

(5) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 59.

(6) الفوائد الجلية - الناصر داود: 216.

(7) المصدر نفسه: 216.

من اصطلاحات المنطق، وأدب البحث والمناظرة، فالتفصيل: بيان جزئيات الكل أو بعضها، والتفريع:
جعل شيء عقب شيء لاحتياج اللاحق على السابق⁽⁸⁾.

⁽⁸⁾ كتاب التعريفات - الجرجاني: 43.

ويستخدم الوهراني بعض المصطلحات الفلكية - كما يبدو - في إشارته إلى الكواكب والمجرات، يقول في رسالة يمدح بها الفاضل: "فوصف زحل بثبات المولى وأناته، ونسب إلى المشتري ديانتته وأمانته، واستعار للمريخ عزمه وحزمه، وأثنى على الشمس بسياسته ورئاسته، وخلعوا عليه غلائل المجرة، وكللوه بنجوم الإكليل، وأنزلوه في مضارب سعد الأخبية، وأسرجوا له الكواكب مراكب"⁽¹⁾. ودخلت في رسائلهم بعض مصطلحات المتصوفة، كالجذبات⁽²⁾، والمكاشفة⁽³⁾، وغيرها. ومن الشواهد على هذا المنحى ما ورد في رسالة الناصر داود إلى أحد شيوخه، يقول: "وأعلمه أنني عَزَمْتُ والعزم مبدأ حال السائرين، وأول درجاته حركات العارفين، ولا بد لكل سالك⁽⁴⁾ من دليل يسلك به مفاوز سباريت⁽⁵⁾ مسلكه"⁽⁶⁾.

واستخدم الكتاب في رسائلهم أسماء الكتب والمصنفات، ومن الشواهد على هذا المنحى ما ورد في رسالة الوهراني في ذم بخيل، يقول: "وربما يقد للجمل شرح أبيات الجمل، ويُعوض البغال عن العلف جُملاً من أخبار السلف، ويقدم للحمار باب رمي الجمار"⁽⁷⁾. فالكاتب يشير إلى "كتاب الجمل" للزجاجي. وربما كانت رغبة الكتاب في إبراز قدرتهم الثقافية ورصدهم الكثير من المصنفات هي التي دفعتهم إلى ذلك.

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى ولده. يقول: "وأباح لهم بصدقهم سلوك سبيل معرفته، وسهل عليهم التزقي إليه في "معارك قدسيات ألوهيته"⁽⁸⁾. يشير الكاتب إلى كتاب "معارج القدس" للغزالي. وأشار الكتاب إلى بعض أسماء الأماكن في رسائلهم، ومنها ما ورد في رسالة الوهراني التي كتبها متشوقاً، يقول: "وعنده من الحنين ما يشيب الجنين، حتى إنه لو ركب على جمل أشواقه، لما لوى صدره إلى صدر⁽⁹⁾، ولا تعقب على العقبة، ولا طار إلى الطور، حتى يحسم شعاب حسمى⁽¹⁰⁾، ويخلص من شباك الشوبك، حتى ينجح عناه، ويبلغ من نظر طلعتة إلى مناه"⁽¹¹⁾.

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 112.

(2) الجذبات: مصطلح صوفي، الجذبة هي تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيأة له من كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعي. ينظر: الفوائد الجلية: 148 حاشية 433.

(3) المكاشفة: مصطلح صوفي، الكشف، الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً. ينظر: التعريفات: 80.

(4) وهو مصطلح صوفي، ومعناه الذي يمشي على المقامات بحاله لا بعلمه، فكان العلم له عينا يأبى من ورود الشبهة المضلة فيه: التعريفات: 80.

(5) جمع سيروت وهي الفلاة. لسان العرب - مادة: سير.

(6) كتاب التعريفات - الجرجاني: 80.

(7) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 174.

(8) الفوائد الجلية - الناصر داود: 124.

(9) قلعة خراب بين القاهرة وأيلة: ينظر: معجم البلدان: 344/5.

(10) أرض ببادية الشام. ينظر: معجم البلدان: 76/3.

(11) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 162.

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى أحد الأمراء يصف شوقه إليه، يقول: "فلو نزل بسنير⁽¹⁾ ما نزل به لزلزل حتى استوت هضابه بوهاده، أو حل بُثِير⁽²⁾ ما حل به لُسِف كما يُنسَف في يوم معاده، فأنه يجمع برؤية مولانا بين الجسد وقلبه، ويعيد أيام الأُنس بعودة قربه"⁽³⁾.

وقد تباينت مواقف النقاد من إدراج مصطلحات العلوم والفنون في المنظوم والمنثور. فقد دعا أبو هلال إلى نبذ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والجوهر في الكتابة، وعدّ استخدامها هجنة⁽⁴⁾. ويذهب ابن سنان إلى القول: "بعدم استخدام ألفاظ المتكلمين والنحويين وغيرها من الألفاظ التي تختص بأهل المهن والعلوم، وعلى الأديب إذا تكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم"⁽⁵⁾. وتابعه في رأيه حازم القرطاجني⁽⁶⁾. أما ابن الأثير فيرى بأنه على الكاتب إذا أخذ "في صوغ معنى من المعاني، وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي، فليس له أن يتركه ويحيد عنه؛ لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده"⁽⁷⁾.

استخدم الكُتّاب في رسائلهم بعض الألفاظ المعربة لغايات تجميلية فنية بديعية، وربما استخدموها على سبيل التظرف والتملح، يقول ابن رشيق: "إن الكُتّاب اصطَلَحُوا على ألفاظ بأعينها سمّوها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي، فيستعمله في الندرة"⁽⁸⁾.

وبنمط الألفاظ المعربة في رسائل هذا العصر، يلاحظ أن نسبة وجوده تختلف من كاتب لآخر، فالألفاظ المعربة في رسائل الفاضل قليلة، أما في رسائل الوهراني، فقد امتازت بكثرتها، فمن الألفاظ المعربة التي استخدمها الكُتّاب لفظة "الزرجون"⁽⁹⁾. ومن شواهد ما ورد في رسالة الفاضل إلى الملك "العزیز عثمان" يخبره بحصار الكرك. يقول: "وأطفنا عليه بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكره"⁽¹⁰⁾. فالزرجون في هذا الموقف له وقع أجمل من الخمر لما في الزرجون من زيادة في المبنى، وضخامة في اللفظ، وقوة في الجرس، وهذا يتناسب مع جو الحرب، إلا أن لفظة الزرجون ولفظة السكر مثلتا نشوزاً في الصورة، فهما تعبران عن الشعور بالنشوة والطرب، وهذا لا يتناسب مع الهدم، والردم، والتدمير.

(1) بسنير: جبل بين حمص وبلبل: معجم البلدان: 263/3.

(2) من أعظم جبال مكة. ينظر: معجم البلدان: 72/2.

(3) الفوائد الجلية—الناصر داود: 115.

(4) كتاب الصنائع—أبو هلال العسكري: 135.

(5) سر الفصاحة—ابن سنان الحفاجي: 195.

(6) منهاج البلغاء—حازم القرطاجني: 188-190.

(7) المثل السائر—ابن الأثير: 297/2.

(8) العمدة—ابن رشيق القيرواني: 107/1.

(9) هو الخمر. ينظر: المعرب من الكلام الأعجمي: 123.

(10) رسائل عن الحرب والسلام—تحقيق محمد نغش: 55.

ومن الألفاظ المعربة التي استخدمها أيضا البيكار⁽¹⁾ بمعنى الحرب، وغيرها من الألفاظ. ومن الألفاظ التي أدرجها الوهراني في رسائله السكباج⁽²⁾، يقول في ذم بخيل: "ويحك يا سخي العقل أحسبتي أطبخ لك السكباج، وأفرش لك الديباج، وأطعمك اللحم السمين"⁽³⁾. وإذا كان الشاعر يستخدم اللفظ المعرب لإقامة الوزن كما قال القاضي الجرجاني⁽⁴⁾، فإن الوهراني استخدم اللفظ المعرب لمناسبة السجعة.

ومن الألفاظ التي استعملها الوهراني الزربول⁽⁵⁾، وشمسك⁽⁶⁾، يقول في وصف رجل دميم الخلقة: "ليس له رأس ولا رقبة ألينة، وإنما وجهه في صدره، ولحيته في بطنه مثل بعض الناس في يده اليمنى زربول، وفي اليسرى شمسك عتيق، فقامت إليه هيبه له، وخوفا على نفسي منه"⁽⁷⁾. وإذا كان الزربول، والشمسك يدلان على نوع من الأحذية والملابس، ولها مميزات خاصة، ودلالاتها على قوة من يرتديها، فإن استخدامها هنا له وقع أشد من استخدام كلمة أخرى، لأنها تدل على التحقير، ومن ثم تبرز من يرتديها في صورة مهينة ومشينة.

ومن الألفاظ التي وردت في رسائل الوهراني الرّكوة⁽⁸⁾، والتاموسة⁽⁹⁾، والهماليح⁽¹⁰⁾، والإطريف⁽¹¹⁾، وجامكية⁽¹²⁾.

أدى تنوع مضامين الرسائل في هذا العصر إلى تنوع ظواهره الأسلوبية. وقد تضافرت عوامل عدة في هذا التنوع، منها التطور الذي طرأ على الثقافة العربية نتيجة تأثره بالثقافات الأخرى. كما أن ديوان الإنشاء -آنذاك- يعد مؤسسة تعليمية للكُتاب المتطلعين للعمل فيه⁽¹³⁾؛ مما أكسب هؤلاء الكُتاب أساليب وثقافات أساسية، ولا بد أن يظل مؤثرا في كتاباتهم فيما بعد، وأن يمضوا بعيدا في ابتكار وسائل فنية جديدة تعينهم في التعبير عما يجول في أذهانهم من أحاسيس، ومشاعر، ومعان، وصور.

وفي ضوء تفحص النصوص الواردة في هذا العصر على اختلاف مضامينها، تبدو بعض السمات الأسلوبية متباينة، ومتنوعة، فمنها ما هو متعلق بالروافد الدينية والتراثية، ومنها ما هو متصل بالأسلوب المصنوع، ومنها ما هو مختص بالصورة الفنية.

ومن الجدير قوله: إن الباحثة لن تقف عند كل الجزيئات، بل سنتناول أهم الظواهر الأسلوبية وأبرزها في

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 52.

(2) مرق يعمل من اللحم والخل، معرب سكبأ. ينظر: الألفاظ الفارسية المعربة: 92.

(3) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 71-73.

(4) الوساطة بين المتنبي وخصومه - عبد العزيز الجرجاني: 461-462.

(5) نوع من الأحذية. ينظر: دوزي 584/1.

(6) زي من ملابس الرعاة. ينظر: دوزي 584/1.

(7) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 153-154.

(8) الرّكوة: وعاء يشرب فيه. ينظر: دوزي 556/1.

(9) ضرب من الأحذية، ينظر: الألفاظ الفارسية المعربة: 33.

(10) مفردة هملاج، تعريب هملة أي البرذون. ينظر: الألفاظ الفارسية المعربة: 758.

(11) لفظة يونانية معناها الإهليلجات، وهو من الأدوية المركبة جليظة النفع. ينظر: دوزي 28/1.

(12) رواتب خدام الدولة. ينظر: الألفاظ الفارسية المعربة: 92.

(13) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية - أحمد أحمد بدوي: 334-341.

هذا العصر، وقد وقفت الباحثة عند بعض السمات الأسلوبية للرسائل أثناء الدراسة الموضوعية في الفصول السابقة، ولكنها وقفات سريعة لم تلم بالملامح الأسلوبية العامة التي يراد الحديث عنها، ومن هنا جاءت هذه الدراسة استكمالاً وتوضيحاً لأهمها وأبرزها:

- الاحتذاء والابتداع

لما كانت ثقافة الأديب وخبراته في الحياة من أهم مقومات شخصيته، فإن أصداء هذه الثقافة، لا بد أن تنعكس بصورة جلية على نتاجه، وتفكيره، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة⁽¹⁾. والناظر في رسائل هذا العصر لا يعسر عليه أن يقف على ملامح بيئة من أثر الثقافة الدينية في مضامين الرسائل في العصر الأيوبي. وقد اتكأ الكتاب بصورة واضحة على **المادة القرآنية**، فللقُرآن الكريم خصوصية جعلته يحتل منزلة سامية في نفوس الكتاب. وقد كان من المواد الأساسية التي ينبغي على الكاتب في ذلك العصر أن يلم بها قبل أن يقم نفسه في ميدان الكتابة وعالم الكتاب. كان ابن الأثير يحث الكتاب على ألا تخلو الرسالة "من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة"⁽²⁾. وبعد ذلك ركنا من أركان الكتاب.

وقد تجلت مهارة الكتاب في الإفادة من المادة القرآنية في ابتداع أساليب فنية جديدة يتوصلون بها إلى تحقيق الغاية من توظيف النص القرآني بما يتلاءم مع السياق الأدبي. وأول تلك الأساليب: **ورود الآية بنصها**، إذ كان الكتاب يستقون من القرآن ما يتلاءم مع الغرض الذي يريدون أن يعبروا عنه، وقد أظهروا ذلك بطريقة تتم عن براعتهم ودقتهم في تخير الآية الملائمة، وإدخالها في تضاعيف رسائلهم، فنأتي الآية في موضعها الصحيح.

من ذلك ما ورد في رسالة العماد التي كتبها في حريق الأبراج في عكا، يقول: "فتسلطت النار على أهل النار، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾"⁽³⁾⁽⁴⁾. يلاحظ القارئ في هذا المثال أن المادة القرآنية، بقيت في السياق الأدبي، كما هي دون تحوير أي أنها لم تخرج إلى سياق وظيفي جديد. وقد يعمد الكتاب إلى نقل المادة القرآنية إلى سياق جديد تتحد مع السياق الأدبي، ومن شواهد هذا المنحى استهلال الفاضل رسالة تهنئة السلطان سيف الإسلام بقومته من الحج بآية من سورة آل عمران، وهي آية تصور الحال الذي آل إليه أمره بعد عودته من الحج، وشعوره بالأمن والطمأنينة، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾"⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

(1) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - محمود ابراهيم: 215.

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 82/1.

(3) سورة الرحمن آية: 35.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 377.

(5) سورة آل عمران آية: 174.

(6) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 88. ينظر الدر النظيم - اختيار محيي الدين عبد الظاهر: 64.

وعلى غرار هذا الشاهد رسالة البهاء زهير إلى لويس التاسع، وقد بدأها بقوله: "فإذا جاء كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾⁽¹⁾ (2).

ولجأ الكتاب في هذا العصر إلى استعمال أسلوب التحوير، وهو أسلوب يتصرف الكاتب فيه في النص المقتبس، بحيث يصبح ملائماً لمعطيات السياق الأدبي.

ومن مظاهر هذا الأسلوب: أن يورد الكاتب النص المقتبس في معرض مقول القول إثباتاً، كما ورد في رسالة ابن شكر في مدح مدينة دمشق، يقول: "وأوى إليها من اختار من أنبيائه وأحابيه، فقال تعالى في كتابه المبين: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذات قرار ومعين﴾⁽³⁾ (4).

أو أن يورد الكاتب النص المقتبس في معرض مقول القول نفياً، كما ورد في رسالة ابن الأثير التي كتبها عن الأفضل إلى الملك العادل. يقول: "وإنه ليس من يقول ذلك من عمل الشيطان، ولا كذلك ألقى السامري، وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾⁽⁵⁾ (6).

ومن المظاهر التي كان الكتاب يلجئون إليها في التصرف في النص المقتبس تغيير الضمائر، كأن يُبدل الضمير المتصل باسم ظاهر، أو نقله من الغائب إلى الحاضر، أو نحو ذلك. ومن الشواهد التي يمكن التمثل بها على هذا المنحى، ما جاء في رسالة الفاضل القدسية: "فبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وبَدَل الله مكان السيئة الحسنة"⁽⁷⁾.

ويلاحظ القارئ هنا أن الكاتب استبدل الاسم الظاهر بالضمير المتصل، وهو لفظ الجلالة، كما هو في الآية القرآنية: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾⁽⁸⁾.

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى ولده يعظه، يقول: "فإذا رُفِعَتْ له سُجُفُ الغيوب، ووقف الموقف الذي تَجِب فيه القلوب، قيل له، وهو عن نفسه بالغلبة لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب"⁽⁹⁾. فالكتاب ههنا نقل ضمير المتكلم في الآية الكريمة إلى ضمير الغائب، ونص الآية: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ

(1) سورة النحل آية: 10.

(2) الخطط - المقرئ: 611/1.

(3) سورة المؤمنون آية: 50.

(4) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 219/3.

(5) سورة طه آية: 87.

(6) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 96.

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 170-171.

(8) سورة الأعراف آية: 95.

(9) الفوائد الجلية - الناصر داود: 111.

ولا يمينا فيها لغوب⁽¹⁾. وعلى الشاكلة نفسها تنقل الأسماء من المفرد إلى الجمع، كما في رسالة الفاضل التي كتبها إلى سيف الإسلام، يستجده، يقول: "فإنهم -خذلهم الله- أم لا تحصي، وجيوش لا تستقصى، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا"⁽²⁾. ففي هذا المثال تحويل للأسماء الواردة من المفرد إلى الجمع في الآية الكريمة ﴿وَكَانَ وِراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾⁽³⁾.

ومن أساليب التحويل التقديم والتأخير على نحو لا يضر بالمعنى من النص المقتبس. ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن الأثير إلى أحد الإخوان. يقول: "فإنها الخطوة التي يتوجه إليها المعنى، وتعود جديدة كما بدأها الله أول مرة، والسيئة تُمحي بالحسنة، والموارد العذبة تذهب بالموارد الآسنة"⁽⁴⁾. وهو في هذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ يَذْهَبِ السَّيِّئَاتُ﴾⁽⁵⁾.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب التلميح إلى بعض آيات القرآن عن طريق إيراد لفظة أو عبارة، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة الفاضل في مدح آل أيوب، يقول: "فبهذا عرفتم بأهل المعروف، ومن آل أيوب، وكذا كان يوسفكم رحمه الله -يقضي كل حاجة في نفس يعقوب"⁽⁶⁾. وهو يلمح هنا إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَغْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾⁽⁷⁾.

ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير إلى بعض الإخوان يصف فيها خروجه من الموصل إلى دمشق، يقول: "ونار الهجير التي تتضرم وهجا وتوسع الجلود تبذلا ونضجا"⁽⁸⁾. فابن الأثير هنا يلمح إلى قوله تعالى: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾⁽⁹⁾.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب أسلوب حل الآيات القرآنية وإعادة نثرها من جديد، وهو يختلف عن حل المنظوم، وذلك "لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته، فإن ذلك من باب التضمين، وإنما يؤخذ بعضه، فإما أن يجعل أولا لكلام أو آخرًا على حسب ما يقتضيه موضعه"⁽¹⁰⁾.

(1) سورة فاطر آية: 35.

(2) صبح الأعشى - الفلقشندي: 25/7.

(3) سورة الكهف آية: 78.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 78.

(5) سورة هود آية: 114.

(6) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 37.

(7) سورة يوسف آية: 68.

(8) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 113.

(9) سورة النساء آية: 56.

(10) المثل السائر - ابن الأثير: 117/1، الوشي المرقوم - ابن الأثير: 99-100.

ويرى ابن الأثير أن الكاتب يمكن أن: "يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها، وموضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق"⁽¹⁾. ولا يعني هذا أن ابن الأثير يريد من الكاتب أن يكون "مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية"⁽²⁾. إنما أراد من ذلك أن تحصل عند الكتاب الملكة، وتكثر لديهم المعاني؛ لأن معاني القرآن الكريم ركنٌ من الأركان الخمسة التي لا بد للكاتب أن يراعيها في رسالته⁽³⁾. وقد حثّ النقاد على ذلك، فقد ألف ضياء الدين بن الأثير كتاباً قصره على حل الشعر والآيات القرآنية، والأخبار النبوية سماه "الوشي المرقوم في حل المنظوم".

ومثل ذلك ما جاء في رسالة الفاضل التي يفخر فيها بكتبه، يقول: "قد علم الناس أن كتبني لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا مجال فيها لهماز مشاء بنميم، إني فيها على هدى قويم"⁽⁴⁾. وهذا نثر للآيتين القرآنتين ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾⁽⁵⁾، و﴿هَماز مشاء بنميم﴾⁽⁶⁾.

ومن الأساليب التي أفاد منها الكتاب نثر القصة القرآنية بصورة موحية مكثفة مَعْبَرَة، فقد احتفل الكتاب في هذا العصر بالقصص القرآني، واستلهموا منه مواقفه التي كانت تسعفهم في التعبير عن الموقف الذي يريدون بأقل الكلمات. وفي هذا السبيل رأى الفاضل في بعض خيوط قصة آدم عليه السلام، وخروجه من الجنة، ما يسند حديثه عن سقوط بيت المقدس، وخروج المسلمين منه، يقول: "وما كان إلا جنة إسلام، فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة"⁽⁷⁾. وهو هنا يشير إلى قصة خروج آدم من الجنة كما قصها القرآن⁽⁸⁾.

ومن ذلك ربط ابن الأثير بين بلاغة صديق له وجمال أسلوبه، وبين حُسْن الجياد التي عُرضت على سليمان عليه السلام، يقول: "لكن قلت كما قال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سوق وأعناق، فإنه لم يقض هاهنا يمسخ سطور ولا أوراق"⁽⁹⁾. وهو هنا يشير إلى قصة سليمان عليه السلام كما قصها القرآن الكريم⁽¹⁰⁾.

وقد توقف الكتاب كثيراً عند قصة يوسف عليه السلام مع إخوته؛ نظراً لما لهذه القصة من خصوصية فنية، فقد برزت ملامحها في عدد وافر من رسائل هذا العصر، فمن الشواهد على ذلك ما جاء في رسالة الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بقدوم مولود له. يقول: "فقد زاد الله في أنجمه عن نجم يوسف

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 42/1.

(2) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 53.

(3) المثل السائر - ابن الأثير: 82/1.

(4) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 54.

(5) سورة الواقعة آية: 25.

(6) سورة القلم آية: 11.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 496/6.

(8) ينظر: سورة البقرة آية: 36، سورة الأعراف آية: 24، سورة طه آية: 123.

(9) المثل السائر - ابن الأثير: 120.

(10) سورة ص آية: 30-33.

عليه السلام نجما، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجوداً⁽¹⁾. فهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِ
إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾⁽²⁾.

ومن ذلك قول الوهراني في رسالته التي كتبها على لسان جامع دمشق، وجاء فيها ردّ الملك العادل على شكوى الجوامع: "ولما علم فحوى شكيتهم، وعرض كنه قضيتهم أزال عنهم ظلمهم، وأسرّها يوسف في نفسه، ولم يبدها"⁽³⁾. فالكاظم هنا يستضيء بقصة يوسف عليه السلام ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدَهَا لَهُمْ﴾⁽⁴⁾.

ومن ذلك قول ابن الأثير يشكو من تقلب الدهر وصروفه، يقول: "لقينا أياما ضاحكات، وليتها أياماً عابسات، فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات"⁽⁵⁾. وهو ههنا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سَمَانَ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعِ سَنَبَلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخَرٍ يَابِسْتِ﴾⁽⁶⁾.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكُتّاب استدعاء الشخصيات القرآنية، وجعلها مادة للتعبير عما يريدون. حيث استدعى ابن الأثير شخصية "طالوت"، يقول في ذم بخيل: "جوده بعيد على الأمل، غير مفتقر إلى العذل، وإذا احتفل فهو نهر طالوت الذي حل للغرفة لا للنهل"⁽⁷⁾.

وتشير الباحثة إلى تفاوت الكُتّاب في تناول المادة القرآنية، فقد كان بعض الكُتّاب يحرصون على تناول أساليب الاقتباس في جل ما يكتبونه من رسائل. فالقاضي الفاضل كان يتكئ بصورة واضحة على المادة القرآنية في كتاباته، فقد كان شديد التعلق بكل ما له صلة بالنص القرآني، وهذا أمر طبيعي لكاتب كان يحفظ القرآن، ويتدبر ما فيه من بيان وجمال، ثم إن أدب هذا العصر هو أدب مواجهة بين المسلمين والفرنج، ولذا كان من الطبيعي أن ينتج الفاضل في كتاباته إلى منبع العقيدة الإسلامية، وأن يغترف من معانيه وألفاظه وصوره في التعبير. وقد كانت هذه السمة من أبرز السمات الفنية الأسلوبية التي استرعت أنظار الذين اتصلوا بفنه الكتابي من قدامى ومحدثين، يقول سبط بن الجوزي: "وهذه الخاصية التي تلفت النظر إليها، هي خاصية نثر القرآن على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار"⁽⁸⁾.

وقد أفاد الكُتّاب من معاني الحديث النبوي الشريف، وألفاظه، فهم يستقون منه ما يمس وجدان كل مسلم، ويدخلونه في كتاباتهم بطريقة محكمة فيها دقة وقدرة على التصرف في تطويع ألفاظه مع ما يتناسب مع الموضوع الذي يكتبون فيه.

(1) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 75/3-76.

(2) سورة يوسف آية: 4.

(3) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش: 71.

(4) سورة يوسف آية: 77.

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 119/1.

(6) سورة يوسف آية: 46.

(7) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 175.

(8) مرآة الزمان - سبط بن الجوزي: 472/8.

ويبدو أن أثر الحديث النبوي كان أقل من القرآن الكريم، بسبب قدسية النص القرآني، مما جعل الكتاب ينظرون إليه نظرة النموذج والمثال المحتذى، في حين ظل الحديث النبوي أقل مرتبة في تأثر الكتاب، كما أن الأخبار النبوية كثيرة لا يمكن حصرها، أما القرآن فله حاضر وضابط، وكل آياته تدخل في الاستعمال⁽¹⁾.

واعتبر ابن الأثير حفظ الحديث النبوي أحد الأركان الخمسة التي تؤهل الكاتب ليصبح كاتباً⁽²⁾. ويذكر أنه غني بالحديث، وجمع كتاباً فيه "يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلها تدخل في باب الاستعمال، وأنه كان يلزم مطالعة ذلك الكتاب لزوم المحتفل، ولا يزال في مطالعته كالحال المرتحل"⁽³⁾. وتراوحت أساليب الكتاب في الإفادة من الحديث النبوي، ومن هذه الأساليب:

الاستشهاد به، والتمهيد له بعبارات مشعرة بالنقل عن حديثه صلى الله عليه وسلم - ويأتي الاستشهاد به بعد أن يقرر الكاتب فكرة، فيأتي بالحديث للتأكيد على فكرته.

ومن ذلك قول الفاضل في رسالة شفاعته له: "وليعلم الأمير أن حسن صنع الله بالعبد أن يحوج إليه أرباب البيوت الكبيرة القدر، وأن يقدر على ادخار الأجر، ويوفقه لاكتساب الشكر والذكر، والخبر النبوي معروف في إكرام عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر"⁽⁴⁾. وتبدو غاية الفاضل من الاستشهاد بالحديث واضحة، فهو يرمي إلى فكرة الإحسان إلى من جار عليهم الزمن بعد العز والثراء، فأورد الكاتب هذا الحديث تدعيماً لرأيه.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب **حل ألفاظ الحديث النبوي** في ثنايا رسائلهم ونثرها، وتبدو الشواهد على هذا المنحى غير قليلة، ومن أمثلتها ما كتبه ابن الأثير في وصف كريم، يقول: "ونتج من أبحار فضائله ما إذا دعاه غيره قيل للعاهر الحجر"⁽⁵⁾. ويبدو في هذا المثال أثر الحديث بارزاً، فالكاتب ينظر إلى حديثه صلى الله عليه وسلم "الولد للفراش، وللعاهر الحجر"⁽⁶⁾.

ومن شواهد هذا المنحى ما جاء في رسالة الفاضل إلى صلاح الدين. يقول: "كتب الخادم لو تتابعتم بمنزلة المقتنص البهجة، المبتكر اللذة، فكيف لا تصل إلا وترا "ولا تزور إلا غبا"⁽⁷⁾. ولا يخفى على القارئ أن الكاتب ينظر إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - "زر غبا تردد حبا"⁽⁸⁾.

ومنها قول ابن الأثير واصفاً مطلع كتاب: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخطر مجده نقص كل خطر، ومنحه من فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"⁽⁹⁾. فالكاتب ينظر إلى

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 1/131.

(2) المصدر نفسه: 1/182.

(3) المصدر نفسه: 1/132.

(4) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 198.

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 1/138.

(6) صحيح البخاري: 3/100، سنن أبي داود: 2273.

(7) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 11.

(8) المستدرک علی الصحیحین - محمد عبد الله الحاكم: 3/347.

(9) المثل السائر - ابن الأثير: 1/134.

حديثه صلى الله عليه وسلم "سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ وما أعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت؛ غَرَسْتُ كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر" (1).

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى عمه (2) شفاعاً في أحد غلمانته، يقول: "فهم جديرون أن يقال لهم كما حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه: "يا أهل بدر اصنعوا" (3)، وما أجدر عفو مولانا أن يجز عليه ذيل حلمه، ويعطف عليه لأجل سميته (4) عاطفة تكون مرهما لكلمه (5).

وقد يلجأ الكتاب إلى التلميح في استخدام الحديث النبوي، ومن شواهد هذا المنحى قول الفاضل متشوقاً إلى صلاح الدين: "فيقول المولى أخذت عن الدهر الذي هو ظالم، فأنت بما يجنى زعيم وغارم، وإن جأوبه نثراً، قال عيني من عينك، وهذا فراق بيني وبينك، ويعود الحديث والسبق إلى عكاشة" (6). وهذا إشارة إلى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم "سبقك بها عكاشة" (7).

وقد يأتي الأثر الأدبي رافداً من الروافد الأساسية التي أمدت الكتاب بالألفاظ والمعاني، ويأتي في مقدمة هذا الأثر: الشعر فهو ديوان العرب، ومن ثم فقد أكتب الكتاب على حفظ الشعر، وكان باعثهم على ذلك كما يقول ابن الأثير: "كثرة الشعر، واستغراقه للمعاني، ولأن الأخذ منه أستر وأخفى" (8). ثم يحثهم على ذلك قائلاً: "من أحب أن يكون كاتباً، أو كان عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته" (9).

وكان لديوان المتنبي النصيب الأوفر من عناية الدارسين، فوضعوا الشروح والحواشي والأمالى عليه. وقد استرعت العناية بالمتنبي نظر ابن الأثير عندما قدم على مصر سنة 569هـ، يقول: "رأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب دون غيره، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك، وقلت: إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر، فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه، وهو أبو نواس الحسن بن هانئ، فلم يذكروا في هذا شيئاً، ثم إنني فاوضت عبد الرحيم البيساني في هذا فقال: "إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس، ولقد صدق فيما قال" (10).

(1) صحيح مسلم: 446/1.

(2) يقصد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل.

(3) صحيح البخاري: 72/4، 184/5، 186/6، صحيح مسلم: 168/7.

(4) أي يقصد اسم الغلام داود.

(5) الفوائد الجلية - الناصر داود: 111.

(6) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 13.

(7) صحيح مسلم: 446/1.

(8) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 52.

(9) المثل السائر - ابن الأثير: 1-82-431.

(10) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 57.

وأكثر الكُتّاب من الاستشهاد بالشعر في رسائلهم، وتبدو ظاهرة التضمن جلية في الرسائل الإخوانية، والأدبية⁽¹⁾. أما الرسائل الديوانية، فكان التضمن فيها نادرا. وقد أشار القلقشندي إلى ذلك، بقوله: "أما مكاتبات الملوك الآن فقل أن تستعمل فيها الأشعار، وقد تجيء التلقينات بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن، وتفتيح الفكر"⁽²⁾.

ومن الجدير قوله: إن الكُتّاب كانوا يراوون بين الشعر والنثر في رسائلهم، كما أن الشعر لم يتخلل الرسائل الإخوانية على اختلاف أنواعها، بل تخلل أغراضا تتلاءم طبيعتها مع الاستشهاد بالشعر، كما هو الحال في رسائل الشوق، ونقل في رسائل الاعتذار والشكر والتهاني والتعازي. وأشار القلقشندي إلى أن الرسائل قد تكون كلها أو جلّها شعرا، و"قد يكون صدر المكاتبة شعرا وذيلها نثرا، وبالعكس، وقد يكون طرفاها نثرا، وأوسطها شعرا، وعكس ذلك بحسب ما يقتضيه الترتيب"⁽³⁾.

وفي ضوء استقراء النصوص التي بين يدي الباحثة تبين لها مدى تأثر الكُتّاب بالتراث الشعري في رسائلهم، كما أن تأثرهم به لم يقف عند نتاج عصر بعينه، فقد نهلوا من أشعار الجاهليين والإسلاميين والأمويين والعباسيين، دون وجود قيود أو عوائق تمنع الكُتّاب من توظيف المادة الشعرية المناسبة، وإدخالها في رسائلهم.

وكان الكُتّاب يستشهدون في رسائلهم ببيت أو بيتين للتعبير عما يجول في خواطرهم، ومن هذا الباب جاء استشهاد الفاضل بشعر "حاتم الطائي" في رسالة له. يقول: "وما يخشى الخادم إلا أن المزعجات المتجددة النقم له بطرا، ولا يوجب الجزع لها خورا. وهذا حاتم طيء كريم العرب، وسيد كرمائها، يقول قولا تناقله الكرام، وعدّه أمراء الكلام من أمير الكلام:

"شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر

فما زادنا بغيا على ذي وسيلة غنانا، ولا ذرى بأحسابنا الفقر"⁽⁴⁾

ومن وراء كل حال يتجدد، والله لطايف تتعود ولا تتعدد، ورأى المجلس السامي الرأي السامي في ذكره، ولو في كل سنة كتاب، فإنه يشكر عليه كل يوم شكرا بغير حساب"⁽⁵⁾.

وعلى نفس الشاكلة تجري رسالة ابن الأثير في كتاب كتبه. يقول: "فلسمع المولى ما يورده من كلمات تسجد لها الكلم وتركع، وفي ضمنها دعاء يشتبه بالثناء، ولقد أحسن المتنبي في هذا، حيث يقول:

"دعاء كالثناء بلا رياء يؤديه الجنان إلى الجنان"⁽⁶⁾⁽⁷⁾

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 14/157-188-326-327.

(2) المصدر نفسه: 1/276.

(3) المصدر نفسه: 1/323.

(4) ديوان حاتم الطائي - تحقيق عادل جمال سليمان: 214 مع اختلاف الرواية.

(5) إنشادات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 54.

(6) ديوان المتنبي - دار المعرفة: 3/261.

(7) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 85.

وقد يجعل الكاتب من الشعر المستشهد به منفذا وطريقا للإشادة بقائله، كون هذا الشعر يأتي تأكيدا للفكرة التي يُعبّر عنها الكاتب في رسالته. ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى رسالة الفاضل إلى صلاح الدين متشوقا، يقول: "فقد عرفت محاسنه الغرر، ولا أن يتأتى فيه بقدر الرامي إلى الدراري، ولا بقدر الغوص على الدرر، وعلى ذكر جميل فما أحسن قوله:

"وإني لراض منك يا بثن بالذي
بلا وبألا أستطيع وبالمنى
لو إيقنه الواشي لقرت بلابله
وبالوعد حتى يسأم الوعدَ أمله⁽¹⁾»⁽²⁾

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى أحد شيوخه يصف فيها شوقه. يقول: "ولا زالت العناية القديمة حافة بنفسه متكفلة بأنسه، وفيه قول القائل: والشاعر المنمق لنفسه مقال الباطل:

"يا ملكا حل قلبي من جلالتة
فسار يطلب نور النور مهتديا
نور تألف فيه بعد إيماض
بنور نور من الأنوار فياض⁽³⁾»⁽⁴⁾

وقد يجعل الكتاب النص الشعري ناطقا بحال المخاطب كما صوروها في رسائلهم. ومن ذلك قول الوهراني في رسالته التي كتبها على لسان جامع دمشق، وفيها يرد القاضي ابن عصرون على توبيخ الجامع الأموي وهجائه له، يقول: "أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب ما يتم فيك من المعاصي؟ حتى لقبوك بسوق الفسوق، وميدان المروق، حتى قال فيك القائل:

"تجنب دمشق فلا تأتها
فسوق الفسوق به قائم
وإن رافك الجامع الجامع
وفجر الفجور به طالع⁽⁵⁾»⁽⁶⁾

والملاحظ على أساليب الاستشهاد بالشعر أنها تمهد للنص بعبارة تمهيدية تشير إلى النص الشعري المقتبس، وقد يُصرح الكاتب باسم القائل، وقد يتركه غفلا.

وفي المقابل سلك الكتاب طريقا آخر في الاستشهاد، فقد كانوا يضمنون الأشعار دون الإشارة إلى كونها من شعر غيرهم، بحيث يشعر القارئ أن الشعر للكاتب لا لغيره؛ لأن الكاتب لا يمهد للنص الشعري بعبارة تشير إلى أن الشعر منسوب لغير الكاتب.

وقد ورد هذا النوع من الاستشهاد بكثرة في رسائل ابن الأثير خاصة، فهو يضمن رسائله الكثير من شعر أبي تمام والمنتبي والبحتري، يقول: "وكنّت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثّة، ما لا أحصيه كثرة، ثم اقتصررت بعد ذلك على شعر الطائيين: حبيب بن أوس، والبحتري، وشعر أبي

(1) ديوان جميل - تحقيق حسين نصار: 63، مع اختلاف الرواية.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 11.

(3) الفوائد الجلية - الناصر داود: 152.

(4) المصدر نفسه: المقطوعة 5.

(5) لم أعثر على قائل هذه الأبيات.

(6) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 69.

الطيب فحفظت هذه الدواوين الثلاثة⁽¹⁾. ويعلل ابن الأثير السبب الذي دفعه إلى حفظ دواوين الشعراء الثلاثة، فقال: "إن أبا تمام والمنتبي غواصا المعاني" أما البحتري فلم أجد في ديباجة ألفاظه وسبكها أحدا تسامى عليه⁽²⁾.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب تضمين رسائلهم أشعارهم، فقد ضمن الفاضل رسائله الكثير من شعره. وقد جمع أحمد بدوي الأشعار التي وردت في رسائل الفاضل المطبوعة تحت عنوان "شعر الرسائل"⁽³⁾. كما ضمن الناصر داود رسائله الكثير من شعره، وقد حقق ناظم رشيد شعره، والمتضمن رسائله في "الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية".

ومن الشواهد التي نحت هذا المنحى رسالة الفاضل التي كتبها متشوقا، يقول في فاتحتها:

"لا تحسبن البعد غيرني
فإذا الذي حسنت مودته
والبعد غير مغير عهدي
بالقرب ضاعفها على البعد"
هذه المكاتبة صادرة إلى حضرة مولاي معربة عن أشواقه، وعظيم أتواقه⁽⁴⁾

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود التي كتبها متشوقا، يقول:

"أيا ملكا يفلي الفلاة جواده
رحلت به ثم انتثيت مكافا
تأبد على قلب لقاك مراده
جواب بليغ لا يرام انتقاده
أطلب أباك المعاني وعونها
لدى جسد قد سار عنه فؤاده"⁽⁵⁾

ومن الطرق التي لجأ إليها الكتاب تضمين الرسائل شطرة واحدة من الشعر، حتى يبدو وكأنه جزء من السياق الأدبي، ومن ذلك قول الفاضل في فتح حصن بيت الأحرار: "ولقد أخذنا من القوم بالمخفق، وشرعنا في طم الخندق:

"والنصر أشهر من نار على علم
فقد ضمن الفاضل عجز بيت المنتبي" والحرب أقوم من ساق على قدم"⁽⁶⁾
"لا تتركن وجوه الخيل ساهمة
والحرب أقوم من ساق على قدم"⁽⁷⁾

ومن هذا القبيل قول ابن الأثير في رسالته إلى أحد الإخوان يقول: "وقد يكره المرء شيئا، ويجعل الله فيه الخير، ولا يصدق القائل: "ما الحب إلا للحبيب الأول"⁽⁸⁾ فقد تضمن عجز بيت أبي تمام، والبيت هو:

(1) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 56.

(2) المصدر نفسه: 56-57.

(3) ديوان القاضي الفاضل - تحقيق أحمد بدوي: 489/2.

(4) الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 60.

(5) الفوائد الجليلة - الناصر داود: القصيدة رقم 24:114.

(6) ديوان المنتبي - دار المعرفة: 150/4-161.

(7) المصدر نفسه: 150/4-162.

(8) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 156.

"نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول"⁽¹⁾

وقد يلجأ بعض الكتاب للتلميح إلى النص الشعري المقتبس، ومن ذلك قول الفاضل في رسالة له: "فالشمس إذا طلعت بعد ما ألقى الشرق هامات تغر العيان، ولا دنانير أبي الطيب التي تفر من البنان"⁽²⁾. والفاضل هنا يلمح إلى بيت المتنبي:

"وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيرًا تفر من البنان"⁽³⁾.

ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير التي يصف فيها الجيش الفرنجي، يقول: "وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان، إن قيل: إنهم أناسي، فإن صورهم صور الجان"⁽⁴⁾، وابن الأثير يلمح هنا إلى قول المتنبي: "تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم"⁽⁵⁾

وشاعت ظاهرة حل المنظوم في هذا العصر، وكانت بواردها قد أخذت بالظهور منذ القرن الثالث الهجري، فقد تحدث أبو هلال عن حل المنظوم في باب سماه "في حسن الأخذ، وحل المنظوم"⁽⁶⁾، ويرى ابن الصيرفي أن حل المنظوم من أعلى رتب البلاغة⁽⁷⁾، وقال ابن شيث: "إن الحذاق من أهل هذه الصناعة يرون أن الكتابة: هي حل المنظوم من الشعر"⁽⁸⁾.

ويرى ابن الأثير أن الطريق إلى تعلم الكتابة هو أن "تصرف الهمة إلى حفظ القرآن، والأخبار النبوية، وعده من دواوين الشعراء؛ لأن هذا كنز الكتابة ومنبعها وعمودها وذروة سنامها"⁽⁹⁾. وينبغي على الكاتب ألا يعتمد في كتابته على ما يستخرجه من الجمل، إنما الغرض أن تحصل له الملكة، وتكثر لديه المعاني، ويطلع على الدقائق والدفائن"⁽¹⁰⁾.

والحل: هو أن يعتمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عقل الشعر، ويسكبها في كلامه المنثور"⁽¹¹⁾. وقد قسمه ابن الأثير أقساما ثلاثة، أعلاها رتبة "أخذ المعنى من البيت وصوغه بألفاظ غير ألفاظه"⁽¹²⁾.

وتمثل هذه الظاهرة تأثر الكتاب بعدد من الشعراء السابقين، مما يدل على إعجابهم بهم، وإحساسهم بتفوقهم، وجودة أشعارهم، والأمثلة على حل الكتاب للشعر كثيرة منها: قول الفاضل: "في

(1) ديوان أبي تمام - تحقيق محمد عبده عزام: 253/4.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 22.

(3) ديوان المتنبي - دار المعرفة: 386/4.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 154.

(5) ديوان المتنبي - دار المعرفة: 378/3.

(6) كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري: 196-217.

(7) الأفضليات - تحقيق وليد قصاب: 252-253.

(8) معالم الكتابة - ابن شيث: 96.

(9) المثل السائر - ابن الأثير: 83/1-84-85.

(10) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 53.

(11) صبح الاعشى - القلقشندي: 281/1.

(12) المثل السائر - ابن الأثير: 88/1.

ليل كموج البحر له أنجم كحبيب النهر، قد حشر الهموم وحشدها، وهدي ضوال القلوب وأنشدها، فأقول:
لما تمطى بصلبه قطع الله صلبك⁽¹⁾. فالفاضل يحل بيتي امرئ القيس:

"وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
علي بأنواع الهموم ليبتلي
وأردف أعجازا وناء بكلل⁽²⁾"

ومنها قوله: "إن خفنا يومها ففي قدرة الله أن يكفيننا غدها، وبينها وبينهم رب يعود بفضله،
ودهر ينقلب بأهله، وسلطان يجاهد بقلبه ويده ونصله، ففرجت وكان يظنها لا تفرج⁽³⁾، والفاضل هنا
يحل بيت الإمام الشافعي:

"ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج⁽⁴⁾."

وتبدو هذه الظاهرة واضحة في رسائل العماد القدسية، يقول في رسالة له إلى الديوان العزيز
ببغداد بفتح القدس: "واستخلصنا بتأييده البلاد، وانتزعناها، واقتضضنا بالبيض الذكور من الحرب
العوان أبكار الفتوح واقترعناها⁽⁵⁾". فالعماد ينظر إلى قول أبي تمام في فتح عمورية:

"بكر فما افتزعتها كف حادثة
ولا ترقّت إليها همة النوب⁽⁶⁾"

وتظهر هذه الظاهرة بصورة جلية وكثيرة في رسائل ابن الأثير، ومن الشواهد على هذا المنحى
رسائله التي كتبها في الهجاء. يقول: "لم أر له حظوظ المساعي من قسم، كأنه فيها واو عمرو أو ألف
بسم، فهو لا يزال منكرا غير معروف، فإما زائد لا حاجة إليه وإما محذوف⁽⁷⁾". وهذا المعنى مأخوذ من
شعر البحتري: "خل عنا فإنما أنت فينا
واو عمرو أو كالحديث المعاد⁽⁸⁾".

وإذا كان الكتاب يضمنون رسائلهم بيتا أو بيتين من الشعر، فإنهم في بعض الأحيان كانوا
يقتلون رسائلهم بأبيات من الشعر حتى تغطي على النثر، فقد أورد صاحب نهاية الأرب للفاضل رسالة
بلغ تضمينه الأبيات الشعرية أربعة وعشرين بيتا⁽⁹⁾، مما دفع رجاء عيد أن يتساءل عن القيمة الفنية
لهذا الجهد الذي يستلزمه التضمين من إيراد المعنى الشعري وفق الفكرة النثرية؟!، ويعلل ذلك بقوله:
"إن الشعر بدأ يعاني سكرات الموت، وينحدر إلى هاوية سيئة من التزويق والتلفيق، ودوران في حلقة
مفرغة، وتطريز على ثوب خلق⁽¹⁰⁾".

(1) الفاضل من كلام الفاضل: جمع ابن نباتة المصري ورقة: 35، رسائل الفاضل الأدبية - غير معروف من قام بجمعها ورقة: 68.

(2) ديوان امرئ القيس بشرح الأعلام الشنتمري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: 18.

(3) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 48.

(4) ديوان الإمام الشافعي - تحقيق محمد عبد الرحمن عوض: 38.

(5) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 355/3.

(6) ديوان أبي تمام - محمد عبده عزام: 48/1.

(7) الوشي المرقوم - ابن الأثير: 141.

(8) ديوان البحتري - تحقيق حسن كامل الصيرفي:

(9) نهاية الأرب - النويري: 30-28/8.

(10) المذهب البديعي في الشعر والنقد - رجاء عيد: 24.

برز تأثر الكتاب بالأمثال الموروثة. يقول صاحب معالم الكتابة: "والتمثل بالمثل السائر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة، وأعظم فنونها"⁽¹⁾. وذكر ابن الأثير أنه: "جرد من كتاب الأمثال للميداني أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال"⁽²⁾.

وتضمن الكتاب المثل في رسائلهم يُعدّ قليلا إذا ما قورن بالقرآن الكريم والحديث الشريف والأشعار. ولعل هذا يتوافق مع قول ابن رشيّق عن المثل: "وهذه الأشياء إنما هي نبذ تستحسن، ونكت تستطرف مع القلة في الندرة، فأما إذا كثرت فهي دالة على التكلف"⁽³⁾.

ومن الطرق التي لجأ إليها الكتاب في توظيف المثل: أن يمهد الكاتب له بعبارة تدل عليه، ومن هذه العبارات استخدام "قال في المثل"، أو "قالوا"، "قالت في المثل"، كما في رسالة الوهراني من فصل يشكو فيها توقف الجاري، يقول: "وهو يعلم أن العرب قالت في أمثالها: لا عطر بعد عروس"⁽⁴⁾.

ومن الوسائل التي لجأ إليها الكتاب في توظيف المثل، إدخاله في ثنايا الرسائل، بحيث يصبح جزءا أصيلا من كلامهم، وفي الوقت ذاته يصعب على القارئ معرفته إلا إذا كان ذا مخزون ثقافي في معرفة أمثال العرب وحكمهم. ومن أمثلة هذا المنحى رسالة الفاضل في وصف مطر، يقول: "فليت لنا جبلا يعصمنا من أمواج السيول، إذا جاءت مهزوزة السيوف، وقد "حال الجريض دون القريض"⁽⁵⁾، و"شغل توقيع الدهر عن توقيع القلم"⁽⁶⁾. فالكاتب يسوق المثل بين أجزاء حديثه دون الإشارة إلى أنه يُضمّن من كلام غيره. كما أن القارئ لم يلحظ أن الكاتب حافظ على المثل لفظا ومعنى، ولم يعمد إلى التحوير في صورته الموروثة.

وعلى نفس الشاكلة تجري رسالة البهاء زهير التي كتبها إلى لويس التاسع متوعدا له، يقول: "إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك"⁽⁷⁾.

وكان بعض الكتاب لا يرون غضاظة في التصرف بصيغة المثل دون الإخلال بجوهر المعنى. وقد برع الفاضل في ذلك، فنراه يصوغ على نسق المثل، يقول في رسالة له: "وحملّه عليه أولئك المساكين الذين خابوا وظفروا، وافتقروا واستغنوا، وأبعدوا وتقرّبوا، وتأخروا وتقدموا، وقُتلوا وسلموا، و"رب ساع لقاعد"⁽⁸⁾، و"ساهر لراقد"⁽⁹⁾. فالفاضل يصوغ على نسق المثل "رب ساع لقاعد" فيزيد

(1) معالم الكتابة - ابن شيث: 138.

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 35/1.

(3) العمدة - ابن رشيّق القيرواني: 285/1.

(4) يضرب لمن لا يُدخّر عنه نفيس. ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري: 426-727، مجمع الأمثال - الميداني: 211/2-212.

(5) يضرب للأمر الذي يقدر عليه أخيرا حين لا ينفع. والجريض: العُصّة، من الجرّض وهو الرقيق يُعص به. ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري: 444، وينظر: مجمع الأمثال - الميداني: 191/1.

(6) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 44.

(7) الخطط - المقرئ: 611.

(8) يضرب في اكتساب المرء مال غيره. ينظر: فصل المقال: 287، وينظر: مجمع الأمثال - الميداني: 299/1-300.

و"ساهر لراقده". ويخالف الفاضل ما اشترطه صاحب مواد البيان من ورود المثل بعباراته في صورته الموروثة. يقول: "وينبغي لمستعمله أن يوقعه في المعنى الذي يناسبه، ويورده بعباراته التي سبق المتمثل به إلى التعبير عنه بها"⁽¹⁾.

وسار الوهراني على نهج الفاضل في تغيير عبارات المثل بصورته الموروثة، ومنها رسالته التي يقول فيها: "ويظن الخادم أنه فيما يتلوه عليه من هذه الأساطير "كجالب التمر إلى هجر"⁽²⁾، وأصل المثل "كمستبضع التمر إلى هجر"⁽³⁾.

وتأثر الكتاب بأقوال الصحابة والتابعين، ومن كان لهم شأن يذكر في التاريخ، فقد كان الكتاب يسوقون هذه الأقوال في رسائلهم لتدعيم رأيهم في فكرة ما. ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة الفاضل يصف فيها هزيمة الفرنج: "ورحلنا والسلامة لصغير عسكريه وكبيره شاملة، والعدو قد غزي في عقره وعُقر، وأذلّ في دار ملكه واحتقر"⁽⁴⁾.

فالكاتب ههنا يستمد معانيه وبعض ألفاظه من خطبة الإمام علي، إذ يقول: "ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرا وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شنت الغارة عليكم، وملكت عليكم الأوطان"⁽⁵⁾.

فالفاضل هنا لم يلجأ إلى الاستشهاد صراحة بل أدخل أقواله إدخالاً خفياً دون الإشارة إلى ذلك، وقد سمى العسكري هذا النوع "الاتباع" أي إعادة نثر الأقوال في سياق جديد"⁽⁶⁾.

ومن الكتاب من كان يلجأ إلى التصريح في الاستشهاد ومن ذلك قول الناصر داود في رسالة له: "فقد ورد في الأثر عن ابن عم سيد البشر"⁽⁷⁾، فيما ابتدع معناه، وأبدع نظمه "من هز شجرة القلب بيد الفكر تناثرت عليه ثمار الحكمة"⁽⁸⁾.

وقد يلجأ الكتاب إلى استدعاء بعض الشخصيات التاريخية المشهورة من أجل إضفاء أجواء تعبيرية على رسائلهم، ومنها ما ورد في رسالة الوهراني التي كتبها إلى الفاضل يذم فيها بخيلاً يقول:

⁽⁹⁾ الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 44.

⁽¹⁾ مواد البيان - على بن خلف الكاتب: 246.

⁽²⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 135.

⁽³⁾ يضرب في الخطأ في تقدير الأمور. ينظر: فصل المقال: 413-414، وجمع الأمثال: 152/2.

⁽⁴⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 188/2.

⁽⁵⁾ البيان والتبيين - الجاحظ: 53/2-54.

⁽⁶⁾ كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري: 220.

⁽⁷⁾ يرى المحقق ناظم رشيد أنه الإمام علي؛ لأنه هو المشهور بالبلاغة أكثر من بقية بني عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا أطلق المؤلف الكلام

ولم يخصه بالإمام على صراحة. ينظر: الفوائد الجلية: 126.

⁽⁸⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 126.

"واعلم أن الطبيب لا يداويك بشعر حبيب، ولا يأخذ منك في العقار الطبيب مذهبات شعر أبي الطبيب،
ولو أنك المعري عراك من ثيابك، وزهد في ثوابك⁽⁹⁾."

⁽⁹⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 74.

ومنها ما ورد في رسالة الفاضل عن السلطان معزيا في نور الدين. يقول: "فُجع الإسلام باسكندره فتوحا وجنودا، وبخضره ذكرا في الطيب والخلود، ويعمر فتوحه ولو زيد عمرا لطمعنا أن يزيد، وبكسرى عدله، ولو شبه به لقال الإسلام للكفر أين تريد؟"⁽¹⁾.

إن الفاضل بهذه الكلمات القليلة استحضر التاريخ لأربعة من قادته العظام مما يشي بقدرته الفنية على الاختصار.

- التأثير بالكتاب والخطباء

تأثر الكتاب في هذا العصر بأساليب الكتاب في العصر الفاطمي من أمثال "ابن الخلال"، و"ابن قادوس" و"ابن أبي الشخاء العسقلاني"⁽²⁾، وقد كان لهؤلاء الكتاب أثر كبير في كتاب هذا العصر وخصوصاً القاضي الفاضل. وكان الفاضل قدم إلى ديوان الإنشاء في مصر والتقى بابن الخلال، وسأله عما يحفظه، فأجابه بأنه يحفظ القرآن وكتاب الحماسة، ثم أمره الموفق بملازمته، وقد أشارت الباحثة إلى ذلك في الفصول السابقة⁽³⁾.

وتأثر الفاضل بابن قادوس، وكان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وكان قد اشتغل عليه كما كان يجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر⁽⁴⁾.

وتأثر بابن أبي الشخاء العسقلاني، وقيل إن جل اعتماده كان على حفظ كلام ابن أبي الشخاء، وقد استمد من رسائله وكان معجبا بها⁽⁵⁾.

وقد تأثرت الكتابة في هذا العصر بأساليب الكتاب في القرن الرابع الهجري، وخاصة ابن العميد⁽⁶⁾. أما العماد الأصفهاني فقد تتلمذ على العديد من الشيوخ في بغداد، وخصوصاً شيخه محمد ابن القاسم الحريري، وقرأ عليه مقامات والده، يقول: "وسمعت عليه من مقامات والده أربعين مقامة، وهو لها متقن ولشرحها مبين"⁽⁷⁾.

وكانت مقامات الحريري في هذا العصر المثل الأعلى للكتابة الفنية، فقد اتخذوها نموذجاً يحتذى، ونسجوا على منوالها، وعملوا على دراستها وحفظها، والسير على نهجها⁽⁸⁾.

كما تأثر الكتاب في هذا العصر بأسلوب ابن نباتة الفارقي في ديوان خطبه، فقد كانت إلى جانب مقامات الحريري "عكاز أهل ذلك الزمان من متعاطي هذه الصناعة"⁽⁹⁾ كما يقول ابن الأثير.

(1) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 81.

(2) هو الحسن بن عبد الصمد العسقلاني، صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحيرة، توفي سنة 482هـ، ينظر: حريدة القصر- قسم العسقلانيين.

(3) ينظر الفصل الأول من الدراسة: 8.

(4) كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 330/1.

(5) وفيات الأعيان- ابن خلكان: 89/2، ينظر: نصره الثائر- الصفدي: 92.

(6) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية- أحمد بدوي: 341.

(7) حريدة القصر- قسم شعراء العراق- العماد الأصفهاني: 62-29/1-63.

(8) الوشي المرقوم- ابن الأثير: 51، ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية- أحمد بدوي: 42.

(9) الوشي المرقوم- ابن الأثير: 51.

فقد كان ابن نباتة في خطبه يحث على الجهاد؛ ولذا فإن من الطبيعي أن يتأثر الكتاب بخطبه، فهو عصرٌ كثرت فيه الحروب ضد الفرنج، كما كان عصر ابن الفارقي عصر صراع مع الروم. ويعلق الصفدي على إحدى رسائل ابن الأثير بقوله: "أما وقف على الخطب النباتية!، ورأى كلامه فيها، ويحذو حذوه، ويتلو تلوهُ"⁽¹⁾.

وبرزت أصداء الإشارات والوقائع التاريخية في الرسائل، فقد أفاد الكتاب من ثقافتهم التاريخية الواسعة، فهم يستمدون من الأحداث التاريخية المرتبطة بعصرهم، ومن ذلك إشارة الفاضل إلى الكرك، والشوبك، يقول: "وهما الكرك والشوبك يسر الله فتحهما، وكفى إشارة إلى أنه مكان الغزاة ومقرها، ومستودع الفريضة ومستقرها"⁽²⁾.

ومنها إشارة ابن الأثير إلى حديث ببيعة الحديبية. يقول: "فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان، ولهذا نابت شمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان"⁽³⁾. فالكاتب ينظر إلى بيعة الحديبية، وكان أرسل عثمان -رضي الله عنه- إلى مكة، ولم يحضر البيعة، فضرب رسول الله بيده الشمال على اليمين، وقال: "هذه عن عثمان، وشمالى خير من يمينه"⁽⁴⁾.

ومن الظواهر الأسلوبية في هذا العصر الابتداع، فالتجديد والابتكار شيء مهم في المعنى والصورة، وقد نظر الكتاب في معاني السابقين وصورهم، وتمثلوها، وأخذوا منها، وتأثروا بها، وقد تقدم القول عن تأثرهم، وأخذهم معانيهم من مصادر مختلفة كالقرآن والحديث، والشعر، ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا في المعاني والصور.

ويذهب ابن الأثير إلى أن "المحدثين كانوا أكثر ابتداعاً للمعاني، وألطف مأخذاً، وأدق نظراً ولكنه يرى أن تلك المعاني المبتدعة لم تكن كثيرة، فأكثر المعاني قد طُرِقَ وسبق إليه، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يُطَرَق"⁽⁵⁾. وصنّف ابن الأثير المعاني إلى قسمين: قسم مبتدع ولا يقتدي فيه الأديب بمن سبقه، وقسم آخر يحتذي فيه الأديب نهجا مطروقا"⁽⁶⁾.

وقد عني ابن الأثير بالمعاني المبتدعة وصنف كتاباً أسماه "الرسالة في المعاني المبتدعة"⁽⁷⁾. وفي ضوء استقرار النصوص تبين للباحثة أن المعاني المبتدعة كانت أكثر وروداً في رسائل ابن الأثير، وكان يعلق على ذلك، بقوله: "وهذا معنى انفردت بابتداعه، ولم يأت به أحد ممن تقدمني" أو "أن يقول وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة وهو مخترعٌ لي"⁽⁸⁾.

(1) نصرة الثائر - الصفدي: 118.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 20.

(3) المثل السائر - ابن الأثير: 182/1.

(4) رواه البخاري: 64 - كتاب المغازي: 19.

(5) المثل السائر - ابن الأثير: 338/1.

(6) المصدر نفسه: 229/1-335.

(7) الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدّهان - ابن الأثير: 60.

(8) المثل السائر - ابن الأثير: 304/1-307-308-319-320.

ومن تلك المعاني المبتدعة، ما يقوله في وصف قلم: "ولقد مرح القلم في يدي، وحق له أن يمرح، وأبدع فيما أتى به، وكل إناء بالذي فيه ينضح، ومن شأنه أن يستغل على أعواد المنبر، فلا ينتهي من خطبتها إلى فصلها، ويقف على جانب القلب إلا أنه لا ينادي من المعاني أبا جهلها"⁽¹⁾. ويذكر ابن الأثير المعنى المبتدع بقوله: "وأما الحديث النبوي فإني أخذت من قصة قتلى بدر كأبي جهل وعتبة، وشيبة، ونقلتها إلى القلم"⁽²⁾. فالدواة قلب، والقلم يقف عليه، والمعاني التي ينشئها من باب العلم لا من باب الجهل، فتأمل هذه الكلمات التي ذكرتها فإنها لطيفة جدا، وهي مخترعة لي"⁽³⁾.

إن في رسائل الفاضل عددا من المعاني المبتدعة، كما يبدو في حديثه عن تخريب حصن بيت الأحران. يقول: "وهي الليلة التي ولدت الصبح صفحتها وخلصت مع سواد ظلماتها نصيحتها، فلما كان في وقت الظهر ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾"⁽⁴⁾⁽⁵⁾. إن الولادة سمة من سمات الكائنات الحية وليس للصبح اشتراك في هذه الصفة، ولكن الفاضل استعارها له، فالصورة تعبير عن اللذة والفرح، والتعب والألم معاً. إن الميلاد لا بد أن يسبقه مخاض، ولا بد للمخاض من آلام، وتلك هي آلام الجهاد، ومعاناة الحرب، وصراخ المولود يستقبله السرور، وتلك هي فرحة النصر المولود.

ومنها ما ورد أيضا في حديثه عن تخريب نفس الحصن. يقول: "ورموا"⁽⁶⁾ منه نحر بلاد الإسلام بالسهم السديد، فخيم عليه، ونزل به"⁽⁷⁾. فالتشخيص الذي خلعه الفاضل على بلاد الإسلام له دلالة، فرمي السهم في نحر البلاد يزيد من المعاناة، ويضاعف المسؤولية في استنقاذها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. ويشيد العماد الأصفهاني بالفاضل في مخترعاته في صناعة الكتابة، وفيما "أغربه من الإبداع" كما يقول. ويذكر أن فصوله تأتي "مبتدعة مبتدعة" ويصور كتابته كالشرعية المحمدية، التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار"⁽⁸⁾.

كما أن في رسائل العماد عددا من المعاني المبتدعة، كما يبدو في رسالته القدسية متحدثا عن فتح طبرية. يقول: "فيوم الخميس فتحت طبرية، وفاض ريّ النصر من بحيرتها، وقضت على جسرها الفرنج، فقضت نحبها بحيرتها"⁽⁹⁾. وقوله مصورا العدو المحتل بعد الهزيمة التي مني بها: "والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام، قد صار حديدا يُغرق خطوات الكفر عن الإقدام"⁽¹⁰⁾.

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 334/1.

(2) المصدر نفسه: 334/1.

(3) المصدر نفسه: 335/1.

(4) سورة التوبة آية: 48.

(5) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري ورقة: 27.

(6) أي يقصد الفرنج.

(7) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 106.

(8) حريدة القصر - قسم شعراء مصر - العماد الأصفهاني: 35-54/1.

(9) صبح الأعشى - الفلقشندي: 519/6.

(10) المصدر نفسه: 519/6.

فالعماد يعتمد في تصويره على المقابلة بين ما كان عليه العدو قبل المعركة وما آل إليه بعدها، فقد كان حديد الكافر يضرب وجه الإسلام فأصبح مسلماً.

- الرسالة بين الإطناب والإيجاز

ومن الظواهر الأسلوبية التي برزت في رسائل هذا العصر ظاهرتا الإطناب والإيجاز. وهاتان الظاهرتان من أكثر الظواهر دورانا في كتب البلاغة والنقد. وربط بعض البلاغيين بين موضوعات بعينها، وبين الإيجاز والإطناب، فابن سنان الخفاجي. يقول: "ومن الناس من يقول: إن من الكلام ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ في الملأ على عوام الناس"⁽¹⁾. ويرى شهاب الدين الحلبي أن الإطناب "يحسن في المكاتبات التي تتضمن أوصافا من الخيل والجوارح والسلاح، وآلات الحرب، وأنواع الرياضات من الصيد ورمي البندق، ولعب الكرة"⁽²⁾. فمعيار الإيجاز والإطناب معيار نسبي وليس مقياسا متحكما، وإنما الذي يفرض الإيجاز والإطناب، وفاؤهما بالمعنى في سياق العبارات الجزئية، أو في سياق العمل الأدبي كله⁽³⁾. فالإيجاز كما عرفه ابن الأثير "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، أما الإطناب فهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"⁽⁴⁾.

وقد أورد ابن الأثير في رسالته القدسية فائدة الإطناب، وذكر فيها: "أنه ليس الإكثار هنا من الإسهاب". ويقول: "ولو أبيع للقلم الخيلاء في مقام المقال كما أبيع لصاحبه في مقام القتال، لاختلفت مشيته في هذا الكتاب، ولقال وأسهب" ومنعه من ذلك أن: "يكون ممن فخر بعمله فأبطله"⁽⁵⁾، ويصفه بأنه إطناب مستوفي الأقسام⁽⁶⁾.

وعلى كل حال فرسائل هذا العصر جمعت بين الإيجاز والإطناب، فالرسائل ذات الاتجاه السياسي⁽⁷⁾ يغلب عليها الإطناب. أما الرسائل ذات الاتجاه الوجداني والأدبي، فإنها تراوحت بين الإيجاز والإطناب⁽⁸⁾، باستثناء رسائل المحاورات والمفاخرات ورسائل الوصف فإنه يغلب عليها طابع الإطناب. ويبدو أن غلبته على الرسائل السياسية سمة عامة، ويتلاءم مع ما ذهب إليه النقاد، فالإطناب: "يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يقرأ في المحافل والعهود السلطانية"⁽⁹⁾. ولا يصلح فيها "إلا بسط الكلام، والإطناب في شكر نعم الله، ووصف ما أعطى من النصر، وما منح من الثبات، وكلما اتسع

(1) سر الفصاحة- ابن سنان الخفاجي: 198،

(2) حسن التوسل- شهاب الدين الحلبي: 343.

(3) المعاني علم الأسلوب- مصطفى الصاوي الجويني: 33.

(4) المثل السائر- ابن الأثير: 55/2.

(5) المثل السائر- ابن الأثير: 126/2، وينظر رسائل ابن الأثير- تحقيق أنيس المقدسي: 156.

(6) المثل السائر- ابن الأثير: 126/2.

(7) المصدر نفسه: 135/2.

(8) ينظر الرسائل: الفتح القدسي: 397-398، كتاب الروضتين: 155/4، رسائل عن الحرب والسلام: 125، 39، صبح الأعشى: 26/7.

(9) صبح الأعشى- القلقشندي: 337/2.

مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها، كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المکتوب إليه⁽¹⁾. وقد عقدت الباحثة فصولاً "لاتجاهات الرسائل، واتضح لها بروز ظاهرتي الإطناب والإيجاز، وألمحت إلى ذلك سابقاً، ولا تستطيع الباحثة هنا أن تعرض نماذج لكل اتجاه، ولكن ما تعرضه من نماذج قليلة يكفي لتعريف طريقة الكتاب في توظيف الإيجاز والإطناب في خدمة النص.

ومن هذه النماذج رسالة الفاضل التي أرسلها إلى ديوان الخلافة ببغداد يبشر فيها بفتح القدس، وفي هذه الرسالة يعرض الفاضل جهود صلاح الدين في فتح البلاد التي سبقت فتح القدس، وكيف رفع راية الإسلام خفاقة عالية، ونكس راية الشرك. يقول: "وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها، بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، البيضاء صنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها المستضاءة بأنوارها، إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح كذا وكذا وكذا"⁽²⁾.

وهنا نرى الفاضل يطنب في وصف الأمصار والمدن، والإطناب ضروري في الوصف، وهو أدعى إلى الجهاد، والسعي في فتح هذه البلاد. يلاحظ القارئ في هذا الجزء من الرسالة أن النص كله يدور حول فكرة واحدة، وهي هزيمة العدو وضعفه، ولكن الكاتب يقلب هذه الفكرة في قوالب لفظية متعددة، لكي تصل إلى القارئ واضحة، وكأن الكاتب لشدة انفعاله وفرحته، قد أحس أن الكلمات القليلة عاجزة عن التعبير عما يجول في خاطره من مشاعر وأحاسيس، ولذا فإبته أطنب، ووجد في معجمه اللغوي، وسعة ثقافته ما أسعفه في إطنابه.

ومن الأمثلة على الإيجاز، رسالة الفاضل إلى أحد الأمراء في قضاء حاجة قضائها له. يقول: "وقفنا على مطالعة الأمير -وفقه الله- وأحسن إليه، وجعل أبواب السعادة مفتوحة بين يديه، فأما ما ذكره من الانتصاب في قضاء حاجتنا، فما ازددنا خبرة بكفايته، ونهضته، وأمانته، وخير نيته، وهو مشكور" بلسان اهتمامه، ومذكور بماضي اعترامه⁽³⁾.

فالفاضل في هذه الرسالة يسلك سبيل الإيجاز، ويضرب صفحاً عن التفصيل، بحيث يترك للذهن فرصة عن التعبير عن الاعتراف بالجميل، وإسداء عبارات الشكر بحق صاحبها.

وهكذا استطاع الكتاب أن يستخدموا الإيجاز والإطناب استخداماً فنياً، كما استطاعوا بقدرتهم الفنية توظيفها في خدمة النص، محققين المتعة الفنية من العمل الأدبي.

أما المنشورات⁽⁴⁾ والمعاهدات⁽⁵⁾ فقد تراوحت بين الإطناب والإيجاز. وأما التقليدات⁽⁶⁾

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 336/2.

(2) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 168. ينظر: الدر النظيم - تحقيق أحمد بدوي: 25-26.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 235.

(4) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 139/5، ينظر: رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 232.

(5) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 89، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 115/7-116.

(6) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 89، ينظر: صبح الأعشى - القلقشندي: 146/10.

والتذاكر⁽¹⁾، ورسائل الوحدة والجهاد⁽²⁾، والاستجداء⁽³⁾ والبشرى⁽⁴⁾ فقد اتسمت بالتفصيل والإطناب، وربما تبلغ الرسالة الواحدة عشرين صفحة.

أما الرسائل الإخوانية، والنقدية عند الفاضل، فهي موجزة، ونادراً ما تطول⁽⁵⁾. أما رسائل الوهراني، وابن الأثير فقد تراوحت بين الإيجاز والإطناب، باستثناء المفاخرات، والمحاورات.

– أسلوب التهكم والسخرية

لجأ كتاب هذا العصر إلى أسلوب السخرية والتهكم في العديد من موضوعات رسائلهم في مختلف الأغراض فمنها التهكم على الغزاة، فوصفتهم بأوصاف قبيحة. كما تألفت هذه السمة في الرسائل ذات الطابع الاجتماعي على سبيل التهكم، ومعالجة الأمراض الاجتماعية بطريقة معبرة عن دخائل النفوس.

وتشير الباحثة إلى أن رسائل السخرية من الفرنج تعد الأكثر شيوعاً، وانتشاراً في هذا العصر، فهي من أكثر أساليب الحرب النفسية تأثيراً، وأشدّها وقعاً في نفوس الأعداء، فهي تشمل على وصف هزيمته، وما أصاب جنوده، ورعيته من قتل وأسر، وسبي، وفي ذلك "إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله"⁽⁶⁾.

وقد صورت الرسائل وخاصة القدسية، الفرنج قبل الهزيمة وبعدها، فالفاضل يصورهم مذلولين، مهزومين، ويعتمد في تصويره على المقابلة بين ما كان عليه العدو من قوة وعزة وغطرسة، وما آل إليه حاله من ضعف وهوان، فهو يصوره، وقد كان "ينعم بالثبات والاستقرار، وكأن الأرض حليفة له، وإذا به يصبح متعزراً شريداً"⁽⁷⁾. وكانت سيوفه ورماحه تنثر القلق في النفوس، وتورق الجفون، ولكن ذلك كله أصبح أثراً بعد عين، كما يبدو في قوله: "وقد أظفر الله بالعدو والذي تشظت قناته شققاً، وطارت فرقه فرقاً، وفل سيفه، فصار عصاً، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عدداً وحصى، وكلت حملاته، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان"⁽⁸⁾. والكاتب يعتمد في تصويرهم على التشبيهات والاستعارات، كما أنه يستغل عنصر الصراع في العقيدة، فيصور "نيوب الكفر مهتوماً"، مشخصاً الكفر، ويصور شجعان الأعداء على يقين من الفناء. فهم "لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء لهم نصرة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة"⁽⁹⁾.

ويصور قادتهم بأسلوب ساخر تهكمي، فهو يرسم صورة "القومص" لحظة فراره، ويركز في تصويره على الحالة النفسية التي كان عليها، وقد كتب له عمرٌ جديد، وأن يفر من برائن الموت، وهو غير مستوعب أنه

(1) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 89.

(2) الفتح القدسي- العماد الأصفهاني: 316-317، كتاب الروضتين- أبو شامة المقدسي: 320/2 وغيرها.

(3) الفتح القدسي- العماد الأصفهاني: 397، صبح الأعشى- القلقشندي: 26/7.

(4) الفتح القدسي- العماد الأصفهاني: 181، وينظر رسائل ابن الأثير- أنيس المقدسي: 149، رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 157.

(5) ينظر رسالة الفاضل إلى ابن الدهان- رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 34-37.

(6) صبح الأعشى- القلقشندي: 304/8.

(7) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 162-163.

(8) المصدر نفسه: 162-163.

(9) المصدر نفسه: 166.

نجا. يقول: "فنجأ، ولكن كيف؟ وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح، أو جناح السيف"⁽¹⁾.

ويتسم أسلوب العماد في رسائله بالميل إلى السخرية من الفرنج، وهي سخرية دافعتها كراهيته لما اقتترفه من جرائم بحق المسلمين، فحين ينهزم الفرنج، فإن العماد يبدع في رسم صور مضحكة لهم. ومن هذه الصور صورة الأسرى، فهم: "سكارى وما هم بسكارى"، مشدودين بالحبال، ممددين بالخبال، معروضين على الردى"⁽²⁾. وللمبالغة في تصوير ذلهم وهوانهم، فإنه يصورهم بتصدع بنيانهم، وهلاكهم بهلاك عاد، ويعبر عن ذلك بقول الحق -جل جلاله-: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ خَاوِيَةٌ﴾⁽³⁾. والمناسبة بين الحالين، بين حال الغزاة، وحال عاد واضحة. ويصورهم في موضع آخر بالشياطين والقردة، كما يقول في وصفهم: "ورجعت النفاطات شياطين الداوية المردة، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة"⁽⁴⁾. ويصورهم في رسالة قدسية أخرى "قد تعفروا تراب الذل، وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشترؤا به أنفسهم، فزعوا به من الخوف ملبسهم"⁽⁵⁾. ويصورهم قبل هزيمتهم بطوفون بالسيوف "لأرواء الأطباء الظماء من ماء الأرواح". ويصور الداوية في دويهم متلهفين للقتال. فيقول: "إذا الوجوه لقبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة"⁽⁶⁾.

ويصور العماد طاغية طرابلس بصورة ساخرة، فيصوره قلقاً مندهشاً، لأن "السيوف أسأرتة، وبفؤاده قلق من أوجالها، وفي عينيه دهش من أهوالها"⁽⁷⁾.

ويصور ابن الأثير العدو، وقد ضربت عليه الذلة والمسكنة، فلم يستطيعوا مدافعة المنايا، ولا مغالبة السيوف، ويصورهم بالجان من ناحية، كما يصورهم مستغيثين لما رأوا طلعة الإسلام مقبلة، ولكنهم كانوا كمن يستغيث في النار يوم القيامة⁽⁸⁾. ويصورهم تصويراً ساخراً متهمكاً، فزئيرهم أصبح "كأصوات البقر، والغنم، والأطباء"⁽⁹⁾.

واعتمد الكتاب أسلوب السخرية للحياة اللاهية، والانغماس في الشهوات، فجاءت رسائلهم مليئة بالتبكيك والنعي على أولئك الذين سلكوا ذلك المسلك الشائن القبيح. ويبدو هذا واضحاً في رسائل التولية

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 166.

(2) البرق الشامي العماد الأصفهاني: 129/3.

(3) سورة الحاقة آية: 7.

(4) الفتح القدسي - العماد الاصفهاني: 105.

(5) المصدر نفسه: 196.

(6) المصدر نفسه: 196.

(7) المصدر نفسه: 124-125.

(8) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 154.

(9) المصدر نفسه: 154.

والتقليدات، فهذه الرسائل تمثل في صيغتها الجادة جنسا من أجناس الرسائل، وهي تصاغ بلغة يغلب عليها الأمر كونها صادرة عن ديوان الإنشاء.

236

وقد مال بعض الكتاب منذ أواسط القرن الثالث للهجرة لمحاكاة هذا الجنس من الرسائل في مكاتبات هزلية، تختلف درجات المحاكاة فيها، لكنها تحيل كلها على الأجناس الجادة⁽¹⁾. ومن الأمثلة على ذلك رسالة الوهراني التي كتبها تقليدًا عن قاضي الفاسقين. وتتألف هذه الرسالة من مقاطع تماثل في بنيتها مقاطع رسائل التولية، إذ تتكون من جمل فعلية إنشائية يسندها الكاتب إلى نفسه، فيتمص وضع الخليفة: "هذا ما عهد قاضي قضاة الفاسقين، وناصر دين العاشقين، وإمام العصاة والمنافقين، فخر العلوق والمساخر، ذو القرنين الحاضر، مسخرة غلام أمير المؤمنين - أبقاه الله - للقيادة يتلو صحفها، ويصطفي تحفها، واللياطة ينصح علوقها، ويفتح مغلوقةا"⁽²⁾. إن صيغة "هذا ما عهد" ارتبطت في ذهن القارئ بسياق التولية الجادة، ولكن سرعان ما يفاجئ القارئ بإفراغ هذه الصيغة من قيمتها الحقيقية إلى صيغة هزلية. إن هذه الصيغة تحمل الجد، وأن يكون المخاطب قادرًا على تنفيذ ما جاء في التقليد. ويبدو التضخم والسخرية واضحين في مضمون التقليد، وذلك من خلال الإكثار من الصيغ التي تدل على الانفلات، من مثل اللياطة⁽³⁾. ومن الرسائل التهكمية الفكاهية، رسالة الفاضل التي وجهها إلى أحد الخطباء بدمشق، والفاضل في رسالته هذه يسخر من عاهته، وينتقد تصديه للفتيا بغير علم، ويتهمه بفساد عقيدته. يقول: "وكان من جهله يتعرض للفتيا، ويعد نفسه أثقب القوم رأيا"⁽⁴⁾. إن الكاتب يجعل السخرية هنا نابعة من نسبة هذه المعارف، والعلوم المتباينة إلى شخصية هذا الخطيب، فهو يصوره وقد اجتمعت فيه ضروب المقدرة والمعرفة والإحاطة والشمولية. إن رسائل الفاضل في السخرية في هذا النوع قليلة وموجزة، ونراه في هجائه الموجه إلى الأشخاص يبتعد عن الفحش والإقذاع. لكن الوهراني هو من أبدع أيما إبداع في رسم صور كاريكاتورية للمهجوين، تجعلنا نقف مستغرقين في الضحك ومندهشين من قدرته على صياغة معانيه وترتيب أفكاره. وهذا ليس بغريب على الوهراني، فقد اتسمت رسائله تارة بالنقد الاجتماعي اللاذع لبعض النماذج الإنسانية المقيتة التي يصورها تصويرًا بارعًا، بما عرف عنه من حدة الطبع، وفرط الإحساس، ولذع السخرية، وإظهار براعته الأدبية، وثقافته التاريخية تارة أخرى⁽⁵⁾.

(1) الرسائل الأدبية - صالح بن رمضان: 454.

(2) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 177.

(3) المصدر نفسه: 177.

(4) نفحة الريحانة - محمد أمين: 231/1-232.

(5) النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبيّة - مصطفى محمود زايد: 254.

ومن الشواهد على هذا المنحى، ما جاء في رسالته التي يصف فيها شخصاً وصفاً كاريكاتورياً غريباً. يقول: "فلم يشعر إلا والحائط الشمالي قد انشق، وخرج منه شخصٌ عجيب الصورة، ليس له رأس ولا رقبة ألبتة، وإنما وجهه في صدره، ولحيته في بطنه، فقامت إليه هيبة له،

وخوفاً على نفسي مني ومنه"⁽¹⁾.

الكاتب هنا يستعمل أسلوب التهويل والمبالغة في وصف شكله، وخلقه لإثارة السخرية منه، والتهكم عليه، والانتقاص من قدره. والوهراني في أسلوبه هذا يقتدي بالجاحظ في رسالته الموسومة "التربيع والتدوير". ولكن نفس الوهراني قصير، أما نفس الجاحظ فكان انفعالياً طويلاً، لما يوفره من فرصة كبيرة لإظهار معارفه في شتى أنواع العلوم.

* الصنعة الفنية

تبدو الصنعة الفنية جليلة كل الجلاء في رسائل هذا العصر، بيد أن هذه الظاهرة كانت بارزة في رسائل الكتاب من قبل⁽²⁾. وترى الباحثة أن هناك مجموعة من العوامل أدت إلى سيادة هذا الذوق القائم على الصنعة والتكلف، وأشار زكي مبارك إلى أن العناية بالبديع ارتبطت بالأدب العربي في مراحل تطوره ثم تزايد الاهتمام بالصنعة بشكل بارز وواضح في القرن السادس الهجري، وبلغ درجة عظيمة على يد القاضي الفاضل الذي قيل في طريقته: "إنها شريعة جديدة نسخت الشرائع القديمة في الكتابة حتى قيل الطريقة الفاضلية"⁽³⁾. يرى محمود رزق سليم أن عناية الأدباء والنقاد بدراسة أساليب القرآن الكريم وطريقة نظمهم، دفعتهم إلى اصطناع البديع⁽⁴⁾. كما أرجع عمر باشا بروز الصنعة إلى نضج العلوم البلاغية في هذا العصر⁽⁵⁾.

تأثر الكتاب بعد القاضي الفاضل بطريقته إلى أن أصبحت شائعة في المشرق الإسلامي، وفي مغربه⁽⁶⁾. وتأثر العماد الأصفهاني بطريقة الفاضل، فقد تبوأ منزلة عالية في مدرسة الصنعة اللفظية، كما يبدو من قوله: "وكننت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب الآية منسوبا، أعرف صناعته، ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي"⁽⁷⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما كان عليه حال الكتابة في القرن الرابع الهجري، فقد كان ابن العميد صاحب طريقة في الكتابة، مما دفع بعض الباحثين إلى جعل الفاضل يسير في نفس الطريق، ثم يطور في

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد شعلان وإبراهيم نغش: 153.

(2) الأدب في العصر الأيوبي - محمد زغلول سلام: 168-179.

(3) ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي: 323.

(4) عصر سلاطين المماليك - محمود رزق سليم: 358/6.

(5) الأدب في بلاد الشام - عمر باشا: 789.

(6) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية - عبد الجليل عبد المهدي: 384.

(7) حريدة القصر - قسم شعراء مصر - العماد الأصفهاني: 36/1.

طريقته تلك إلى أن أصبحت الطريقة الفاضلية أو المدرسة الفاضلية، حيث أوغلت هذه المدرسة في الزخرف اللفظي، وبخاصة التورية والجناس، ومن ثم أظهرت أساليبها المسجوعة موشاة أيضا بألوان البديع الأخرى من طباق ومقابلة فضلا عن ترصيعها بآيات القرآن، وقرر الأقوال وحكم الأمثال⁽⁸⁾.

238

وظهر إلى جانب هذه الطريقة طريقة أخرى تقوم على تحرر الكاتب من الإغراق في التصنع والتكلف، والتزم جانب الاعتدال في السجع والتجنيس والترصيع وغيرها من المحسنات البديعية الأخرى؛ لأن الاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع⁽¹⁾. وسار على هذه الطريقة ابن الأثير الذي ثار على مذهب التصنع والتكلف، وتقديم الألفاظ على المعاني، وحاول "إيجاد نظرية جديدة في السجع العربي"⁽²⁾، تقوم على أساس "أن السجع غير منهى عنه بل جائز شرعا؛ لأنه مستخدم في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي، ولكن الأصل في السجع هو الاعتدال في مقاطع الكلام، وأن يكون محمولا على الطبع غير متكلف حتى يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تهيا للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة، فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم"⁽³⁾.

وفي ضوء النظرة الفاحصة المتمعنة للنصوص تبين للباحثة ذلك التنوع في أساليب الصنعة الفنية التي لجأ إليها الكاتب، فالصنعة الفنية كما يقول أحد المعاصرين: "صنعة مسئولة يحكمها التواضع والشعور بخطر الكلمة التي يتعامل بها صاحبها، لذا فهو يحرص أن تخرج متقنة"⁽⁴⁾.

وهذه الصنعة المسئولة هي التي دفعت كتاب ذلك العصر إلى الاهتمام بألفاظهم، وجملهم، فقد كانوا يحرصون على إقامة التعادل والتوازن فيها، والاهتمام بآثافها مع قرائنها التي تجاوزها من أجل أن يحدث الإيقاع الموسيقي المطلوب.

1- السجع

بات من نافلة القول: إن السجع التزمه كتاب ذلك العصر، وأكثروا منه في كتاباتهم؛ ذلك لأن السجع كان أسلوبا عاما للكتابة عندهم، وقد التزمه معظمهم في الشعر والنثر على حد سواء، وربما تجاوزوا ذلك إلى فنون الكتابة الأخرى. يقول أحد الكتاب: "ولا شك في أن تصنع السجع أبرز ما في النثر من فنون البديع، وعليه كان اعتماد جل الكتاب، إذ كل كلام يخلو منه، ولا يأخذ كاتبه منه بحظ قليل أو كثير، خارج في عرف نقاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة"⁽⁵⁾.

ومن الجدير ذكره أن بعض فنون البديع كانت مما يستدعيه المعنى بل يفرضه، وينبع من القصد الذي تبني عليه الرسالة، وأن منها ما فرضته حالة الصراع مع الغزاة. ولما كان للرسائل ذات الاتجاه

⁽⁸⁾ بلاغة الكتاب - محمد نبيه حجاب: 197.

⁽¹⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 190/1-191-192-193.

⁽²⁾ أدب الدول المتتابعة - عمر باشا: 836.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 193/1.

⁽⁴⁾ البديع الشعري بين الصنعة والخيال - عبد القادر الرباعي - أبحاث اليرموك، م 243. 1985: 23.

⁽⁵⁾ أدب الدول المتتابعة - عمر باشا: 85.

السياسي نمط خاص متعارف عليه، فقد التزم الكُتّاب فيما التزموا في كتاباتهم بالسجع، مراعين بذلك ذوق عصرهم، لا سيما حينما كانوا يكتبون إلى الخليفة في بغداد أو إلى الحكام في سائر الولايات. ومن الرسائل التي التزمت السجع رسالة الفاضل إلى الخليفة في بغداد يبشره بفتح بيت المقدس، فالكاتب من بداية الرسالة اتكأ على السجع، كقوله داعياً للخليفة في بغداد: "وارد الجود والسحاب على

239

الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل، وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد⁽¹⁾. والقارئ للرسالة يلاحظ من مطلع الرسالة التزام الكاتب السجع، وإطالته فيه، وقد جاء سجعه طويل الفقرات، فهو يستخدم سجتين متساويتين إلى حدّ ما ثم سجتين أخريين، وهكذا. وقد جاءت كل سجة موافقة لصاحبها ليحدث بذلك التأثير الموسيقي المتتابع.

ونرى الفاضل يستخدم السجع القصير في رسائله، والسجع القصير عند ابن الأثير "ما كان مؤلفاً من لفظين إلى العشرة، وما زاد على ذلك فهو السجع الطويل، وهو ما يكون تأليفه من إحدى عشرة لفظة إلى العشرين، ومن السجع الطويل ما يزيد على هذه العدة، فهو ليس له ضابط"⁽²⁾.

ومن أمثلة السجع القصير رسالة الفاضل إلى عز الدين موسك، يخبره بفتح صلاح الدين، يقول: "فأما الفتوحات الناصرية فقد هطلت قطراً، بل جرت نهراً، بل جرت بحراً، بل درت دراً"⁽³⁾.

والباحثة ترى أن الكاتب يريد أن يهيئ أسماع قارئيه إلى ما يريد قوله لهم، بعد أن يحدث فيهم التأثير المطلوب، ولذا كانت سجعته في هذه الرسائل بمثابة هتافات بشرى يعبر من خلالها عن فرحته العظيمة لما حققه المسلمون من إنجازات في ميادين القتال، فهو، يقول: "وكانوا قد اجتهدوا في القتال، وصبروا على مر النضال ومر النصال، حتى أهدمتهم الصفاح، وأرقدتهم الجراح، فحينئذٍ لانوا بالأمان، وطلبوا ذمة سلطان الإيمان"⁽⁴⁾. وهكذا فإن الكاتب يحاول أن يحقق لجملة درجة عالية من الموسيقى تتناسب مع مشاعره وأحاسيسه، فالجمل ذات دلالة مزدوجة، فهي في ظاهرها تعبر عن حزن وألم لما حل بالفرنجة، وفي باطنها تعبر عن فرحة ونشوة بالنصر الذي حققه المسلمون على الأعداء.

وينهج العماد نهج الفاضل في الإكثار من استخدام الصنعة الفنية، والإسراف فيها خاصة السجع الذي أصبح هدفاً يسعى إليه ولا يلتفت إلى غيره، إلا بمقدار ما يخدم هذا الالتفات قضية السجع، فإنه في رسائله يبحث عن الألفاظ المسجوعة لا ليكشف بها عن جوانب الموضوع الذي يتحدث عنه، وإنما يأتي بها لخصائصها الموسيقية، ولمناسبتها للسجعة التي سبقتها حتى لو كانت غريبة أو بعيدة في المعنى، فنراه يقول: "في كتاب البشارة بالفتح القدسي إلى الديوان العزيز ببغداد، متحدثاً عن الفتح القدسي وآثاره، وعن آمانيات الحكام السابقين في فتحه:" وقد انقضوا على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه، وتناصرت

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 168، وينظر: الدر النظيم - تحقيق أحمد بدوي: 17، صبح الأعشى - القلقشندي: 497/6.

⁽²⁾ الملل السائر - ابن الأثير: 233/1-234.

⁽³⁾ رسائل عن الجرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 49.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 49.

عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشية الكفر فيه من الإسلام بالأنس⁽⁵⁾.

ويبلغ العماد في طلبه للسجع حد الإسراف في بعض المواقف، فنراه ينطلق دون ضوابط، ولا يقف عند حد مقبول، ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف كثرة الأمطار، واستدعاء العساكر للجهاد، يقول: "فدم الجذب مطلوب وروض الخصب مطلول، وسيف البارق مسلول، ونطاق الحياء محلول، وغرب المحل لضرب الوبل مغلول، والشمال مسحورة، والسحر مشمول، والآمال ظافرة والظفر.

240

مأمول⁽¹⁾. فالعماد ينسى الحديث عن استدعاء عساكر تقي الدين للجهاد، ويقع أسيراً لوصف المطر، والبحث عن صفاته المسجوعة ليحشد منها ما يستطيع.

ويأتي السجع عند ابن الأثير مقبولا غير متكلف ولا مسرف في التصنع، ويبدو هذا في المنشور الذي كتبه بإطلاق المكوس والمظالم في دمشق على لسان الأفضل، يقول: "وقد أمرنا بمحو اسمه، وإزالة رسمه، وأن يبدل عرفه بالإنكار، ويتوقى ذكره توقي الأعمار⁽²⁾

وينهج نهج ابن الأثير الناصر داود، ففي رسائله لا يعمد إلى التكلف والتصنع والتعقيد "ولعل ذلك يعود إلى أنه لم يكن في مثل مكانتهم الأدبية، ولم يسع للتأنق كما كانوا يصنعون⁽³⁾.

ويبدو هذا واضحا في الرسالة التي كتبها إلى الديوان العزيز، وجاء في مقدمتها "أعزّ الله سلطان العزيز النبوي، ولا زال عزمه الشريف، يستدرك فارط الأمور، وهممه العالية تصلح ما أفسدته الدهور، وسعيه الميمون في مصالح المسلمين هو السعي المشكور⁽⁴⁾.

ويسير على نفس النهج الوهراني في رسائله، فقد جاءت معظم سجعاته قصيرة ومتوسطة، وخاضعة للمعنى، تتفق مع ما ذهب إليه ابن الأثير في السجع⁽⁵⁾. ويبدو هذا واضحا في الرسالة التي كتبها إلى قاضي الفاسقين، يقول فيها: "إليك أيها القاضي الأجل فخر القيادة، وتاجها، قطب المعاصي وسراجها، عز العلوق وعمادها، ركن اللياطة وزنادها، جمال الفسقة وعينها، شرف الزناة وزينها⁽⁶⁾.

ومن ألوان السجع الترصيع، وهو "اتفاق ألفاظ الفقرتين من السجع في العدد والوزن والروي، وقد عده ابن الأثير من محاسن النثر ومثالب الشعر⁽⁷⁾. وخصه بعض البلاغيين بالشعر. وهو أحسن أنواع السجع وأعلىها⁽⁸⁾.

⁽⁵⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 519/6.

⁽¹⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 172/5.

⁽²⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 91-92.

⁽³⁾ بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية - عبد الجليل عبد المهدي: 389.

⁽⁴⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 95.

⁽⁵⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 193/1.

⁽⁶⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 177.

⁽⁷⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 255/1.

⁽⁸⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 176/13.

ومن أمثلته قول الفاضل في فاتحة رسالة تعزية: "واتصل بالخادم خبر الرزء الذي أقلق المضاجع، وأطلق المدامع، وأظهر الأشجان، وأسهر الأجفان، وأكمل البوس، وأعمد النفوس"⁽⁹⁾. ومنها ما ورد في رسالة الوهراني يصف شوقه إلى أحد الأمراء: "وعنده من الحنين ما يشيب الجنين"⁽¹⁰⁾. ويبدو واضحاً أن هذا النوع من السجع يزيد الكتابة حسناً ورونقاً، وهذا الحسن والرونق راجع إلى ما يحدثه من أثر موسيقي.

كما أن هذا النوع من السجع لم يطرد في رسائل كتاب هذا العصر، لأنه عادة ما يحول العمل الأدبي إلى زينة لفظية لا تخلو من التكلف. ومن ذلك أيضاً قول ابن الأثير في فصل من إحدى رسائله تتضمن تنقيف

241

الأولاد: "من قومٍ أود أولاده، ضرم كمد حساده"⁽¹⁾ فالألفاظ التي تتضمن ترصيعاً "قوم" بإزاء "ضرم" و"أود" إزاء "كمد" و"أولاده" إزاء "حساده".

ومهما يكن من أمر السجع في رسائل كتاب هذا العصر، فإنه كان يأتي وفقاً لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف، فهو مرتبط بحالتهم النفسية أشد ارتباطاً، فبينما نرى الكتاب يتأنقون، ويزخرفون، ويلتزمون السجع حينما يخاطبون الديوان العزيز أو أمراء المسلمين، فإننا نرى الفاضل يكتب إلى السلطان الناصر وهو على حصار عكا على سجيته مراعي الظروف الصعبة التي لا تحتل التألق والزخرف، فقد كان شغله الشاغل التخفيف عن السلطان، وحثه على الصبر، وبالتالي فإن رسائله إلى السلطان⁽²⁾، وهو على حصار عكا تتحلل من السجع؛ لأنها كانت تحمل طابعاً شخصياً في كثير مما ورد فيها.

2- الجنس

فقد أكثروا منه في رسائلهم مستغلين تماثل الألفاظ وتقاربها من أجل أن يدخلوا في بنائهم إيقاعاً له أثر في النفوس وعند دراسة هذه الظاهرة في رسائل كتاب هذا العصر، يمكن ملاحظة كثرة الجنس في رسائل البشرى؛ لأن هذا النوع من الرسائل يحتاج إلى نوع من الاستثارة، وشحن النص بطاقات تأثيرية لما يوفره الجنس من إيقاع وتأثير موسيقي، وحيوية وحركة في النص.

ومن الملاحظ أن الجنس يقل في الرسائل الإخوانية، وربما تخلو بعضها من الجنس تماماً. ومن الجدير قوله: إن الجنس "يحدث تناغماً أوسع وأشمل من السجع؛ لأنه لا بد أن يصدر عن عدة حروف، فيكون أشبه بتخت موسيقي تام مختلف الأدوات، متناسق الأصوات"⁽³⁾. وهذا التناغم والإيقاع الموسيقي، ينبغي أن يكون مرتبطاً بالمعنى، يقول منير سلطان: "وإذا لم يكن المعنى قد استدعى الإيقاع، وإذا لم يكن الإيقاع، ولید المعنى، فلا خير في هذا الجنس بين الكلمتين منفردتين أو في سياق"⁽⁴⁾.

⁽⁹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 205.

⁽¹⁰⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 161.

⁽¹⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 256.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 173/4.

⁽³⁾ فن الجنس - علي الجندي: 30.

⁽⁴⁾ البديع تأصيل وتحديد - منير سلطان: 77.

ومن الشواهد على هذا اللون البديعي، قول الفاضل في فتح بيت المقدس: "والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نورا هتف به الغرب بأن واره"⁽⁵⁾. فقد جانس بين لفظتي أنواره والتي بمعنى أضوائه، ولفظة بأن واره: أي أخفه. فالألفاظ التي جانس بينها الكاتب جاءت مقبولة غير متكلفة، فالمعنى هو الذي استدعى وجودها من أجل أن تعبر عما يريده بطريقة موحية معبرة.

وأدى الإلحاح في طلب السجع عند العماد إلى شيوع الجناس بكثرة في رسائله، ومنها رسالته التي كتبها إلى الديوان العزيز، عندما استولى الفرنج على عكا سنة 586هـ، يصف فيها أحوال المسلمين، يقول: "وما برحوا على مصابرة ومكابرة، ومقارعة ومعاقرة، ومكافحة وملافحة، ومواقعة، ومواقحة، ومطاحنة ومناطحة، وجلد على الخنادق التي طمت، ورمى في خروقتها التراب ورمته"⁽⁶⁾.

242

ويستخدم ابن الأثير الجناس بصورة غير متكلفة، ويبدو هذا من خلال ما ورد في رسالة له. يقول: "وقد جعل الله حرمه ملقى الجفان وملنقى الأجفان، فهو حمى لمن جنى عليه زمانه، وجار لمن بعد عنه جيرانه"⁽¹⁾. فقد جانس بين "ملقى" و"ملنقى" و"الجفان" و"الأجفان" باختلاف بعض الحروف.

ومنها ما ورد في رسالته إلى الديوان العزيز، يذكر فيها بضرورة الجهاد. يقول: "وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبي، وسيوفه قد تطلعت أن يقال لها: اضربي، ومواطن الجهاد قد بعد عهدا باستقصاء شأبيب النحور، وإنبات ربيع الذباب والنسور"⁽²⁾. فقد جانس بين "اركبي" و"اضربي" و"النحور" و"النسور". فالكاتب هنا يردد حروفا بعينها، مما أكسب النص اتساقا صوتيا وجرسا موسيقيا.

ومن أمثلة هذا الجناس رسالة الناصر داود يعظ فيها ابنه، يقول: "وتنتصب لعين نصبك أعلام طالما قطعت إليها المدى بالمدى"⁽³⁾، ويسكن عنك طلب لم تترك طلبه حقا سدى، وتفتح لفتح فتوحاتك أبوابا شارعة من الهدى"⁽⁴⁾. فقد جانس بين "المدى" و"المدى" و"سدى" و"هدى".

ومن صور الجناس التي استعملها الكاتب الجناس المركب، وفيه تكون إحدى لفظتي الجناس أو كلاهما، مركبة من لفظتين⁽⁵⁾. وقد يكون في تركيبين، والجناس المركب دال على التكلف، ومن أمثلة ذلك قول الفاضل: "فقد كان بخت الناصر في رد القدس أمضى فيه من سيف بخت ناصر"⁽⁶⁾. فقد جانس الفاضل بين كلمة بخت الناصر "صلاح الدين" وبين "بختنصر" الملك مع تغيير في بنية الكلمة، فيحولها من "بختنصر" إلى بخت ناصر.

⁽⁵⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 162.

⁽⁶⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 517.

⁽¹⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 247/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه: 247/1.

⁽³⁾ جمع مودية وهي الشفرة. لسان العرب - مادة: مدي.

⁽⁴⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 128.

⁽⁵⁾ سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي: 232، وينظر البديع في نقد الشعر - أسامة بن منقذ: 33.

⁽⁶⁾ الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 50.

واستعملوا في رسائلهم **الجناس المعكوس**، ومنه ما يكون عكس الألفاظ⁽⁷⁾. ويرى ابن الأثير "أن هذا الضرب من الجناس له حلاوة، وعليه رونق، وقد سماه قدامة بن جعفر "التبديل" وذلك اسم مناسب لمسماه؛ لأن مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدما في جزء كلامه الأول، مؤخرا في الثاني، وبما كان مؤخرا في الأول، مقدما في الثاني"⁽⁸⁾.

من الشواهد على هذا المنحى رسالة الفاضل إلى أحد الأمراء، يقول: "نشعر الأمير، أن الحامل لهذه الجملة فلان، وهو من كبار الأعيان، وأعيان الكبار، وخيار الرجال، ورجال الأخيار"⁽⁹⁾. ومنه قول ابن الأثير في فصل من كتاب يتضمن فتحا، يقول: "فكم كان في افتراء عذرة الحصن من افتراء عذرة حصان، وكم حيز به من سنان لحظ استرقه لحظ سنان"⁽¹⁰⁾.

243

وفي رسالة العماد الأصفهاني إلى الفاضل، يقول: "وأنا لا أمر خلف الصائح، وأمري خلف الفصائح، ولا أقلم ظفرا، وظفري بالقلم، وأسر بالعلم ولا أسير في العلم، وأوثر الإحياء لا للإماتة"⁽¹⁾. وأكثر الكتاب في رسائلهم من **الجناس الاشتقائي** أي استعمال ألفاظ تترد في جذورها إلى أصل لغوي واحد، ويبدو هذا واضحا في رسالة الاستنجد التي كتبها الفاضل، ويصور فيها إمدادات الفرنج المتواصلة إلى عكا، يقول: "فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرك ساكنها، وسار سائرها، وطار طائرها"⁽²⁾.

ومن الشواهد على هذا المنحى ما ورد في رسالة العماد الأصفهاني في وصف قلم "إن الخطية الحظية تخطب هدى الفتح للهدى، ولا تخطئ بالحتف في العدا، وتستعدي وتستدعي من الجهات للجهاد جموع الأجناد الأنجاد للإنجاد"⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب كانوا ينساقون وراء الجرس الموسيقي والزخرفة اللفظية، فتأتي رسائلهم متكلفة لا نلمح فيها ذلك التعانق بين اللفظ والمعنى، فيقع الكاتب أسيرا لألفاظه، وفي هذا يقول محمود إبراهيم: "وفي هذا أحيانا من الخطر ما فيه، إذ تصبح الكلمة هي التي تولد الفكرة، بدلا من أن تستدعي الفكرة الكلمة أو الكلمات المعبرة عنها، المحددة لها"⁽⁴⁾.

ومن الشواهد على هذا التكلف ما كتبه الفاضل إلى ابن سناء مستخدما لفظ السعيد، وهو لقب ابن سناء الملك للتوصل إلى الجناس، يقول: "وفي هذا اليوم السعيد، وصل كتاب القاضي السعيد إلى دمشق

⁽⁷⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 250/1، وينظر البديع في نقد الشعر - أسامة بن منقذ: 30.

⁽⁸⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 251/1.

⁽⁹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 143.

⁽¹⁰⁾ المثل السائر - ابن الأثير: 252/1.

⁽¹⁾ البرق الشامى - العماد الأصفهاني: 131/3.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 55/4.

⁽³⁾ البرق الشامى - العماد الأصفهاني: 176/5.

⁽⁴⁾ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - محمود إبراهيم: 202.

فوصل إلى العين منها إنسانها⁽⁵⁾. ومنها ما ورد في رسالة العماد الأصفهاني إلى الفاضل في طلب مملوك، يقول: "والمملوك واقف لا ناقد⁽⁶⁾، وشاهد لا شاهر، وفضال لا نصال⁽⁷⁾".

ومنها قول الفاضل: "فلله ساحران تظاهرا قلم ولسان، وكريمان تناظرا عين وجان، وكل أهدى وهدي، وأولى وأودى، وونا ودنا، وحلا وجلا، واستحق شكر الفضل⁽⁸⁾".

والقارئ يلاحظ أن الجنس توالي دون فواصل بين كلمتين متجانستين مما أدى إلى تحول اللفظ إلى زخرفة فنية متكلفة صاغ تحتها المعنى.

3- الطباق والمقابلة

تكأ الكتاب عليهما من أجل توضيح المعنى وتأكيده المراد؛ ذلك لأن الطباق والمقابلة بما فيهما من اجتماع الأضداد من شأنه أن يوضح ويبين ويجلي⁽⁹⁾.

244

وقد فرق جماعة من البلاغيين بين الطباق والمقابلة، وأسرفوا إسرافاً شديداً في التعريفات والتقسيمات⁽¹⁾. وخالف ابن الأثير كل البلاغيين الذين فرقوا بين الطباق والمقابلة فهما عنده يندرجان تحت مسمى واحد هو المقابلة، يقول: "فإنهم سمووا هذا الضرب من الكلام مطابقة لغير اشتقاق، ولا مناسبة بينه وبين مسماه، والأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة؛ لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين، إما أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس بضده، وليس لنا وجه ثالث⁽²⁾". وقد برز هذان اللونان البديعيان بروزاً واضحاً في الرسائل التي تصور صراع المسلمين مع الغزاة، ومع الخارجين على الوحدة الإسلامية. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة العماد مخاطباً الديوان العزيز شارحاً موقف الفرنج، وموقف المسلمين المتقاعسين، يقول: "وما ينقضي عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين⁽³⁾".

ومنها ما ورد في رسالة الناصر داود إلى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام يستجيشه لنصرة المسلمين، يقول: "فهو يوم ضرب فيه الكفر بجرائه، وتبخرت فيها بين أنصاره، وأعوانه، وزها على الإسلام برونق زمانه، وهو اليوم تقابلا فيه فأحجم الإسلام ثم تولى، واقتسما فيه بالسهمين، فكان سهم الكفر هو السهم المعلى⁽⁴⁾".

(5) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 288.

(6) النقف: كسر الهامة عن الدماغ. ينظر مادة "نقف" اللسان.

(7) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 131/3-132.

(8) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 93.

(9) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - محمود إبراهيم: 204-205.

(1) العمدة - ابن رشيق القيرواني: 15/2.

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 244/2.

(3) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 102/4.

(4) الفوائد الجلية - الناصر داود: 136.

ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير عند هزيمة الفرنج في وقعة حطين، يقول: "فعند ذلك أيد الله الإسلام بنصره، وأعاد إليهم يوم بدره، وولى طاغية طرابلس مَغْداً في فراره حاسداً للطير على مطاراه، وقد ألبسه الخوف ثوب السقم"⁽⁵⁾.

وتكثر المقابلة في رسائل المفاخرات؛ وهو أمرٌ مسوغ له ذلك أن المفاخرات تقوم على سياقات حوارية تعتمد المفاوضة والمقارعة على السنة المتفاخرين، فالمقابلة في هذا اللون من الرسائل تخدم غرض الكاتب في ذكر محاسن الأطراف وعيوبها، ومن ذلك رسالة الأزهار التي كتبها ابن الأثير، وأجرى فيها حواراً بين الأطراف المتفاخرة، يقول على لسان النرجس: "أنا عيون الرياض الناضرة، والبشير بمقدم طيب الزمان". فيرد عليه الأفيون قائلاً: "وأنت أعجمي الاسم، والعجمة ضربٌ من الالتباس، ولو لا خبث طويتك لما كتفت، ولو لم يلحق بك الماء ذبلت وتلفت، ولا تستخدم إلا صاغراً قائماً"⁽⁶⁾.

وترد المقابلات في رسائل الوصف، وخاصة في وصف نزول الغيث بعد جذب شديد، ومن الأمثلة على ذلك رسالة الناصر داود، يقول: "وكتابي هذا ومظان المياه قد عادت بحارا، وعرانين الجبال قد تفجرت عيوننا، وتحدرت أنهارا"⁽⁷⁾.

وترد في رسائل الطرديات، ومن الأمثلة على ذلك رسالة الفاضل في وصف غزال اقتنصه

245

فرخشا في رحلة صيد، يقول: "وشهد أن الله حَرَمَ إلا عليه حملها، ويضرب بها حتى تنثني كما تنثته، ويبني بها المجد، فيا للعجب لهدمها وإن بنته"⁽¹⁾.

واستخدم الكتاب المقابلات في المنشورات والتقليدات، فأدت وظيفة الاستقصاء والشمول، ومن ذلك ما ورد في المنشور الذي كتبه الفاضل على لسان صلاح الدين إلى بغداد مُعَرِّضاً بمواقف بعض الأمراء الزنكيين، يقول: "واشتهرت للمسلمين عورات، وضاعت ثغور، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين"⁽²⁾.

وتؤدي المقابلات وظيفة المبالغة والتهويل، ومن ذلك وصف العماد للمنجنقات، وهي تلك أسوار القدس، يقول: "فنصبنا عليهم منجنقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها، وأن ركوعها بسجود الأبراج في إجبارها"⁽³⁾. إن التقابل هنا بين الركوع والسجود له دلالة واضحة على قوة الذخيرة التي استخدمها المسلمون في هَدِّ أبراج العدو، وهو رمز لقوة المسلمين، وهزيمة الغزاة.

وترد المقابلات في الرسائل ذات الطابع الوجداني، ولكنها بنسبة أقل من الرسائل ذات الطابع السياسي، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة ابن الأثير في التهنية بالبرء من مرض، يقول: "ولما

⁽⁵⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 68.

⁽⁶⁾ رسالة الأزهار - تحقيق هلال ناجي: 8.

⁽⁷⁾ الفوائد الجلية - الناصر داود: 110.

⁽¹⁾ إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 92.

⁽²⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 367/2.

⁽³⁾ الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 197.

وصل خبر العافية، مرت قلوب كانت طائفة، ورقدت عيون كانت ساهرة، وعادت مسرات كانت عازبة، ووجبت نذور لم تزل في معالي مولانا واجبة⁽⁴⁾.

4- التورية

هي من الفنون البديعية التي شغلت حيزا في الدراسات البلاغية. وقد أجمع البلاغيون على أن التورية هي "أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، ويراد البعيد"⁽⁵⁾.

وقد عدها الشهاب الحلبي ضرباً من التخييل⁽⁶⁾. ويرى الصّدي أن القدماء لم يكونوا يعنون بهذا الفن كثيراً، ولكن المتأخرين شغفوا به، يقول: "وأما فن التورية فما تنبه لمحاسنه لما تيقن وتيقظ، وتحري وتحرز، إلا المتأخرون من الشعراء والكتاب، ومن تضلع بالعلوم، وتطلع في كل باب"⁽⁷⁾. ويرى أن الفاضل ممن ذلل صعابها، وأنزل الناس بساحتها ورحابها حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره، وأصحابه⁽⁸⁾ وتابعه ابن حجة في رأيه⁽⁹⁾.

ويرى شوقي ضيف أن تمجيد العماد الفاضل هو الذي دفع الصّدي وابن حجة الحموي ليجعلا

246

للفاضل قصب السبق في التورية⁽¹⁾. وبعض النقاد من جعل للفاضل قصب السبق في نقل التورية من الشعر إلى النثر، وخاصة النثر في مصر⁽²⁾. ولكن الفاضل -كما يرى- شوقي ضيف كان مسبوقاً في إدخال التورية إلى النثر في مصر، ويعلل ذلك بقوله: "إن هذا اللون عُرف في مصر منذ أوائل القرن الخامس، وكل ما يمكن أن يقال إنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر"⁽³⁾. ويرى محمد كامل أن التورية أصل من أصول الفن البديعي عند الفاضل في النثر والشعر⁽⁴⁾. وقد بالغ محمود مصطفى في قضية إكثار الفاضل من التورية في رسائله، إذ جعله يلتزم التورية في كل مناسبة⁽⁵⁾.

وفي ضوء تفحص النصوص بين يدي الباحثة، تبين أن الفاضل وغيره من كتّاب هذا العصر لم يلتزموا التورية في كل مناسبة بل جاء ورودها في رسائلهم بشكل قليل ونادر. ومن الشواهد على هذا اللون البديعي في رسائل كتّاب هذا العصر، رسالة الفاضل التي كتبها شفاعاً إلى أولاد صلاح الدين في رجل توفي، وعليه ديون، يقول: "فبهذا عُرفتُم بأهل المعروف من آل أيوب، ولذا كان يوسفكم -رحمه الله-

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 89.

(5) البديع في نقد الشعر - أسامة منقذ: 60.

(6) حسن التوسل - شهاب الدين الحلبي: 121.

(7) فض الختام عن التورية والاستخدام - الصّدي: 121.

(8) حسن التوسل - شهاب الدين الحلبي: 124.

(9) حزانة الأدب - ابن حجة الحموي: 67.

(1) الفن ومذاهبه في النثر العربي - شوقي ضيف: 373.

(2) المصدر نفسه: 373.

(3) المصدر نفسه: 373.

(4) دراسات في الشعر في العصر الأيوبي - محمد كامل حسين: 126.

(5) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي - محمود مصطفى: 314.

يقضي كل حاجة في نفس يعقوب"⁽⁶⁾. فالتورية في كلمة "يوسف" فهي ذات مدلولين، مدلولها القريب يوسف النبي عليه السلام. ومدلولها البعيد صلاح الدين. إن الاتحاد بين المدلولين له ارتباط بالسياق، فالربط بينهما أدعى إلى تحقيق الهدف من النص. ومنها ما ورد في رسالته إلى والد ابن سناء الملك، وكان مريضاً. يقول: "وأنا مع ذلك مريض الوصف يدارسني المرض باب التوكيد، وأدارس العافية باب العطف"⁽⁷⁾.

فالتوريات: الوصف، والتوكيد، والعطف، هي أبواب معروفة في علم النحو، وهي الدلالة القريبة. أما الدلالة البعيدة فهي المعاني المعجمية لهذه الكلمات، وهي معاني تكشف عن شدة المرض، وعن أمله في حصول الشفاء والعافية.

ومن التوريات، ما ورد في رسالة ابن الأثير يصف شخصاً بمعالي الأمور، يقول: "إذا شهد حرباً كان منصورها، وإذا لقي مهجة خطب كان سفاحها"⁽⁸⁾. فالتورية هنا في "منصورها" و "سفاحها" فالمنصور والسفاح لقباً لخليفين من بني العباس. وهو المدلول القريب، أما الدلالة البعيدة، فهي المنصور في حومة الحرب، والسفاح لدم الخطوب.

ومنه قوله في وصف كريم: "ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إني استبدلت به أهلاً ووطناً، وعهدي بالأيام، وهي من الإحسان فاطمة، فاستولدتها بجواره حسناً"⁽⁹⁾.

247

وهذه تورية لطيفة - كما يقول - فإن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - والحسن - رضي الله عنهما - ولدها، وفاطمة هي اسم فاعل من الفطام، يقال: فطمت فهي فاطمة، كما يقال فطم فهو فاطم، والحسن هو الشيء الحسن الأسلوب"⁽¹⁾.

إن النماذج التي عرضتها الباحثة تشير إلى أن كُتّاب هذا العصر لم يكتفوا من التورية في رسائلهم؛ لأن المسلك إلى هذه المعاني وتصحيح المقصد فيها عسر جداً، لا جرم أن الإجابة فيها قليلة كما يرى ابن الأثير⁽²⁾. ويرى نفس الرأي شوقي ضيف، يقول: "ونحن لا نستطيع أن نزعج بأن هذا العمل مذهب جديد للقاضي الفاضل، فهو ليس أكثر من لون من ألوان البديع، وجد مستخدماً قبله عند الشعراء الفاطميين فأدخله في نثره"⁽³⁾.

* الصورة الفنية

(6) الفاضل في كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 37.

(7) فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 279.

(8) المثل السائر - ابن الأثير: 195/2.

(9) المصدر نفسه: 195/2.

(1) المثل السائر - ابن الأثير: 195/2.

(2) المصدر نفسه: 195/1.

(3) الفن ومذاهبه في النثر العربي - شوقي ضيف: 375.

اهتم النقاد بالحديث عن الخيال وأهميته ودوره في العمل الأدبي، وعَدَّوه عنصراً هاماً من عناصره، يقول شوقي ضيف: "الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها تختزنها، وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها"⁽⁴⁾.

فالصورة هي طريقة خاصة من طرق التعبير، ولذا فهي من أهم الوسائل المعنية للأديب؛ لكي يعبر عن تجربته وعواطفه، وحتى تحقق الصورة غايتها المنشودة تلك، فإنها تتطلب تألف الصور الجزئية في العمل الأدبي، لتكوّن الصور الكلية التي هي تجربة، وتنقلها نقلاً فنياً واقعياً صادقاً⁽⁵⁾. وتجدر الإشارة إلى أن عناية الكتاب في رسائلهم بالتصوير والخيال يقربها من القصائد الشعرية، إذ تتشابه الأساليب في القصيدة والرسالة بسبب انحراف اللغة في كليهما عن أداء وظيفة الإدراك والمعرفة، وهي وظيفة عادية إلى وظيفة التأثير والتأثير الانفعالية⁽⁶⁾.

وقد رأي عدد من النقاد في الصورة الشعرية سر التفوق عند المتأخرين⁽⁷⁾. وهي الصورة التي تقوم على التشبيه والتمثيل والاستعارة، وأن من مظاهر عنايتهم بالصورة تصنيف كتب عديدة في التشبيهات الغريبة، وهذا يدل على اهتمامهم بالصورة الأدبية التي أخذت تسيطر على الذوق العام في ذلك العصر. وقد استشهد "ابن حجة الحموي" في مجال التشبيهات الغريبة، بتشبيهات الفاضل، ويعده ابن حجة "إمام هذه الصنعة"⁽⁸⁾.

248

إن الناظر في رسائل هذا العصر، يرى بوضوح ظاهرة ازدهار الصور، واكتناظها، فالكتاب يتكوّن بصورة واضحة على الخيال بأنواعه المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، بعد أن يركبوا منها صوراً كلية متضامة متناسقة⁽¹⁾؛ لكي يتخذوا منها وسائل للتعبير عما يختلج في نفوسهم من مشاعر وأفكار، وإيصالها إلى المتلقي بصورة معبرة مؤثرة حتى غدت رسائلهم معرضاً غنياً بالصور الفنية المتنوعة؛ ذلك لأن الفن من غير هذه الألوان يصبح كتلة جامدة لا أثر للحياة فيه.

- مصادر الصورة الفنية

تنوعت مصادر الصور الفنية في هذا العصر وتعددت، وهو تنوع ينم عن سعة خيال الكتاب، وقدرتهم على الربط بين أفكارهم ومعانيهم وموضوعاتهم، وبين ما يستلهمون خيالهم فيه، وما توحى لهم بيئتهم وثقافتهم. وتعود صورهم إلى روافد متعددة:

* الطبيعة

⁽⁴⁾ في النقد الأدبي - شوقي ضيف: 167.

⁽⁵⁾ النقد العربي الحديث ومذاهبه - محمد غنيمي هلال: 47.

⁽⁶⁾ الصورة الشعرية في الكتابة الفنية - صبحي البستان: 32.

⁽⁷⁾ فن الشعر - إحسان عباس: 24.

⁽⁸⁾ حزانة الأدب - ابن حجة الحموي: 174-175.

⁽¹⁾ أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل - حلمي عبد الفتاح: 203.

وجد الكتاب في عناصر الطبيعة المحيطة بهم مدادا لكثير من الصور التي كانوا يبتكرونها، ويُعدّ هذا المصدر من أغنى المصادر التي عوّل عليها الكتاب في هذا العصر في تشكيل صورهم، وهذا ليس غريبا فالعلاقة بين الإنسان وبيئته قائمة على التفاعل المستمر، وعلى التأثير والتأثر. فالطبيعة "بكل ما تتطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكونات الصورة، ولكنه لا ينقلها إلينا في تكوينها، وعلاقاتها الموضوعية، إنه يدخل معها في جدل، فيرى منها، أو تريه من نفسها جانبا"⁽²⁾.

وقد أضاف الكتاب على مظاهر الطبيعة من خيالهم، فبثوا فيها الحياة والحركة، وخلعوا عليها الصفات الإنسانية، فنرى الورود والأزهار تتناقش، وتتهامس، ونرى النيل المصري يكسو الفضاء ثوبا فنياً بجماله⁽³⁾. فوصفوا الرياض والمنتزهات والأشجار والليل والمطر والكواكب، والحيوانات والطيور وغيرها، كل هذه المظاهر كانت مصدرا أساسيا من مصادر الصورة عند الكتاب. وكانت الأرض مصدراً أساسياً من مصادر الصورة عند الكتاب، فعندما يسقط عز الدين فرخشاہ عن ظهر فرسه في رحلة صيد، فبرزت الأرض أمّا رعوماً تتلقاه، وتحتضنه. يقول: "ولئن نبا به السرج القلق، فلقد تلقته الأرض التي مهّدها، وضمنها مهادهما المطمئن الوثير"⁽⁴⁾. والبحر عند ابن الأثير ليس معادلاً للكرم، ولكنه دليل على قرب النصر، يقول من رسالة له يصف فيها قتال المسلمين على عكا: "وقد أصبح النفر منه ومن البحرين بحرين من ماء حديد يتألق، وفيض ماء يتدفق، فهذا يقذف بعجابه، وهذا يقذف بأمواجه"⁽⁵⁾.

249

والبدر عند الفاضل ليس المعادل لوجه المحبوبة، بل هو كلمات الكتاب الذي أرسله إليه الملك العزيز. يقول: "ورد على المملوك أدام الله أيام المجلس، مثال شريف تقلد منه صارماً لا ينبو غرار، واجتلى منه بدرًا محا آية الليل إسفاره"⁽¹⁾. وتتكرر الرياض والنباتات كثيرا في صور الكتاب، فكثيراً ما قارنوها بخلق ممدوحهم، من ذلك ما رُود في رسالة للفاضل: "ولا برج عاليا جدّه، موفقا قصده، ما نم النسيم بأسرار الأزهار، ورقصت قصب الغصون على غناء الأطيّار"⁽²⁾.

وهذه صورة جملة مستمدة من طبيعة بلاد الشام ومصر، وتتم عن ثقافة واسعة، كما أنها تشي بالمكانة المرموقة التي تمتع بها الكاتب في دولة صلاح الدين، فهو يشبه همته وجده في محاربة الفرنج بالنسيم العليل في دهائه وذكائه، وحسن تصرفه، فالأشجار تتراقص على غناء الأطيّار، وكأنها في

⁽²⁾ الصورة والبناء الشعري - محمد حسن عبد الله: 33.

⁽³⁾ الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 10.

⁽⁴⁾ إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 63.

⁽⁵⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي: 70.

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 44-45.

⁽²⁾ الدر النظيم - اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر: 55.

مهرجان صاحب حافل في الصوت والحركة واللون، حيث الحركة تعانق الغصون كأنهار راقصات يتميلن على أنغام شدة الأطيوار. وحيث اللون في خضرة الغصون.

ومنها ما ورد في رسالة ابن الأثير. يقول: "فوردنا من المكان أطيب مورد، ووضع بين أيدينا من الزهر الغض ما يفعم ناشقه، ويثني على صنّع خالقه، من كل زهرة ضمها النسيم إليه، فأكثر من قبلها، وخمش خدّها فزاد في خلجها، وبكاها الغيث فأسرعت الأيدي إلى قطافها"⁽³⁾.

ففي هذا الجزء من الرسالة صور بديعية جميلة، فالمكان لجماله، وحسن تنظيمه نزهة للناظرين، وبهجة للمتأملين، زينتها الزهور، إذ يشبه الكاتب الزهور بالفتيات اللواتي يرتدين أردية مزركشة، ويرفلن بملابس أنيقة، وهذه الزهور في حركتها تشبه حركة الغيوم في سماء المدينة، والسحب حين تغطي كثافتها أحياناً، وتخف أحياناً أخرى، كالمرأة تتلحف بغطاء يستر جسمها، وإن نزعت بان حسناتها وجمالها، وهذا هو حال هذا المكان الجميل.

ومنها ما ورد في رسالة للعماد يصور الثلج بصور يعتمد في تشكيله على التشخيص، والاستعارة. فالسنة التي يتحدث عنها العماد يصورها بصورة امرأة قدمت حسناتها، وفتحت عيونها، فغسلت بمائها أسنانها وسننها، وصور السحب حوامل وضعت أجنتها، فتهبأت الأرض لتزخرف جنتها، وسحب السحاب ذيل سيله فشرق وغرب، وصور رؤوس الجبال المكتسية بالثلج الكثيف بالرأس الذي علاه الشيب بغزارة، وصور السماء وقد غارت على الشمس فأخفتها بالسحب، وقد غارت على غزاتها فدلّت سجد المزن دونها، وصانعتها في خدر الحفر فكم تبدل مصونها"⁽⁴⁾.

إن المنتبج لباقي أجزاء الصورة في هذه الرسالة يدرك أن العماد أراد أن يظهر قدرته وبراعته في تصوير الطبيعة، وهي قدرة لا تقل بحال من الأحوال عن قدرته في تصوير الموضوعات الحربية.

250

ويفيض وصف الطبيعة بالصور الحركية، غير أن الحركة فيها ناتجة عن تتابع الجمل الفعلية التي يتخللها شيء من الفنون البيانية، ومن ذلك تصوير ابن الأثير برد مدينة ملطية وتلجها، وما عاناه منها، فقد كان شديد الضيق من قسوة الطبيعة، فنقل مشاعر الخوف التي انتابته عندما تساقط الثلج بكثافة فصوره بصورة الموت الزؤام، يقول: "وابرز الموت الأحمر في صورة بيبضاء"⁽¹⁾.

وظلت التشبيهات تتردد في سطره، فالفاضل يصف بلاغة رسالة بعثها إليه أحد أصدقائه، فيقول: "وكل سطر روضة، وكل معنى غدير، وكل ألف غصن، كل همزة حمام، وفيها وفيها، وأخاف أن أقول ولا أوفيها"⁽²⁾. فالكاتب يقرن الحمام بالروضة والغصن والغدير في مجموعة من الصور المتتالية تبعث الحيوية والحركة في الصورة.

⁽³⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 74.

⁽⁴⁾ البرق الشامى - العماد الأصفهانى: 170/5-171.

⁽¹⁾ ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 105.

⁽²⁾ المختار من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 29.

بيد أن الحركة في الطرديات تبدو أكثر بروزاً؛ لأنها تصور مشاهد المطاردة أو عملية القنص، والإطناب في وصف الطيور والحيوانات. ومن ذلك وصف ابن الأثير كلاباً صيدية وفي طريقة صيدها لفريستها، يقول: "فكل ما نظرته عينه فهو صائر إليه، ومنقلب تحت حكم يديه، كأنما كتب الفلج على جبينه، وجعلت المنية تحت يمينه"⁽³⁾.

وكانت الغزلان والفهود والشوادر والشواهين من عناصر تشكيل الصورة عند الكتاب، يقول ابن الأثير: "وقد انسحب على ذيل هؤلاء عصبة تحمل عصابة من الفهود مخطفات الخصور، مجدولات القدود، من كل فهد لها خطر وأثر"⁽⁴⁾.

وقد تُمزج الصورة الفنية بعنصري الحركة واللون، مما يُضفي تأثيراً جمالياً واضحاً على النص، غير أن العناية بالألوان في رسائلهم نادرة فيما وقفت عليه على الرغم من اهتمامهم بالصناعة البديعية. وتتركز العناية بالألوان في الطرديات، وفي وصف الحيوان والطيور، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة ابن الأثير في الصيد بالفهود، يقول: "وتحتهم خيولٌ كالظلمان، وإن قصرت في الوصف، قلت كالعقبان من كل أشهب كالقرطاس، أو أدهم حندسي اللباس، أو أشقر كالمرجانة، أو أصفر كأنه حوزانة"⁽⁵⁾.

* الإنسان

ومن مصادر الصورة عند كتاب هذا العصر الإنسان بصفاته وأعضائه وجسمه، وبيئته الاجتماعية وظواهرها المتعددة، فترى الإنسان، وكل ما يتصل به من صفات وأحوال وأعراض له أثر في تشكيل الصورة في رسائل الكتاب. فالفاضل يستعير للأقلام التحادث، وللإسلام الابتسام، يقول: "وتتحدث عن آياته الألسنة ونياته الأقلام، يوم ابتسم عن عزه الإسلام"⁽⁶⁾.

251

ومن أعضاء الإنسان التي ساهمت في تشكيل الصورة في رسائل هذا العصر الأنف، والعين، والأنامل، واليد، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة الناصر داود مبشراً فيها بنصر المسلمين، يقول: "كلمتهم ألسن الصفاح بفصيح أقوالها، وأشارت إليهم أنامل الرماح بسلاميات⁽¹⁾ نصالها، وامطر أنف الحرب حتى ظل أنف الخطي⁽²⁾ منهم راعفاً"⁽³⁾.

وأوضحت المجانيق عند العماد "كأنها المجانين، والمنايا أمهات الدواهي، وحوامل تلد البلايا"⁽⁴⁾. كما أن "وجوه الصوّارم تبكي وتضحك"⁽⁵⁾. وأجمل ما في هذه الصورة وصف المنجنيقات بالحوامل، ومن

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 104.

(4) المصدر نفسه: 98-99.

(5) المصدر نفسه: 98.

(6) الفاضل في كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 24.

(1) جمع سلامية: وهي الأتملة من الأصابع. لسان العرب - مادة: سلم.

(2) الخطي: الرمح، والنسبة إلى "الخط" مدينة في اليمامة أو هي ميناء في البحرين. لسان العرب - مادة: خطط.

(3) الفوائد الجلية - الناصر داود: 120.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 125.

المعروف أن الحمل للمرأة، بيد أن الكاتب هنا يجعله للأشقياء، فيشبهها بالمرأة الحبلية، وقد خرجت عن طوع الدين، فارتكبت جريمة الزنى، فحملت حملاً غير شرعي، مما يحتم ضرورة إسقاط هذا الجنين، خوف أن يجلب العار لأهله. وهذا هو حال الفرنج الذين هاجموا ديار الإسلام، وعملوا على فرقة الأمة وتشثيتها. مما يستوجب ضرب قوتهم بهذه الآلة المدمرة التي تقذف بالبلايا.

ونرى الوهراني يجسد جامع دمشق بالحاكم الذي تتجه إليه الجوامع الأخرى، تشكو إليه قلة الاهتمام بها وإهمالها.

فالكاتب أنزل الجوامع منزلة الخطيب الذي يواجه جمهوراً يشرح لهم سوء أحوال الجوامع، وما عانت من خراب، يقول: "وينهون إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمال، وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان، وقد فزعنا أيها الملك إلى بابك، وأوينا إلى جنابك فافعل معنا ما هو أولى بك"⁽⁶⁾ ويبدو أن المرأة، كانت تشكل رافداً من روافد الصورة في هذا العصر، فقد كانوا يكررونها كثيراً في رسائلهم، وبدأ في رسالة الفاضل التي كتبها إلى ابن سناء الملك أنه يخلع على القصيدة بعض صفات المرأة، فهي كالعروس تقضي إلى زوجها بسرّها. يقول: "ما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها في الهناء، والأمر غير الواقع، وبالوصول إلى مصر، تبهرتها فغرقت في بحرّها وتحليت من درّها، ونادتني ببشر وجهها لما جلّت وجه بشرها وطويتها ونشرتها حتى رقيت لها مما رقت بطيها ونشراها"⁽⁷⁾.

إن القارئ يلحظ عنصر الحركة في الرسالة لأن له دوراً مهماً في تشكيل الصورة الفنية عند كاتب هذا العصر.

وشكل تبرج المرأة وسفورها عنصراً من عناصر تشكيل الصورة عند الفاضل يقول: "والله المسئول في أن يجعل أجرها موفوراً، ويزيد دواعي التسلي تبرجاً وسفوراً"⁽⁸⁾. كما استخدم الكتاب بعض أدوات الزينة التي تستخدمها المرأة كالسوار والخلخال، فالعماد يجعل من

252

إحاطة المسلمين بسور الفرنج "وأحاطت الجماعة بالسور المحكم إحاطة السوار بالمعصم، والخلخال بالمخدم، بل أحدقت به إحداق الأجفان بالحدقة، والسياح بالحديقة"⁽¹⁾.

وتأتي بيئة الإنسان الاجتماعية وظواهرها المتعددة والمتعلقة بالإنسان رافداً آخر من روافد الصورة الأدبية التي استوحاها الكاتب في رسائلهم، كالتصافح، واللباس، والاستقبال، والرقص والغناء، ومن ذلك تصوير العماد المعول الذي ينقب الأسوار يغني، والأسوار ترقص للاضطراب لا للإطراب، وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب⁽²⁾.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: 569.

⁽⁶⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 62.

⁽⁷⁾ فصوص الفصول - اختيار ابن سناء الملك: 257-258.

⁽⁸⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 206.

⁽¹⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 182/3.

⁽²⁾ الفتحة القدسي - العماد الأصفهاني: 202.

ومنها تصويره الجند مصافحة الصفائح، يقول: "وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضى من أبيها، وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرفات فهتمتها"⁽³⁾.

ومن الصور التي استمدوها من بيئتهم الاجتماعية الأفراح والأحزان، فنرى العماد يشبه السفن بالعراس والأوانس، يقول: "وما أحسنها وقد زُفت عرائس، وجليت أوانس"⁽⁴⁾.

* العسكرية

وكانت من أبرز الصور الفنية التي برزت في الرسائل الجهادية التي صورت المعارك بين المسلمين والفرنج، وقد تقدم القول في الفصل الثاني من هذه الدراسة: أن الكتاب اهتموا بتصوير المجاهدين والغزاة، وحصونهم قبل الفتح وبعده، وعنوا بتصوير أحداث المعارك، وما انجلت عنه من قتل وأسر في صفوف الغزاة، وصوروا الأسلحة والأساليب القتالية، من حصار وزحف وهي صور شارك في رسم ملامحها الفنون البيانية كالتشبيه والاستعارة والتشخيص والتجسيد. وستقف الباحثة عند بعض هذه الصور كونها قد تحدثت عن ذلك كله بالتفصيل في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

منها قول الفاضل في التذكرة التي كتبها، يعدد ما لصالح الدين من أيا، ويطلب من الخليفة تقليدا: "بها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل كلهم أعتام أعجام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾"⁽⁵⁾⁽⁶⁾. فالفاضل يشير إلى الثورة التي قام بها أنصار الدولة العبيدية، وتحالفهم مع الفرنج، واجتماع السودان حولهم لإعادة دولتهم، فقد شبه السودان بالأعتام ثم تم توشيح الصورة بالنص القرآني وهذا له دلالة واضحة في إبراز صورتهم بصورة مشينة بعيدين عن الوعي والفهم والفتنة. وفي موضع آخر من التذكرة يشبه أقلام كتاب تلك الدولة في قوتها بقوة حدّ النَّصَال، فهو يبرز الأثر الذي تتركه الكلمة في النفوس. يقول: "ومن بين كُتَّاب أقلامهم تفعل فعل الأسل"⁽⁷⁾.

253

ويعمد ابن الأثير إلى التشخيص حينما يجعل المنجنقات، وكأنها ناطقة تبين عن فعالها بكل جلاء، وهي ذوات ألسن تبدو بلاغتها ناصعة البيان. وهي في عملها ما تشبه المعجزات، يقول: "واتفق الرأي على لسان المنجنق في خطبة عقيلية أبلغ خطابا، وأدى من المطلوب طلابا، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دماءً، كما انبجست عيون الحجر ماءً"⁽¹⁾.

وتتجلى براعة الكُتَّاب في تصوير منعة الحصون، وعلوها الشاهق، وقد استعملوا لذلك صورا تدل على الارتفاع والعلو، ومن ذلك وصف قلعة غزة "ولها قلعة أنفها شامخ في الهواء، وعطفها جامع عن

⁽³⁾ المصدر نفسه: 202.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه: 388.

⁽⁵⁾ سورة الفرقان آية: 44.

⁽⁶⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 96-97.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 96-97.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 150.

عطفة اللواء، قد أوغلت في الجو مرتفعة، وأومضت في الليل ملتمة، وبرداء السحاب ملتفة⁽²⁾.

فالكاتب يرسم صورة تشبيهية للقلعة، إذ تشكل حماية للأعداء وهذه الصورة في غاية الدقة، وتشبي بعيد خيال الكاتب، وسعة ثقافته، حيث يصور الحصن على هيئة إنسان يرتدي بردة، بيد أن غطاء الحصن أكبر من رداء الإنسان.

ومن صورهم تلك التي تبرز الأضرار التي تلحق الحصون التي بناها الغزاة، وابتهاال المسلمين إلى الله لرفع ذلك الأذى عنهم؛ وغرضهم إعلاء شأن الفتح والفتح. من ذلك ما جاء في رسالة الفاضل عن حصن الكرك بين فيها أنه يشبه الشوك في الحلق، والقذى في العيون، وأنه كان يقطع الطريق على الذاهبين لأداء فريضة الحج حتى صار عذرا لتارك الحج⁽³⁾.

كما اهتموا بتصوير أثر المنجنيقات في الأسوار والحصون، فالعماد يستخدم كل وسائل التعبير الممكنة من تشبيه واستعارة وكناية وتشخيص، ويبني من الصور الجزئية صورة كلية للآلة العظيمة المدمرة، فنراه يقول: "وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب، وأصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب، وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرفات فهتمتها"⁽⁴⁾.

ويلاحظ القارئ أن الصورة تمثل بالحركة، وتبدو هذه الحركة من خلال الأفعال زاحمنا، أصبنا ورميناها، وباشرت، وهتمتها، ويصاحب هذه الحركة ما يناسب الأفعال من أصوات، وهي صورة معبرة عن دور تلك الآلة، وما قامت به من دور فعال في الحروب في ذلك العصر.

وينزل الكتاب الأسلحة منزلة الكائن الحي، ويعمدون إلى تشخيصها للتعبير عن مدى فاعليتها في المعركة. يقول العماد مصورًا عملية نقب الأسوار، والوسائل المستخدمة فيها، وهي جزء من عملية الحصار، ومهاجمة الأسوار، يقول في حصار بيت الأحزان: "فما زالت المعاول تعول، والجنادل تتخلخل، والنقاب يعمل، وإخرا ببيت الأحزان في تبينه يعجل حتى استقامت النقوب، واستقامت القلوب، وخطب الخطب منها نكاح كفاحها، وظن أن النقب استتم واستتب، ولم يعلم أن البكر بعذرتها لم تفتض، وإن الحائط بحوطته ما أن أن يرفض، وأن الجدار برمته ما يريد أن ينقض"⁽⁵⁾.

254

ويسقط ابن الأثير في رسالته القدسية على الأسلحة صفات الجيش المسلم، فهي التي تحقق الآمال، وتحسم الأمر، وتنتشر الغيظ في كل بلد تسرع في خطوها إليه، وهي مشتاقة لنفوس الأعداء الطائشة لاخترام آجالها⁽¹⁾. وهاهو العماد يهتم بإبراز دورها، فهو يصف إحدى المعارك: "وشبت المرهفات في ماء الحياة نار شباتها، وهبت جفون الجفون لراقدااتها من وقدااتها، وجادت جداول الأغمد بسقيا هامها"⁽²⁾.

⁽²⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 22/7.

⁽³⁾ كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 205/4.

⁽⁴⁾ الفتح القدسي - العماد الاصفهاني: 201-202.

⁽⁵⁾ البرق الشامي - العماد الاصفهاني: 183/3.

⁽¹⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 150.

⁽²⁾ البرق الشامي - العماد الاصفهاني: 168/3.

ويجعل رقاب السيوف تطول إلى غلاظ الرقاب من الفرنجة، وتغني لهم الأوتار برنين القسي، وترقص قد ود السمّر على غناء الصواهل، وتصيح ثعالب الأسل في لبة الأسود⁽³⁾.

فالعماد يستعير للرماح ألفاظا تدل على كثرة الحركة وخفتها، وهي مأخوذة من حركات يؤديها الإنسان في حالة الفرح والنشوة، مما يجعلها أكثر إثارة وتأثيرا في نفوس السامعين.

وبرعوا في تصوير الأسرى والقتلى، ومن ذلك تصوير ابن الأثير طاغية طرابلس بصورة ساخرة، فهو فافذ لتوازنه؛ "فإن السيوف أسأرتة وبفؤاده قلق من أوجالها، وفي عينيه دهش من أهوالها" وقد فرّ، ولكن الفرار لم ينجبه، وقد "اعتصم بذات جدره فقتله الخوف من وراء الجدار"⁽⁴⁾.

ويصور العماد جيش الأعداء بعد المعركة، ويحدد مصيره، ويجعل من بطون الحيوانات المفترسة قبورا له، إذ يقول: "وجعل الله لنا عليهم الكرة، وصحح فيهم الكسرة، ومنحنا أكتافهم، وأعدنا بالقتل والأسر إلى الأحاد آلافهم، ومهدنا في بطون القشاعم⁽⁵⁾ أكنافهم"⁽⁶⁾.

ويورد في حديثه عن خروج الغزاة من القدس وصفا مزريا لما آلت إليه أحوالهم، وما أصاب نساءهم، يقول: "فكم محجوبة هتكت، ومالكة ملكت، وعزباء نكحت، ومصونة ابتذلت"⁽⁷⁾.

* المقدسات

في رسائل الكتاب المبشرة بالفتوح صوراً تركّز على المقدسات كالصخرة المشرفة وبيت المقدس والمسجد الأقصى. كما يصورون مكانة الصخرة المشرفة في نفوس المسلمين، ويظهرون تعلقهم الشديد بها، وإحساسهم ومشاعرهم بعد تخليصها من الاحتلال. إذ يصورونهم، وهم يحسون بغله شديدة لم تذهب إلا بعد رفرفة أعلام الإسلام فوق الأقصى والصخرة. فها هو الفاضل يستخدم التشخيص مضافاً صفات الكائن الحي على الجمادات، كما يبدو في تصويره الصخرة المشرفة سويداء القلب، ويصور الحجر الأسود مشاركا في الفرح العظيمة بخلاص الصخرة المشرفة، يقول: "ولما قدم الدين عليها، عَرَفَ منها سويداء قلبه، وهنا كفّوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه"⁽⁸⁾.

255

ونظر الفاضل إلى الصخرة المشرفة على أنها امرأة تعاني من عشرة زوجها، وتسعى إلى مفارقتها والتخلص منه، وإلى نظيرها الحجر الأسود يزف إليها البشري، ويقطع عصمتها منه⁽¹⁾.

ويصورها العماد مستغيثة مستجدة تدعو إلى تحريرها، وخلصها من خلال اعتماده على المقابلة بين ما كانت عليه في ظل الاحتلال قلقه، وكيف عادت إلى حوزة الإسلام فباتت تعيش الأمن والسلام. يقول: "وأجيببت الصخرة المقدسة عند استنصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغسلت من أضرارها

⁽³⁾ الفتوح القدسي - العماد الاصفهاني: 363-435.

⁽⁴⁾ رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 154-156.

⁽⁵⁾ القشاعم: مفردا قشعم وهو النسر أو الاسد، إذا كانا مسنين. لسان العرب - مادة: قشعم.

⁽⁶⁾ البرق الشامي - العماد الاصفهاني: 168/3-169.

⁽⁷⁾ الفتوح القدسي - العماد الاصفهاني: 196.

⁽⁸⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 160. وينظر الدر النظيم - تحقيق فتحية النراوي: 18، صبح الأعشى - الفلقشندي: 198.

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 160.

وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل الإيمان، وصوفحت للوفاء بعهداها المجدد بالإيمان⁽²⁾.

ويصورها في حنينها إلى الخلاص مما كانت تتوء بحمله في ظل الاحتلال. فيقول مصوراً قدسيته، وارتباطها بمعجزة الإسراء والمعراج، واستجابة المسلمين لندائها، ويصورها ذات قلب تمكنت المسرة من سويدائه بعد التحرير: "وحت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان من نبع الأجاج"⁽³⁾.

ويصورها في رسالة أخرى وقد "زُفّت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذرة، وظهرت من صدف قبتها الدرة"⁽⁴⁾. ومن الواضح استخدامه ألفاظ الغزل في تشكيل الصورة الأدبية.

ويصورها ابن الأثير بالفتاة التي يتوجه إليها الخطاب، وهو بذلك يجمع بين الأختين أي بين الصخرة المشرفة والحجر الأسود، وهو جمع حلال لا حرام، يقول: "وقالت الصخرة جُمع بيني وبين الحجر الأسود لخطب الإسلام، والجمع بين الأختين في هذا الأمر من الحلال لا من الحرام"⁽⁵⁾. وهو هنا يلجأ إلى أسلوب التشخيص، واستخدام الألفاظ الحسية وأسلوب الموازنة بين ما كانت عليه قبل الفتح وبعده، ويبدو ذلك أيضاً في إنطاقه المسجد الأقصى، متحدثاً عن الإسراء والمعراج وعودة عهود الفتح العمري بالفتح القدسي الصلحي⁽⁶⁾. كما نظروا إلى المدن الإسلامية المغتصبة على أنها عذارى عفيفات يفتريها صلاح الدين بالسيف، يقول الفاضل في فتح مدينة غزة: "وهي على علم من كونها بكرًا لم تفتريها الحوادث، وحصانًا لم يطمثها طامث"⁽⁷⁾.

ولعل الربط بين المرأة وكذلك الأرض له دلالة، فكلاهما رمز للخير والعطاء، والمرأة عرض يتوجب صيانتها والدفاع عنه، ولذا فليس غريباً أن نرى الكتاب في حديثهم عن الأراضي المغتصبة، والمقدسات يركزون تركيزاً واضحاً على تقديمها في صورة امرأة عفيفة سبأها الأعداء من أجل استنقاذ المسلمين، واستنارتهم على استردادها.

* المظاهر الحضارية

وبدت المظاهر الحضارية التي ازدهت بها مصر والشام في هذا العصر مورداً من موارد الصورة الأدبية. ومن الأمثلة التي زخرت بالمظاهر الحضارية رسالة ابن الأثير يصف فيها قصراً تجمع فيه مع أصدقائه زمن الربيع، يقول: "ودخلنا هناك إلى قصر قد أطلّ على الفضاء، وأذكرنا القصر الذي تجوف من

(2) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 348/3.

(3) المصدر نفسه: 348-349.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 198.

(5) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 155.

(6) المصدر نفسه: 155/2.

(7) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 187/2.

للؤلؤة البيضاء، وبفنائها بركة معتدلة الطول والعرض كأنها مرآة موضوعة على وجه الأرض، وعلى جوانبها فوارات يتساوين في الارتفاع⁽¹⁾.

تبدو الصورة الكلية هنا متحدة من عدة صور مجزوءة، فالكاتب يصف ارتفاع القصر، وتجاويفه، وبفنائها الممتد طولا وعرضا، وهي لا شك صدى واضح من أصداء الحضارة في هذا العصر. وتكتفي الباحثة بهذا المثال لأنها قد أشارت إلى ذلك في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

ومن مصادر الصورة الفنية الأثر الديني، والثقافة العربية والتاريخية وقد أشارت الباحثة إلى ذلك التأثير في السمات الأسلوبية لرسائل هذا العصر في هذا الفصل.

وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة الموضوعات هي التي كانت تفرض وجود الصورة الفنية، فالهدن والمعاهدات والأمانات يجب أن تخلو من التصوير، كما قال ابن الصيرفي⁽²⁾؛ لأن هذا النوع من الرسائل، يتطلب الدقة والوضوح حتى لا يتشكل أي خلاف على تفسيرها.

فأما رسائل التولية والتعيين، ومما يتصل بحياة العامة كالأوامر والنواهي وإبطال المفاسد، فإن الصورة الفنية تكاد معالمها تطمس؛ كون هذا اللون من الرسائل يغلب عليه طابع الجدل والإقناع، والأسلوب المباشر، وتكاد الصورة الفنية تختفي منها.

وأما في رسائل التقليدات والتوقيعات، فإن الصورة الفنية تدور حول مدح المولى، وهي صور تتردد كثيرا في الرسائل، وهي صور عادية لا تنثير في النفس المتعة كتلك التي في وصف الانتصارات والفتوحات والوصف والمفاخرات.

واتسمت الصورة الفنية في الرسائل ذات الطابع الوجداني الإخواني بالمبالغة حيناً وبالغربة حيناً آخر؛ ولعل السبب في ذلك رغبة الكُتّاب في كسب رضا من يكتبون إليهم. ومن ذلك ما ورد في رسالة الفاضل إلى صلاح الدين يقول: "كتبها المملوك ليلا وقد عمشت عين السراج، وشابت لمة الدواة، وكل خاطر السكين، وضاق صدر الورقة"⁽³⁾. إن القاضي في استعارته في نظر ابن حجة والنواجي، قد بلغ الغاية في هذا المجال، فابن حجة يقول معلقاً على هذه الاستعارة: "ولقد حازَ القاضي الفاضل قصبات السبق في هذا الميدان"⁽⁴⁾. ويُصدر النواجي هذه الاستعارة بقوله: "وما أحسن قول الفاضل معذراً عن كتاب كتبه لبعض أصحابه ليلاً"⁽⁵⁾.

وأبدع ابن الأثير في تصوير سجادة صلاة كانت قد أهديت إليه، فلجمالها وحلاوة منظرها، كادت أن تلهيه عن ذكر الله، يقول: "وإذا نظرت إلى السجادة المرسلّة، وجدت روضة في حسن شكلها، وهديّة في مزية فضلها، وقد شغلت العين باجتلاء صبغة ألوانها، وشغلت القلب عن القيام بسنن الصلاة

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 147-148.

(2) قانون ديوان الرسائل - ابن الصيرفي: 129.

(3) خزانة الأدب - ابن حجة الحموي: 51، وينظر: حلبة الكميت - شمس الدين النواجي: 214.

(4) خزانة الأدب - ابن حجة الحموي: 51.

(5) حلبة الكميت - شمس الدين النواجي: 214.

وأركانها⁽¹⁾. فالكااتب هنا يرسم صورة طريفة متداخلة قائمة على صور جزئية بحيث تتصافر في النهاية في صورة كلية واحدة، وهي تدل على دقة وقدرة على التأثير في نفس القارئ .

وتتداخل الصورة مع التشبيه، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة العماد التي كتبها إلى الفاضل عند عودته من الحج، وقد عبّر فيها عن شوقه إليه، وأضفى عليه صفات الإجلال والتكريم. يقول: "ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر، لقد عاد قس إلى عكاظه، وعاد قيس لحفاظه، ويا عجباً لكعبة تقصدها كعبة الفضل والإفضال، ولقبة تستقبلها قبلة القبول والإقبال"⁽²⁾.

إن الكاتب يرسم صوراً جميلة لصديقه، فيشبهه بالحبيب الوافد على حبيبته، بعد انتظار طويل، فأدخل عليها البهجة والسرور. ويلجأ تارة أخرى إلى الاستعانة بشخصيات معروفة يضرب بها المثل في الجود والحكمة والبلاغة. والكاتب بهذه الصور يدفعنا إلى تخيل تلك الفرحة بل تلك النشوة التي بثت الحياة فيه من جديد، فقد كانت عودة صديقه بمثابة البلمس للجرح. والصورة هي القدرة على نقل هذه الصورة الحية، مع قدرتها مع التأثير فينا، وبعث الجمال في نفوسنا.

وفي رسائل الشفاعات أقف عند صور استعارية كتبها الفاضل إلى الناصر صلاح الدين. يقول: "ومن بيت قامت منه الكرام ثم قعدت به الأيام، وكان للنعم غاية ثم صار للعبرة آية، والمولى يقيل العثرات، ويجلي الغمرات"⁽³⁾.

والناظر في قول الفاضل، يلحظ كيف أنه يبني استعارته على إبراز حالتين متقابلتين عاشها أولاد الوزير ما بين حالة النعيم وحالة البؤس والشقاء. إن قعود الأيام بهذا البيت له دور واضح في إبرازه معاناة أبناء الوزير الضعاف مما يجعل الاستعارة تؤدي دورها في إثارة شفقة السلطان على هؤلاء الورثة ومن ثم تؤدي الشفاعة غايتها.

وفي رسائل التعزية تقوم الصورة على مواساة المعزى، وتخفيف المصيبة عنه بذكره بقضاء الله وقدره، ومن ذلك رسائل التعزية التي كتبها الفاضل إلى الملك الظاهر ساعة موت أبيه، وفيها يقول: "وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله ولا حول ولا قوة الا بالله"⁽⁴⁾.

فالفاضل هنا يرسم لنا صورة مفعمة بالحزن فهو يودع حبيبه الوداع الأخير، بعد أن ملأ الأرض عدلاً وفتوحاً، فلم يكن يذوق أو يعرف طعم الراحة، ولكنه الآن مسجى مستسلم لله.

وتشير الباحثة إلى أن الكناية لم تبرز ببرزوا وافرا في رسائل الكُتاب في هذا العصر؛ لما تتطلبه من جهد وعناء ذهني. ومن الكنايات على سبيل المثال قول الفاضل في تخريب حصن بيت الأحزان: "وقرع

(1) ديوان رسائل ابن الأثير - تحقيق هلال ناجي: 181.

(2) البرق الشامى - العماد الأصمهاقي: 147/3.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 54.

(4) وفيات الأعيان - ابن خلكان: 204/7-205.

عليه البلاء بابه، ولم يُغْنِه أن قُزِعَ سِيَّه، وأحاطت به النار، وكان يرى أنه قد حَلَّ في جنة⁽¹⁾. والكناية هنا "قزع سنه" وقزع السن كناية عن الإصابة بمكروه وضرر، وهي من الكنايات الموروثة⁽²⁾. وأخيراً: يعد التصوير الأدبي وسيلة رائعة للتعبير عن المعاني، إذ يتوصل الكاتب من خلاله إلى التعبير عن المعنى المقصود إليه بدقة بالغة، وتختلف وظيفة الصورة باختلاف موضوع الرسالة، واختلاف الغرض من إنشائها، وتباين السياق الذي ترد فيه.

* الموسيقى في الرسائل

تعتبر الموسيقى من أهم عناصر العمل الأدبي، فهي تحقق له صفات الجودة والتأثير عند تضافرها مع بقية الأدوات الفنية، إذ إنها "تضفي على الكلمات حياة غير حياتها، وتجعلنا نحس بمعانيها، وتهب الكلام مظهرًا من مظاهر العظمة والجلال"⁽³⁾.

إن طبيعة اللغة العربية تسمح للموسيقى أن تتجلى بجميع مظاهرها فلا تخص الشعر وحده بل يأخذ النثر منها بنصيب وافر، فالنثر "لا يقل عن الشعر في التعبير عن حاجات العقل والنفس والعاطفة"⁽⁴⁾. كما أنها من طبيعة اللغة الشاعرة - كما يقول العقاد -: "إنما نريد في اللغة الشاعرة، أنها لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تتفصل عن الشعر في كلام تألفت منه، ولو لم يكن من كلام الشعر"⁽⁵⁾.

والموسيقى في النثر لا تقل أثراً عن الشعر المنظوم عند الكلاعي: "النثر والنظم أخوان فكما لا يقدح في النظم تكلف الوزن والقافية، كذلك لا قدح في النثر تكلف السجع"⁽⁶⁾.

إن مراعاة القيم الموسيقية أمر يشترك فيه الشعر والنثر على حد سواء، فكما أن الشعر لا يكتمل إلا بالوزن والقافية، فكذلك النثر لا تكتمل فنيته إلا بوجود القيم الموسيقية التي تتمثل في البديع. ويمكن دراسة الموسيقى في الرسالة على مستويين، أحدهما يتمثل في السجع، والجناس، والمقابلة، وغيرها من ضروب البديع الأخرى.

والآخر: يتمثل في الظواهر اللغوية المختلفة كال تكرار، والتقديم، والتأخير، والاستفهام، والنداء، والاعتراض وغيرها من الظواهر اللغوية المختلفة.

- المستوى الأول

ازدان فن الرسائل في هذا العصر بالسجع، فقد كتب الكتاب رسائلهم بأسلوب مسجوع، وهذا الأسلوب من أقدر الأساليب على تحقيق درجة عالية من الموسيقى. فالسجع إذا دخل الكلام جعله متفردًا في

القيمة الموسيقية عن غيره مما لم يدخلها؛ وذلك لما يحدثه من نغم موسيقي واضح يؤثر في النفوس، وتتعلق به القلوب.

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 129.

(2) رسائل القاضي الفاضل - محمد عبد الرحمن عطا الله: 244.

(3) موسيقى الشعر - إبراهيم أنيس: 16.

(4) ثورة الأدب - محمد حسين هيكل: 49.

(5) اللغة الشاعرة - عباس محمود عقاد: 9.

(6) إحكام صنعة الكلام - الكلاعي: 288.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب هذا العصر قد التزموا السجع الذي لا يخل بالمعنى في معظم الأحيان، فقد انتقوا ألفاظهم ، فوضعوها الموضع اللائق بها بما يوافق الذوق السليم، ويحقق للكلام موسيقى تحدث ارتياحاً في النفس، ولذة للعقل ، وطرباً للأذان.

ومن الرسائل التي انتشرت بالسجع رسالة للفاضل يخبر فيها بفتوحات صلاح الدين، يقول: "فأما الفتوح الناصرية، فقد هطلت قطراً بل جرت نهراً، بل جرت بحراً، بل درت دراً، فما ينقضي يوم جمعة إلا عن تحلق محاربيها، واستجابة دعوة خطيبها، وافتضاض بكر من القلاع بعوان من الحرب يقعد لها الموت على قارعة القراع⁽¹⁾.

إن هذا الجزء من الرسالة له دلالات ثرية. فهي تعبير عن الشعور بالفرح وطعم الانتصار على الفرنج. وهذه الدلالات ظاهرة في كل كلمات الفقرة، وعبارتها، ولم يحجب السجع هذه الدلالة. فالفاضل، يفتح الفقرة، بقوله: "فقد هطلت قطراً، بل جرت نهراً، بل جرت بحراً، بل درت دراً". وقد جاءت العبارات المسجوعة قصيرة ، تتوالى في دقات سريعة، تتناسب مع الدقات الشعورية المتوالية التي تعتمل في نفس الكاتب، وجاءت العبارات شبه متوازنة، مما كان له أثره في المستوى الصوتي، والموسيقي الذي يتناسب مع حالة الفرح التي يعيشها.

أما الفواصل فقد جاءت على التوالي "قطراً، نهراً، بحراً، دراً، وهي كلمات كلها تدل على الخير والنماء، وهذا يتناسب مع الفتوحات وأثرها في إحداث الخير والنماء.

ومن تنويعاتهم في السجع تكرار مجموعة من الفواصل المتعاقبة، فيوافق بين كل فاصلتين. كقول العماد في كتاب البشارة بفتح القدس: "ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابيح، وسيوفها للبلاد مفاتيح، وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازح، فالزمان كهيئة البدر قد استدار، والحق بمهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار"⁽²⁾.

إن التنوع في العبارات المسجوعة، واختلافها من حيث الطول والقصر، يؤدي إلى التنوع في الموسيقى، وعدم سيرها على وتيرة واحدة، مما يذهب الرتابة، والملل عن النفوس.

ومن تنويعاتهم التزام الفقرات القصار المسجعة التي تحدث رنيناً موسيقياً جذاباً، من ذلك ما جاء في رسالة تعزية لابن الأثير. يقول: "ولا يصح هذا المثل إلا في سليفة سيدنا لا فتن الله له صبراً، ولا أخرج له صدرًا، ولا حمل عليه إصرًا، وجمع بين طول عمره، وطيب ذكره حتى يكون من الأطولين عمراً، والأطيبين ذكراً"⁽³⁾.

ويلاحظ أن السجع لم يحجب دلالة المعاني بل أوضحها، فقد جاءت هذه الرسالة ترسم صورة كلية لما أصاب الكاتب من حزن. ومن ثم جاءت موسيقى الجمل، والفواصل هادئة بعيدة عن الصخب والرنين.

(1) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 49.

(2) صبح الأعشى - الفلقشندي: 517/6-518.

(3) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 191.

أما **الجناس**، وهو من الفنون المستحبة عند الكتاب، ويقوم على أساس إيهام المتلقي أن الكلمة المكررة هي نفس الكلمة الأولى، بيد أنه لا يلبث أن يكتشف أن معناها مختلف عن معنى الكلمة الأولى، وهذا فيه ما فيه من المتعة الذهنية، والجمالية.

ومن هنا يمكن للباحثة القول: بأن **الجناس** هو أقوى وسائل الزخرفة إذ تجتمع فيه قوى التأثير المختلفة عن طريق الجرس الموسيقي.

وقد اتكأ الكتاب على هذا اللون البديعي، قاصدين إثراء المعنى بنوع من النعمة الجذابة التي تحدث للمتلقي شعوراً بالارتياح. وتتجلى صورة **الجناس** بكثرة في رسائل البشرى، والرسائل الجهادية، وتقل في الرسائل الإخوانية.

ومن هذه النماذج: ما جاء في رسالة للفاضل في حصار حصن الشوبك. يقول: "والحصن الذي نحن حاصروه، وحاصروه في حضانة الحصانة، وقد هدت الحجارة منه ما أحكموه بالحجارة، عدوا عليه بالتخريب ما أعدوه للعمارة، فقصي المنجنقات ترمى ولا يريم سهامها، ولم يبق إلا تدمير طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، وإن أبطأ العدو عن النجدة، فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع"⁽¹⁾ فالكااتب هنا يرسم صورة كلية لحصار المسلمين "حصن الشوبك" وتخريبه، وقد كثر في هذه اللوحة **الجناس** - كما نرى - فكان للجناس أثره في تشكيل الصورة، والصوت، والحركة عناصر أساسية في بناء الصورة الكلية، فقد نبع الصوت من موسيقى **الجناس**، ونبتت الحركة من دلالة الألفاظ المتجانسة، وارتباطها بغيرها من ألفاظ داخل النسق اللغوي.

ومن هذه النماذج قول الفاضل: "وإذا قلت يا خيل الله اركبي ملأت الأرض تصهالا وصيالا"⁽²⁾. إن **الجناس** هنا قام برسم صورة تعتمد على مدلول الكلمات، وهذه الصورة ارتبطت بحاستي السمع والبصر، وليس هذا كل عطاء **الجناس**، بل عطاؤه امتد ليحقق الموسيقى ذات الرنين الشديد الذي يتناسب مع الحرب. والحركة العنيفة ظاهرة في هذا **الجناس**، والحرب صوت وحركة. وكان لحرف الصاد أثره في الارتباط بالمستوى الصوتي بين المتجانسين، ومن هنا كان **الجناس** مرتبطاً بالمدلول أشد ارتباطاً. ومن أمثلة **الجناس** عند العماد ما كتبه إلى الفاضل. يقول: "وأما المتجددات من الفوائد العراقية، والفرائد الخرسانية، فإلى الآن ما حلت قوافل اسقاطها، ولا سرت ركائب برها، ولا رست مراكب بحرها"⁽³⁾.

لا يخفى على المتأمل في هذا النص ما يحويه من ألفاظ **الجناس** التي تدل على اختيار متعمد، وعناية مقصودة، إذ تألفت الألفاظ، فاجتمع السجع بـ **الجناس**؛ ليحدث أنغاماً موسيقية متنوعة، تلقي بظلالها على نفسية المتلقي. وقد تمثل **الجناس** في قوله: "ركائب، مراكب" و"سرت، رست"، "برها، بحرها". وقد جاء السجع في نفس الكلمات تقريباً، مما جعل المعنى يظهر في صورة أجمل من أن ينفرد التعبير بواحد منها.

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 57.

(2) الفاضل من كلام الفاضل - جمع ابن نباتة المصري: ورقة 52.

(3) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 61/3.

ومن أمثلة الجناس ما كتبه الوهراني في ذم بخيل. يقول: "فجفانه أضيق من أجفانه، وقدره أصغر من قدره"⁽¹⁾.

وقد حصل الجناس التام بين "قدره" بمعنى مكانته، و"قدره" الإناء الذي يطبخ فيه الطعام، ليس شكليا بل يفضي إلى دلالة، فالجناس هنا يبرز البخيل في صورة مزرية تنفر منها النفوس، وهذه الصورة، يحرص الكاتب على إبرازها مع توفير درجة مقبولة من المفارقة والطرافة.

وتعد المقابلة من الظواهر الأسلوبية التي تحقق المتعة لدى القارئ، إذا وضعها الأديب في موضعها اللائق، فهي تزيد المعنى وضوحا، أما إذا جاءت في غير موضعها كانت فاسدة نابية. وإلى هذا المعنى أشار قدامة. يقول: "ومن عيوب المعاني، وفساد المقابلات، هو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر، إما على جهة الموافقة أو المخالفة، فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر، ولا يوافقه"⁽²⁾.

وقد أدرك كتاب الرسائل في هذا العصر ما للمقابلة من أثر نفسي يساهم في إحداث أحاسيس متفاوتة، الأمر الذي دفعهم إلى إثراء رسائلهم بهذا اللون.

ومن نماذج المقابلة ما ورد في رسالة الفاضل إلى الملك العزيز عثمان معزيا في وفاة ولده. يقول: "وسمت هم صروف الأيام إلى سماء العلا مشرقة، وشوهدت أناسي العيون وهي سابعة في دموعها غرقة، ودفنا السحاب في الثرى، وجمع ضيف الكرامات رحله، وألقى عصي السرى"⁽³⁾. فقد قابل الكاتب بين "السحاب" وهو المعادل للولد المتوفى، و"الثرى" وهو المعادل للقبر، فالمقابلة هنا أفصحت عن فلسفة الموت، فهو يحطم الأمنيات والآمال، أما السحاب فهو رمز للخير، والعطاء، والفائدة المرجوة في المستقبل، ودفن السحاب في الثرى، قطع للخير الذي كان متوقعا من الولد المتوفى، ومن ثم كانت المقابلة معبرة عن الجو العام للنص المشحون بدلالات الأسى والألم.

ومنها ما ورد في رسالته إلى بغداد في كسرة حطين. يقول: "وبعد الكسرة مر الخادم أي صلاح الدين" على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليائها"⁽⁴⁾.

إن سواد الراية العباسية هنا يرمز إلى النصر، والفرح، والوحدة، وهي أمور تثير في النفس البهجة والسرور، ومن ثم فإن المقابلة شكلت عنصر تحفيز للخيال في الرسالة، وبالتالي فهي من أقدر الأساليب على تحقيق درجة معقولة من الموسيقى الداخلية.

ومن صور المقابلات ما جاء في رسالة العماد القدسية. يقول في مقدمتها: "والى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا، ومكن سيوفها في كل مازق، من كل كافر ومارق، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق"⁽⁵⁾. فقد أحدثت المقابلة هنا نوعا من الموسيقى التي تشي بالنشوة والنصر، وتدفع إلى البهجة والفرح. مما أضفى على النص لحنا موسيقيا زاد من جماله.

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 173.

(2) نقد الشعر - قدامة بن جعفر: 133.

(3) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 113.

(4) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 166-167.

(5) صبح الأعشى - القلقشندي: 518/6.

ومن صور المقابلات ما جاء في رسالة ابن الأثير القدسية. يقول: "ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا بعد أن قورع قراعا، ثم هُز هزة طوته بيمينها، ونشرته بشمالها، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها"⁽¹⁾.

إن المقابلة بين "طوته بيمينها" و "نشرته بشمالها"، تتجلى فيها الإحاطة والشمول، فالمعركة في حركة دائبة مستمرة لا تعرف لنا ولا هودة. وقابل الكاتب بين "الأدنى" و "الأكبر".
إن التقابل هنا له دلالة واضحة على قوة الجيش، وتفوقه على عدوه، وهي رمز لفرح المسلمين، ورمز لهزيمة الفرنج. وقد تتابعت المقابلات في هذا النص محدثة رنة موسيقية رائعة، تجعل المتلقي يتابعها بكل متعة وانسجام، وكأن الكاتب يعزف ألبانا جميلة، تتراقص الألفاظ بين يديه معبرة عما يجول بخاطره.

- المستوى الثاني

لم تتوقف الموسيقى على البديع، بل تعدت ذلك إلى مستوى آخر يتمثل في جميع وسائل التعبير اللغوي من اختيار للكلمة، وتكرار، وتقديم وتأخير، ونداء، واستفهام، واعتراض، وغيرها من الظواهر اللغوية. وهذا يعني أن الكاتب يوظف اللغة توظيفا خاصا بغية تحقيق قيمة صوتية، وإيقاعية، يكشف بها عن القيم الجمالية التي تميز أسلوبه، والأثر النفسي الذي تعكسه على المتلقي.

ومن الأمثلة على اختيار الكلمة ما جاء في رسالة الفاضل القدسية. يقول: "واسترد المسلمون تراثا كان عنهم أبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا"⁽²⁾. فالكاتب استخدم كلمة "تراثا" وهي تدل على الميراث، ولكنها لم تبق محتفظة في نصها بالدلالة على الميراث، وإنما استمدت جمالها من السياق الذي وردت فيه، فهي تحمل دلالات متعددة، تنقلنا إلى الأزمنة الماضية، فهذا التراث يذكرنا باحتلال الروم لبيت المقدس، كما أنها تذكرنا بالفتح العمري لبيت المقدس، وكيف تسلم مفاتيح القدس، إن كلمة "تراثا" تذكرنا بمسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم- وتذكرنا بأنها قبلة المسلمين الأولى. وهذا يؤكد متانة ارتباط المسلمين بهذا البيت. كما أن دلالات الكلمة تمتد إلى الحاضر الذي نعيشه اليوم، وهو حاضر يبعث أسى وغصة في القلوب والحدوق. فالمسلمون محرومون من هذا التراث المقدس. وهكذا استطاع الكاتب أن يوظف هذه الكلمة داخل النص توظيفا فنيا، من خلال إثارة المشاعر في نفس كل مسلم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قدرة الكاتب الفنية مع إمكانية توفير قدر من الإيقاع المتولد من تآلف بعض الألفاظ.

ويقول الوهراني في رسالة له يذم فيها قاضيا: "وحيني إلى حنين الجبل إلى الأرواث، واللايط إلى شم الأخبات، وارتياحي إليه كارتياح الأرملة إلى البعل، ورأسه إلى مباشرة النعال"⁽³⁾.
إن كلمة "الجبل" وهو حشرة صغيرة تشبه الخنفسة، توحى بالتحقير والتنفير، عبر بها الوهراني

(1) رسائل ابن الأثير- تحقيق أنيس المقدسي: 149، 151، 152.

(2) رسائل عن الحرب والسلام- تحقيق محمد نغش: 160.

(3) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله- تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 145.

ليوحي بها عن حالة الضعف والهوان التي تعيشها الرعية بسبب ظلم بعض القضاة. وتمضي في كل أجزاء الرسالة النغمة التهكمية في وصف القاضي، فتمتزج الفكرة بالنغمة امتزاج الجسد بالروح. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قدرة الكاتب الفنية. وهذا واضح في كل لفظة وظفها الكاتب في رسم تلك اللوحة عبر الموجات الصوتية، والتنوعات الإيقاعية التي تتناسب والمعنى الذي أراد التعبير عنه.

من الظواهر التعبيرية التي ساهمت في بناء العمل الأدبي التكرار، فهو أحد الأدوات الفنية الأساسية للنص، وهو يستعمل في التوظيف الموسيقي، ويساعد في إعطاء وحدة العمل الفني. ومن الشواهد على هذه الظاهرة، ما جاء في رسالة الفاضل التي كتبها إلى ملك المغرب يستجده في محنة عكا. يقول: "فالبدار البدار، وأنت أيها الأمير أول من استخار الله وسار"⁽¹⁾.

فالكاتب كرر كلمة "البدار" مرتين ليس لأغراض التوكيد والإغراء، وإنما تعبير عن صعوبة الوضع في عكا، واشتداد المحن على المسلمين، واستفحال أمر العدو. فالتكرار يعبر عن الحيرة والقلق، ويوحي بالمرارة والألم، ويصل بالصياغة اللغوية إلى درجة عالية من الموسيقى والإيقاع اللغوي.

ويكثر تكرار الفعل الماضي في صدر الرسائل، ومنها ما جاء في صدر رسالة العماد في فتح حلب. يقول: "كتابنا، وقد أفضل الله علينا، ومن بما منحه، وبسط به الأمل وفسحه، وأظهر به نهج النجح وأوضحه، ووهب للرجاء ما اقترحه، ووهب للزمان ما اجترمه من خلف أهل الإسلام، واجترحه، وفتح باب الخير بما سهله من أبواب الفتوح وفتحه"⁽²⁾.

إن تكرار الكاتب الفعل الماضي في صدر كل جملة، يتآزر مع تكرار الفاصلة في نهاية كل قرينة ليصل بالصياغة إلى درجة عالية من الموسيقى والنشوة اللغوية.

ويوظف الكتاب الفعل المضارع توظيفا فنيا في رسائلهم، وخصوصا في رسائل الجهاد، يقول الفاضل في رسالة كتبها إلى بغداد: "سبيل الخادم، أن يبني ولا يهدم، ويوفر جانبه ولا يتلم، وأن يفرق بينه وبين من يمسون أعنة الجياد المسومة، ولا يطلقونها، ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها"⁽³⁾.

فالفاضل يكرر الفعل المضارع في تصوير المتقاعسين عن الجهاد، وتكراره بدرجة عالية، يظهر هؤلاء المتخاذلين في صورة مشينة ومنفرة. وتكرار الفعل المضارع يحدث ثراءً فنياً للمعنى، ويصل بالصياغة إلى درجة عالية من الإيقاع الموسيقي.

ومنها قول ابن الأثير في التقليد الذي كتبه لأحد الشيوخ بخطابة المسجد الجامع: "ولمثل هذه التلاوة أي تلاوة القرآن، تلين القلوب القاسية، وتذكّر النفوس الناسية، وتدمع العيون الجامدة، وتتيقظ الأفهام الراقدة"⁽⁴⁾.

(1) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 128.

(2) الرق الشامى - العماد الأصفهاني: 126/5.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 128.

(4) رسائل ابن الأثير - تحقيق أنيس المقدسي: 126.

إن تكرار الأفعال المضارعة: "تلين، تتذكر، تدمع، تنيقظ" تدل على الاستمرار، وتحدث ثراءً فنياً للمعنى، ويصل بالصياغة اللغوية، إلى درجة عالية من الموسيقى، والإيقاع اللغوي.

أما **صيغة الأمر**، فإن تكرارها في رسائل الكتاب يتم إما بتكرار الفعل المضارع المقترن بلام الأمر، أو بتكرار فعل الأمر. ومن نماذج تكرار الكتاب لفعل الأمر، ما ورد في رسالة للفاضل إلى ولده: "وهذا الكتاب يفتنك ويقنع من عندك، فاعتمد عليه، واعمل به، ولا يظهر منك ما يظهر في الصبيان، وافرغ إلى الصلاة، وقراءة القرآن"⁽¹⁾.

إن تكرار فعل الأمر "اعتمد، اعمل، افرغ"، له دلالة، فهو يؤكد حرص الوالد على ولده، وخوفه عليه من العواقب الوخيمة، إن لم يلتزم بهذه النصائح. فالتكرار هنا حقق أثراً فنياً وصل بالمضمون إلى درجة عالية من الدلالة الفنية والموسيقية.

كما يكثر تكرار فعل الأمر في خواتم المنشورات، والتقليدات، من مثل ما جاء في منشور للعماد كتبه لمحتسب حلب: "وليشرع في حفظ المعاملات على جدد الشريعة، ومنهاجها، وليعتمد في زجر الفجرة ما يؤذن بإعجازها، وإزعاجها، وليعتبر أهل الأسواق فمن ألفاه ألفاً للسداد ألفه، ومن عرفه جاهلاً بالمشروع عرفه"⁽²⁾.

إن **تكرار الفعل المضارع** المقترن بلام الأمر بما يدل عليه من الثبوت والاستمرار، يرسم صورة المحتسب، وما ينبغي أن يتوافر فيه من شروط النزاهة، والعدل، والإخلاص، والتقوى، وهي شروط أكدها العماد في منشوره، من خلال تكرار الفعل ليصل بالصياغة إلى درجة عالية من الإيقاع الموسيقي.

ويكثر **تكرار اسم الفاعل**، ويتمثل بما ورد في رسالة الفاضل القدسية: "وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، فبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة"⁽³⁾.

إن **تكرار صيغة اسم الفاعل** هنا بما تدل عليه من الثبوت والاستمرار، يعبر عن فرح المسلمين بالنصر على الأعداء، بالإضافة إلى الأثر الفني الذي أحدثته في الدلالة والصياغة معاً.

ومنه ما كتبه الوهراني في ذم قاض، يقول: "فحذر منه العاشقين، واسحقه في ملأ من الفاسقين، واكتبه في ديوان المنافقين، وأمرك أن تنظر في أعداء الدين من فقهاء القوادين"⁽⁴⁾.

ويظهر هنا تكرار الصيغ المتساوية في الوزن، المتمثلة في قوله "العاشقين، الفاسقين، المنافقين"، وهذا التعاقب، يبرز الإلحاح على امتلاك القاضي لهذه الصفات، كما أنه في الوقت نفسه يحدث إيقاعاً موسيقياً، فالإيقاع ما هو إلا أصوات مكررة، تثير في النفس انفعالا، وإحساسات معينة.

(1) إنشاءات القاضي الفاضل - تحقيق فتحية النبراوي: 74.

(2) البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 137/5.

(3) رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 163.

(4) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 179.

وتشترك ظاهرة التقديم والتأخير في تشكيل الإيقاع الموسيقي في الرسائل، فالتقديم والتأخير يمنح النص إحياء، ويكون قادراً على الإقناع والإمتاع. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول الفاضل في فتح عسقلان: "كتابنا هذا صادر للأمير، وقد منّ الله علينا، وفتح على أيدينا عسقلان، وهي إحدى عرا الدنيا"⁽¹⁾.

فقد قدّم الكاتب شبه الجملة "على أيدينا"، على المفعول به "عسقلان"، فالتقديم هنا ترك في النفس أثراً طيباً بجانب الدلالة الفنية، فهو يشير إلى جهاد المسلمين، وصبرهم على العدو، كما أنه يعبر عن فرحة المسلمين بالنصر الذي حققوه، مؤكداً بتقديم شبه الجملة على المفعول به على أن الله قد يسر الفتح على أيديهم هم أنفسهم دون سواهم.

ومن أمثلة التقديم والتأخير، تقديم الحال على صاحبه، منه قول العماد في فتح حلب: "وردت إلينا موافقتين لفتح حلب في صفر بشارتان: بما تم في مصر للأسطول في البحر، والعسكر في البر من الظفر"⁽²⁾.

فالكاتب قدم الحال "موافقتين" على صاحبه "بشارتان". إن للتقديم هنا دلالاته الفنية، فالمسلمون جميعاً ومن بينهم الكاتب ينتظرون البشارتين، فقد لاقوا الأهوال حتى تم هذا النصر، ومن ثم لا يمكن وضع الحال في موضعه في ترتيب الجملة، فلا بد من تقديمه على صاحبه "بشارتان"؛ للتأكيد على أهمية التزامن بين البشارتين في البر والبحر. وبالتالي فإن هذا التقديم منح النص إيقاعاً نفسياً عذباً متآلفاً مع التأكيد على عظمة النصر الذي حققه المسلمون، كما أنه جعل المتلقي أكثر تحفزاً لسماع الكاتب والانتباه إليه.

وبعد الاستفهام من الظواهر الأسلوبية التي تمنح النص موسيقاه، ويمكن تعرف الموسيقى التي يحدثها الاستفهام من خلال الأمثلة التي ستقدمها الباحثة. يقول الفاضل في رسالة التعزية التي كتبها عن صلاح الدين إلى الملك الصالح في وفاة والده نور الدين: "والصدور بالهموم مملوه، والوجوه بالوجوم ممنوه، ليوم سرت الحادثة فيه مسرى الزلزال، هز أعطاف كل بلد، واستوى الخلق فيه، فمن المعزى؟"⁽³⁾.

إن الاستفهام هنا له دور في التعبير عن مدى الحزن الذي أصاب الأمة، فنور الدين كان أملاًها في خلاصها من الأعداء، فالاستفهام يعبر عن المخاوف التي يشعر بها المسلمون نتيجة تفككهم، وضعفهم أمام عدوهم، وفي الوقت ذاته يعبر عن حزن دفين يعتصر قلوب المسلمين. وقد أحدث الكاتب بهذا الاستفهام أثراً نفسياً متاعماً مع الشحن العاطفي، كما أن التقارب في الصيغ، قد لحقه تقارب في الإيقاع، وتوحد في الجو العام للرسالة.

⁽¹⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 147.

⁽²⁾ البرق الشامي - العماد الأصفهاني: 142/5.

⁽³⁾ رسائل عن الحرب والسلام - تحقيق محمد نغش: 81.

ويستخدم العماد الأصفهاني الاستفهام بهذا المستوى من الدلالة الفنية في رسالة الاستجداء التي كتبها، والمسلمون في مذبحه عكا. يقول: "وما دام البحر يمددهم "أي الفرنج" والبر لا يصددهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حماية المسلمين؟ ونخوة أهل الدين؟ وغيره أهل اليقين؟"⁽¹⁾. إن الاستفهام في النص يثير دهشة الكاتب من تخاذل المسلمين وتقاعسهم، وتجمع الفرنج، وتوحدتهم. كما أنه أحدث طابعا صوتيا من خلال تكرار حرف النون، الذي لعب دورا هاما في إظهار النغم الموسيقي، واسترساله بانسياب.

ويلعب النداء دورا هاما في البناء الموسيقي، ويبدو أثره واضحا في رسائل الاستجداء التي كتبها الكاتب. ومنها ما ورد في رسالة الاستجداء التي كتبها الفاضل إلى بغداد في محنة عكا. يقول: "فيا عصابة محمد -عليه السلام- اخلفيه في أمته، بما تظمنن به مضاجعه، وفيه الحق فينا، فإننا والمسلمون عندك ودائع"⁽²⁾.

فالنداء هنا يعبر عن عمق الشعور بالمعاناة، واستخدام حرف النداء "يا"، حرف يدل على نداء البعيد، وهو يوحي ببعد المسافة التي تستلزم مد الصوت المشحون بالعاطفة والمولد صدى يتردد كالموسيقى، وإن إضافة المستجد بهم إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، وإلى المسلمين تشكل رد فعل قد ينبض بحركة داخلية. كما أن تكرار حرف الهاء في نهاية كل فاصلة قد أحدث طابعا صوتيا مؤثرا، فحرف الهاء حرف حلقي لا يحتاج إلى جهد عضلي، وهو هنا يحدث نغمة موسيقية حزينة تعبر عن مشاعر الكاتب تجاه الأمة، كما أن الهاء تتيح للكاتب إخراج الكلمة بنفس طويل، فقد اعتمر قلبه بالحزن، مما أضفى على الأسلوب نغمة من الحزن العميق.

ويستخدم النداء في تعظيم المصائب التي حلت بالمسلمين، ومنها رسالة الناصر داود التي كتبها إلى العزيز بن عبد السلام بما حل بالمسلمين في نابلس، يقول: "فيا أيها العزيز الذي كنا نظن أن الإسلام يتزيد بسعيه عزاء، تيقن أنه قد عم بالشام النفير، ووجبت الغزاة على الحدث والطير، والشيخ الكبير"⁽³⁾.

فالنداء يحمل دلالات الاستغاثة والاستجداء، وهو يعبر عن حجم المصيبة التي أصابت المسلمين؛ ليدل على تعظيم الخطر المحدق بالأمة. وهذا يتناسب مع الأوضاع السائدة التي كان يعاني منها المسلمون. كما أن الكاتب استخدم حرف الراء، وهو حرف متردد متذبذب، يشع تناغما موسيقيا ينبعث من بين الكلمات "النفير، الطير، الكبير"، كما شارك السجع في إبراز تلك الموسيقى التي سيطرت على النص، وقد أحدث هذا الإيقاع عمقا في البنية الموسيقية للنص، وسعة في سياقها الدلالي.

ومن الظواهر الأسلوبية التي وردت في رسائل الكتاب الاعتراض، فالجملة المعترضة "في كل أحوالها أجنبية عن مجرى السياق النحوي، فلا صلة لها بغيرها، ولا محل لها من الإعراب، وإنما هي

(1) كتاب الروضتين - أبو شامة المقدسي: 110/4.

(2) المصدر نفسه: 141/4.

(3) الفوائد الجلية - الناصر داود: 137.

تعبير عن خاطر طارئ من دعاء أو قيد بشرط، أو نفي أو وعد، أو أمر، أو نهى، أو تنبيه إلى ما يريد المتكلم أن يلفت إليه السامع⁽¹⁾.

ومن الملاحظ أن الجملة الاعتراضية في رسائل الكتاب وكتاباتهم تتكرر بنسبة عالية مما يجعلها ظاهرة أسلوبية يجب الوقوف عليها.

وقد علل ابن الأثير كثرة الاعتراض في النثر، وقلته في الشعر بقوله: "اعلم أن النثر في استعمال ذلك أكثر ملائمة من النظم، وذلك أن الناظم مضطر إلى إقامة ميزان الشعر. أما النثر فلا يضطر إلى إقامة الميزان الشعري، بل يكون مجال الكلام عليه واسعاً، ولهذا إذا اعترض في كلامه اعتراضاً يفسده، توجه عليه الإنكار، وحق عليه الذم"⁽²⁾.

ومع كثرة الجمل الاعتراضية في رسائل الكتاب فإنها لا تخرج في مجملها عن غرض واحد هو الدعاء، سواء كان دعاء للمسلمين بالرحمة وطول البقاء، إلى غير ذلك من صالح الأدعية، أم كان دعاء على الأعداء باللعن والنبور.

ومن الأمثلة على نماذج الاعتراض، رسالة العماد الأصفهاني القدسية إلى سيف الإسلام باليمن. يقول: "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي - ضاعف الله علاءه، وظاهر آلاءه، وظافر نعماءه، وأظفر بالنجح رجاءه، وأضعف حساده، وأعز أوليائه، وأذل أعداءه" -⁽³⁾.

ولعل الجمل الاعتراضية هنا بما تحمله من دعاء لسيف الإسلام، بالبقاء، وطول العمر، تشير في سياقها الحب لهذا الأمير، كما تدل على حسن سيرته، وشجاعته، وتدل على فرحة الكاتب، وشعوره بنشوة النصر في حطين. ولقد ساهم التقسيم الموسيقي في قول الكاتب في موضع آخر من الرسالة: "ولازلت أيامه بالأيامن مسفرة، ولياليه بالمحاسن مقمرة، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة"⁽⁴⁾. فكل كلمة تقابلها كلمة على وزنها، الأمر الذي أسهم في إبراز المعنى، وتعميقه لدى المتلقي.

ويستخدم الفاضل الجملة المعترضة في سياق الحديث عن أئمة الكفر، وصناديد الفرنج، فإذا ذكر علماً من أعلامهم في رسالة أمطره باللعن والنبور.

فمن أمثلة ذلك ما كتبه الفاضل في رسالة إلى بغداد عن صلاح الدين يخبره بهزيمة الفرنج في حطين. يقول: "وفي هذا اليوم أسرت سرائهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومص، وكان - لعنه الله - ملياً يوم الظفر بالقتال، ويوم الخذلان بالاحتلال"⁽⁵⁾.

إن جملة - لعنه الله - تحمل في طياتها تنويعاً في الدلالة، فهي تعبر عن نفسية الكاتب تجاه أعداء الأمة، ومقته البالغ لهم. ويلاحظ هنا أن الموسيقى في الجملة استمدت حيويتها من دلالة الكلمات

(1) التبيان في روائع القرآن - تمام حسان: 183.

(2) المثل السائر - ابن الأثير: 169/2.

(3) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 190.

(4) الفتح القدسي - العماد الأصفهاني: 190.

(5) الدر النظيم - تحقيق أحمد بدوي: 24.

والعبارات التي تتأزر معاً في تشكيل البناء الموسيقي.

وأخيراً، ترى الباحثة أن ما عرضته ليس وحده قادراً على تشكيل الموسيقى في الرسالة بل كل الظواهر اللغوية تشارك في البناء الموسيقي؛ لأن اللغة "ألفاظ، ومعان، وشكل، ومضمون، إنها تنطوي على كثير من الإيحاء، والرمز، وجمال التقسيم، وروعة البناء، فكل كلمة لها أثر، وكل حرف له قيمته، وكل تركيب له دلالة"⁽¹⁾.

وجملة القول: إن الكتاب في هذا العصر استخدموا العنصر الموسيقي في رسائلهم، مما أكسب رسائلهم نغمات موسيقية نابضة بالإحساس، معبرة عن مشاعرهم، وخواطرهم مصورة عواطفهم أصدق تصوير.

* نموذجان تحليليان

وسأتناول بالتحليل -هنا- رسالتين مختلفتي الاتجاه، للوقوف على الملامح الأساسية لبنية الرسائل الفنية في هذا العصر.

أما أولاهما في البشارات: فهي رسالة العماد القدسية إلى الديوان العزيز ببغداد، يبشر فيها الخليفة بفتح بيت المقدس. وقد أحسن العماد الأصفهاني البدء بالرسالة، فقد افتتحها بآية من القرآن الكريم. يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾⁽²⁾. وهو استهلال موفق، إذ جاءت الآية تحمل البشرى بالنصر بأن الله وعد وصدق وعده، وأورثهم الأرض، ورد إليهم القدس بعد أن ظل حبيسا سنين طويلة بيد المشركين. وبعد الافتتاح يقدم للبشارة بمزيد من التحميد، فيحمد الله الذي أنجز وعده، ونصر أهل هذا الدين، ومكن دينه الذي ارتضى. ويستمر العماد في تحميداته ويكررها على عادة الكتاب في مثل هذا اللون من المكاتبات كما يقول القلقشندي: "إن الحسن فيها يعود إلى الافتتاح بالتحميد أو بالسلام، أو بما يوحى بتعظيم المكتوب إليه"⁽³⁾.

والعماد كما هو واضح يحرص على أن تكون مقدمة رسالته ملائمة للغرض الذي يريد، فهو يزف إلى الخليفة في بغداد البشارة بما أحرزه صلاح الدين من انتصار في حطين، وتوج ذلك كله باستعادة بيت المقدس من أيدي الفرنج.

وقد أطل العماد في مقدمته، ولجأ فيها إلى المزيد من التحميد متكئاً في حديثه عن الفتح بالربط بين هذا الفتح وبين أحداث تاريخية سابقة، مستفيداً من ثقافته الدينية، حيث يورد آية قرآنية تتناسب والمعنى الذي يتحدث عنه. ولم تشكل الإطالة خلا في الرسالة، بل جاءت مناسبة للموضوع، فعودة

⁽¹⁾ الصورة الفنية في شعر المعتمد بن عباد - بدر أحمد ضيف: 47.

⁽²⁾ سورة الأنبياء آية: 105.

⁽³⁾ صبح الأعشى - القلقشندي: 275/6.

القدس التي طال أسرها تستحق المزيد من الحمد لله الذي من عليهم بهذا الفتح العظيم. وينتقل الكاتب بعد هذه المقدمة إلى الغرض الذي أنشئت من أجله الرسالة، وقد أحسن التلخيص إلى مقصده بذكر نبأ

269

هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، بما يشرح صدور المسلمين. وبعد أن يذكر العماد أيام المعركة مجملة في المقدمة، يبدأ في الموضوع بعرض مجمل الأحداث في هذه الأيام. فالיום الأول هو يوم الخميس، فُتحت فيه طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها. وفي يوم الجمعة كُسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة. وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فُتحت عكا بالأمان، ورُفعت بها أعلام الإيمان⁽¹⁾.

وحدد الكاتب في موضوع الرسالة أبرز الأحداث، وأجمل ما حدث في كل يوم من أيام المعركة متأثراً بالقرآن الكريم في لغته وتصويره، يقول: "وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة"⁽²⁾. وقوله في وصف عكا "وهي أم البلاد وإرم ذات العماد"⁽³⁾.

ويبرز الكاتب صورة المحتلين وما حلّ بهم من الأسر والقتل والهوان، معتمداً في هذا التصوير على موروته الثقافي، مستخدماً أسلوب التهكم والسخرية من الفرنج، وكيف تحول حديدهم الذي كان يضرب وجه الإسلام إلى حديد يُغرق خطواتهم. ويصور بلاد الشام مغسولة بدماء أهل الشرك، وقد مضى حكم الله فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ووصل الراجل منهم إلى الشقاء المقيم⁽⁴⁾. ويحدثنا الكاتب عن أثر فتح بيت المقدس في نفوس المسلمين، فقد عاد الإسلام إلى موطنه بعد أن كان غريباً، وعاد الحق إلى نصابه. وتحدث عن الآثار الإيجابية التي نجمت عن هذا الفتح، حيث تحررت المدن الإسلامية، وعقدت مجالس الوعظ، والمجالس الأدبية، والمناظرات المذهبية.

ويختم العماد رسالته بخاتمة مناسبة للموضوع الذي يكتب فيه. فقد ختم رسالته إلى الخليفة في بغداد بالتحميدات، وهو بذلك يوافق ابن خلف فيما ذهب إليه من "أن الكتاب يختمون رسائلهم بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة ولأعدائه بالإزالة"⁽⁵⁾. يقول: "فالحمد لله حمدا لا تضرب عليه الحدود، ولا تزكى بأزكى منه العقود، وكأته بالبيت المقدس، وقد دنا الأقصى من أقصاه، وبلغ الله في الأمل الذي علم أن يحصيه، والله المشكور على ما وهب، والمسئول في إدامة ما استيقظ من جدّ الإسلام وهب"⁽⁶⁾.

وهكذا بنى العماد رسالته القدسية، فقد راعى فيها حسن الاستهلال، وقدم لها بمقدمة ذات ارتباط وثيق بالموضوع، وأتم حسنها بخاتمة ملائمة لموضوعها. واتسمت الرسالة القدسية بالتطويل والتفصيل، وهذا يعود إلى خصوصية هذه الرسائل؛ كونها موجهة إلى ديوان الخلافة ببغداد، كما أنها تتحدث عن

(1) صبح الأعشى - الفلقشندي: 518/6.

(2) المصدر نفسه: 519/6.

(3) المصدر نفسه: 519/6.

(4) المصدر نفسه: 519/6.

(5) مواد البيان - علي بن خلف: 558.

(6) صبح الأعشى - الفلقشندي: 520/6.

الفتح القدسي وأثاره، وتعرض صوراً للمعركة، وهي موضوعات قميئة بالتفصيل والإطناب. فكتب التهاني والفتوحات ينبغي على كاتبها "بسط الكلام والإطناب في شكر نعم الله" (7). وأكثر العمد في رسالته من استخدام الصنعة البديعية والمغالاة فيها، من مثل قوله: "فالزمان

270

كهينته البدر استدار، والحق بمهجته قد استتار، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار" (1). وشاعت في الرسالة مصطلحات خاصة بالنصرانية. وهذا أمر طبيعي، فالصراع بين المسلمين والفرنج كان صراعاً عقائدياً مثل صليب الصليب والداوية (2) والاسبتارية (3). وقد يلجأ إلى المقابلة بين التعبيرات الإسلامية والنصرانية، من مثل قوله: اليد الموحدة واليد المثثة. واتكأ الكاتب في رسالته بصورة خاصة على المادة القرآنية، والأثر الإسلامي حتى يحرض المسلمين، ويستثير همهم، ويشحن طاقتهم ضد الفرنج، فقد كان الكاتب يعمد إلى دمج القرآن في تضاعيف كلامه، وتخير المكان المناسب له، فيقول في تصويره لأيام الفتح: "وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار" (4)، وهو يقتبس قوله تعالى: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ (5).

أما ألفاظ الرسالة فقد جاءت جزلة، يحسن استخدامها في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد. أما الألفاظ الرقيقة، فيحسن استخدامها في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وأشباه ذلك (6). ويبدو هذا واضحاً في الرسالة، فقد اختار الكاتب الألفاظ المعبرة من مثل: "فإما سيوفٌ تقاتل سيوفاً أو زُحوفٌ تقاتل زحوفاً فيكون حدّ الحديد بيد مذكرا وبيد مؤنثاً" (7). وقد لجأ الكاتب إلى استخدام الغريب من الألفاظ للتوصل إلى السجع أو الجناس أو غيرهما من الفنون البديعية من مثل قوله: "وكم طعنةٍ تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ" (8). فلفظة شماريخ لفظة غريبة مفرداً شمراخ وهو رأس الجبل، وهو هنا رأس آلة الحرب (9). وأما النموذج الثاني الذي ارتأت الباحثة أن تتناوله بالتحليل، فهو فن المحاورات، وهو من الأشكال المتطورة التي طرأت على فن الرسائل في هذا العصر، كما أن هذا الغرض قد يتبدى باستقراء ملامح البناء الفني للرسالة في هذا العصر.

(7) المصدر نفسه: 336/2.

(1) صبح الأعشى - القلقشندي: 517/6-518.

(2) هم فرقة من الفرنج وقفوا أنفسهم على محاربة المسلمين، تأسست هذه الفرقة لحماية طريق الحاج المسيحي بين يافا والقدس ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية كان لها شأنها في التاريخ الإسلامي الصليبي. ينظر: الفتح القدسي: 62.

(3) هي جماعة من فرسان الفرنج لها كثير من خصائص الداوية، كان هدفها الأول علاج المرضى، وإيواء الحجاج ومساعدتهم ثم تحولت إلى فرقة حربية.

ينظر: البرق الشامي: 62، النجوم الزاهرة: 33/6.

(4) صبح الأعشى - القلقشندي: 519/6.

(5) سورة الحاقة آية: 7.

(6) المثل السائر - ابن الأثير: 209/2.

(7) صبح الأعشى - القلقشندي: 518/6.

(8) المصدر نفسه: 518/6.

(9) لسان العرب - ابن منظور: ينظر مادة شمراخ.

وهي لون من ألوان الرسائل شاركت في التعبير عن مضمونها وأبانت عن ملامحها الفنية. وهي رسائل تقوم على الحوار؛ كونه أهم العناصر الفنية التي ينعقد بها هذا اللون الأدبي، فالمحاوره فن حوارى يجري بين طرفين أو أكثر حول قضية معينة، وغالبا ما تكون هذه الآراء مُعبّرة عن وجهات نظر الأطراف المتحاوره.

271

ولعل من أنصح الرسائل الأدبية التي كتبت على صورة محاوره في هذا العصر رسالة الوهراني التي كتبها على لسان جامع دمشق، وتعدّ هذه الرسالة من أهم المحاورات التي ولدها الكاتب على السّنة الجوامع من جهة، والقاضي ابن عسرون، والملك العادل من جهة أخرى. ويبدو أن الكاتب كان يخشى مغبة التصريح بأرائه، فوجد في الأسلوب الرمزي وسيلة ناجعة تعفيه من المساءلة، وتوفر له قدرا من الآراء التي يرمي إلى التصريح بها. والكاتب في هذه الرسالة يميل إلى استخدام أسلوب الخطبة الإقناعي لعرض تصوره وفكرته، فقد أنزل الجوامع منزلة الخطيب الذي يواجه جمهورا، يشرح لهم سوء أحوال الجوامع، وما عانتها من إهمال وخراب قبل زمن نور الدين.

والرسالة تدور في سبعة أدوار رئيسية: الدور الأول: يدور حول اتفاق الجوامع على رفع شكاواها إلى أميرها الجامع الأموي عن طريق جامع النيرب⁽¹⁾، يصف فيها أحوال جوامع دمشق وما حولها آنذاك، وما تلقاه، "من جور العمال، وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد أفهم الظلم والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام"⁽²⁾.

ويميل الكاتب في هذا الدور إلى تضخيم مضمون الشكوى من خلال استخدام صيغ الجموع الدالة على سوء أحوال الجوامع، مثل قوله: "الوقوف، والسقوف، والحيطان،". وتأتي إجابة جامع دمشق بتقبل الشكوى، وتحمل هذه الإجابة بعض الملامح الأسلوبية المهمة مثل قصر العبارة وكثافتها، من مثل قوله: "فلما علم بمقتضى هذه الحكاية، استوى جالسا في مقعده، وضرب بيده، وقال: "كيف وأنى أم للإنسان ما تمنى؟"⁽³⁾.

الدور الثاني: يدور حول استماع أمير الجوامع إلى جامع المزة⁽⁴⁾. وتبدو في هذا الدور بعض الملامح الأسلوبية، منها: ميل الكاتب إلى انتقاء ألفاظه من المعجم الديني؛ ليكون ذلك أقرب للواقع، ومن ذلك ذكره بعض الألفاظ المتعلقة بالجوامع، كالراكع والساجد، وبيوت الله، والمحراب. ومن الملامح الأسلوبية التي تطالعنا، إقامة الكاتب شكوى جامع المزة على الاقتباس من القرآن الكريم؛ لجعل النص المقتبس وحده كافيا في التعبير عن الشكوى. ومن الشواهد على هذا المنحى:

(1) عند قصر شمس الملوك بقرب السماين، بناه نصر الفراه في النيرب. ينظر: تاريخ ابن عساكر: 228.

(2) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 62.

(3) المصدر نفسه: 63.

(4) قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، وهي اليوم حي من أحيائها. ينظر: معجم البلدان: 47/8.

﴿فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها﴾⁽⁵⁾.

ومن الملامح الأسلوبية الأخرى هيمنة الأسلوب الخطابي على الشكوى، فقد بدأ جامع المزة بالدعاء للجامع الأموي، وبالتحميد والصلاة على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وختمها بأسلوب خطابي، يقول: "أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين"⁽⁶⁾.

272

الدور الثالث: يدور حول استماع أمير الجوامع إلى مسجد برزة⁽¹⁾، والكاتب في هذا الدور يلجأ إلى استدعاء نفر من الشخصيات القرآنية، وقصص الأنبياء، وجعلها مادة للتعبير عما وصل إليه حال الجوامع من إهمال، يقول: "ومشهد هابيل قد رمى بطير أبابيل، ومشهد نوح نبكي عليه ونوح، فلحقت المشاهد بأربابها وأمست رميما كأصحابها، قد محتها الغوادي، وحدا بها الحادي"⁽²⁾.

ويبدو للباحثة من خلال الرسالة احتفال كتاب هذا العصر بالقصص القرآني، والشخصيات القرآنية، فقد كان القصص القرآني مصدر إلهام للكتاب في التعبير عما يريدون. وقد ينزع الكاتب القصة من سياقها القرآني، وتوظيفها في سياق جديد، من أجل الوصول إلى ما يرمي إليه.

والملاحظ على الأدوار الثلاثة الأولى أن الكاتب اعتمد التسلسل في تقديم الشكاوي؛ ليكشف عن رأيه في الشكاوي المقدمة، ولا شك في أن هذه الشكاوي في حقيقة الأمر هي شكاوي الوهراني نفسه، ولكنّه ألبسها ثوبا رمزيا يرمي من ورائه إيصال الفكرة التي يريدّها.

الدور الرابع: وهو لأمر الجوامع بعد استقباله الشكاوي المقدمة من الجوامع. وواضح أن جواب الجامع الأموي يقوم على عرض المظاهر السلبية التي عانت منها الجوامع، فقد أنزل الجامع الأموي منزلة الخطيب الذي يواجه جمهورا يشرح لهم فيها معاناة الجوامع، وذلك لحملها على تقديم شكاواها إلى القاضي سعد بن أبي عسرون. يقول: "أما بعد يا معشر المتكلمين، وطائفة المساجد المتظلمين، والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشيخ قصة، ولا تتركوا في صدوركم غصة، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعا من العتاب، فإن التأم رأيه برأيكم، وإلا فالسلطان من ورائكم"⁽³⁾.

الدور الخامس: يتمثل في كتابة الجامع الأموي إلى القاضي سعد بن أبي عسرون شكوى الجوامع، وجاءت الشكاوي مشحونة بأساليب الإدانة، فقد استهل الجامع رسالته بدءا بذكر نفسه، وآخر ذكر القاضي، وفي هذا الأسلوب من التقديم والتأخير من الإهانة ما فيه. وظهرت الإهانة مرة أخرى عندما نعت به بقوله: "يا غدار"، واستمر الجامع في توجيه سلسلة من الاتهامات المشينة لهذا القاضي،

⁽⁵⁾ سورة البقرة آية: 114.

⁽⁶⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 64.

⁽¹⁾ قرية من غوطة دمشق، وهذا الاسم يُطلق على عدة قرى. ينظر: معجم البلدان: 124/2.

⁽²⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 63.

⁽³⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 65.

ومنها: اكتنازه الأموال، وبيعه الآخرة بالدانية، واستطابته بالسكباح، وتفضيله الديباج. وضاعف الجامع الأموي إهانته له بوصفه بأنه نصيري⁽⁴⁾ الاعتقاد، لا يؤمن بالجمعة واليوم الآخر. وتطالعنا في هذا الدور بعض الملامح الأسلوبية منها قصر العبارة وتكثيفها، كقوله: "أيها الشيخ المفتون، والبائع المغبون، لم بعت الآخرة بالدانية، والباقية بالفانية"⁽⁵⁾. ومنها ميل الكاتب إلى عبارات التقرير والتوبيخ، التي تحمل في طياتها العظة والعبرة، ومن ذلك قوله: "لقد عجبت أيها الشيخ من حالك في ابتداء حالك، ومن فساد أمرك عند آخر عمرك، ومن

273

فساد دينك وضعف يقينك"⁽¹⁾.

ومن الملامح الأسلوبية لهذا الدور تطويع الكاتب المثل بحيث يُضفي على العبارة رونقا وجمالا، ومن ذلك تمهيد الكاتب للمثل بالعبارة المعترضة: "كما قيل في المثل" يقول: "صلى وصام لأمر كان يأمله حتى حواه فما صلى ولا صام"⁽²⁾ ويتمثل الدور السادس في ردّ القاضي ابن عسرون على رسالة الجامع الأموي، وجاء رد القاضي شديد النبوة، فقد كانت رسالة الجامع الأموي شديدة الوقع على نفس ابن عسرون، جعلته فاقدا لتوازنه مضطربا، ويصف الكاتب هذا الواقع متكئا في وصفه على نثر ألفاظ القرآن الكريم في ثنايا كلامه، يقول: "فلما وصل الكتاب إليه، وقرأ ما قد انطوى عليه، فكر وقد فقتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس ثم أدبر واستكبر"⁽³⁾⁽⁴⁾.

وعند النظر في رد ابن عسرون على رسالة الجامع الأموي، يتبين أن ردّه كان شديد النبوة. ويلاحظ القارئ أن رسالة الجامع الأموي إلى ابن عسرون وردّه عليه تبدو متقاربتين جدّا، فهما يتماسان في النسق والشكل بدءا، وتشتركان في معاني القدح والذم. واتسمت رسالة ابن عسرون بملامح أسلوبية، حيث استمد الكاتب بعض تعبيراته من الأمثال، ونثرها في ثنايا رسالته حتى لتبدو كأنها جزء من كلامه، يقول: "فاشدد من عقالك، وتأدب في مقالك، فما كل شخص يذم شكله، ولا كل طائر يحلّ أكله، وما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء فحمة"⁽⁵⁾⁽⁶⁾. ومن الملامح الأسلوبية، إيراد الشاعر بيتين من الشعر للتعبير عن فكرته دون التصريح باسم قائله. يقول: "تجنب دمشق فلا تأتها وإن راقك الجامع الجامع

(4) نصيري: منسوب إلى النصيرية، وهي مذهب باطني يخالف لعقيدة أهل السنة. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.

(5) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 68.

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 68.

(2) المصدر نفسه: 68.

(3) إشارة إلى الآيات: 18-19-20-21-22-23. من سورة المدثر.

(4) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 68.

(5) مجمع الأمثال - الميداني: 156/2.

(6) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 69.

فسوق الفسوق به قائم وفجر الفجور به طالع⁽⁷⁾

ويتعلق الدور السابع بكتاب الجامع الأموي إلى الملك العادل، بعد تهانون ابن عسرون، برسالته رافعا شكواه، وشكوى الجوامع إليه، لحلّ مشكلتها. وتبرز النزعة الخطابية في هذا الدور، وهذه الخطابة أشبه ما تكون بالخطبة الردعية من جهة، والوعظية من جهة أخرى، فالجامع الأموي يتحدث عن مكانته في العهد الإسلامي، يقول: "فتشرفت بدين محمد عليه أفضل السلام، فأنا المشرّف في كل قرآن والمعظم في كل أوان"⁽⁸⁾.

ومن جهة أخرى فالكاتب يرمي إلى تذكير الملك العادل على لسان الجامع بسلطاته، والتي تمنع

274

الخراب عن الجوامع، يقول: "فكيف يسعدك -أيّدك الله- أيها الملك التغافل عن حالي، والتحسين لنهب أموالي، ويدك مبسوطة في العباد، ومطلقة في البلاد"⁽¹⁾. ويلجأ الكاتب إلى تقديم النصح والوعظ، من خلال تذكيره بالموت والبعث والحساب، معتمدا في ذلك كله على المادة القرآنية. وقد وجد فيها الكاتب معينا لا ينضب في إيصال فكرته. يقول: "وأقول: رب سل هذا لم أهملني وسلمني لمن أكلني؟ فتقول: ﴿لِيَتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا* يُوِيلْتِي لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا﴾"⁽²⁾⁽³⁾.

ويختتم الكاتب هذه المحاور الطويلة بوقوف الملك العادل على شكوى الجوامع، فأزال الظلم عنها، وعمل على إعمارها، وتم عزل ابن عسرون، مستفيدا من القصص القرآني في تأكيد حديثه عن الظلم، وقد رأى الكاتب في قصة يوسف، وثمود ما يسند حديثه عن هذه القضية.

وقد حظيت قصة يوسف -عليه السلام- باهتمام كتاب هذا العصر؛ نظرا لما لها من خصوصية، يقول في معرض حديثه عن وقوف الملك العادل على شكوى الجوامع: "ولما علم فحوى شكيتهم، وعرف كنه قضيتهم، أزال عنهم ظلمهم، ﴿وَأَسْرَهَا يَوْسُفَ فِي نَفْسِهِ* وَلَمْ يَبْدَهَا﴾"⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

واتسمت الرسالة في مجملها بمجموعة سمات يدرکها الدارس، منها ظاهرتا الإطناب والتكرار، فالرسالة كلها تدور في فلك واحد، وهي شكوى الجوامع من الإهمال، فالكاتب أخذ في تقليب هذه الفكرة في قوالب لفظية متعددة؛ ليعبر عن فكرته بوضوح، فكأن الوهراني أحس أن الكلمات القليلة عاجزة عن التعبير عما يدور في نفسه من مشاعر وأحاسيس، لذا فإنه مال إلى الإطناب من أجل تأكيد الظلم، والإهمال الذي تتعرض له الجوامع، كما أنه وجد في معجمه اللغوي وسعة ثقافته ما أسعفه في إطنابه.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه: 69.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه: 70.

⁽¹⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 70.

⁽²⁾ سورة الفرقان آية: 28.

⁽³⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 70.

⁽⁴⁾ سورة يوسف آية: 77.

⁽⁵⁾ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق محمد نغش وإبراهيم شعلان: 71.

ويلحظ الدارس ميل الكاتب إلى الأسلوب القصصي، إذ نهج في هذه الرسالة نهج الحكايات، حتى غدت الرسالة سلسلة من المواقف والأحداث المتصلة، فكل دور من أدوار الرسالة، يروي لنا قصة، معتمدا في ذلك كله على ثقافته الدينية والأدبية، وعلى ضروب من المحسنات البديعية.

تناولت هذه الدراسة اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي، وقد جاءت في ستة فصول:

أبان الفصل الأول: تطور ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي، حيث أصبح له نظمه، وتقاليده.

أما الفصل الثاني: فقد كشفت عن مواكبة الرسائل الجهادية الأحداث التي مرت بها الأمة، وأصبحت أداة لمواجهة الفرنج، إذ عملت هذه الرسائل على تعبئة المسلمين نفسياً من أجل مواجهتهم، واستنقاذ الأراضي المغتصبة. كما استوعبت الرسائل جوانب عدة من المخاطبة الإعلامية بين الدولة والرعية وغيرها. وأظهرت الدراسة، أن تقليدات الخلفاء في هذا العصر كانت قليلة، فلم تعثر الباحثة إلا على تقليد واحد كتبه الخليفة في بغداد إلى السلطان صلاح الدين في إدارة مصر، والشام، واليمن.

وعبرت كتب الأمان عن منحى إعلامي هدفه طمأنة الخارجين على الدولة، وتأمينهم على حياتهم، وأهلهم. ولم تعثر الباحثة إلا على نص أمان واحد كتبه الفاضل إلى حطان بن مناف في اليمن. وقلت التوقيعات في هذا العصر، وأخذت تعدل عن سبيل الإيجاز، وهي مخاطبات اهتمت بقضايا فردية خاصة. أما التذاكر فقد تميزت بطوابع فنية خاصة، ومن الملفت للنظر أن هذا النوع من الرسائل نادر فلم أقف إلا على تذكرة واحدة، كتبها الفاضل على لسان صلاح الدين إلى بغداد.

ونمت الإخباريات نمواً واسعاً، واتسم هذا اللون من الرسائل بتحرره من القيود الفنية. كما أنها تنوعت تنوعاً ملحوظاً نظراً لكثرة الأحداث، وتشابكها.

وفصلت الرسائل في **الفصل الثالث** الحديث عن المجتمع الأيوبي، وفنائه، ومعيشتة، وعاداته، وتقاليده. واستوعبت الرسائل بعض التنظيمات الإدارية كالقضاء، والخراج، والثقافة، والتعليم، ورسائل التولية، والتعيين، ولكن ما وصل إلينا من النصوص يعد ضئيلاً، ولذلك لم تتمكن الباحثة من رسم صور مفصلة عن ملامح هذا اللون من الرسائل.

وكشفت الدراسة في **الفصل الرابع** عن أبرز العلاقات الشخصية بين أفراد ذلك المجتمع، كما أبانت عن خلجات نفوسهم، ورؤاهم، وأحلامهم، وصورت علاقات المودة حيناً، والجفاء حيناً آخر. ووضح **الفصل الخامس** مدى قدرة النثر على حمل الأغراض التقليدية التي كانت حكرًا على الشعر، وغدا النثر ممثلاً في الرسائل الأدبية كالشعر يطرق كل الأبواب، ويرتاد كل الميادين، بل ربما تفوق على الشعر في هذه الناحية.

كما أوضحت الباحثة وجود أغراض متطورة تباين الصورة التقليدية مثل: رسائل المفاخرات، والمفاضلات، والطرديات، والخمريات. وتبين أن ابن الأثير كان من أبرز المجددين في شكل الرسالة الأدبية في هذا العصر.

وفي الرسائل النقدية، ظهر أن نقد الفاضل لشعر ابن سناء ونثره كان نقداً تأثرياً انطباعياً لا يقوم على أسس نقدية باستثناء بعض الوقفات السريعة التي أشارت إليها الباحثة عند دراستها لهذه الرسائل.

وأما في **الفصل السادس** فقد لاحظت الباحثة أن البسمة ساقطة في جميع الرسائل، وهذا كان من اختصار المؤرخين وجامعي الرسائل، كما أن العنوان ساقط باستثناء القليل. ووجدت أن جانباً كبيراً من رسائل هذا العصر ظل محكوماً بتلك القوالب الفنية التي أودعها مؤسسو كتاب ديوان الرسائل، وإن كان بعض الكتاب قد انفك من القيود الفنية لبناء الرسائل في معظم الأحيان. ومنهم من حاول أن يراوح بين هذه القيود، والتحرر منها. ففي الرسائل الإخوانية، والأدبية تخفف بعض الكتاب من هذه القيود، وأهملوها بل سعوا إلى تغييرها. أما الرسائل الديوانية فبحكم صلتها بديوان الإنشاء، فقد اختصت دون غيرها بالالتزام بتلك العناصر، بل مضى بعض الكتاب إلى محاولة التجديد فيها، ومخالفة الصيغ المألوفة. ويبقى صدر الرسالة والدعاء فيها عند الكتاب يختلف من رسالة إلى أخرى، ومن غرض إلى آخر. أما بالنسبة للخاتمة: فقد تنوعت أساليب الكتاب في الخاتمة فهي تختلف من غرض إلى آخر. وانجلت الدراسة عن تباين الأساليب بين فن أدبي وآخر، فالرسالة السياسية يتباين أسلوبها عن الرسالة الإخوانية، وعن الرسالة الأدبية. واهتم الكتاب بألفاظهم، وبرعوا في انتقائها لتناسب مع المعاني.

واستخدم الكتاب الغريب في مواضع قليلة للوصول إلى الصنعة الفنية، كما استخدموا مصطلحات لغوية، ودينية، وفلسفية، ولكنهم لم يبالغوا في استخدامها فجاءت متفقة مع ما يرمون إليه في سياق النص.

وتبين للباحثة أن ألوان الصنعة التي وردت في رسائل الكتاب لم تكن على حساب معانيهم، ومضمون رسائلهم، باستثناء رسائل العماد الأصفهاني فقد أسرف في استخدام الأسلوب المصنوع، فنراه في رسائله يبحث عن الألفاظ المسجوعة لا ليكشف بها عن جوانب الموضوع الذي يتحدث عنه، وإنما يأتي بها لخصائصها الموسيقية، ولمناسبتها للسجعة التي سبقتها، حتى لو كانت غريبة أو بعيدة. وأظهرت الدراسة أن كتاب هذا العصر لم يلتزموا التورية في كل مناسبة بل جاء ورودها في رسائلهم بشكل قليل؛ وذلك لأن المسلك إلى هذه المعاني عسر جداً.

كما بينت أن الرسائل لم تكن على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة، فالمنشورات تراوحت بين الإيجاز والإطناب. أما التقليدات، والتذاكر، ورسائل الوحدة، والاستجداء، والبشرى، فهي رسائل اتسمت بالتفصيل والإطناب.

ولوحظ أن الرسائل الإخوانية والنقدية عند الفاضل موجزة، ونادراً ما تطول الرسالة. أما رسائل الوهراني وابن الأثير، فقد تراوحت بين الإيجاز والإطناب باستثناء رسائل المفارقات والمحاورات التي اتسمت بالتطويل والإطناب. وقد برزت بوضوح ظاهرة ازدحام الصور، واكتظاظها في رسائلهم، كما كشفت عن مصادر تنوع الصورة الأدبية في هذا العصر، وهو تنوع ينم عن سعة خيال الكتاب، وقدرتهم على الربط بين أفكارهم ومعانيهم، وموضوعاتهم، وبين ما توحى لهم بيئتهم، وثقافتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة الموضوعات هي التي كانت تفرض وجود الصورة الفنية، فالهدين، والمعاهدات والأمانات، يجب أن تخلو من التصوير، لأن هذا النوع من الرسائل يتطلب الدقة والوضوح.

وتشير الباحثة إلى أن الكناية لم تبرز بروزاً وافراً في رسائل الكتاب في هذا العصر لما تتطلبه من جهد، وعناء ذهني.

ومن الملاحظ أخيراً انحياز الكتاب في رسائلهم إلى الإيقاع الموسيقي مما أضفى عليها صوراً نابضة بالحياة والإحساس.

وقد أحقت بالدراسة، **فهارس عامة** تسهل للقارئ الوصول إلى المعلومة، ورتبتها كما يلي:

* فهرس الآيات القرآنية: (الآية، ورقمها، والسورة)، وقد رتبها حسب ورودها في الدراسة.

* فهرس الأحاديث النبوية: (الحديث الشريف، ورقم الصفحة التي ورد فيها).

* فهرس الأبيات الشعرية: وقد ذكرت فيه صدر البيت، وقافيته، واسم قائله، والصفحة التي

ورد فيه.

* فهرس الأمثال: وأوردت فيه المثل والصفحة التي ورد فيها.

* فهرس الأعلام: وقد ذكرت فيه (لقب العلم، وأسمه، ورقم الصفحة التي ترجم له فيها).

* فهرس المصطلحات: وأوردت فيه المصطلح، ورقم الصفحة التي عرّف فيها.

* فهرس الألفاظ المعربة والعامية: وأوردت فيه اللفظ، ورقم الصفحة التي عرّف فيها.

* فهرس الأماكن الجغرافية: وأوردت فيه المكان، ورقم الصفحة التي عرّف فيها.

* ثبت المصادر والمراجع.

وفي الختام: أدعو الله أن أكون قد وفقت في ما قدمت، وأن يكون في مادة هذه الدراسة ما يلقي

ضوءاً على هذه الظاهرة.

والله ولي التوفيق، ومنه نستمد العزم، والصبر، والعون في كل أحوالنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

الرقم	الآية	رقمها	السورة	رقم الصفحة
1	ولا تنازعوا فتفشلوا	46	الأنفال	31
2	كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله	249	البقرة	39
3	والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم	39	يس	43
4	وضربت عليهم الذلة والمسكنة	61	البقرة	44
5	جزاء وفاقا	26	النبأ	46
6	جزاء من ربك عطاء حسابا	36	النبأ	46
7	وسيق الذي كفروا إلى جهنم زمرا	71	الزمر	49
8	وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر	50	القمر	62
9	ولله جنود السموات والأرض	7	الفتح	79
10	ويجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق	19	البقرة	93
11	يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا	23	مريم	109
12	الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون	156	البقرة	124
13	وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين	50	المؤمنون	159
14	أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة	63	الكهف	161
15	هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه	11	لقمان	172
16	كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله	64	المائدة	174
17	وما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم	31	يوسف	176
18	فبأي آلاء ربكما تكذبان	تكررت في السورة	الرحمن	181
19	وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت	50	الحج	183
20	إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم	30	النمل	198
21	ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	105	الانبياء	201
22	قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا	90	يوسف	203
23	يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران	35	الرحمن	215
24	فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء	174	آل عمران	215
25	أتى أمر الله فلا تستعجلوه	10	النمل	216
26	فقدفناها فكذلك ألقى السامري	87	طه	216
27	ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة	95	الأعراف	216
28	لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب	35	فاطر	217
29	وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا	78	الكهف	217
30	إن الحسنات يذهبن السيئات	114	هود	217
31	ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها	68	يوسف	217
32	كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلود غيرها ليزوقوا العذاب	56	النساء	217
33	لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما	25	الواقعة	218

تابع فهرس الآيات القرآنية

الرقم	الآية	رقمها	السورة	رقم الصفحة
34	هماز مشاء بنميم	11	القلم	218
35	يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين	4	يوسف	219
36	فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم	77	يوسف	219
37	يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر بابسات	46	يوسف	219
38	وظهر أمر الله وهم كارهون	48	التوبة	231
39	فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية	7	الحاقة	235
40	إن هم إلا كالأنعام	44	الفرقان	252
41	سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما	7	الحاقة	270
42	فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه	114	البقرة	271
43	يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا* يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا	29-28	الفرقان	274

فهرس الأحاديث النبوية

الرقم	الحديث	رقم الصفحة
1	اللهم إن تهلك هذه العصابة	37
2	وما من قلب إلا وصورتها نُجلى عليه في سرقة	143
3	إن الله تكفل لي بالشام وأهله	159
4	أطع ولو عبدا حبشيا مجدعا ما أقيم عليك كتاب الله	174
5	كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع	198
6	الولد للفراش، وللعاهر الحجر	220
7	زر غبا تزدد حبا	220
8	سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ وما أعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي ..	221
9	يا أهل بدر اصنعوا	221
10	سبقك بها عكاشة	221

فهرس الأبيات الشعرية

الرقم	صدر البيت	قافيته	اسم الشاعر	رقم الصفحة
1	ألا ليت أُمِّي أَيْمٌ طَوَّلَ عَمْرَهَا	بعل	الناصر داود	109
2	أَهَا عَلَيْهَا لِيَالٍ مَا تَرَكْنَ لَنَا	الحلم	الفاضل	128
3	إِن الْمُلُوكَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا	الخشن	أبو تمام	149
4	وَمَا خَبَرَهُ إِلَّا كَأَوَى يَرَى ابْنَهُ	سهل	أبو نواس	163
5	لَمْ أَتَهَا مِنْ أَيِّ وَجْهِ جَنَّتْهَا	أجداثا	غير معروف	164
6	لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ	السوافك	متمم بن نويرة	166
7	أَمْرَابِعُ الْغَزْلَانِ غَيْرِكَ الْبَلَى	الغزلان	الشريف الرضي	166
8	مَجْدٌ تَلُوحُ حُجُولُهُ وَنَصِيلُهُ	ينلثم	غير معروف	168
9	وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلُهُ	يجرب	المنتبي	176
10	إِذَا هِيَ حَلَّتْ فِي اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى	برحيل	أبو نواس	179
11	عَنْ مَهْجَتِي تَتَحَدَّثُ الْجَمْرَاتُ	الوجنات	غير معروف	182
12	وَهَاتِفَةٌ فِي الْبَانِ تَمْلِي غَرَامَهَا	صحفا	غير معروف	183
13	نَظَرَ الْحَبِيبِ إِلَيَّ مِنْ طَرَفٍ خَفِي	مدنف	ابن سناء الملك	185
14	لَوْ وَاصِلَتْنِي يَوْمًا لَمْ أُمُتْ أَبَدًا	كمدا	ابن سناء الملك	186
15	لَسْتُ أَدْرِي بِأَيِّ فَتْحٍ تُهِنَا	تمنى	ابن سناء الملك	186
16	أَتَيْتُ فُجْلِيَّتَ عَنَّا الْهَمُومُ	الكروب	ابن سناء الملك	186
17	صَلْبِي وَهَذَا الْحُسْنُ بَاقٍ، فَرُبَّمَا	يكنس	ابن سناء الملك	186
18	وَقَوْمِي مِثْلُ الْفَتَاةِ مِنَ الْخَطِّ	مكنوس	ابن المعتز	187
19	أَجِدُّكَ مَا تَتَفَكَّرُ يَسْرِي لَزِينَا	تأوبا	البحثري	187
20	تَذَكَّرْتُ أَيَّامَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا	معجبا	ابن سناء الملك	187
21	أَلَا فَاغْتَنَبَ مِنْ أَفْقِهَا طَلَعُ الْفَجْرِ	الثغر	ابن سناء الملك	188
22	وَسَاحِرَةٌ صَانَتْ سَلَافَةَ حُبِّهَا	السحر	ابن سناء الملك	189
23	فَلَا تَتَكْرَوا مِنْهَا الْخَضَابُ، فَإِنَّمَا	الخضر	ابن سناء الملك	189
24	تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتُهَا	الخضر	أبو صخر الهذلي	189
25	أَلَا فَاغْتَبُوا مِنْ هَجْرٍهَا لِحَبِيبِهَا	مشبيها	ابن سناء الملك	190
26	عِيرَتْنِي الْمَشْيِبُ وَهِيَ بَدَتْهُ	الاجتتاب	البحثري	190
27	صَرَفَ كَأْسِي جُلْتَارَهُ	بهاره	ابن سناء الملك	193
28	فِي خَدِّكَ مِنْ صَيَّرِ اللَّادِ	الياسمين	ابن سناء الملك	193
29	إِنْ كُنْتُ لَسْتُ مَعِي، فَالذِّكْرُ مَعَكَ مَعِي	بصري	الفاضل	203
30	أَيَا مُلْكًا أَهْدَى إِلَيَّ تَحِيَّةَ	مشمه	الناصر داود	203
31	قَدِمْتُ فَاغْدَمْتُ النَّدَى يَحْمِلُ الرِّضَا	عائب	الفاضل	207
32	يَكُونُ أَجَاغًا دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى	فيطيب	غير معروف	207
33	شَرَبْنَا بِكَاسِ الْفَقْرِ يَوْمًا وَبِالْغَنَى	الدهر	حاتم الطائي	222

تابع فهرس الأبيات الشعرية

الرقم	صدر البيت	قافيته	اسم الشاعر	رقم الصفحة
34	دعاء كالثناء بلا رياء	الجنان	المتنبي	222
35	واني لراض منك يا بشن بالذي	بلابله	جميل بثينة	223
36	يا ملكا حل قلبي من جلالتة	إيماض	الناصر داود	223
37	تجنب دمشق فلا تأتها	الجامع	غير معروف	223
38	لا تحسبن البُعْدَ غَيْرَنِي	عهدي	الفاضل	224
39	ايا ملكا يقلّي الفلاة جواده	مراده	الناصر داود	224
40	لا تتركن وجوه الخيل ساهمة	قدم	المتنبي	224
41	نقل فؤادك حيث شئت من الهوى	أول	أبو تمام	225
42	والقى الشرق منها في ثيابي	البنان	المتنبي	225
43	تجمع فيه كلّ لسن وأمة	التراجم	المتنبي	225
44	وليل كموج البحر أرخى سدوله	لبيبتلي	امرؤ القيس	226
45	ضافت فلما استحكمت حلقاتها	تفرج	الشافعي	226
46	بكر فما افترعتها كف حادثة	النوب	أبو تمام	226
47	خلّ عنا فإنما أنت فينا	المعاد	البحثري	226

فهرس الأمثال

الرقم	المثال	رقم الصفحة
1	إياك أعني واسمعي يا جاره	61
2	كل ما ينفع الكبد مضر بالطحال	164
3	إذا جاء نهر يزيد	183
4	لا عطر بعد عروس	227
5	حال الجريض دون القريض	227
6	إن الباغي له مصرع	227
7	رب ساع لقاء	227
8	كمستبضع التمر إلى هجر	228
9	صلى وصام لأمر كان يأمله حتى حواه فما صلى ولا صاما	273

فهرس الأعلام

الرقم	اللقب	الاسم	رقم الصفحة
1	ابن الصيرفي	علي بن منجب	8
2	ابن قادوس	محمود بن إسماعيل	9
3	ابن الخلال	يوسف بن محمد	9
4	ابن مماتي	أسعد بن الخطير	9
5	ابن شيث القرشي	عبد الرحيم بن علي	9
6	ابن الأثير	نصر الله بن محمد	9
7	الملك الأفضل	علي بن صلاح الدين	11
8	ابن النبيه	علي بن محمد	12
9	الملك الأشرف	موسى بن العادل	12
10	الملك المعظم	عيسى بن العادل	12
11	الملك الصالح	أيوب بن الكامل	12
12	بهاء الدين	بهاء الدين بن زهير	12
13	ابن لقمان	إبراهيم بن لقمان	12
14	نجم الدين	عمارة بن زيدان	13
15	الملك الناصر	داود بن عيسى	14
16	الملك الأمجد	الحسن بن داود	14
17	الموصلي	موسى بن الحسن	14
18	ابن بري	عبد الله بن الوحش	15
19	الحلبي	محمود بن سليمان	18
20	العمرى	أحمد بن فضل الله	18
21	ابن عبد المؤمن	يعقوب بن يوسف	32
22	سيف الإسلام	طغتكين بن أيوب	34
23	ملك الألمان	فردريك بربروس	35
24	الملك المظفر	عمر بن شاهنشاه	41
25	حسام الدين	لولؤ	49
26	ابن شداد	يوسف بن الأزدي	51
27	زنكي	عز الدين زنكي	56
28	ابن أنر	مسعود بن معين الدين	61
29	الملك العادل	محمد بن أيوب	75
30	مبارز الدين الحلبي	ختلخ	76
31	ابن الفراش	محمد بن موسى	77
32	ابن منقذ	حطان بن منقذ	82
33	الناصر لدين الله	أحمد بن المستضيء	86
34	جرج	اسم كاتب ورسول الفرنج	87
35	قراقوش	بهاء الدين الأسدي	88

تابع فهرس الأعلام

الرقم	اللقب	الاسم	رقم الصفحة
36	الأزدي	علي بن ظافر	89
37	ابن زكي القرشي	محمد بن علي	93
38	شيخ الإسلام	العز بن عبد السلام	102
39	السهروردي	يحيى بن حبش	105
40	الكاساني	علاء الدين	106
41	ابن عصرون	عبد الله بن محمد	108
42	جرجس	أسعد بن إلياس	121
43	بن قليج	علي بن قليج	124
44	الملك المنصور	إبراهيم بن شيركوه	128
45	ابن أبي بلتعة	حاطب بن أبي بلتعة	135
46	مجاهد الدين	قايماز	137
47	الملك الصالح	عماد الدين إسماعيل	147
48	البصروي	داود بن النقيب	147
49	ابن شكر	عبد الله بن علي	159
50	مجد الدين	محمد بن عبد الكريم	165
51	ابن سكيئة	عبد الوهاب بن علي	167
52	غياث الدين	شادي بن داود	170
53	زين الدين الواعظ	علي بن إبراهيم بن نجا	180
54	الوآء	محمد بن أحمد	185
55	ابن أبي الشخباء	الحسن بن عبد الصمد	229

فهرس المصطلحات

الرقم	المصطلحات	رقم الصفحة
1	الملطفات	11
2	صاحب ديوان الإنشاء	12
3	أبراج الحمام	16
4	الفداوية	16
5	المناور	16
6	المحرقات	16
7	ديوان الإقطاع	22
8	الجوالي	26
9	الشواني	51
10	الشلنديات	51
11	الحراريق	51
12	الأبرجة	57
13	الدبابات	57

تابع فهرس المصطلحات

الرقم	المصطلحات	رقم الصفحة
14	الكلايب	63
15	البطس	63
16	المحتسب	73
17	العلامة	74
18	نقيب الأشراف	95
19	البنادقه	113
20	البياشنة	113
21	الجنوية	113
22	رسائل الخميس	191
23	الجنابات	212
24	المكاشفة	212

فهرس الألفاظ المعربة والعامية

الرقم	اللفظ المعرب	رقم الصفحة
1	الزرجون	59
2	الخاتون	80
3	البيكار	90
4	السكباچ	214
5	الزربول	214
6	الشمسك	214
7	الركوة	214
8	التاموسه	214
9	الهماليچ	214
10	الإطريفل	214
11	جامكية	214

فهرس الأماكن

الرقم	اسم المكان	رقم الصفحة
1	مرج صفورية	47
2	تل حطين	47
3	حصن كوكب	56
4	بيت الأحزان	59
5	حصن برزية	61
6	برج الذبان	63
7	سناجار	71
8	الرها	85
9	ملطية	97
10	عزاز	118
11	صرخد	132
12	الخابور	164
13	بركة الحبش	175
14	بركة الفيل	175
15	حران	185
16	صدر	212
17	حسمى	212
18	سنير	213
19	ثبير	213
20	النيرب	271
21	المزة	271
22	برزه	272

المخطوطات

ابن نباتة المصري، (ت768هـ):

رسائل القاضي الفاضل الأدبية، (مخطوط المكتبة الأزهرية برقم 439) (أبازة-7035 أدب) ومنه نسخة ميكروفيلمية بمعهد المخطوطات العربية برقم 1731 أدب. الفاضل من إنشاء الفاضل، (مخطوط المكتبة الأزهرية رقم 469) (أبازة-7065 أدب). المختار من كلام القاضي الفاضل، (مخطوط دار الكتب رقم 3882 أدب)، مصور عن مخطوط المتحف البريطاني، ومنه نسخة ميكروفيلمية بمعهد المخطوطات العربية رقم 209 أدب.

ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى. (ت749هـ). مسالك الأبصار، (من مصورات مكتبة الجامعة الأردنية)، رقم 395، ورقم 397.

المصادر والمراجع المطبوعة

إبراهيم: د. محمود. صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، المكتبة الإسلامية بدمشق، ومكتب الأقصى بعمان، 1971م.

ابن الأثير: أبو الفتح، نصر الله بن محمد، (ت637هـ):

الوشى المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: د. جميل سعد، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 1989م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: الشيخ كامل محمد عويضة، منشورات دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1998م.

رسائل ابن الأثير، دراسة وتحقيق: د. نوري القيسي وهلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1982م.

ديوان رسائل ابن الأثير، دراسة وتحقيق: هلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1982م.

رسائل ابن الأثير، حررها وحققها: أنيس المقدسي، مطبعة بيروت، 1906م.

رسالة الأزهار: تحقيق هلال ناجي، مطبعة جامعة الموصل، 1983م.

المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء، تحقيق: د. عبد الواحد حسن، ط1، الإسكندرية، 1990م.

الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان "المسمأة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائفة"،

تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1958م.

288

أحمد كامل: د. ماجدة جمال الدين - الموشحات في العصر الأيوبي، مطبعة الصدر، القاهرة.

الأزدي: علي بن ظافر، (ت613هـ) - بدائع البدائ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع مطبعة

الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

الأصفهاني: محمد بن حامد، (ت597هـ):

الفيح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم د. محمد محمود صبح، الدار القومية

للطباعة.

البرق الشامي، ج3، تحقيق: د. مصطفى الحيارى، مؤسسة شومان، ط1، عمان، 1987م.

ج5، تحقيق: د. فالح صالح حسين، مؤسسة شومان، ط1، عمان، 1987م.

خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، المطبعة

الهاشمية، دمشق، ج1: 1955م، ج2: 1959م، ج3: 1964.

قسم شعراء مصر، نشره: د. أحمد أمين ود. شوقي ضيف، ود. إحسان عباس، لجنة التأليف

والترجمة، والنشر، 1951م.

رسالة العتبي والعتبي ضمن كتاب الروضتين، تحقيق: د. إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة،

ط1، بيروت، 1997م.

امرؤ القيس: حندج بن حجر، (ت80ق.هـ) - ديوان امرؤ القيس بشرح الأعلام الشنتمري - تحقيق:

محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة.

أنيس: د. إبراهيم - موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، القاهرة، 1981م.

الأهواني: د. عبد العزيز - ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، مكتبة الأنجلو، 1962م.

الباشا: د. حسن - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة، القاهرة، 1957م.

باشا: د. عمر موسى:

عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، 1964م.

أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، ط1، دمشق، 1967م.

- البحتري: أبو عبادة، الوليد بن عبيد، (ت284هـ) - ديوان البحتري، تحقيق وتعليق، وشرح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1972م.
- البخاري: أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، (ت256هـ) - صحيح البخاري، عالم الكتب، القاهرة.
- 289
- بدوي: د. أحمد أحمد:
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر، ط1979، 2م.
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة بالقاهرة.
- البدوي: د. آمنة سليمان - الشعر الاجتماعي في بلاد الشام في ظل الزنكيين والأيوبيين، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1991م.
- البستان: د. صبحي - الصورة الفنية في الكتابة الشعرية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1986م.
- البقلي: د. محمد قنديل - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- البكري: أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز، (ت487هـ) - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م.
- البنداري: الفتح بن علي، (ت643هـ):
- سنا البرق الشامي، (اختصار البرق الشامي)، تحقيق: د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي بمصر، 1979م.
- سنا البرق الشامي، (اختصار البرق الشامي)، تحقيق: د. رمضان ششن، القسم الأول، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1971م.
- البيساني: عبد الرحيم بن علي، (ت596هـ):
- إنشاءات القاضي الفاضل، تحقيق: د. فتحية النبراوي، نشر الدار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط1، القاهرة، 1980م.
- الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم، اختيار محي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، 1959م.
- رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل، اختيار ابن الديباجي، تحقيق: د. محمد نغش، 1978م.

ديوان الفاضل، تحقيق: د. أحمد بدوي، وزارة الثقافة، ط2، القاهرة، 1961م.

ابن تغري بردي: جمال الدين، يوسف بن تغري، (ت874هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - المؤسسة العامة للتأليف والنشر.

290

الجاحظ: أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ) - البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتب الخانجي، ط5، القاهرة، 1985م.

جب، هاملتون - صلاح الدين دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها يوسف ايّيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973م.

جبر: خالد عبد الرؤوف - الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول بمصر والشام، رسالة ماجستير، الجامعة

ابن جبير: أبو الحسين، محمد بن أحمد، (ت614هـ) - رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر، ودار بيروت، بيروت، 1964م.

جميل بثينة: جميل بن معمر - ديوان جميل بثينة - تحقيق: د. حسين نصار، مكتب مصر، ط2، القاهرة، 1967م.

الجندي: د. علي - فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

الجواليقي: موهوب بن أحمد، (ت1144م) - المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، طهران، 1966م.

ابن الجوزي: أبو المظفر، يوسف بن قز أوغلي، (ت97هـ) - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1951م.

الجويني: د. محمد الصاوي:

ملاح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م.

المعاني علم الأسلوب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1993م.

حجاب: د. محمد نبيه - بلاغة الكتاب في العصر العباسي، المطبعة الفنية، ط1، القاهرة، 1965م.

ابن حجة: تقي الدين، علي بن محمد، (ت837هـ):

ثمرات الأوراق، صححه: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي بمصر، ط1، 1971م.
خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس للطباعة والنشر، بيروت.

291

ابن حجر: شهاب الدين، أحمد بن علي، (ت852هـ) - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: د. محمد سيد جاد الحق، دار الكتب، القاهرة، 1966م.

الحرثاني: نهلة عبد الكريم - ابن شيث القرشي حياته وآثاره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1991م.

حسان: د. تمام - التبيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1993م.

حسين: د. محمد كامل - دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر، القاهرة، 1957م.

الحلبي: شهاب الدين، محمود بن سليمان، (ت725هـ) - حسن التوصل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة: د. أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980م.

حمزة: د. عبد اللطيف - أدب الحروب الصليبية، دار الفكر، ط1، 1949م.

الحموي: ياقوت بن عبد الله، (ت626هـ) - إرشاد الأريب لمعرفة الأديب المعروف باسم معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، (ت808هـ) - مقدمة ابن خلدون - دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة.

ابن خلكان: شمس الدين، أحمد بن محمد، (ت681هـ) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977م.

خليل: د. عماد الدين - نور الدين محمود الرّجل والتجربة، دار القلم، ط1، دمشق، 1980م.

الدروبي: محمد محمود - الرسائل الفنية في العصر العباسي، دار الفكر، عمان، ط1، 1999م.

أبو رباح: د. نبيل خالد علي - نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، إشراف: د. محمد زغلول سلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.

الرباعي: د. عبد القادر - الصورة الفنية في شعر أبي تمام، إربد، 1980م.

ابن رشيق: أبو علي، الحسن بن رشيق، (ت 456هـ) - العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط2، القاهرة، 1955م.

292

رمضان: د. أحمد - المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة، 1977م.

بن رمضان: د. صالح - الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، تونس، 2001م. الأردنية، 1992م.

رنسيما: ستيفن - تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

زايد: د. مصطفى محمود - النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، دار البشير، ط1، عمان، 2004م.

الساريسي: د. عمر - نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، دار المنارة، ط1، جدة، 1985م.

سلام: د. محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، 1967م.

الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، القاهرة، 1971م.

البلاغة والنقد في عصر المماليك وكتاب جوهر الكنز "لنجم الدين بن الأثير"، مجلة

فصول، مج 6-14 أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985م.

سلطان: د. منير - البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الاسكندرية.

ابن أبي سلمى: زهير، (ت 609م) - ديوان زهير ابن أبي سلمى، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م.

سليم: د.محمود رزق- **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي**، ج5، مكتبة الآداب، القاهرة، 1956م.

بن سناء الملك: هبة الله بن جعفر (ت608هـ):

فصوص الفصول وعقود العقول، منشور في كتاب "البديع لغة الموسيقى والزخرف"، د.مصطفى الصاوي الجويني- دار المعرفة، الإسكندرية، 1993م.

ديوان ابن سناء الملك، تحقيق: د.محمد إبراهيم نصر، مراجعة د.حسين نصار، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م.

دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق: د.جودت الركابي، ط2، دمشق، 1977م.

293

ابن سنان: أبو محمد، عبد الله بن محمد، (ت466هـ)- **سر الفصاحة**، صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، 1953م.

السيوطي: جلال الدين، عبد الرحمن الخضري: (ت911هـ)- **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو شامة: شهاب الدين، عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت665هـ):

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه وعلق عليه: د.إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1997م.

الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين (أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع للهجرة)، عني بنشره وراجع أصله: عزت العطار الحسيني، دار الجيل، ط2، بيروت، 1974م.

ابن شداد: بهاء الدين، يوسف بن شداد، (ت632هـ)- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: د.جمال الدين الشيال، طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط1، 1964م.

ابن شداد: عز الدين، محمد بن علي، (ت684هـ):

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة تاريخ مدينة حلب، ج1، القسم الأول، عني بنشره وتحقيقه: دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1953م.

تاريخ مدينة دمشق، عني بنشره وتحقيقه، ووضع فهارسه: د. سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1953م.

أبو شريفة: عبد القادر شريف- صورة الصليبيين في الأدب العربي، رسالة ماجستير الجامعة الأردنية، عمان، 1978م.

الشكعة: د. مصطفى- الأصول الأدبية في صبح الأعشى، دار الأحد، بيروت، 1983م.

الشهاب: د. عبد الرحيم بخيت- العماد الأصفهاني الأديب، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، 1995م.

ابن شيث: عبد الرحيم بن علي، (ت625هـ)- معالم الكتابة ومغامم الإصابة، تحقيق: د. محمد حسين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988م.

294

شير: أدي- الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1908م.

الصفدي: صلاح الدين، خليل بن أبيك، (ت764هـ):

نصرة الثائر على المثل السائر، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، من مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971م.

الوافي بالوفيات، ج 18، تحقيق: د. أيمن فؤاد السيد، دار النشر، فراتر شتايز فيسبادن، تشنتوتغارت، 1988م.

فض الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيق: د. عبد العزيز الحناوي، دار الطباعة، مصر، 1979م.

ابن الصيرفي: أبو القاسم، علي بن منجب، (ت505هـ):

القانون في ديوان الرسائل، مطبعة الواعظ بمصر، 1905م.

الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، منشورات المعهد الفرنسي، القاهرة، 1924م.

الأفضليات، تحقيق: د. وليد قصاب، ود. عبد العزيز المانع، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982م.

ضيف: د. بدر أحمد- الصورة الفنية في شعر المعتمد بن عباد، مكتبة التركي، طنطا، 1997م.

ضيف: د. شوقي:

عصر الدول والإمارات، الشام، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

عصر الدول والإمارات، مصر، دار المعارف، القاهرة.

الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1983م.

العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1972م.

فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، ط2، القاهرة.

البحث الأدبي، دار المعارف، مصر، 1976م.

الطائي: حاتم، (ت578م) - ديوان حاتم الطائي - تحقيق عادل سليمان، مكتبة وهبة، القاهرة.

عاشور: د. سعيد - تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع، مؤتمر بلاد الشام،

الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، 1974م.

295

عباس: د. إحسان - فن الشعر، دار الثقافة، ط3، بيروت.

عبد الفتاح: د. حلمي إبراهيم - أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل، رسالة دكتوراه،

الجامعة الأردنية، عمان، 1987م.

عبد الله: د. محمد حسين - الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة.

عبد المهدي: د. عبد الجليل حسن:

الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى،

عمان، 1980م.

بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ط2، 1995م.

ابن زكي وخطبته القدسية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد: 36، السنة الثالثة

عشرة جمادى الأولى، شوال 1409هـ / كانون الثاني - حزيران 1989م.

المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي "متعلمة ومعلمة"، مجلة مجمع اللغة

العربية الأردني: العدد: 38، السنة: الرابعة عشرة - جمادى الأولى - شوال 1410هـ،

حزيران: 1990م.

أبو العتاهية: أبو اسحاق، اسماعيل بن القاسم، (ت211هـ) - ديوان أبي العتاهية، دار صادر،

بيروت، 1980م.

ابن العديم: كمال الدين، عمر بن أحمد، (ت660هـ) - زبدة الحلب من تاريخ حلب، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه، د. سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 3 أجزاء، 1951م، 1954م، 1968م.

عرفة: د. راسم خليل - ابن الأثير كاتباً، رسالة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1998م.

عرفة: ماهر خليل - القاضي الفاضل أديباً، رسالة ماجستير، جامعة القديس يوسف، 1998م.

العريني: د. السيد الباز - الشرق الأدنى في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت.

العسكري: أبو هلال، الحسن بن عبد الله، (ت395هـ) - كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قمحية، طبعة دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1974م.

عطا الله: د. محمد عبد الرحمن - رسائل القاضي الفاضل، دراسة تحليلية، تقديم أ.د. محمد زغلول سلام، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، طنطا، 2000م.

296

العقاد: د. عباس محمود - اللغة الشاعرة، مكتبة غريب، القاهرة.

علي: محمد كرد - خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط1982، 3م.

ابن العماد: أبو الفلاح، عبد الحي بن العماد، (ت874هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة، بيروت.

عيد: د. رجاء - المذهب البديعي في الشعر والنقد، منشأة المعارف، الإسكندرية.

فؤاد: د. نعمات أحمد - النيل في الأدب المصري، دار المعارف، مصر، 1962م.

ابن فضل الله: شهاب الدين، أحمد فضل الله، (ت749هـ):

التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: د. محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.

التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: د. سمير الدروبي، جامعة مؤتة، الأردن، 1992م.

ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم، (ت276هـ) - أدب الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط4، القاهرة، 1963م.

القلانسي: أبو يعلي، حمزة بن أسد، (ت555هـ) - نيل تاريخ دمشق، مطبعة اليسوعيين، بيروت، 1908م.

القلقشندي: أبو العباس، أحمد علي، (ت821هـ) - **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد بمصر، القاهرة، 1963م.

القيسي: د. فايز عبد النبي - **أدب الرسائل في الأندلس**، دار البشير، عمان، ط1، 1989م.

الكاتب: علي بن خلف، (غير معروف تاريخ الوفاة) - **مواد البيان**، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1982م.

الكتبي: صلاح الدين، محمد بن شاعر، (ت764هـ) - **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م.

ابن كثير: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، (ت774هـ) - **البداية والنهاية في التاريخ**، تحقيق: د. أحمد أبو ملحوم وزملائه، دار الكتب، ط3، بيروت، 1987م.

297

الكلاعي: أبو القاسم، محمد بن عبد الغفور، (ت508هـ) - **إحكام صناعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس**، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الدايدة، عالم الكتب، ط2، بيروت، 1985م.

الكيلاني: د. محمد سيد - **الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام**، 1949م.

ماجد: د. عبد المنعم:

الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1972م.

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964م.

المتنبى: أبو الطيب، أحمد بن الحسين، (ت354هـ) - **ديوان المتنبى بشرح أبي البقاء العكبري المسمى "بالتبيان في شرح الديوان"**، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، 1971م.

مجموعة من الباحثين. **بحوث ندوة أبناء الأثرية المنعقدة بين 3/27 - 82/4/1**، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1983م.

مسلم: أبو الحسين، مسلم بن الحجاج، (ت261هـ) - صحيح مسلم، نشر مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، توزيع مكتب الغزالي بدمشق.

مصطفى: د. أحمد أمين - الرسائل في مصر الإسلامية، مطبعة السعادة، ط1990، م1.

مصطفى: د. محمود - الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، دار الكاتب العربي.

ابن المعتز: أبو العباس، عبد الله بن محمد، (ت296هـ) - ديوان ابن المعتز - دار صادر، بيروت، 1961م.

المقدسي: د. أنيس - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط1979، م6.

المقريزي: أبو العباس، أحمد بن علي، (ت845هـ) - الخطط المقرئية "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، تحقيق: د. محمد زينهم، ومديحه الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م.

ابن ممتي: أبو المكام، أسعد بن مهذب، (ت606هـ) - قوانين الدواوين، جمع وتحقيق: عزيز سوريال، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، 1934م.

298

ابن منظور: أبو الفضل، محمد بن مكرم، (ت711هـ) - لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

ابن منقذ: أسامة بن منقذ، (ت584هـ):

الاعتبار، تحقيق د. فيليب حتى، طبعة مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، 1930م.

كتاب العصا - تحقيق: د. حسن عباس، الهيئة المصرية للكتاب - فرع الإسكندرية، 1981م.

البدیع في نقد الشعر، تحقيق: د. أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1960م.

موسى: د. أحمد إبراهيم - الصبغ البدیعی في اللغة العربية - دار الكاتب العربي، القاهرة، 1969م.

الميداني: أبو الفضل، أحمد بن محمد، (ت518هـ) - مجمع الأمثال، حققه، وفصله، وضبط غرائب، وعلق حواشيه، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 1955م.

الناصر داود: داود بن عيسى، (ت656هـ) - الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية، جمعه ابنه الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن، تحقيق: د. ناظم رشيد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1992م.

ناصر: د. مصطفى - نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

ابن النديم: أبو الفرج، محمد بن اسحق، (ت 438هـ) - الفهرست، تحقيق د. ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجادة، ط 1، قطر، 1985م.

نصر: د. محمد إبراهيم - ابن سناء الملك حياته وشعره، مراجعة د. حسين نصار، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م.

النعمي: عبد القادر بن محمد، (ت 927هـ) - الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، ج 1: 1948م، ج 2: 1951م.

أبو نواس: الحسن بن هاني، (ت 199هـ) - ديوان أبي نواس - تحقيق: د. أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربي، بيروت.

النويري: شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733هـ) - نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1955م.

299

هدارة: د. محمد مصطفى:

مشكلة السرقات في النقد العربي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1981م.

اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1981م.

هلال: د. محمد غنيمي - النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة.

هيكل: د. محمد حسين - ثورة الأدب، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

ابن واصل: جمال الدين، محمد بن سالم، (ت 697هـ):

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر: د. جمال الدين الشيال. الأجزاء 1، 2، 3.

ج 1: مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1953م.

ج 2: المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957م.

ج 3: مطبعة مصر، 1960م.

ج 4، ج 5: حققهما ووضع حواشيهما: د. حسنين محمد ربيع، راجعهما وقدم لهما: د.

سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1972م، 1977م.

الوهراني: ركن الدين، محمد بن محرز، (ت575هـ) - منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: د. إبراهيم شعلان ود. محمد نغش، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م

اليمني: نجم الدين، عمارة الحكمي، (ت569هـ) - النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، اعتنى بتصحيحه هرتويغ دونبرغ، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 1991م.

اليونيني: قطب الدين، موسى بن محمد، (ت726هـ) - ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1955م.

THE ASPECTS OF THE AYYUBID EPISTOLOGRAPHY

By

Kefah Waleed Ibraheem Mohammad

Supervisor

Dr. Abd-Aljalil Hasan Abd Almahdi, Prof.

ABSTRACT

This study is a literary analysis of the different domains of the letter as a literary form in the Ayyobian. The art of letter-writing in the mentioned era represents the developments that had taken place on this literary art up to that time.

This study aimed at establishing a clear portrayal of the art of letter-writing, its main features and domains. The study reveals that the literary form of the letter was used to reflect several aspects of life in the Ayyobian era one of which is the political angle representing the struggles the Muslims endured as a result of the Crusades which had not only troubled them in war but also in peace. The study has also revealed that the letter played a crucial role in the communicational process between the state and the public. Social wise, the letter represented the daily lives of people, the circumstances surrounding them and the effects of the major events taking place in that time. The letter can also be a representation of the psychological as well as of the emotional structure of these people as it portrayed images of the human interaction and personal relations of the time.

The study has also revealed the importance of the letter from the literary prescriptive of the Ayyobian critics. The study demonstrates the implementation of this artistic device in the three major angles of literary analysis at that time: the traditional approach, the modern approach and finally the critical approach.

The study has also investigated the literary features of the of the Ayyobian letter concerning structure, style and symbolism. The study has also shed light on the letter writers' use of rhyme and rhythm to create internal music for their works rendering them lively, highly appealing and amazingly representative of their feelings and emotions.

This study aimed at investigating the letter as a literary form from various perspectives, highlighting the motivations that triggered the arousal of such a phenomenon, is uses and in the overall social, political and literary surroundings of the Ayyobian era. The analysis was pursued implementing various devices in accordance with the aspect of the letter under investigation.